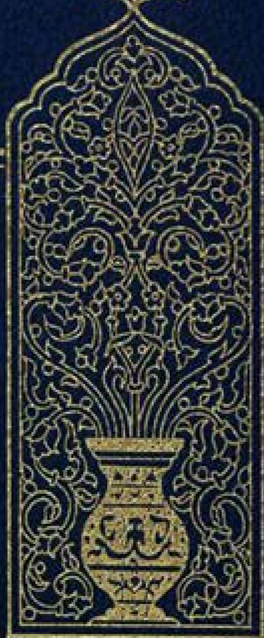


الأخبار الطوال

تأليف

أبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري



منشورات الشريف الرضي



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري من أهم المصادر التاريخية الأولى ، وِقَايَةً فى سرد حوادث الحياة الماشية والسياسية والحربية عند الفرس ، وفى الإبانة عن الأحداث الدقيقة فى الدولة العربية من بعد ظهور الإسلام إلى آخر عهد الخليفة العباسى ، المعتصم بالله ، أبى إسحاق محمد بن هرون الرشيد ، المتوفى سنة ٢٢٧ ﻫ (٨٤٢ م) .

ويكاد كتاب الأخبار الطوال ينفرد بأنه من أوائل الكتب المتكاملة التى وضعت باللغة العربية لتأريخ حياة العزة القومية إبان الحكم العربى ، الذى شملت حدوده البلاد شرقاً وغرباً ، من الصين إلى المحيط الأطلسى ، فالكتاب يكشف إلى حد بعيد عما ابتكر الإسلام وأبدع فى الحرب والإدارة والسياسة ، بعد أن انتشر حملة لوائه من جزيرتهم ، فساحوا فى بلاد الله من الأرض المعمورة ، وأبانوا فى مواقفهم المديدة عن عقول مثقفة ، ونفوس شريفة ، وبُعد نظر فى إدارة الممالك والشعوب .

وتبدو القيمة التاريخية لكتاب الأخبار الطوال فى أن مؤلفه قد عاصرَ بعضاً من حوادثه ، وأنه دوّنَ فى كتابه تفاصيل ما شاهد ورأى ، وحقائق ما سمعه ممن شاهد قبله ورأى ، فهو يذكر فى كتابه تاريخ العصر الأول للدولة العباسية ، ومكائد العلويين ، وبخاصة فى خراسان ، وسقوط دولة الأمويين بعد فتنة المختار وفتن الأزارقة ، ويَرْوِى مقتل الحسين بن علىّ بن أبى طالب ، ويتحدث عن الخوارج ، ويسهب فى وصف معركة القادسِيّة ، والمعارك التى وقعت بين علىّ

ومعاوية ، ويعرض بالتفصيل الوافى أخباراً هامة عن تاريخ الإسكندر ، ودولة الساسانيين ، وفتح العراق على يد العرب ، ثم يتخير المؤلف من حياة الفُرْس فترات ، يزوّدنا فيها حديثه عنها بمادة تاريخية تصلح للبحث المستفيض .

وليس بين المؤرّخين العرب وغيرهم مَنْ هو أقدر من أبى حنيفة الدينورىّ على معالجة تاريخ الفُرْس ، وعلى رواية تاريخ العرب فى بلاد الفُرْس ، فالدينورى فارسىّ الأصل ، تجرى فى عروقه دماء الفرس ، وتنصهر فى نفسه عِزّة العرب وأمجاد الإسلام ، وهو فوق هذا إنسان ، عاش رفيع القَدْر أصلاً ومعاشاً ، وقد صار إماماً من أئمة العلم واللغة والأدب .

***

ويُنسب أبو حنيفة أحمد بن داود وأجداده الأقربون إلى دينور Dinawer ويقال لها كثيراً دِيْنَور[1] ، بسكون الياء وفتح النون ، وهى مدينة من أهم مدن الجبال فى العصور الوسطى ، ومكانها وفق ما جاء فى الخريطة التى أعدّها الرّحالة شتراوس Streuss على خط طول ٤٨° شرق جرينتش ، وعلى خط عرض ٣٤° شمالاً ، على ارتفاع نحو خمسة آلاف قدم ، وتقع على الطرف الشمالى الشرقى لوادٍ خصيب ، يرويها نهر آب دينور ، الذى يسير فى الركن الجنوبى الغربى للهضبة ، ثم ينفرج فى وادٍ عريض .

ويرجع تأسيس مدينة دينور ــ التى تظهر فى المصادر السريانية باسم دينهور ــ إلى عهد الجاهلية ، وكانت فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب أكثر مدن إقليم هَمَذان عمارة ، وقد سلمها الوالى الفارسى للعرب عقب وقعة نهاوَنْد الحاسمة ، أى حوالى سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) ، وعُرِفَت فى أيام معاوية بن أبى سفيان بالاسم الجديد « ماه[2] الكوفة » ، لأن الضرائب المتحصّلة منها كانت تستخدم لخير أهل الكوفة عامّة ، ولدفع أعْطيات جنود حاميتها خاصّة .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد التاسع .　　(٢) كلمة فارسية بمعنى قصبة .

وقد ظهرت ماه الكوفة في التقسيم الإداري لدولة الأمويين في عهد معاوية ، بوصفها قسما إداريا للجبال ذا طَسُّوجَيْن[1] ؛ دينور ، وتشمل الأراضي العليا ؛ وقِرْمِيسِين ، وتشمل الأراضي السفلى ؛ وكان يحد ماه الكوفة من الغرب طسّوج حُلْوان ، ومن الشرق هَمَذان ، ومن الجنوب ماسَبَذان ، ومن الشمال أذربيجان .

وازدهرت دينور ازدهارا كبيرا[2] في عهد الأمويين والعباسيين ، وكان سكانها خليطا من الفرس والعرب ، ويعيش فيما حولها قبيلة شوهجان الكردية عيشة البداوة في الأراضي المحيطة بها[3] .

وقد حل الخراب بمدينة دينور من جراء الاضطرابات ، التي حدثت في السنين الأخيرة من عهد المقتدر بالله ، الخليفة العباسي ، بعد أن انتقض عليه القائد مَرْداويج الجيلاني ، وهزم الجيش الذي سيّره عليه ، واستولى على كُورَة الجبال بأسرها ، فسقطت دينور في يده عام ٣١٩ هـ (٩٣١ م) ، وهلك من أهلها آلاف عديدة .

ثم استقل بقصبة دينور أمير من أمراء الأكراد ، يدعى حَسْنَوَيه ، واتخذها مملكة صغيرة له ، واستطاع الاحتفاظ بها مدة خمسين سنة ، إلى أن توفى سنة ٣٦٩ هـ (٩٧٩ م) ، وظلت دينور مدينة عامرة حتى لاقت مصيرها المحتوم ، في الخراب أثناء القطائع التي حلت بالبلاد الإسلامية ، عقب الغزوات المغولية التي شنها تَيْمُور .

ولقد زار خرائب دينور الحالية المهجورة الرحّالة Th. strauss ، ووصف الخرائب التي شاهدها وصفا موجزا ، فقال : « لا يحدّد دينور إلا آكام من الأرض ، نبشت

---

(١) الطسوج هو الناحية .

(٢) امتدح القزويني في خططه الجبن الفاخر الذي كان يصنع فيها ، وقد أشاد المقدسي في كتابه بأسواقها حسنة البناء وبالبساتين الزاهرة المحيطة بها .

(٣) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٢٥٣ .

عدة مرات بحثا عن السكة ، ولا يزال المنقبون يعثرون على أشياء كثيرة من هذا القبيل ، وبخاصة الفلاحون الذين يحرثون الحقول » .

ويقول هذا الرحالة أيضا « إن ثمة آثارا فى دينور لطريق قديم ، نحت فى الصخر ، كان يصل دينور ببغداد ، وهذه الآثار لا تزال تشاهد فى عدة مواضع » .

* * *

وأبو حنيفة أحمد بن داود بن وَنَنْد(١) الدينورى ، مؤلف كتاب الأخبار الطوال ، قد ولد فى العقد الأول من القرن الثالث الهجرى ، بمدينة دينور ، من أعمال العراق العجمى ، ونشأ فى أسرة من أصل فارسى ، وقد عاش معظم حياته فى مدينة دينور ، وأمضى شبابه فى الرحلات ، وقادته خطواته إلى قلب الحضارة العربية ، فى بلاد مابين النهرين دجلة والفرات ، ثم امتدت به أسفاره إلى المدينة المنورة ، وإلى الأرض المقدسة فلسطين ، وإلى شواطئ الخليج العربى (الفارسى) ، فعاش فيها أزمانا ، طالت أو قصرت ، ولكنها تركت فى نفسه ذكرا ، وفى فكره علما .

وقد أخذ أبو حنيفة دروسه عن البصريين والكوفيين ، وتتلمذ فى فقه اللغة على والد النحوى الكوفى ابن السكيت ، وعلى ابن السكيت نفسه ، ودرس معارف كثيرة ، وكان مفتنا فى علوم النحو واللغة والهندسة والهيئة والحساب ، ثقة فيما يرويه ويُمليه .

وانتقل أبو حنيفة إلى أصفهان سنة ٢٣٥ هـ (٨٥٠ م) وعاش بها مدة ، اشتغل فيها برصد الكواكب ، وتسجيل نتائج الأرصاد التى يقوم بها فى معمله الفلكى ، ولقد شاهد الفلكى المشهور ، عبد الرحمن الصوفى ، المتوفى سنة ٣٧٦ هـ (٩٨٦ م) « المنزل الذى كان يستخدمه أبو حنيفة معملا للدراسات الفلكية » .

* * *

---

(١) بعض المؤرخين يذكرها (وتند) وعليهم اعتمد مرجليوث فى كتابه ج ١ ص ١٢٣ .

وإن المصادر التاريخية كلها تجمع على أن أبا حنيفة ، أحمد بن داود الدينوري ، كان نحويا لغويا ، ومهندسا منجّما حاسبا ، راوية ثقة .

ويقول[1] العالم اللغوى ، أبو حيان التوحيدى ، فى كتابه « تقريظ الجاحظ » :

« قلت لأبي محمد الأندلسي ـ وكان من أصحاب السِّيرافى ـ قد اختلف أصحابنا فى مجلس أبي سعيد السيرافى ، فى بلاغة الجاحظ وأبي حنيفة ، ووقع الرضى بحكمك ، فما قولك ؟ .

فقال : « أنا أحقر نفسي عن الحكم لهما وعليهما » .

فقال : لابد من قول .

قال : « أبو حنيفة أكثر نداوة ، وأبو عثمان أكثر حلاوة ، ومعانى أبي عثمان لائطة بالنفس ، سهلة فى السمع ؛ ولفظ أبي حنيفة أعذب وأعرب ، وأدخل فى أساليب العرب » .

قال أبو حيان : والذى أقول وأعتقده ، وآخذ به ، وأستهام عليه ، أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر إلا ثلاثة ، لو اجتمع الثَّقَلان على تقريظهم ومدحهم ، ونشر فضائلهم فى أخلاقهم ، وعلمهم ، ومصنفاتهم ، ووسائلهم مدى الدنيا ، إلى أن يأذن الله بزوالها ، لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم ؛ أحدهم ، هذا الشيخ الذى أنشأنا له هذه الرسالة ، وبسببه جشّمنا هذه الكُلْفَة ـ أعنى أبا عثمان عمرو بن بَحْر ـ .

والثانى أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى ، فإنه من نوادر الرجال ، جمع بين حكمة الفلاسفة ، وبيان العرب ، له فى كل فن ساق وقدم ، ورُواء وحِكَم ، وهذا كتابه فى الأنواء يدل على حظ وافر من علم النجوم وأسرار الفلك ؛ فأما كتابه فى النبات ، فكلامه فيه فى عروض كلام أبَدِىّ بدوى ، وعلى طباع أفصح عربى ، ولقد

---

(1) معجم البلدان لياقوت الرومى ، الجزء الأول ، طبعة هندية .

قيل إن له فى القرآن كتابا ، يبلغ ثلاثة عشر مجلدا ، ما رأيته ، وإنه ماسُبق إلى ذلك النَّمط ، هذا مع ورعه وجلالة قدره[1] .

وقد حكى ابن رَوَاحَة الدَّوجردى[2] قال: « زعموا أن أبا العباس المُبَرِّد ورد الدينور زائراً لعيسى بن ماهان ، فأول ما دخل عليه ، وقضى سلامه قال له : أيها الشيخ ، ما الشاة المجثّمة التى نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن أكل لحمها ؟

قال : هى الشاة القليلة اللبن ، مثلُ اللَّجْبَة .

فقال : هل من شاهد ؟

قال : نعم ، قول الراجز :

لَمْ يَبْقَ مِنْ آلِ الجُمَيْدِ نَسَمَهْ إلّا عُنَيْزٌ لَجِبَةٌ مُجَثَّمَهْ

فإذا بالحاجب يستأذن لأبى حنيفة الدينورى ، فأذن له .

فلما دخل قال له عيسى بن ماهان : ما الشاة المجثّمة التى نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن أكلها ؟

فقال : هى التى جثمت على ركباتها ، ونحرت من قفاها .

فقال : كيف تقول ؟ وهذا شيخ العراق ــ أبا العباس المبرد ــ يقول هى مثل اللجبة ، وهى قليلة اللبن ، وأنشد البيت .

فقال أبو حنيفة: « أيمان البَيْعَة تلزم أبا حنيفة إن كان هذا الشيخ سمع هذا التفسير ، وإن كان البيت إلا لساعته هذه .

فقال أبو العباس المبرّد: « صدق الشيخ أبو حنيفة ، أَنِفْتُ أن أرد عليك من العراق ، وذكرى ما قد شاع ، فأوّل ما تسألنى عنه لا أعرفه .

فاستحسن منه هذا الإقرار .

وترك البهت » .

---

(١) وأما الثالث فهو أبو زيد البلخى ، وله مؤلفات قليلة .

(٢) إنباه الرواة للقفطى ، طبعة دار الكتب سنة ١٩٥٠ ج ١ ص ٤١ .

نعم ، لقد كان أبو حنيفة الدينورى عالماً بحق فى شتى العلوم والمعارف ، حباه الله بعقلية علمية واسعة ، استوعبت معارف كثيرة ، وانفرد بهـا عن علماء تلك الفترة وما تلاها ممن كان لهم شأن فى تاريخ الأدب العربى ، وعلوم اللغة ، فلقد كان أبو حنيفة عالماً فى كثير من فروع العلوم ، وكان دائما مجدّدا ، وظل مع كل هذا مبدعا ، دون تكرار عن أسلافه ومعاصريه ، وإن لنا أن نشارك أبا حيان التوحيدى وغيره من العلماء الناقدين آراءهم فى أبى حنيفة ، إذ يرون فيه واحداً من ألمع ممثلى هذا العصر الزاهر فى تاريخ الأدب العربى .

وإن مؤلفات الجاحظ تثبت إثباتا قاطعا ما شهد به الجاحظ فى حرارة وتحمس لأبى حنيفة ، وتوضح فى نفس الوقت الاختلاف الموجود بين الجاحظ وأبى حنيفة من ناحية طبيعة عقل كل منهما ، وتأثره بالتكوين العلمى ، فآفاق أبى حنيفة كانت أكثر اتساعا من آفاق معاصريه ، بل ومن أساتذته الذين اتخذوا الرسائل اللغوية وسيلة للشهرة ، وضحّوا فى سبيلها بكل شىء ، وقد وسمت مدارك الدينورى كثيراً من فروع المعرفة فى ذلك الوقت .

* * *

ولقد حظيت مؤلّفات أبى حنيفة الدينورى بعناية رجال التراجم قديماً وحديثاً ، فدوّنوا قائماتها فى كتبهم ، وفى مصنّفاتهم[1] ، وبلغت عدة جملتها عشرين كتابا كما حققها المستشرق Flugel ، وكما ذكرها القفطى فى كتاب إنباه الرُّواة على أنباه النُّحاة .

وهذه الكتب هى :

(١) تفسير القرآن ؛ ويقع فى ثلاثة عشر مجلدا ، وقد ذكره أبو حيان التوحيدى ضمن مؤلّفات الدينورى ، وأضاف إلى ذكره أنه لم يره .

---

(١) الفهرست لياقوت ، خزانة الأدب لابن العنبرى ، الجواهر المضيئة لعبد القادر ، إنباه الرواة للقفطى ، كشف الظنون لحاجى خليفة .

(٢) كتاب الوصايا ؛ وموضوعه أحكام المواريث فى الشريعة الإسلامية ، وقد أضاف إليه أبو حنيفة رسالة خاصة فى الموضوع ، أوجز فيها بعض ما ذكره فى الكتاب .

(٣) كتاب فى حساب الدَّوْر والعَوْل ؛ ومباحثه تدور حول أجزاء الميراث التى تَرِدّ على الورثة الأصليين إذا لم تستوفها أنصِبَتهم المَفْروضة ، وقد ذكره حاجى خليفة صاحب كتاب كشف الظنون بدون عنوان فى فصل حكم الدور والوصايا .

(٤) كتاب إصلاح المنطق ؛ وقد اعتبره بعض العلماء الأوربيين رسالة فى المنطق ، ومن المحققين من ينسب هذا الكتاب إلى ابن السكيت ؛ والحق أنه كتاب متكامل لأبى حنيفة ، وقد هذّبه أبو القاسم حسين بن علىّ المعروف بالوزير المغربى[(١)] .

(٥) كتاب الجمع والتفريق ؛ ويشمل جزءا من علوم البلاغة التى يوليها المؤلفون العرب قسطاً كبيراً من الدراسات العامة .

(٦) كتاب الشعر والشعراء ؛ ويغلب على هذا الكتاب صفة كتب التراجم ، وهو يشبه إلى حد كبير كتاب ابن قتيبة الذى يحمل نفس الاسم .

(٧) كتاب الردّ على رَصَد الأصفهانى ؛ وقد كان الأصفهانى من طبقة أبى حنيفة ، وبينهما فى هذا الكتاب مناقضات .

(٨) كتاب جواهر العلم ؛ وهو عبارة عن دائرة معارف صغيرة عن الخواص الدقيقة لمباحث العلوم .

(٩) كتاب ما يلحن فيه العامة ؛ وقد أورد فيه أبو حنيفة ما شاع بين الناس من أخطاء لغوية ، وأبان وجه الصواب فيها على أسس من المقاييس العربية السليمة .

(١٠) كتاب الفصاحة ؛ ويتضمن عدة مباحث عامة فى علوم البلاغة .

---

(١) فهرست درنبرج Derenbourg صحيفة ٤١٤ : ٤١٥ .

(١١) كتاب النبات ؛ وهو مؤلَّف لا مثيل له فى تاريخ النبات ، وقد اشتهر به صاحبه ، وتعتبر النسخة الأصلية لهذا الكتاب مفقودة ، ولكن بقيت منه مقتطفات عدة مدوَّنة فى كتب فقهاء اللغة وبخاصة ابن سيده ، وابن البيطار .

وهذا الكتاب يعد ثمرة لدراسة الشعراء الأقدمين دراسة لغوية ، وهو فى منهجه مثل الكتب الأخرى التى تقل عنه كثيراً فى الشمول ، والتى تشترك معه فى الاسم ، ككتاب ابن زيد ، وكتاب الأصمعى .

ويبدو أن الغرض من تأليف هـــذا الكتاب هو شرح النباتات الكثيرة التى ذكرها الشعراء العرب فى أشعارهم ، وتوضيح لمدلولاتها ، حتى يعلم العقل العربى العام النابت الأولى لحياته العربية .

ومن ثَمَّ فقد اقتصر الكتاب على نباتات بلاد العرب ، والنباتات الأجنبية التى تأقلمت فيها .

ولهذا الكتاب أهمية عظمى لدى علماء العرب ، الذين اعتمدوا عليه فى مؤلفاتهم حينا طويلا من الزمان ، واعتبروه دائرة معارف نباتية عربية على درجة كبيرة من الوفاية والوضوح : وإنه لمن القـــدرة الفائقة أن يصنف أبو حنيفة الدينورى — وهو فارسى الأصل — مؤلفا علميا فى نباتات التربة العربيـــة ، ويكون لهذا المؤلف ذلك الصيت الذائع فى المباحث العلمية .

ويبدأ هذا الكتاب بوصف تفصيلى لأنواع تربة بلاد العرب ، وتركيبها ، ومناخها ، وتوزيع مائها ، والأحوال العامة اللازمة لنمو النباتات ؛ ثم يتناول الكتاب تصنيف النباتات بصفة عامة ، وتركيب كل نبات على حدة، مقسما النبات إلى ثلاثة أنواع ، نباتات تزرع ليقتات النـــاس بها ، ونباتات برية ، ونباتات تثمر ما يؤكل ؛ ويتناول الكتاب النوع الثانى من النباتات حسب أماكن وجودها ، ثم وفق طبيعتها وخواصها ، وعلى قدر قيمتها الاقتصادية .

وقد أصبح هذا المؤلف عمدة فقهاء اللغة المتأخرين فى أسماء النباتات ، وكتب

عنه على بن حمزة البصرى قسما فى مؤلفه المعروف ، باسم كتاب التنبيهات على أغلاط الرواة .

(١٢) كتاب البيان ، وقد ذكره العالم غازيرى Casiri عند وصفه مخطوطات مكتبة الإسكوريال بأسبانيا ، وبعد دراسته قائمة المؤلفين الذين ذكرهم ابن العوّام ، كما ذكره أيضا حاجي خليفة ، وقال عنه الذهبي فى كتاب تاريخ الإسلام : « إنه يتألف من ستين مجلدا » .

ويرى المستشرق الروسى كراتشكوفسكى I. Kratchkovsky أن هذا الكتاب ليس من مؤلفات أبي حنيفة الدينورى ، وإنما هو من بين مؤلفات الكاتب عبد القادر الجرجانى ، صاحب الجواهر المضيئة ، ويقول كراتشكوفسكى : « إن غازيرى قدوقع فى خطأ ، فكتاب البيان هو كتاب النبات ، وأنه ربما اشتبه على « غازيرى » الرسم قريب الشكل بين كلمتى النبات والبيان ، وهوالخطأ الذى يقع فيه الناسخون كثيرا ؛ ويدلل كراتشكوفسكى على رأيه بأن ابن العوّام صاحب كتاب فى الزراعة والطب البيطرى ، وقد جاء ذكره لأبى حنيفة فى معرض كتابه علم النبات الذى يعنى ابن العوام ، ويتسق موضوعه مع موضوعات كتابه.

(١٣) رسالة فى الطب مجموعة فى ورقات قليلة ؛ ولم تحظ هذه الرسالة بشهرة عظيمة بين المؤلفات .

(١٤) كتاب البحث فى حساب الهند ؛ ويرويه بعض الباحثين الأوربيين بأنه كتاب التخت فى حساب الهند .

(١٥) كتاب الجبر والمقابلة .

(١٦) كتاب نوادر الجبر .

ولم يتناولهما الرواة بكثير من الذكر .

(١٧) كتاب الأنواء ؛ وهو كتاب يلى كتاب النبات فى الشهرة لكثرة مابه من أسانيد ، وقد ذكره ياقوت الحموى فى معجمه فقال : « إن كلام أبى حنيفة فى كتاب الأنواء يدل على حظ وافر من علم النجوم وأسرار الفلك وعجائب القبة السماوية ».

ويؤكد حاجى خليفة فى حماس شديد أن أبا حنيفة قد ركز فى هذا الكتاب كل علوم العرب .

وقد اعتبر البيرونى إمام الفلك ، هذا الكتاب اعتبارا كبيرا وسجل منه فى لوحاته أجزاء كاملة ، اقتبسها كلها من أبي حنيفة .

(١٨) كتاب القبلة والزوال ؛ وقد ذكره المترجمون باختصار فى كثير من المصادر .

(١٩) كتاب الكسوف ؛ وقد جاء ذكره فى كتاب خزانة الأدب ، لابن المنبرى ، وفى معجم الأدباء لياقوت ، وذكره عنهما حاجى خليفة فى كتاب كشف الظنون ، ويرى المستشرق كراتشكوفسكى أن هذا الكتاب هو نفس كتاب الرصد للدينورى الذى صنفه بأصبهان سنة ٢٣٥ هـ كما يذكر كراتشكوفسكى أن ما جاء بكتاب كشف الظنون من أن الدينورى قد ألف كتاب الرصد لركن الدولة حسن بن بويه الديلمى مردود ، لأن أبا حنيفة الدينورى لم يعاصر ركن الدولة ، وأن ما وقع فيه حاجى خليفة فى كتابه « كشف الظنون » قد سبقه إليه كل من البيرونى والبتّانى وعبد الرحمن الصوفى .

(٢٠) كتاب البلدان أو كتاب كبير ، وقد جاء ذكره فى كتاب كشف الظنون تحت عنوان تاريخ أبي حنيفة ، وليس لهذا الكتاب شهرة كبيرة .

ويروى المسعودى أن ابن قتيبة قد انتحل لنفسه هذا المؤلف ، وأنه قد فعل هذا فى كثير من كتب أبي حنيفة الدينورى ، وكان هذا الأمر شائعا فى ذلك الوقت ، وقد ساعد عليه عوامل عديدة ، وله فى التاريخ نظائر كثيرة .

(٢١) كتاب الأخبار الطوال

ولقد ظل كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينورى مجهولا حقبا طويلة من الزمان ، تعرض فيها لأدوار عديدة من الظهور والاختفاء ، شأنه فى ذلك شأن كثرة من المخطوطات العربية ، حتى كانت سنة ١٨٧٧ م ونشرت قائمة المخطوطات العربية ،

المودعة خزائنات معهد اللغات الشرقية فى بطرسبرج (لنينجراد) ، وفيها دراسة لمخطوطة الكتاب كتبها البارون ف . روزن V. Rosen المستشرق الذى كان قد نشر قبل هذا بوقت قصير الجزء الخاص بسقوط الأمويين من الكتاب .

وأظهر روزن رغبته فى نشر المخطوط كاملا ، عند ما تتهيأ له الأسباب العلمية للنشر ، ولكن وقف فى سبيل متابعته لهذا المشروع قيامه بأعمال أخرى ، فأقنع زميله المستشرق جرجاس Guirgass بالقيام بهذا العمل ، وبخاصة بعد أن استعان المؤرخ نولدكه Noldeke بكتاب الأخبار الطوال فى مؤلفه عن تاريخ الساسانيين .

وشرع جرجاس فى تحقيق المخطوط بما عهد عنه من دقة ، وكان مقدرا أن يظهر الكتاب على الناس منشوراً فى فبراير سنة ١٨٨٧ م ، ولكن المنية عاجلت جرجاس العالم الروسى ، فصمم روزن على نشر ما حققه جرجاس ، دون أن يضيف إليه شيئاً ، رغبة منه فى ألا يحرم الأوربيين المشتغلين بالشئون الشرقية من كتاب تمّ إعداده .

وقد أعدّ روزن المدة لعمل الفهارس الفنية للكتاب ، وظل يباشر طبع الكتاب إلى أن مات فى ٢٣ يناير سنة ١٩٠٨ .

فقام من بعده آخر تلاميذه كراتشكوفسكى ، يكمل العمل الذى بدأه أستاذه بمعاونة المؤسسة العلمية للنشر « بريل Brill » ، وكان عليه أيضاً أن يتابع عمل الفهارس التى بدأها قبله روزن .

وقد جمع المستشرق كراتشكوفسكى نسخاً خطية مختلفة للكتاب قام بمقارنتها ، وتصحيح الأخطاء التى حشرت بين سطورها ، وكانت هـــذه المخطوطات هى :

(١) نسخة لنينجراد رقم ٨٢٢ ، وعـــدد أوراقها ٢٥٠ صحيفة بمقاس ١٦٠ × ٢٣٥ مليمترا ، ومسطرتها أربعة عشر سطرا ، كتبت كلها بخط واحد ، عدا المقدمة والنهاية وبعض الصفحات ، فإنها قد كتبت بخط مخالف . وقام بكتابة هذه المخطوطة الناسخ المشهور كمال الدين فى سنة ٦٥٥ هـ .

ويصف كراتشكوفسكى هذا المخطوط ، فيقول : « إنه نسخ نسخا جيدا ،

ولا يتبيّن الإنسان فيه أية صعوبة إلا فى المواضع التالفة بعامل الزمن ، أو بقرض السُّوس ، ويجد القارئ للمخطوط بعض الملاحظات القصيرة والتصويبات فى الهوامش مكتوبة بنفس اليد ومصحوبة بكلمة : أظنه أو صح ؛ وأما الملاحظات الطويلة التى تبدأ بكلمة حاشية فقد كتب معظمها محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله ابن بدر » .

(ب) نسخة أخرى ، بجامعة ليدن تحت رقم ١١٢٢ ، وعدد أوراقها ٢١٩ صحيفة ، مقاسها ٢١٠ × ١٥٠ مم ، ومسطرتها ٢١ سطرا فى الأول ، و ١٩ سطرا فى النهاية ، ويبدأ النص فيها من صحيفة ٣ ا حتى صحيفة ١٩ ب ، وناسخها غير مذكور ، وقد تمت كتابتها عام ١٠٠٠ هـ ، ويرجح كراتشكوفسكى أنها قد نسخت فى المدينة المنورة ، لما يبدو على الخط من طابع مميِّز للخط المدنى فى ذلك الوقت .

(ج) نسخة ثالثة ، كتبت سنة ١٠٦١ هـ بمكتبة ليدن تحت رقم ٢٤٣٦ ؛ وهى منسوخة عن النسخة السابقة .

ويرى المستشرق كراتشكوفسكى أن النسخة الأولى من هذه المخطوطات الثلاث هى الأصل ، وأنها أصح النسخ ، وأقربها إلى عصر المؤلف ، وعليها اعتمد كراتشكوفسكى فى تحقيقاته ، وإضافاته ، وفهارسه التى نشرها سنة ١٩١٢ بعد أن نشرت مؤسسة بريل الكتاب بتاريخ سنة ١٨٨٨ ، وهى السنة التى بدأ فيها البارون روزن تحقيقه فيها .

* * *

ولما طبع الكتاب ونشرته مؤسسة بريل انتقلت نسخ قليلة منه إلى بلاد الشرق الأوسط ، وقامت مطبعة السعادة بالقاهرة بإعادة طبعه كما حققه جرجاس بدون تعليقات أو إضافات ، وبغير تحقيق .

* * *

الكشف عن أقدم مخطوطات الكتاب

وبعد موت كراتشكوفسكي ، وفي سنة ١٩٥٧م كشف في مكتبة رفاعة الطهطاوي بمدينة سوهاج عن نسخة خطية لكتاب الأخبار الطوال مسجلة تحت رقم ٧٣ تاريخ ، وهي مخطوطة أمّ ، تعتبر أقدم من تلك المخطوطات الثلاثة التي عرفها الغرب، وقد رجع إليها كثيرا المغفور له رفاعة رافع الطهطاوي في تصانيفه التاريخية . وقبل أن تنشرها مؤسسة بريل ، ولو أن المستشرق كراتشكوفسكي قد علم أمر هذه المخطوطة لصوب كثيرا من عمل أستاذه جرجاس ، ولاعتبرها أصلا للمخطوطات .

وتحمل هذه المخطوطة في الصحيفة الأخيرة منها تمليكا باسم المفضل بن جعفر ابن طاهر ، تاريخه سنة تسع وسبعين وخمسمائة من الهجرة ، ومطالعة للشيخ أحمد ولي الدين الجنيدي العربي الساعدي الدمشقي ، وخاتم وقف للمرحوم محمد رفاعة ، ويوجد على بعض هوامشها تعليقات شروح قليلة ، وإضافات ترحّم ، بعضها بخط المغفور له رفاعة رافع الطهطاوي رائد الحركة الوطنية في العصر الحديث .

وعدد أوراق هذه المخطوطة في مجلدها إحدى وثمانون ومائة ورقة ، ذات لون واحد ومقاسها ١٩٨ × ٢٣٦ مليمترا ، ومسطرتها واحد وعشرون سطرا ، في كل سطر منها اثنتا عشرة كلمة ، وقد كتبت كلها بخط قديم ، بقلم واحد ، وبالحبر الأسود. والتزم الناسخ فيها مد مابين الحرف الأول والثاني من الكلمات التي تبدأ بها رءوس الموضوعات .

ويوجد في ثنايا هذه المخطوطة على شتات وتفرق بعيد خطوطٌ حمراء ، تحت بعض الكلمات ، وضبطٌ لكلمات أخرى بالحبر الأحمر يرجح أنها من عمل المغفور له رفاعة رافع الطهطاوي ، إذ أنها تكاد تكون محصورة في حوادث التاريخ التي أرخها رفاعة في كتابيه « أنوار توفيق الجليل » و « نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز » ؛ وتحوي مادة الورق في صنعه علامات مائيـة مميّزة ، وهي عبارة عن خطوط طولية بيضاء ، امتازت بها صناعة الورق في القرن السادس الهجري .

وتركيز سلطان الحكم ، وفى بعث روح النقد الاجتماعى والسياسى ، وقد جرّت المؤلفات الوبال على أصحابها أحيانا ، فكان القتل نهاية ابن المقفع بسبب كتابه « كليلة ودمنة » ؛ وقد خشى أبو حنيفة إن هو أرّخ لهذه الفترة المضطربة أن يجر عليه كتابه الوبال ، وأن يتخذ منه مناهضوه مادة مسمومة تجلب عليه الشر .

وإن أبا حنيفة وهو عالم فلك وصاحب مرصد قد غلب عليه عقله العلمى فى كتابة التاريخ ، فلم يتناول كتابه « الأخبار الطوال » حوادث قصيرة العمر لم تترسب مفاعلاتها ، فتكون تاريخا ، له مقدماته وله نتائجه ، مثل الفترة التى عاش فيها أبو حنيفة ؛ وقد أراد الدينورى أن يبنى كتابه من الأخبار التاريخيـــة التى طالت أزمانها ، وبعدت نتائجها ، وكثر الحديث عنها ، كما يدل على هذا عنوان الكتاب .

وإنه بالرغم من أن المعارف العلمية البحتة كانت تشغل بال الدينورى أكثر مما يشغله غيرها إلا أنه استطاع فى كتاب «الأخبار الطوال » أن يكتسب نبوغا ممتازا فى تصوير الحوادث التاريخية بأسلوب عربى مبين ، وبطراز فريد من المنهج التأليفى ؛ فأبو حنيفة لايذكر التاريخ موقتا ، عاما بعد عام ، كما يفعل مؤرخو العرب ، وإنما يحكى الحوادث والأحداث ، من بدئها إلى ماصارت إليه ، ويتبعها بما يلزم ذكره من ملابساتها ، مماجعل كتابه مجموعة أدبية من القصص التاريخى .

وإن المصادر التاريخيـــة التى رجع إليها ، وروى عنها أبو حنيفة تعتبر جلّها مفقودة ، وليس فى بطون الكتب المراجع المعروفة عنها إلا الإشارة إليها ، مثـــل كتاب الأنساب لابن الكيّس النَمِرىّ ، مالك بن عبيد بن شراحيـــل ، وكتاب الملوك وأخبار الماضى لعبيد بن الشرّيّة الجرهمى ، الذى استقدمه معاوية بن أبى سفيان ليدون له التاريخ فى كتاب ، وهما المؤرخان اللذان أشار إليهما أبو حنيفة فى كتابه الأخبار الطوال (الصحيفة رقم ٧) .

وليس من شك فى أن الدواوين الشعرية التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ،

للخوارج ، وللشيعة ، ولغيرها من الطوائف المذهبية كانت من المراجع الهامة للذين يدونون التاريخ الإسلامى ، وقد أتلفت كل هذه الدواوين بسبب المنازعات الطائفية التى سادت الحياة العربية بعد مقتل على بن أبى طالب ، ولم يبق منها إلا نتف مأثورة ، مبثوثة فى الكتب العديدة . وأبو حنيفة الدينورى قد أطلع على هذه الدواوين ، وروى عنها ، كما روى عن أولئك الذين اشتركوا فى الحوادث التاريخية وطال بهم العمر ، فأدركهم أبو حنيفة ، وقابلهم فى أسفاره العديدة لبلاد الدولة العربية .

ولقد حرص أبو حنيفة أن يذكر فى كتابه « الأخبار الطوال » المصادر التى يروى عنها ، ولكنه لا يورد السند فيها كاملا ، وإنما يذكر .. قال الهيثم ... وقال إسماعيل .. وقال الكلبي ... وقال الأصمعى ... وقال القعقاع الظفرى ... وأحيانا يكتفى بلفظ .. قال .. أو بنحو منه ؛ وإذا نحن أحصينا هذه المصادر فإن عدتها تبلغ واحدا وعشرين مصدرا ، وقد أفردت لها فهرسا خاصا بها فى آخر الكتاب .



وإن أبرز مؤرخ روى عنه أبو حنيفة هو الهيثم بن عدىّ ، وقد ورد اسمه فى عشر مواضع من كتاب « الأخبار الطوال » ؛ وكان الهيثم راوية ، نقل كثيراً من كلام العرب ، وله من الكتب المصنّفة عدة فى التاريخ ، منها كتاب « هبوط آدم عليه السلام » وكتاب « افتراق العرب ونزولها منازلها » وكتاب « نزول العرب بخراسان والسواد » وكتاب « الخوارج » وكتاب « التاريخ على السنين » ؛ وقد توفى الهيثم بن عدىّ سنة تسع ومائتين ، كما ذكر ابن قتيبة فى كتاب «المعارف» وقد ترك ثروة تاريخية ، استضاء بها المؤرخون من بعده .

وإذا كان أبو حنيفة قد أفاد كثيراً من مصنفات الهيثم بن عدىّ فإنه اعتمد إلى حدّ ما على الشعبيّ أبى عمرو عامر بن شراحيل ، والشعبيّ تابعى جليل القدْر ، كوفى وافر العلم ، عظيم الدراية ، كثير الرواية ، وقد روى أن ابن عمر ،

وقد كتب على صحيفة العنوان اسم الكتاب ، ومن تحته فهرست موجز لأبوابه بخط مماثل لخط متن الكتاب ، وعليها خاتم وقف محمد رفاعة ، ويبدأ المتن من الصحيفة الثانية حتى نهاية صحيفة ٣٦١ فى اتساق تاريخى منتظم ، وتعقيب مطرد إلى حدّ ما فى آخر كل كراسة ، غير أن بالكتاب خرما بين صحيفتى ١٦و١٧ ، مقداره ورقتان ؛ وقد أشرت إليه فى مكانه ، واعتمدت فى إثباته وتحقيقه على النص القابل له فى النسخة التى نشرتها مؤسسة بريل ١٨٨٨ م ، وعلى المصادر التاريخية الأخرى .

وتنتظم حوادث هذه المخطوطة قصة آدم عليه السلام ، وقصص الأنبياء من بعده ، وتاريخ الوثنية عند الفرس وفى اليمن ، وقصة الإسكندر الأكبر ، ويعرض الكتاب تاريخ الساسانيين فى خطوط واضحة المعالم ، وغزوات العرب الأولى على حدودهم عندما بدءوا دورهم الأساسى فى المجال العالمى ، ويحكى بالتفصيل حملات خالد ابن الوليد وأبى عبيدة الجراح ، وموقعة نهاوند ، والقادسيّة ، ويذكر سقوط إمبراطورية الفرس تحت سلطان العرب ، ولا يكاد الدينورى يعرض فى كتابه لتاريخ الخلفاء الراشدين إلّا بقدر صلته بفتح بلاد فارس .

ثم يروى الكتاب بعد هذا المتاعب التى لحقت بالمسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان ، ويصوّر حرب صفّين مبتدئًا بأمتع فصل من فصولها التاريخية ، ويفصّل المنافسة بين معاوية وعلىّ ، ويقصّ تاريخه مع الخوارج ، ويحكى ما آل إليه أمره ، ولا يفوت أبا حنيفة أن يبرز تاريخ الحسين بن علىّ ، رضى الله عنهما ، فيذكر حياته وأعماله ، ويصف مقتلة كربلاء وصفًا دقيقًا مؤثرًا ، مبيّنًا أسبابها ، وموضّحًا تخاذل أهل العراق عن نُصرة إمامهم الذى دعــوه إليهم ، ممـا كان له أثره فى تفتيت الجبهة العربية .

ولا يمس الدينورى تاريخ الحكام الأمويين إلّا بالقــدر الذى يتّصل بالحركات

الدينية والسياسية فى أيامهم ، فيذكر ثورة الأزارقة ، وبخاصة ثورة المختار ، ثم يصل إلى بدء ثورة الشيعة ، وقيام أبى مسلم الخراسانى داعية ابنى العباس ، فيوضّح كل هذا فى دقة ووفاية .

ثم يعود الدينورى فيكمل تاريخه فى اختصار ودلالة من موت مروان بن محمد ، آخر الخلفاء من بنى أمية ، وقيام الدولة العباسية ، إلى موت الخليفة المعتصم بالله فى سنة ٢٢٧ هـ ، ولا يكاد يفصل فى شىء من حوادث هـذا التاريخ إلا فى بعض الوقائع ، مثل إنشاء بغـداد ، وقتل أبى مسلم الخراسانى ، وثورة النفس الزكية ، وتاريخ الأمين والمأمون ، وثورة بابك .

وإنه لما يلفت النظر فى كتاب الأخبار الطوال أن أباحنيفة قدوقف فيه عند سنة ٢٢٧ هـ ، وهى السنة التى مات فيها الخليفة العباسى المعتصم ، وأنه قد أهمل تدوين الحوادث التاريخية فى الحقبة التى عاشها أبو حنيفة ، وعاصر فيها الأحداث التى كانت قائمة بين الأحزاب المتطاحنة على السيادة فى الدولة ، وهى الحزب العربى ، والحزب الفارسى ، والحزب التركى ، تلك الفترة الزمنية التى تقع بين سنة ٢٢٧ هـ وسنة ٢٨٢[1] هـ التى مات فيها أبو حنيفة ، كما يذكر معظم المؤرخين .

ويبدو لى أن أباحنيفة قد عنى فى كتابه بالتأريخ للحياة الفارسية فى ظل الحكام ، فرسا كانوا أو عربا ، أكثر من عنايته بالتاريخ للحياة العربية فى بلاد الفرس ، وأنه حين يعرض الحوادث يسوق دائما منابتها الأولى ومراجعها الأصلية وملابساتها المخيلة ، ويذكر حولها كل مايستبين به الباحث سبيله فيها إلى الحقائق ، وإن الفترة التى أهمل الدينورى تدوين حوادثهـا كانت فترة اضطراب سياسى ، وكان العصر عصر كيد وحذر .

وكانت المؤلفات فى هذا العصر تلعب دورا كبيرا فى توجيه سياسة الدولة ،

---

(١) وكانت وفاته يوم ٢٦ من جمادى الأولى سنة ٢٨٢ هـ (٢٤ من يوليه سنة ٨٩٥ م) .

ملوكهم واحدا بعد واحد ، وذكر من أحوالهم قصصا تاريخيا رائعا ، صوّره بأسلوب أدبي ممتاز .

وفي هذا الباب عرض أبو حنيفة أحوال الفرس والروم في عهد كسرى تقدمة لتاريخ العرب بعد ظهور الإسلام ، ويعتبر تصويره للحوادث التي وقعت بين هرمزد وبهرام من أمتع القصص التاريخي ذي الفاجئات المثيرة ، ومن أصدق العرض لما عليه نفس الإنسان من النزوع إلى الأثرة والذاتية .

(٣) الباب الثالث ، ويذكر فيه الدينوري حروب العرب مع العجم ، والفتوحات الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب ، وفي عهد الحكام من بعده ، كل هذا في بسط يتناول فيه أشعارهم ، ومأثور أقوالهم ، ومشهور أيامهم ، ويذكر فيه خلافاتهم ، وما صارت إليه أمورهم ، دولة بعد دولة ، حتى يصل إلى موت المعتصم الخليفة العباسي .

وهذا الجزء أهم أقسام الكتاب وأكبرها ، وقد عني فيه المؤلف بذكر تفاصيل الوقائع ، وربط الأسباب بمسبباتها ، والإبانة عن العوامل الذاتية والاتجاهات الشعوبية التي قوضت أركان الكيان العربي ، وفرّقت المذهب الإسلامي إلى شيع ، وطوائف متنابزة قد نسيت في معترك نضالها السياسي الأهداف السامية ، التي قامت على تحقيقها الدولة الإسلامية في المجال الدولي ، تمكينا للعدالة ، ونشرا للاشتراكية الاجتماعية .

ويمتاز أسلوب أبي حنيفة الدينوري في كتاب الأخبار الطوال بأنه أسلوب منطق ، يخاطب العقل قبل أن يثير العاطفة ، ويستهوي القارىء ، فيدفعه إلى قراءة الكتاب من أوله إلى آخره ، غير مجل ولا ضجر ، في لفظ سهل ، وجرس موسيقي متلاحق ، وعبارة متصلة أخاذة ، نسجها الدينوري نسجا فريدا .

ولم يكن أسلوب أبي حنيفة فريدا في عصره ، ولكن أسلوب زمانه كان فريدا في أساليب العصور ، ولغة أبي حنيفة في كتابه ليست علمية ولا فلسفية ولا تاريخية ، ولكنها نثر فيه كثير من الفن ، وفيه ميل إلى إحداث اللذة عند القارىء فوق العناية بتأدية

الفكرة ، وقد تأثر أبو حنيفة إلى حد كبير بما تأثر به النثر في العصر الأول من عهد الدولة العباسية ، بأسلوب القرآن الكريم ، والفلسفة والفكر اليونانى ، والفن الفارسي ، وهى العناصر التى تفاعلت فى كيان الأمة العربية .

* * *

ولقد عنيت فى تحقيق الكتاب بإخراج النص فى صورته التى نطق بها مؤلفه ، وكتبها عنه ناسخه ، وعمدت فى سبيل هذا إلى المراجع الأخرى التى تناولت التاريخ لهذه الحقبة من الزمن إذا أشكل الرسم فى تصحيح الأعلام أو تصويب النصوص ، وقسمت الكتاب إلى أبواب وفصول ، وأضفت إليه شروحا وإيضاحات فى هوامشه ولم أشأ أن أعنّى القارئ فأملأ هوامش الكتاب بعرض كلمات تأثرت نقط حروفها، أو أجزاء كلماتها بفعل العث والأرضة والرطوبة ، وقد بقى منها ما يدل عليها صراحة ، ودون أى احتمال لسواها ، وهذا حدث كثير فى المخطوطة مثل :

شهريار : سهريار　　　　بكل مدجّج : بكل مدحح

انتقصه : انىقصه　　　　نزلت : برلت

خاصته : حاصته　　　　من تحت أخمصك الحشر : ... أحمصك ...

فرس شقراء : فرس سقراء　　　　اليمنية : اليمنه

وقد صوّبت ما وقع فيه الناسخ من خطأ غير مقصود ، أوقعه فيه السماع مثل :

قطميرا : قطيرا　　　　بغاث من الطير اجتمعن على صقر :

... سقر

يا أبا سعيد : يا ابن سعيد (الخدرى)　　　　طالوت : طالوك

إذا هفا فلا تؤنبه : ... لا تؤبنه　　　　تخضبوه : تخدبوه

حرقوص بن زهير : حربوص بن زهير　　　　تجفاف : تكفاف

ولم ألتزم ما التزمه الناسخ من اختزال الصيغ الدعائية ، فكتبت الصيغة كاملة مثل « صلى الله عليه وسلم » بدل « صلعم » و « رضى الله عنه » بدل « رضه » و « عليه السلام » بدل « عم » .

رضى الله عنه ، مرّ بالشعبيّ يوما ، وهو يحدّث الناس بالمغازى ، فقال ابن عمر : « شهدت القوم وإنه لأعلم بها منى » .

وقال الزهريّ : « العلماء أربعة : ابن المُسَيّب بالمدينة ، والشعبيّ بالكوفة ، والحسن بالبصرة ، ومَكْحُول بالشام » . ويقال إن الشعبيّ أدرك خمسمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ويروى أنه توفى الشعبيّ سنة أربع ومائة .

ورواية أبي حنيفة الدينوريّ عن الأصمعيّ أبي سعيد عبد الملك بن قريب الباهليّ رواية كثيرة في كتاب « الأخبار الطوال » ، وكان الأصمعيّ إماما فى الأخبار والنوادر ، والملح والغرائب ، كما كان صاحب لغة ونحو ، وهو من أهل البصرة ، وقدم بغداد فى أيام هرون الرشيد ، ويروى عن إسحاق الموصلى أنه قال : « لم أر الأصمعيّ يدّعى شيئا من العلم فيكون أحد أعلم به منه » . وكانت وفاة الأصمعيّ فى صفر سنة سبع عشرة ومائتين ، وقد عاش ثمانى وثمانين سنة .

وكما روى أبو حنيفة عن المؤرخين السابقين له فقد نقل عنه كثير من المؤرخين الذين جاءوا من بعده ، ومنهم من اعتمد عليه اعتمادا كبيرا ، كما فعل الفارق أحمد ابن يوسف بن علىّ بن الأزرق فى تاريخه حين يتكلم عن الحروب والوقائع التى كانت بين الفرس والروم ، وبين هؤلاء والمسلمين ، أو عن تاريخ ديار بكر ، وديار ربيعة وميافارقين ؛ فإنه اعتمد على كتاب الأخبار الطوال اعتمادا كبيرا ، وأشار إليه مرارا فى كتابه ، فأبو حنيفة من أقرب المؤرخين عهداً بحوادث كتابه « الأخبار الطوال » ومن أكثرهم معرفة بالبيئة الفارسية .

وإن كتب التاريخ القديمة ذات شأن واحد فى معالجة تاريخ نشاط الجنس البشرى فى حياته الأولى وكلها تسير على هذا النمط الذى سار عليه أبو حنيفة فى كتاب « الأخبار الطوال » ، من الاعتماد على المصادر الدينية ، وعلى القصص الشائع المتخلف فى أدب الشعوب ، وعلى الوقائع المترسبة فى عقول الأجيال ، بعضها عن بعض ، وهذه كلها تحوى بعض المعارف من الميثولوجيا التاريخية ، التى تعوزها الأسانيد المادية العلمية ، ولا تفيد الباحث إلا بقدر ما فيها من مفاهيم تصلح لأن تكون مادة لدراسات وأبحاث علمية .

وفى كتاب الأخبار الطوال شىء من هذه الميثولوجيا ، التى وقع فيها المؤرخون القدامى ، وقد أثبتت الجهود العلمية والكشوفات الحديثة حقائقها ، فإذا هى تناقض مناقضة تامة ما كان يعرفه الناس عنها قديما ، ولقد ذكر أبو حنيفة فى كتابه « أن الوليد بن مصعب هو فرعون موسى عليه السلام » ، والمعروف أن فرعون موسى هو منفتاح بن رمسيس الثانى ، أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، وقد خلط أبو حنيفة بين الإسكندر الأكبر المقدونى وبين ذى القرنين ، صاحب الخضر ، الذى قص القرآن خبره فى حكاية يأجوج ومأجوج ، فذكر أنه ملك مدة ثلاثين عاما ، جال الأرض منها أربعا وعشرين سنة ، والثابت أن الإسكندر الأكبر قد عاش ستاً وثلاثين سنة ، وأنه لم يملك هذه المدة التى ذكرها أبو حنيفة .

وإن هذه الأخبار ، ومثلها غيرها مما ورد فى كتاب «الأخبار الطوال» روايات شائعة فى كل كتب التواريخ القديمة ، وليس من شأنها التقليل مما لهذه الكتب من فوائد علمية ، صارت بها مصادر هامة من مصادر التاريخ العربى والإسلامى .



وينقسم كتاب الأخبار الطوال فى عرضه التاريخى إلى ثلاثة أقسام :

(١) الباب الأول ، ويتناول فيه أبو حنيفة الأحداث التاريخية مبتدئا بآدم، عليه السلام، والأنبياء ومن بعده، وبأخبار العرب البائدة ، عاد وثمود وطسم وجديس ، وملوك الحبشة والفرس واليمن ، ومملكة داود ، وعرش بلقيس ، ودولة سليمان ، وبنى إسرائيل، وملك تبّع : وفى هذا الباب يعرض الدينورى الأحداث عرضا سريعا لا يتقيد فيه بنظم بيّن ، ولا ترتيب زمنى ، ولكنه يحاول فى عرضه التاريخى أن يربط بين تاريخ العجم وبين تاريخ الشعوب المجاورة .

(٢) الباب الثانى ، وهو الجزء الخاص بتاريخ بلاد الفرس ، وقد بدأه المؤلف بتاريخ الإسكندر وفتوحاته شرقا وغربا ، ثم خلص منه إلى ذكر ملوك الطوائف وأحوال بلادهم المذهبية والحربية ، وقد خص بلاد الفرس بكثير من الإفاضة ، فاستوعب

كتاب
الأخبار الطوال

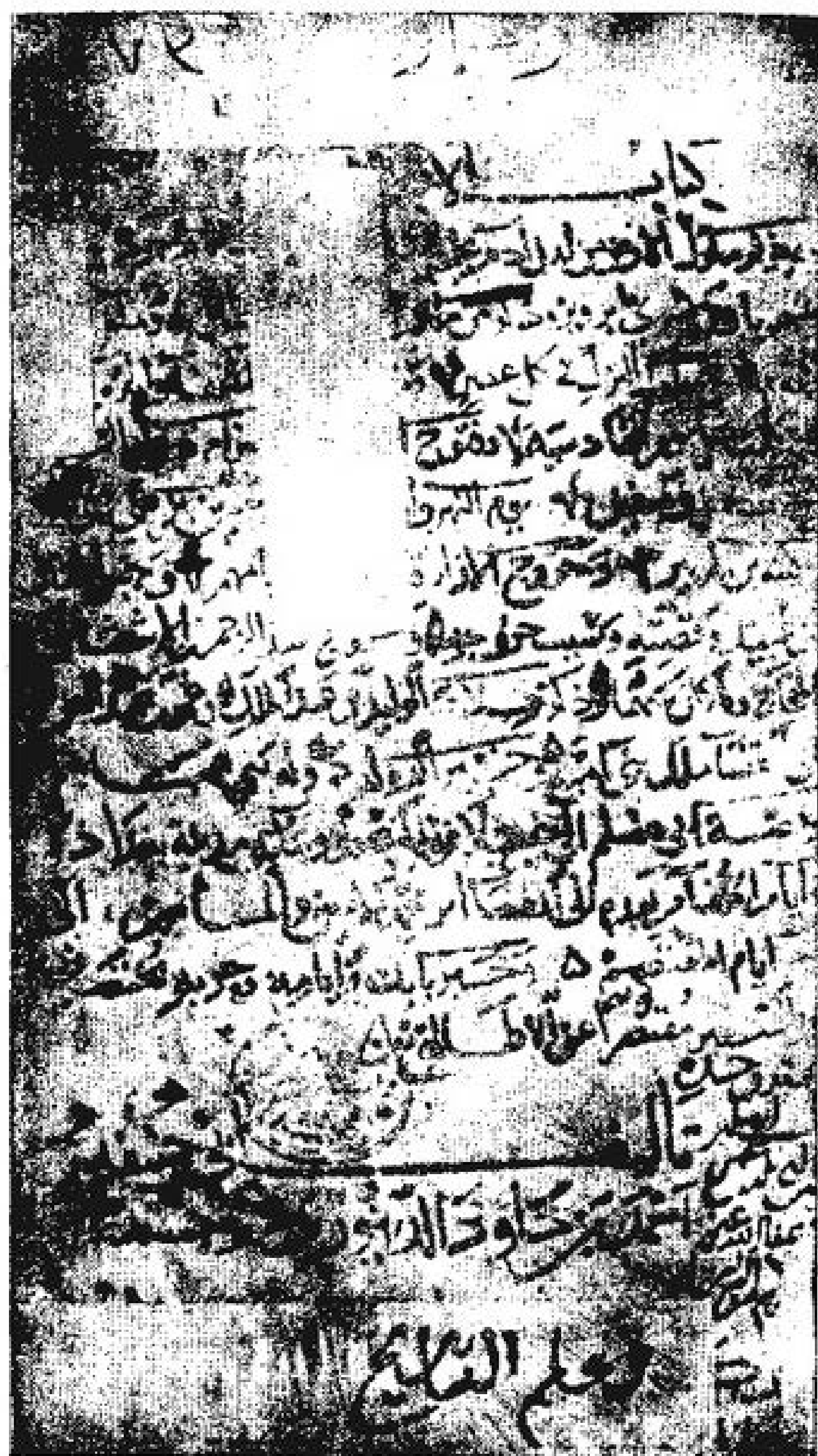
وقد غيّرت الإملاء القديم إلى المألوف عليه الآن مثل : الحياة، والصلاة ، وثلاث، وآلاف ، ومائة ، وبخارى ، وإسماعيل ؛ بدل : الحيوة ، والصلوة ، وثلث ، وآلف ، ومئة ، وبخارا ، وإسمعيل .

وعمدت إلى متن الكتاب فجزأته إلى فقرات ، ووضعت بين الجمل علامات الترقيم حتى يسهل تناوله ، ثم ذيلته بالفهارس العديدة ليمكن الرجوع إليها فى الإحاطة بالتراجم ، والأعلام ، ومأثور القول ؛ وأضفت إليه خريطة تبيّن الطبيعة الجغرافية لحوادث التاريخ .

وإنى بعد هذا الجهد أرجو أن أكون قد وُفّقت فى نشر الكتاب إلى إظهار فضل أبى حنيفة الدينورى ، وإلى وضع كتاب الأخبار الطوال فى مكانه اللائق بين المصادر التاريخية للحياة العربية .

المعادى فى جمادى الآخرة ١٣٧٩
ديسمبر ١٩٥٩

عبد المنعم عامر



لوحة العنوان

لوحة أول الكتاب

كتاب الأخبار الطوال

فيه ذكر ملوك الأرض من لدن آدم عليه السلام إلى انقضاء ملك يزدجرد ابن شهريار بن كسرى أبرويز ، وذكر من ملك من ملوك قحطان وملوك الروم وملوك الترك فى كل عصر وأوان ، وذكر الأئمة والخلفاء والحروب التى كانت ، مثل يوم القادسية ، وفتوح العراق ، وانصرام دولة العجم ، وحرب الجمل ، وصفّين ، ويوم النهروان ، ومقتل الحسين بن على رضى الله عنهما ، وفتنة ابن الزبير ، وخروج الأزارقة ، وحروبهم ، وأيامهم ، ومقتل المختار بن أبى عبيد ، وقصته ، وسبب خروجه ، وخروج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج ، وما كان بينهما ، وذكر خلافة الوليد بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز إلى انقضاء ملك بنى أمية ، وخبر الدولة ، دولة بنى هاشم ، وقصة أبى مسلم ، إلى خلافة المنصور ، وبنائه مدينة بغداد ، وأيام الخلفاء من بعده إلى انقضاء أمر محمد الأمين ، والمأمون ، إلى آخر أيام المعتصم ، وخبر بابك وحروبه وأيامه مختصرا من السِّيَر مقتصرا عن الإطالة .

تأليف أبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى رحمه الله

اللوحة الثالثة

لوحة من المخطوط

لوحة أخرى من المخطوط

بحر الخزر
اذربيجان
جيلان
طبرستان
قزوين
الري
بحيرة ارمنية
ميافارقين
آمد
ماردين
الرها
حران
منبج
مرعش
سميساط
انطاكية
حلب
قنسرين
الرقة
صفين
الرصافة
حماة
حمص
طرابلس
قرقيسيا
تدمر
بادية الشام
دمشق
اليرموك
البحر الميت
نصيبين
الموصل
اربل
الزاب الكبير
الزاب الصغير
ارض الجزيرة
نهر الفرات
تكريت
سامراء
حلوان
قرميسين
جلولاء
الدينور
همذان
الجبال او العراق العجمي
نهاوند
اصبهان
النهروان
بغداد
الانبار
كربلاء
الحيرة
القادسية
العذيب
الكوفة
واسط
السواد
ارض السواد
سوس
جنديسابور
تستر
خوزستان
رامهرمز
الاهواز
أرجان
البصرة
الابلة
الوجه
بحر فارس
فارس
دومة الجندل
تبوك

خريطة توضح الطبيعة الجغرافية

بسم الله الرحمن الرحيم

فوضت أمرى إلى الله

[أولاد آدم]

قال أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى رحمه الله ، وجدت فيما كتب أهل العلم بالأخبار الأولى ، أن آدم عليه السلام كان مسكنه الحرم ، وأن ولده كثروا فى زمان مِهلِيل بن قَيْنَان بن أَنُوش بن شيث بن آدم ؛ وكان سيد ولد آدم فى دهره ، والقائم بأمره ، وكذلك كان آباؤه إلى آدم عليهم السلام أجمعين ، ووقع بينهم التنازع فى الأوطان ، ففرقهم مِهلِيل فى مهب الرياح الأربع ، وخص ولد شيث بأفضل الأرض ، فأسكنهم العراق .

[إدريس ونوح]

وكان أول نبي بعد شيث إدريس ، واسمه « أَخْنُوخ بن يرد بن مِهلِيل » ، وسمى إدريس ، لكثرة دراسته ، ثم بعث الله نوحا عليه السلام إلى أهل عصره ، وكان مسكنه بأرض العراق ، وهو نوح بن لَمَك بن متُوشلخ ، فكذبوه ، فأغرقهم الله ، ونجى نوحا ومن كان معه فى السفينة ، وكان جنوح السفينة واستقرارها على رأس الجودى ، جبل بقَرْدى وبازَبْدى(١) من أرض الجزيرة ، فلما مات نوح استخلف ابنه ساما ، فكان أول من وطد السلطان ، وأقام منار الملك بعد سام جمْ ابن وِيَرْنَجْهَان بن إيران ، وهو أرفخشذ بن سام بن نوح ، وأعقم الله جميع من نجى مع نوح فى السفينة إلا بنيه الثلاثة ، ساما وحاما ويافثا . وكان لنوح ابن رابع اسمه يامْ ، وهو الغريق ، ولم يكن له عقب ؛ وأما الثلاثة فكلهم أعقب .

---

(١) كورتان متقابلتان أولاها شرق نهر دجلة والأخرى غربيه . وفى نسخة بقرداى وبازبدى .

وكان سام هو المتولى لأمر نوح من بعده ، وكان يشتو بأرض « جُوخَى » ويصيف بالموصل ، وكان طريقه فى مبدئه ومنصرفه على شط دجلة من الجانب الشرق ، فسمى لذلك سام راه[1] ، وهو الذى تسميه العجم « إيران » . وقد كان تبوأ أرض العراق ، واختصها لنفسه ، فسمى إيران شهر ، وقام بالأمر بعده ابنه (شالخ) ، فلما حضرته الوفاة أسند الأمر إلى ابن أخيه جم بن ويونجهان بن أرفخشذ فثبّت أساس الملك ، ووطد أركانه وبنى معالمه ، واتخذ يوم النيروز عيداً[2] .

[اختلاف الألسن]

قالوا : وفى زمان جمّ تبلبلت الألسن ببابل . وذلك أن ولد نوح كثروا بها ، فشحنت بهم ، وكان كلام الجميع السريانية ، وهى لغة نوح ، فأصبحوا ذات يوم ، وقد تبلبلت ألسنتهم ، وتغيرت ألفاظهم ، وماج بعضهم فى بعض ، فتكلمت كل فرقة منهم باللسان الذى عليه أعقابهم إلى اليوم ، فخرجوا من أرض بابل ، وتفرقت كل فرقة جهة ، وكان أول من خرج منهم ولد يافث بن نوح ، وكانوا سبعة إخوة : الترك ، والخزر ، وصَقْلاب ، وتاريس ، ومَنْسَك ، وكَمارَى ، والصين . فأخذوا ما بين المشرق والشمال ، ثم سار بعدهم ولد حام بن نوح ، وكانوا أيضا سبعة إخوة : السند والهند والزّنج والقبط وحَبَش ونُوبة وكنعان ؛ فأخذوا ما بين الجنوب والدّبور[3] ، وأقام ولد سام بن نوح مع ابن عمهم جَمّ الملك بأرض بابل على تغير ألفاظهم .

---

(١) أى طريق سام ، وكلمة راه Rāh فارسية معناها طريق .

(٢) كلمة فارسية مركبة من : نو ؛ يعنى جديد ، وروز يعنى يوم ؛ ويوم النوروز عند الفرس هو أول يوم من أيام السنة الشمسية حيث يفرح الناس به ستة أيام ، وقد كتب الحكيم عمر الخيام النيسابورى رسالة عن النيروز بالفارسية ، عنوانها «نوروزنامه» وطبعت سنة ١٣٣٠هـ بطهران .

(٣) المراد الغرب ، فالدبور بفتح الدال ريح تهب من نحو الغرب تقابل ريح الصبا .

[الساميون]

وكان لسام بن نوح خمسة بنين : إِرَم وكان أكبرهم سنا ، وأرنخشذ ، وعالَم ، وأليفَز ، والأسْوَر ، فخص ولد إرم باللسان العربى عنـد تبلبل الألسن ، وكانوا أيضا سبعة إخوة : عاد ، وثمود ، وصُحار ، وطَسْم ، وجديس ، وجاسم ، ووَبار ؛ فارتحل عاد مع من تبعه حتى حل بأرض اليمن ؛ ونزل ثمود بن إرم ما بين الحجاز إلى الشام ؛ ونزل طسم بن إرم عُمان والبحرين ، ونزل جديس بن إرم اليمامة ، ونزل صحار ما بين الطائف إلى جبلىْ طيء ، ونزل جاسم ما بين الحرم إلى سَفَوان[1] ، ونزل وبار بن إرم ما وراء الرمل بالبلاد التى تعرف بوبار ، وهؤلاء العرب الأولى انقرضوا عن آخرهم .

قالوا : ولما خرج هؤلاء تحركت قلوب سائر ولد نوح للخروج من بابل ، فخرج خُراسانُ بن عالَم بن سام ، فاتخذ خراسانَ خطة ، وفارسُ بنُ الأسور بن سام ، والرومُ بنُ اليَفَز بن سام ، وإرْمينُ بنُ نَوَرَج بن سام ، وهو صاحب إرْمينيّة ، وكَرْمانُ بنُ تارَح بن سام ، وهَيْطَل بن عالم بن سام ، وولده من وراء نهر بلخ[2] ، وتسمى بلاد الهياطلة ؛ ونزل كل رجل منهم مع ولده فى الأرض التى سميت به ، ونسبت إليه ، فلم يبق مع الملك جَمّ بأرض بابل إلا ولد أرنخشذ بن سام .

قالوا : ولما كثرت عاد باليمن تجبّروا وعتوا ، وعليهم شَديد بن عِمْليق بن عاد ابن إرم بن سام بن نوح ، فوجّه إلى ولد سام ابنَ أخيه الضحاك بن عُلْوان بن عمليق ابن عاد ، وهو الذى تسميه العجم بَيْوَرَاسِف ، فصار إلى أرض بابل ؛ وهرب منه جمّ الملك ، فطلبه الضحاك حتى ظفر به ، فأخـذه ، وأشره بمِئشار[3] ،

---

(١) سفوان واد من ناحية بدر .

(٢) نهر فى شمالى أفغانستان تقع عليه مدينـة بلخ عاصمة دولة آل سبكتكين وقد دمرت مدينة بلخ على يد جنكيزخان ، وكانت محاطة بسور وفيها قلعة وجوامع ومدارس .

(٣) المئشار بالهمز هو المنشار بالنون ، وأشرت الخشبة أشرا إذا شققتها مثل نشرتها نشرا .

فاستولى على ملكه . وكان الذى وجه إلى ولد حام بن نوح ابنُ عمه الوليد بن الريان ابن عاد بن إرم ، وكان مَلكهم يومئذ مِصرَ بن القبط بن حام الذى تبوأ أرض مصر ، فسار إليه الوليد بنُ الريان حتى قتله ، واستولى على ملكه .

ومن ولد الوليد بنِ الرّيّان الرّيّان بنُ الوليد عزيز مصر ، صاحب يوسف عليه السلام ، ومن ولدهما الوليد بن مصعب فرعون موسى عليه السلام ، وكان جالوت الجبار الذى قتله داود النبى من ولد الوليد بن الريّان .

وكان الذى وجه شديدٌ بن عمليق إلى ولد يافث بن نوح ابنُ أخيه غانم بن علوان أخو الضحّاك بن علوان ، وكان ملك ولد يافث بن نوح يومئذ فراسيابُ بن تُوذِل ابن الترك بن يافث بن نوح ، فغلب على ملكه أيضا ، واستولى على أرضه ، ومن ولد غانم بن علوان فيما يقال فُوْرٌ ملك الهند الذى قتله الإسكندر مبارزة ، ويقال إن رُسْتُم الشديد من ولد غانم .

[الضحاك]

قالوا : وإن الضحاك الذى تسميه العجم بيوراسف عند ما كان من غلبته جمّ الملك وقتله إياه واطمئنانه فى الملك وفراغه أخذ يجمع إليه السحرة من آفاق مملكته ، ويتعلم السحر حتى صار فيه إماما ، وبنى مدينة بابل[1] ، وجعلها أربعة فراسخ فى أربعة ، وشحنها بجنود من الجبابرة وسماها (خُوب) ، وسام أولاد أرتخشذ الخسف ، ونبتت فى منكبيه سلعتان كهيئة الحيّتين ، تؤذيانه حتى يطعمهما أدمغة الناس فتسكنان . قالوا : فكان يؤتى كل يوم بأربعة رجال جسام فيذبحون

---

(١) بابل عاصمة الكلدانيين القدماء ، ومكانها يبعد عن بغداد بمقدار ٩٣ ك . م إلى الجنوب على شاطىء نهر الفرات ، وقد بناها نمروذ وشيد بها معبدا كبيرا لعبدة الشمس وقد زادت شهرتها فى التاريخ القديم بمخراب نبنوى وعظم عمرانها حتى إن حدائقها المعلقة اعتبرت من عجائب الدنيا السبع ، وقد استعملت أنقاض بابل فى تعمير بغداد فى عهد أبى جعفر المنصور ، وتقوم الآن بعثات أوربية بالتنقيب عن آثارها بجوار قرية « حله » فعثرت على بعض الآثار وعلى كتيبات من عهد بختنصر والملوك القدماء .

وتؤخذ أدمغتهم فَيُغْذَى بها تلك الحيّتان . وكان له وزير من قومه ، فولى وزارته رجلا من ولد أرفخشذ يسمى أَرْمِيَايِيل ، فكان إذا أتى بالرجال ليذبحوا استحيا منهم اثنين ، وجعل مكانهما كبشين من الغنم ، وأمر الرجلين أن يذهبا حيث لا يوجد أثرهما ، فكانوا يصيرون إلى الجبال ، فيكونون فيها ، ولا يقربون القرى والأمصار ، فيقال إنهم أصل الأكراد[1] .

[بعثة هود]

وملك بعد شديد بن عمليق أخوه شدّاد بن عمليق بن عاد بن إرم ، فعتا ، وتجبر ، فبعث الله إليه هوداً عليه السلام رسولا ، وكان من صميم قومه وأشرافهم ، وهو هود بن خالد بن الخلود بن العيص بن عمليق بن عاد ، فلم يحفل به ، فأهلكه ، ومن كفر معه من عاد ، كما قد قصه الله تبارك وتعالى فى كتابه ، وهو أصدق الحديث[2] .

قال : ونشأ فى ذلك الدهر عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، فولد له فالغ بن عابر ، ثم وُلد له بعد ذلك قحطان بن عابر ، قال : وإنما سمى قحطان لقحطه القحوط ، وطَرْده بالسخاء والجود ، ثم وُلد له لامُ بن عابر ، فكان أعبدَ أهل عصره ، وكانت أسفار آدم وشيث ونوح وقعت إليه ، فدرسها ، وعلمها .

ثم إن الضحاك البيوراسف طلبه ليفتنه عن دينه ، فهرب منه بأهله وولده من مدينة بابل حتى حل بمفازة من أرض الروم ، فقبره بها ، ويقال : إن مكان قبره معروف حتى الآن .

---

(١) جمع كرد ، وهم قوم يسكنون الحدود الغربية لإيران وما يجاورها ، ويتكلمون لغة شبيهة باللغة الفارسية .

(٢) الآيات من ٢١ ـ ٢٦ من سورة الأحقاف .

[نمروذ بن كنعان]

ولما أهلك الله عادا مع شداد ضعف ركن الضحاك ، ووهى أمره ، واجترأ عليه ولد أرفخشذ بن سام ، وكان الوباء وقع فى جنده ، ومن كان معه من الجبابرة ، فخرج يريد أخاه غانمَ بن عُلوان الذى ملّكه شديد على ولد يافث ، ويستعين به على أمره ، فاستغنم ولد أرفخشذ بن سام خروجه ، فأرسلوا إلى نُمْرود بن كَنْعان ابن جَمّ الملك ، وكان مستتراً هو وأبوه فى طول ملك الضحاك ، بجبل دُنْباوَند[1] ، فأتاهم ، فملّكوه عليهم ، فصمد [و] صَمَدَ من كان بأرض بابل من أهل بيت الضحاك ، فقتلهم أجمعين ، واستولى على ملك الضحاك ، وبلغ ذلك الضحاك فأقبل نحوه ، فظفر به نمروذ وضربه على هامته بجُرْز[2] حديد ، فأثخنه ، ثم شده وثاقا ، وأقبل به إلى غار فى جبل دنباوند ، فأدخله فيه وسد عليه ، واستدَفّ[3] المُلك لنمروذ واستَوْسق ، وهو الذى يسميه العجم فريدون .

قالوا : ولما توفى هود عليه السلام اجتمع ولد إرم بن سام من أقطار الأرض ، فملكوا مَرْثَد بن شَدّاد ، وذلك فى أول ملك نمروذ بن كنعان ، فغزاهم نمروذ فى آخر ملكه ، وقد وهى أمرهم ، فقدر عليهم . وقالوا : فالغ وقحطان أخوان ، وهما ابنا عابر ، ففالغ جد إبراهيم عليه السلام ؛ وأما قحطان فأبو اليمن ؛ ويروى أن ابن المقفع كان يقول : « يزعم جهّال العجم ومن لا علم له أن جمّ الملك هو سليمان ابن داود ، وهذا غلط ، فبين سليمان وبين جمّ أكثر من ثلاثة آلاف[4] سنة » ، ويقال : إن نمروذ بن كنعان فرعونَ إبراهيم من ولد جمّ . وكان ابن عم آزر بن تارح أبى إبراهيم ، وهو إبراهيم بن آزر بن تارح بن ناخور بن أرغوا بن شالخ بن أرفخشذ

(١) جبل فى نواحى الرى .

(٢) عمود من الحديد وجمع جرز أجراز وجرزة وفى بعض النسخ الأوربية جرد حديد والصواب ما ذكرناه .

(٣) استتب واستقام .

(٤) ثلاثة آلاف . فى الأصل ثلثة آلف .

الذي سمته العجم إيران ، ومن ولد أرفخشد جميع العرب ، ومنهم أيضا ملوك العجم وأشرافهم من أهل العراق وغيرهم .

[قحطان]

قالوا : ولما انقرضت عاد من أرض اليمن وبادوا ، وذلك في عصر نمروذ ابن كنعان ، أقطعها نمروذ ابن عمه قحطان بن عابر ، فسار إليها في ولده ، حتى نزلها ، وبها بقايا قليلة ممن آمن بهود عليه السلام من عاد ، فجاورهم قحطان بها ، فلم يكن إلا قليل حتى انقرضوا وبادوا ، وصفت الأرض لقحطان .

ويقال : إن السائر إليها يَعْرُب بن قحطان بعد وفاة أبيه ، فسار إليها في إخوته وأولادهم ، فقطنها ، فكانت أمّ يَعْرُب دون إخوته من عاد ، فتكلم بلسان أمه .

وذكر عن ابن الكيِّس النَّمَري[1] أنه قال : إن قحطان تزوّج امرأة من العماليق ، فولدت يَعْرُب ، وجُرْهُم ، والْمُعْتَمِر ، والْمُتَلَمِّس ، وعاصِماً ، ومَنِيعاً ، والقُطامِيّ ، وعاصياً ، وحِمْيَر ؛ فتكلموا جميعا بلسان أمهم بالعربية ؛ وكان قحطان في عصر نمروذ . وذكر عن ابن الشَّرية[2] أنه قال : كان الذي خرج إليها يعرب بن قحطان في ولده ، وكان أكبرهم سنا ، وأعظمهم قدرا .

[ثمود]

قالوا : وإن ثموداً قفَت ما كانت عليه عاد من الكفر بالله ، والعتوّ عليه ، فأرسل الله إليهم صالحا رسولا ، فكان من أشرفهم منصبا ، وأكرمهم حسبا ، فدعاهم إلى توحيد الله ، فلم يقبلوا منه ، ولم يرعووا ؛ فأهلكهم الله عز وجل ، كما نص في كتابه ، وهو أصدق الحديث[3] . ويقال : إنه كان بين مهلك عاد ومهلك ثمود خمسمائة عام ، وكان ذلك في عصر إبراهيم عليه السلام .

---

(١) وكان من أعلم الناس بالنسب (الاشتقاق لابن دريد) ، وابن الكيس النسابة هو مالك ابن عبيد بن شراحيل بن الكيس (جمهرة الأنساب) .

(٢) كذا في الأصل ، وهو عبيد بن شرية الجرهمي ، من صنعاء ، وقد استقدمه معاوية ابن أبي سفيان ، ليدون له التاريخ في كتاب ، فكتب له كتاب الملوك وأخبار الماضي .

(٣) الآيات : من ٤٥ إلى ٥٣ من سورة النمل .

[إبراهيم]

وفى آخر ملك نمروذ ، وتسميه العجم « فريدون » تجبر نمروذ ، وعتا ، ولهج بعلم النجوم ، واجتلب المنجمين من آفاق الأرض ، وحباهم بالأموال ، واختار سبعة نفر من أهل بيته ، فسماهم « الكُوهَبَارِين »(١) فولاهم أموره ، ووكل كل رجل منهم بعمل أفرده به .

وكان آزر أبو إبراهيم أحد السبعة الذين اختار [هم] . وقد كان دان له الشرق والغرب ، فكان من أمر مولد إبراهيم ما قد جاءت به الآثار ؛ وكان أول من آمن بإبراهيم امرأته سارة ، وكانت من أجمل أهل عصرها . ولوط كان ابن أخته ، فأقام إبراهيم مع أبيه ما شاء الله ، ثم خرج مهاجراً له ، وخرجت معه سارة ؛ وكان أبو لوط من أهل مدينة « سدُوم »(٢) وكانت أمه بنت آزر ؛ وإنما كان قدم إلى بابل زائراً لجدّه آزر ، فآمن بإبراهيم ، فأقام معه ببابل مؤازراً له على أمره ، فلما خرج إبراهيم عليه السلام مهاجراً خرج معه لوط ، فلحق بأبيه وأهل بيته بمدينة سدوم ، وهى فيما بين أرض الأردن وتخوم أرض العرب ، وسار إبراهيم حتى أتى أرض مصر .

[هجرة جرهم والمعتمر]

قالوا : وإن ولد قحطان كثروا بأرض اليمن ، فوقع بينهم التباغى والتحاسد ، فاجتمع ولد يعرب بن قحطان على جرهم بن قحطان وولد المعتمر بن قحطان ، فنفوهم عن اليمن وأرضه ، فسارت جرهم نحو الحرم ، وسار بنو المعتمر نحو الحجاز ، ورئيس جرهم مُضَاض بن عمر بن عبد الله بن جرهم بن قحطان ، وأرادوا نزول الحرم ،

---

(١) فى بعض النسخ الأوربية القوهيارتين . والصحيح ما ذكر ، والمعنى « المختارون » .

(٢) سدوم مدينة قديمة فى فلسطين أحرقت بنار سماوية لارتكاب أهلها الفحشاء ، وعدم طاعتهم نبيهم لوطا ، ويقال إنها سميت باسم قاضيها الذى كان يضرب به المثل فى الجور والظلم .

فنمهم العماليق من ذلك ، فاقتتلوا ، فغلبتهم جرهم على الحرم ، ونفوهم منه ، ونزلت جرهم الحرم .

فلما قطنوه بلغ ذلك بنى المعتمر بن قحطان ، فأقبلوا من أرض الحجاز حتى أتوا الحرم ، وسألوا جرهم السكنى معهم ، فأبت عليهم جرهم ، ورئيس بنى المعتمر السَّمَيْدَع بن عمرو بن قنطور بن المعتمر بن قحطان ، فتداعى الفريقان للحرب ، فبحربهم هذه سميت قُعَيْقِعَان والمَطابخ وأجْياد وفاضِح ، لأن به فضحت بنوالمعتمر ، وقتل السميدع ، وكان الظفر لجرهم .

[نمروذ وأولاده]

قالوا : وكان لنمروذ ثلاثة بنين : أَيْرَج ، وسَلْم ، وطُوس ، ففوّض إلى أيرج ملكه ، وجعل سلما على ولد حام ، وطوسا على ولد يافث ، فحسد أيرج أخواه ، إذ خصه أبوه بالأمر دونهما ، وهو أصغر سنا منهما ، فاغتالاه ، فقتلاه ، فصيّر الملك إلى ابن ابنه مَنُوشِهْر بن أيرج ، وصرفه عن ابنيه : سلم ، وطوس ، ثم مات .
فملك منوشهر بن أيرج ؛ وفى عصر منوشهر كثرت قحطان باليمن ، فملكوا عليهم سَبَأ بن يَشْجُب ؛ واسم سبأ عبد شمس .

[أولاد إسماعيل]

قالوا : وفى ذلك العصر توفى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وخلّف ثلاثة بنين ، قَيْذَر بن إسماعيل ، ونابِتَ بن إسماعيل ، وهو كان القيّم بأمر مكة والحرم بعد إبراهيم ، ومَدْيَنَ بن إسماعيل ، وهو الذى سار إلى أرض مدين ، فنزلها ؛ ومن ولده شعيب النبى عليه السلام ، وقومه الذين أرسل إليهم .

[غلبة جرهم على الحرم]

قالوا : ولما توفى نابت بن إسماعيل غلبت جرهم على البيت والحرم ، فخرج قيذر ابن إسماعيل بأهله وماله يتّبع مواقع القَطْر فيما بين كاظِمة ، وغَمْر ذى كندة ،

والشَّمْتَمَيْن ، وما والى تلك الأرضين حتى كثر ولده ، وانتشروا فى جميع أرض تهامة ، والحجاز ، ونجد .

[بنو قحطان]

فملك سَبَأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أرض اليمن طول ملك منوشهر مائة وعشرين سنة ، ثم مات ، وملك بعده ابنه حمير بن سبأ ، وجعل ابنه كَهْلَان وزير حمير .

[نهاية ملك منوشهر]

قالوا : ولما أتى لملك منوشهر مائة سنة وعشرون سنة سار إليه فراسياب ابن قيش بن نُوذَسف بن التُرك بن يافث بن نوح . وذلك حين ملك حمير أرض اليمن . وكان مسيره من ناحية الشرق فى جموع من ولد يافث بن نوح ، حتى انتهى إلى أرض بابل ؛ وخرج إليه منوشهر الملك فى جنوده ، فَفُضَّت جموع منوشهر ، وقفا فراسياب إثر منوشهر حتى لحقه ، فقتله ، واستولى على ملكه ، وجلس على سريره .

وسام ولد أرفخشذ الخسف ، وهدم ما كان بأرض بابل من الحصون ، وعوّر[1] ما كان فيها من العيون ، وطمّ[2] ما كان فيها من الأنهار ، وقحط الناس فى ملكه قحطا شديدا ؛ وكان أهل إيران شهر فى ملكه فى أعظم بلاء .

[زاب بن بودكان]

فلما تم لملك فراسياب تسع سنين ظهر زاب بن بودكان بن منوشهر بن أيرج ابن نمروذ بأرض فارس ، فخلع فراسياب ، ودعا لنفسه ، فمال إليه جميع ولد سام ابن نوح للجهد الذى نالهم فى ملك فراسياب ، فسار إلى فراسياب حتى نفاه عن

---

(١) أتلف عيون الماء .　　(٢) طم : جف .

مملكته ، وعمد إلى المدن والحصون التي هدمها فراسياب ، فأعاد بناءها ، وحفر الأنهار والقُنِيّ التي كان طمها ، وأصلح كل ما كان فراسياب أفسده ، وكرى بالعراق أنهاراً عظيمة سماها الزَّوابي ، اشتق اسمها من اسمه ، وهي الزابي الأعلى ، والزابي الأوسط ، والزابي الأسفل ، وابتنى المدينة العتيقة ، وسماها طيسفون(١) ، ثم سار في إثر فراسياب ، وقد أقام بخراسان في جموعه ، وعساكره ، فزحف إليه فراسياب فاقتتلوا ، وأقبل أَرَشْنَاس الذي كان منوشهر أمره بتعليم الناس الرمي بالنُّشَّاب ، وقد وتر قوسه وفوّق(٢) فيها نشابة ، فأقبل حتى دنا من فراسياب ، فلما تمكَّن رماه رمية خالطت فؤاده ، وخرّ ميتا ، وانصرف ولد يافث حين قتل ملكهم حتى لحقوا بأرضهم ، وكان زاب قد أصابته جراحات كثيرة ، فمات منها بعد مهلك فراسياب بشهر . وفي ذلك العام مات حمير بن سبأ .

قالوا : كان ملك الوليد بن مُصْعَب فرعون موسى عليه السلام(٣) على جميع أرض ولد حام ، وهي المملكة التي تعرف بملك مصر بن حام .

وقالوا : « ولما توفي يوسف بن يعقوب وإخوته بأرض مصر بقي أعقابهم بها ، وكثروا فيها ، وكانوا في زمان موسى عليه السلام ستمائة ألف رجل ، وكان ملك اليمن في زمن موسى المِلْطاط بن عمرو بن حمير بن سبأ » .

[كيقباذ بن زاب]

وكان ملك أرض بابل كَيْقَبَاذ بن زاب ، وكان الملطاط يلقب بالرائش ، لأنه راش قومه وأغناهم ، وكانت ملوك الأرض كلها قد دانوا لكيقباذ ، واتقوه بالإتاوة(٤) ،

---

(١) يذكرها الجغرافيون العرب باسم طيسفون أو طيسفونج أو طوسفون ، والأوربيون باسم Ctesiphon ، وكانت مدينتها قصر لكسرى وتبعد من بغداد مقدار ثلاثة فراسخ .

(٢) فوق النشابة : وضعها في وتر القوس .

(٣) عليه السلام : عم ، والمعروف بعد الكشوف الفرعونية أن فرعون موسى هو منفتاح ابن رمسيس الثاني ، أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة .

(٤) الإتاوة : كل ما أخذ بالإكراه من رشوة أو خراج .

وكان له ثلاثة بنين : قابُوس ، وهو الذى ملك من بعده ، وكَيَابِنَّه ، وهو جد لُهْرَاسِف الذى ملك بعد سليمان بن داود عليه السلام ، وقَيُوس ، وهو جد الأشغانيِّين الذين كانوا ملوك الجبل فى زمان الطوائف .

وفى عصره خرج موسى بن عمران من مصر هارباً من فرعون حتى أتى أرض مدين[١] ، ونزل على شعيب ، فآجره نفسه ثمانى حجج ، كما ذكر الله جل ثناؤه فى الكتاب الناطق[٢] ، ثم خرج من عند شعيب لما قضى الأجل ، وسار بأهله ، فكان من أمره وإكرام الله إياه بتكليمه ورسالته ما قد قصه علينا فى كتابه ؛ وانصرف إلى شعيب ، ورد أهله إليه ، ومضى حتى بلّغ رسالة ربه ؛ وفى هذا العصر بعث شعيب إلى قومه ، فكان منهم ما حكاه الله فى كتابه[٣] .

[أبرهة]

قالوا : ثم ملك أرض اليمن أبرهة بن اللطاط ، وهو أبرهة ذو المنار ، سمى بذلك ، لأنه أمر بعمل المنار والإيقاد عليها بالليل ، ليهتدى بها جنوده ، وتوفى موسى ابن عمران عليه السلام ، وتولى أمر إسرائيل من بعده يُوشَع بن نُون ، فخرج ببنى إسرائيل من أرض مصر إلى أرض الشام ، فأسكنهم بفلَسْطين .

قالوا : وإن أبرهة تجهز وسار فى بشر كثير يؤم أرض المغرب ، واستخلف على ملكه ابنه إفْرِيقِيس ، فأوغل فى أرض السودان ، فأعطوه الطاعة ، فجاز أرضهم ، وسار حتى انتهى إلى أمة من الناس ، أعينهم وأفواههم فى صدورهم ، ويقال إنهم أمة من ولد نوح عليه السلام ، غضب الله عليهم ، فبدل خلقهم ، فأعطوه الطاعة ، وانصرف راجعا ، فمر بأمة من الناس ، يقال لهم النَّسْناس ، للرجل والمرأة منهم نصف رأس ، ونصف وجه ، وعين واحدة ، ونصف بدن ، ويد واحدة ،

---

(١) قرية النبى شعيب .

(٢) الآيات ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧ من سور القصص

(٣) الآيات من رقم ١٧٦ إلى ١٩٠ من سورة الشعراء

ورجل واحدة ، يقفزون قَفْزًا فى أسرع من حُضْر[١] الفرس الجواد ، وهم يهيمون فى الغياض التى على شاطىء البحر ، خلف رمل عالج[٢] ، يعنى رمل بلاد اليمن ، فسأل عنهم ، فأخبر أنهم أمة من ولد وبار بن إرم بن سام بن نوح .

[كيكاوس بن كيقباذ]

قالوا : وكان ملك العجم فى عصر أبرهة بن الملطاط كيكاوُس بن كيقباذ ، وكان متشدداً على الأقوياء[٣] ، رحيما بالضعفاء ، وكان منصوراً محموداً إلى أن خطرت منه خطرة ضلال ، فيما كان همّ به من الصعود إلى السماء ، فهو صاحب التابوت والنسور ، وكان قد وجد على ابنه سياوش ، ولم يكن له ولد غيره ، فأراد قتله ، فهرب منه ، فلحق بملك الترك ، فحل منه محلا لطيفا لما بلاه واختبره ، ورأى عقله وآدابه وبأسه ونجدته ، ففوّض إليه أمره ، فلما رأى ذلك أهل بيت الملك حسدوه ، وخافوا أن يبزّهم الأمر ، فدسّوا إليه الغوائل[٤] عند الملك حتى أقدم عليه ، فقتله ، وقد كان زوّجه ابنته ، وحملت منه ، فأراد أن يبقر بطنها عن جنينها ، فناشده بَرايان الوزير فيها ، وفى ولدها ألّا يقتلها من غير جرم ، فقال له : « دونك ، فخذها إليك ، فإذا ولدت فاقتل ولدها » . فكانت عنده حتى ولدت غلاما ، وهو كيخسرو الذى ملك بعده ، فأخرجه من المصر ، واسترضع له فى سكان الجبال من الأكراد ، فنشأ عندهم ؛ وقال للملك : « إنها ولدت جارية وقد قتلتها » فصدقه .

[ملك كيخسرو]

وإن أهل فارس شنئوا كيكاوس لما أظهر من الجبروت والعتو والجرأة على الله ،

(١) الحضر بضم الحاء وسكون الضاد ارتفاع الفرس فى عدوه .
(٢) عالج : موضع بالبادية به رمل .
(٣) الأقوياء فى الأصل : الأقرباء .
(٤) الغوائل جمع غائلة وهى الداهية والمصيبة .

وتآمروا على خلعه ؛ وفشا ذلك حتى بلغ أم الغلام ، وقد أتى له سبع عشرة سنة ، فدست رسولا إلى أهل فارس ، تعلمهم مقتل سياوش ، وأمر الغلام ؛ فاختاروا رجلا من أفاضلهم ، يسمى « زَوّ » ، فوجهوه إلى اريان الوزير فى الإقبال بالغلام ، فقدم عليه ، وأعلمه ما أجمعت عليه أهل فارس ، فسلم إليه الغلام ، وحمله على فرس أبيه سياوش الذى قدم عليه من العراق ، فسار به زَوّ ، يكمن النهار ، ويسير الليل ، حتى ورد يمّ جيحون[1] ، وهو نهر بلخ مما يلى خوارزم ، فعبره سباحة على فرسه ، وأقبل به ، حتى أورده دار الملك ، فخلعوا كيكاوُس ، وملكوا الغلام ، وسموه كيخسرو ، ومنحوه الطاعة ، فأمر بجده فحبس ، فلم يزل محبوساً حتى هلك

[إفريقيس واليمن]

قالوا : وكان ملك كيخسرو وملك أفريقيس بن أبرهة فى عصر واحد ، وإن أفريقيس تجهز يريد المغرب ، حتى أوغل فى أرض طنجة والأندلس ، فرأى بلاداً واسعة ، فابتنى هناك مدينة ، وسماها إفريقيـة اشتق اسمها من اسمه ، ونقل إليها سكانا ، وهى المدينة التى ينزلها اليوم سلطان ذلك البلد وعظماؤها ، ثم انصرف إلى وطنه ؛ وفى ذلك العصر نشأ معد بن عدنان ، وفيـه انقرض ولد إرم من جميع أرض العرب إلا بقايا من طسم وجديس ، غبروا بعُمان والبحرين واليمامة .

[ملك ابن إفريقيس وهلاك طسم وجديس]

ولما مات إفريقيس بن أبرهة ملك ابنـه ذو جَيْشان بن إفريقيس ، فتجهز لغزو كيخسرو ملك فارس ، وجمع جنوده ، وسار حتى نزل بنجران[2] ، وكان بعُمان

(١) جيحون : نهر من أكبر أنهار آسيا ينبع من جبال بامير ويجرى نحو الغرب حتى يصب فى بحيرة أورال ، وفيضانه بين شهرى مايو وأكتوبر ، وهو الآن حد فاصل بين أفغانستان وجمهوريات آسيا السوفياتية ، ويطلق المؤرخون العرب على البلاد الواقعة شمال جيحون بلاد ما وراء النهر .

(٢) نجران : موضع بالبحرين .

والبحرين واليمامة بشر كثير من ولد طسم ، وجديس ، ابني إرم بن سام ، وكانوا من العرب العاربة ، وكان ملكهم رجلا من طسم ، يسمى عمليقا ، وكان جائرا ظلوما ، وبلغ من عتوه أن أمر ألا تزف امرأة من جديس إلى زوجها إلا بدءوه بها ، فمكثوا بذلك دهرا طويلا .

وإن رجلا من جديس تزوج عُفَيْرة بنت غفار أخت الأسود بن غفار عظيم جديس وسيدها ، فلما أرادوا إهداءها أدخلت على الملك ، فافترعها ، ثم خلى سبيلها ، فخرجت إلى قومها في دمائها رافعة ثوبها من عورتها ، وهي تقول :

أَيَصْلُحُ مَا يُؤْتَى إِلَى فَتَيَاتِكُمْ ... وَأَنْتُمْ رِجَالٌ ثُورَةٌ عَدَدَ النَّمْلِ
فَلَوْ أَنَّنَا كُنَّا رِجَالًا وَكُنْتُمُ ... نِسَاءً لَكُنَّا لَا نُقِرُّ عَلَى الذُّلِّ
فَمُوتُوا كِرَامًا أَوْ أَمِيتُوا عَدُوَّكُمْ ... وَدِبُّوا لِنَارِ الْحَرْبِ بِالْحَطَبِ الْجَزْلِ

فحميت من ذلك جديس ، فاغتالوا عمليقا ، فقتلوه على غرة ، وإمامهم الأسود ابن غفار يرتجز ، ويقول :

يَا لَيْلَةً مَا لَيْلَةُ الْعَرُوسِ ... جَاءَتْ تَمَشَّى بِدَمٍ جَمِيسِ[1]
يَا طَسْمُ مَا لَاقَيْتِ مِنْ جَدِيسِ ... إِحْدَى لَيَالِيكِ فَهَيْسِي هَيْسِي[2]

فأبادوا طسما ، فلم يفلت منهم إلا رجل يقال له ، رياح بن مرة ، فإنه مضى على وجهه حتى أتى ذا جيشان ، وهو معسكر في جنوده بنجران ، فمثل بين يديه ، ثم قال :

إِنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِيَوْمٍ وَلَا تَرَى ... كَيَوْمٍ أَبَادَ الْحَيَّ طَسْمًا بِهِ الْمَكْرُ
أَتَيْنَاهُمُ فِي أُزْرِنَا وَنِعَالِنَا ... عَلَيْنَا الْمُلَاءُ الْحُمْرُ وَالْحُلَلُ الْخُضْرُ
فَصِرْنَا لُحُومًا بِالْعَرَاءِ وَطُعْمَةً ... تَنَازَعُهَا ذِئْبُ الْوَتِيمَةِ وَالنَّسْرُ...[3]

---

(١) الدم الجميس : هو الدم المتجمد .

(٢) هيس هيس : كلمتان تقالان للحض عند إمكان الأمر والإغراء به .

(٣) الوتيمة : الشر والعداوة والضراوة .

فَدُونَكَ قَوْمًا لَيْسَ لِلّهِ فِيهِمُ ... وَلَا لَهُمُ مِنهُ حِجَابٌ وَلَا سِتْرُ

فقال الملك : كم بيننا وبينهم ؟ ، قال : ثلاث . فقال من حضره : كذب ، أيها الملك ، بينك وبين القوم عشرون ليلة ، فأمر جنوده بالسير نحو اليمامة ، في مسيرهم ، وقصة الزَّرْقاء[1] يقول الأعشى بعد ذلك بدهر طويل :

قَالَتْ أَرَى رَجُلًا فِي كَفِّهِ كَتِفٌ ... أَوْ يَخْصِفُ النَّعْلَ ، لَهفِى أَيَّةً صَنَعَا

فَكَذَّبُوهَا بِمَا قَالَتْ ، فَصَبَّحَهُمْ ... ذُو آلِ جَيْشَانَ ، يُزْجِي المَوْتَ وَالشُّرَعَا

فَاسْتَنْزَلُوا أَهْلَ جَوٍّ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ... وَهَدَّمُوا مُشْرِفَ الْبُنْيَانِ ، فَاتَّضَعَا

فَأَمَّ جديسا ، واستأصلهم ، ثم رحل نحو العراق يريد كيخسرو ، وزحف إليه كيخسرو ، فالتقوا ، فقتل ذو جيشان ، وانفضت جموعه .

[ملك الفند ذى الإذعار]

فملكت اليمن ابنه الفِنْدَ ذَا الإذعار ، وإنما لقب ذا الإذعار لرعب الناس منه ، فلم تكن له همة إلا الطلب بثأر أبيه .

[هجرة ربيعة إلى اليمامة والبحرين]

قال : وبقيت اليمامة والبحرين بعد قتل جديس ليس بهما أحد إلى أن كثرت ربيعة ، وانتشرت ، وتفرقت فى البلاد ، فسارت عِنْزَةُ[2] بن أسد بن ربيعة ، تتبع مواقع الغيث ، وتقدمها عبد العُزّى بن عمرو العنزى حتى هجم على اليمامة ، فرأى بلاداً واسعة ، ونخلا وقصوراً ، وإذا هو بشيخ قاعد تحت نخلة سحوق[3] ، يرتجز ، ويقول :

تَقَاصَرِى ، أَجْنِ جَنَاكِ قَاعِدَا ... إِنِّى أَرَى حَمْلَكِ يَنْمِى[4] صَاعِدَا

---

(١) امرأة من قبيلة جديس كانت تبصر الشىء من مسيرة ثلاثة أيام ، وقد حذرت قومها من هجوم حمير فلم يصدقوها حتى صبحهم حسان فاجتاحهم وأخذ الزرقاء فشق عينيها .

(٢) العنزة بالكسر : نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون .

(٣) النخلة الطويلة الجرداء التى يبعد ثمرها على المجتنى .

(٤) ينمى : يرتفع .

فقال له عبد العُزّى : مَنْ أنت أيها الشيخ ؟ قال : أنا من هِزّان ، الضراغمة الأقران ، غزانا ذو جَيْشان ، الملك القَرْم[١] اليمان ، فأعمل فيها المُرّان[٢] ، فلم يبق بهذا المكان غيرى ، وإنى لَفانٍ . فقال عبد العُزّى : ومَنْ هِزّان ؟ قال : هِزّان بن طسم أخو النُّهَى والحَزْم ، وابن الشجاع القرم .

فأقام عبد العُزّى أياما ، ثم تبرّم بمكانه ، فمضى سائرا حتى سقط إلى البحرين ، فرأى بلاداً أوسع من اليمامة ، وبها مَنْ وقع إليها من ولد كَهْلان ، حين هربوا من سيل العرم[٣] ، فأقام معهم ؛ وسارت بنو حنيفة على ذلك السمت ، يتبعون مواقع الغيث ، وتقدمهم عُبيد بن يربوع ، وكان سيدهم ؛ فنزل قريباً منهما ، فمضى غلام له ذات يوم حتى هجم على اليمامة ، فرأى نخلا وريفا ، وإذا هو بشيء من تمر قد تناثر تحت النخل ، فأخذه ، وأتى به عُبيدا ، فأكل منه ، فقال : وأبيك إن هذا الطعام طيب . فارتفع حتى أتى اليمامة ، فدفع فرسه ، فخطّ على ثلاثين دارا وثلاثين حديقة ، فسمى ذلك المكان حَجْرا ، فهو اليوم قصبة اليمامة ، وموضع ولاتها ، وسوقها ؛ وتسامعت بنو حنيفة بما أصاب عُبيد بن يربوع ، فأقبلوا حتى أتوا اليمامة ، فقطنوها ؛ فعقبُهم بها إلى اليوم . قال : وكان داود النبي عليه السلام فى عصر ذى الإذعار ، وكان ملك العجم كيخَسْرُو بن سِياوُش .

[داود الملك]

وكان سلطان بنى إسرائيل قد وَهَى ، فكان من حولهم من الأمم يغزونهم ، فيقتلون ، ويأسرون ، فأتوا نبيهم شمعيا ، فقالوا : « ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً ، نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ »[٤] . فملّك عليهم طالوت ، وكان من سبط يوسف صلى الله عليه وسلم[٥] ،

(١) السيد ، والرئيس ؛ فهويشبه القرم من الإبل فى عظم شأنه . (٢) الرماح الصلبة اللدنة .

(٣) العرم : السيل الذى لا يطاق ، وكان قوم سبأ فى نعمة وجنان كثيرة ، فلم يشكروا نعمة الله ، فبعث الله عليهم جرذا نقبت سدادهم ، فيه أبواب ، فانبثق الماء ، فغرقت جناتهم .

(٤) الآية رقم ٢٤٦ من سورة البقرة . (٥) كذا فى الأصل

وكان الملك فى بيت يهـــوذا ؛ وقد كان بقى فى ذلك العصر من ولد عاد جالوت الجبار ، فسار غازياً لبنى إسرائيل فى جنوده ، فجمع طالوت بنى إسرائيل ، وخرج لمحاربته ، فمروا بالنهر الذى نهاهم طالوت عن شربه ، وشربوا منه إلا ثلاثمائة رجل وسبعة عشر رجلا ، عدد أهل بدر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان داود النبى حينئذ حدَث السنّ ؛ فلما تواقف الفريقان وضع داود — عليه السلام — حجراً فى قذّافة ، ثم فتَلَها ، ورماه ، فصكّ بين عينى جالوت ، فكانت نفسه فيه ، وانهزم جنوده ، وغنم بنو إسرائيل أموالهم ؛ فاجتمع بنو إسرائيل عند ذلك على تمليك داود صلى الله عليه وسلم ، وخَلْعِ طالوت برضى منه ؛ وداود من سبط يَهوذا بن يعقوب . قالوا : وكان ملك الروم فى ذلك العصر « دَقْيَنُوس » صاحب الفتْية أصحاب الكهف .

وذكر عن عبد الله بن الصامت ، قال : وجّهنى أبو بكر الصديق — رضى الله عنه —[1] سنة استُخْلِف إلى ملك الروم ، لأدعوه إلى الإسلام، أو آذنه بحرب ، قال ، فسرت حتى أتيت القسطنطينية ، فأذن لنا عظيم الروم ، فدخلنا عليه ، فجلسنا ، ولم نسلّم ؛ ثم سألنا عن أشياء من أمر الإسلام ، ثم صرفنا يومنا ذلك ؛ ثم دعا بنا يوماً آخر ، ودعا خادماً له ، فكلّمه بشىء ، فانطلق ، فأتاه بعتيدة[2] ، فيها بيوت كثيرة ، وعلى كل بيت باب صغير ، ففتح بابا ، فاستخرج خرقة سوداء ، فيها صورة بيضاء ، كهيئة رجل أجمل ما يكون من الناس وجها ، مثل دارة القمر ليلة البدر ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا أبونا آدم عليه السلام ؛ ثم ردّه . وفتح باباً آخر ، فاستخرج خرقة سوداء ، فيها صورة بيضاء ، كهيئة شيخ جميل الوجه ، فى وجهه تقطيب ، كهيئة المحزون المهموم ، فقال : أتدرون من هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا نوح ؛ ثم فتح باباً آخر ، فاستخرج خرقة سوداء، فيها صورة بيضاء[3] على صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى جميع الأنبياء ؛

---

(١) رضى الله عنه : زيادة . (٢) تَودُّج ميأ . (٣) خرم فى الأصل ، مقداره ورقة .

فلما نظرنا إليه بكينا ؛ فقال : ما لكم ؟ فقلنا : هذه صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : أبدينكم، إنها صورة نبيكم ؟ قلنا : نعم ، هى صورة نبينا ، كأنا نراه حيّا ، فطواها ، وردّها ، وقال : أما إنها آخر البيوت إلا أنى أحببت أن أعلم ما عندكم ؛ ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه خرقة سوداء ، فيها صورة بيضاء ، أجمل ما يكون من الرجال ، وأشبههم بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : وهذا إبراهيم ؛ ثم فتح بيتًا آخر ، فاستخرج صورة رجل آدَم [١]، كهيئة المحزون المفكّر ، ثم قال : هذا موسى بن عمران ؛ ثم فتح بيتًا آخر ، فاستخرج صورة رجل، له ضفيرتان ، كأنّ وجهه دارة القمر ، ثم قال : وهذا داود ؛ ثم فتح بيتًا آخر ، فاستخرج صورة رجل جميل على فرس ، له جناحان ، ثم قال : وهذا سليمان [٢] ، وهذه الريح تحمله ؛ ثم فتح بيتًا آخر ، فاستخرج صورة شاب جميل الوجه ، فى يده عكّازة ، وعليه مِدْرعة [٣] صوف ، ثم قال : وهذا عيسى ، روح الله ، وكلمته ، ثم قال : إن هذه الصورة وقعت إلى الإسكندر ، فتوارثها الملوك من بعده حتى أفضت إلىّ .

قالوا : وإن ذا الأذعار خرج فى جنوده ، يطلب بثأر أبيه ذى جيشان الذى سار إلى أرض فارس ، فحارب كيخسرو ، فقُتل فى المعركة ، فمات ذو الأذعار فى طريقه قبل أن يدرك ما أراد .

[ملك بلقيس]

فملكت اليمن عليهم الهَدْهَاد بن شُرَحْبيل بن عمرو بن مالك بن الرائش ، وكان الهَدْهَاد يلقّب بذى شَرْخ ، فأمر بجسم ذى الأذعار ، فحمل ، ورجع بقومه إلى أرض اليمن ، فأمر به ، فدفن بِصَنْعاء [٤] فى مقبرة الملوك . قالوا : وإن الهَدْهَاد

(١) أحمر ، والأدمة ، فى الناس ، السمرة ، وفى الظباء ، لون مشرب بياضا ، وفى الإبل ، لون مشرب سوادا .   (٢) سليمان : سليمن .

(٣) جبة مشقوقة من المقدم، تلبس ، ولا تكون إلا من الصوف .

(٤) العاصمة الحالية لمملكة اليمن .

تزوّج ابنة ملك الجن بأرض اليمن ، فولدت له بلقيس ، وهذا حديث منتشر ، قد حملته الرواة .

قالوا : فلما أتى لها ثلاثون سنة حضر الهَدْهَاد الموت ، فجمع وجوه حمير ، فقال : يا قوم ، إنى قد مجمت الناس ، واختبرت أهل الرأى والعقل ، فلم أرَ مثل بلقيس ، وإنى قد وليتها أمركم ، لتقيم لكم الملك إلى أن يبلغ ابن أخى ياسر يَنْعَم بن عمرو ، فرضوا بذلك ، فملكت بلقيس .

[ملك سليمان]

وفى أول ملكها توفى داود، عليه السلام ، وورث سليمان ملكه ، وذلك كله فى عصر كيخسرو بن سياوش ؛ فلما ملك سليمان سار من أرض الشام إلى أرض العراق بأهله وخزائنه ، فلحق بخُراسان ، فنزل مدينة بَلْخ[1] ؛ وكان هو الذى بناها قبل ذلك ، وأقبل سليمان حتى نزل العراق ، فبلغ كيخسرو نزول سليمان بأرض العراق ، وما أعطى من عظيم السلطان ، فدخله فزع، وأسف خامره ، فنهكه ، فلم يلبث إلا قليلا حتى مات .

وإن سليمان سار من العراق إلى مَرْو[2] ، ثم سار منها إلى بلخ ، ثم سار من بلخ إلى بلاد الترك ، فوغل فيها ، وجاوزها إلى بلاد الصين ، ثم عطف مُتيامِنا عن مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى القِنْدِهار[3] ، ثم سار منها إلى كَسْكَر[4] ، ثم عاد إلى الشام، فوافى تَدْمُر ، وكانت موطنه .

قالوا : ووُجِد فى صخر بكسكر :

غَدَوْنَا طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ أَرْضِ فَارِسٍ

فَهَا نَحْنُ قَدْ قِلْنَا بِبَلْدَةِ كَسْكَرِ

---

(١) مدينة مشهورة بخراسان ، من أجل المدن بها ، وأكثرها غلة ؛ وقد افتتحها الأحنف ابن قيس فى أيام عثمان بن عفان، وينسب إليها خلق كثير ، منهم الحسن بن شجاع ؛ المحدث المشهور

(٢) مدينة بفارس .

(٣) القندهار : بلد على بعد ٣٠٠ ك.م. من كابل عاصمة أفغانستان ، ولها أهمية تجارية كبيرة لوقوعها بين الهند وإيران . (٤) كسكر : كورة بين البصرة والكوفة، عاصمتها واسط .

وَنَحْنُ وَلَا حَـوْلَ سِوَى حَوْلِ رَبِّنَا
نَرُوحُ إِلَى الْأَوْطَانِ مِنْ أَرْضِ تَدْمُرِ[١]

وكان داود عليه السلام ابتدأ بناء مسجد بيت المقدس ، فتوفى قبل استتمامه ، فاستتمه سليمان ، وأتم بناء مدينة إيليا[٢] ؛ وقد كان أبوه ابتدأها قبله ، فبنى مسجدها بناء لم ير الناس مثله ، وكان يضىء فى ظلمة الليل الحِنْدِس إضاءة السراج الزاهر ، لكثرة ما كان جعل فيه من الجواهر والذهب ، وجعل اليوم الذى فرغ فيه منه عيداً فى كل سنة ، فلم يكن فى الأرض عيد أبهى ولا أعظم خطراً منـه ، ولا أحسن منظرا ؛ فلم يزل المسجد على ما بناه سليمان حتى غزا « بُخْتُ نَصَّر » بَيْتَ المَقْدِس ، فأخْرَبَها ، ونقض المسجد ، وأخذ ما كان فيـه من الذهب والفضة والجوهر ، فَنَقَلَه إلى العراق .

قالوا : وكان سليمان مِطعاما للطعام ، فكان يُذبح فى مطابخه كل غداة ستةُ آلاف ثور ، وعشرون ألف شاة . قالوا : ولما فرغ سليمان من بناء مسجد إيليا[٣] تجهز سائراً إلى تِهَامَة[٤] ، يريد بيت الله الحرام ، فطاف به ، وكساه ، وذبح عنـده ، وأقام سبعا ، ثم سار إلى صَنْعاء ، وتفقّد الطير ، فلم ير الهُدْهُد ؛ فكان من حديثه وحديث صاحبة سبأ — وهى بلقيس — ما قد قصه الله تبارك وتعالى فى كتابه[٥] ، إلى أن تزوّجها ، وبنى بأرض اليمن ثلاثة حصون ، لم ير الناس مثلها ، وهى سَلْحِين ، وبَيْنُون ، وغُمْدان ؛ وانصرف سليمان إلى الشام ، فكان يزورها فى كل شهر ، فيقيم عندها ثلاثا .

وإنه غزا بلادالمغرب: الأندلس، وطَنْجَة، وفَرَنْجَة، وإفْرِيقِيَة، ونواحيها من أرض

---

(١) تدمر : مدينة بأرض الشام . (٢) اسم قديم لمدينة القدس.

(٣) إلى هنا ينتهى الخرم فى الأصل .

(٤) تهامة: أرض بالجزيرة العربية ما بين ذات عرق إلى مرحلتين من مكة ، وذات عرق أول تهامة إلى البحر وجدة ، وتذكر بعض الكتب العربية ، أنها مكة .

(٥) سورة النمل ، الآيات من رقم ٢٠ إلى رقم ٤٤ .

بنى كَنْعان بن حام بن نوح ؛ وعليهم ملك جبار عاتٍ ، عظيمُ المُلك ، فدعاه إلى الإيمان بالله ، وخلع الأنداد ، فتمرّد عليه ، فقتله ؛ وأصاب ابنة له من أجمل الناس ، فتسرّاها ، ووقعت منه موقعا لطيفا .

وقفل إلى الشام ، فأمر بمقصورة ، فبنيت لها ، وأفردها فيها مع ظئورتها[1] وخدمها ، وكان سليمان لا يدخل عليها إلا وجدها باكية حزينة ، فكدر ذلك عليه حبه لها ، وعجبه بها ، وهى المرأة التى نال سليمان فى أمرها ما ناله من سلب ملكه ، وزوال سلطانه وبهائه ، حين اتخذت تلك المرأة تمثال أبيها فى داره ، وعبدته سرًّا من سليمان ؛ إلا أن اتخاذها التمثال كان عن علم من سليمان ، وأذن لها ؛ أراد بذلك أن تسكن إذا نظرت إليه ، فتتسلى .

ويقال : إن سليمان بنى فى أقاصى بلاد المغرب مدينة من نحاس فى مناوز الأندلس ، وأودعها خزائن من خزائنه ؛ وإن عبد الملك بن مروان كتب إلى عامله على بلاد المغرب ، موسى بن نُصير — وكان من أبناء العجم ، غير أن ولاءه كان لقيس — يأمره بالسير إلى هذه المدينة ليعلم له علم خبرها ، ويكتب إليه ، وإن موسى بن نصير سار إليها ، وانصرف راجعا حتى سار إلى القَيْرَوان ، وكتب بالخبر إلى عبد الملك ، يصف له المدينة ، وما لقى فى سفره إليها ، وما رآه عند مسيره نحوها .

[أرخبعم بن سليمان]

قالوا : ولما توفى سليمان قام بالأمر بعده أَرْخَبْعَم بن سليمان ، فتفرقت بنو إسرائيل ، ووهى أمره ، فمكث بذلك إلى أن سار « بخت نصّر » — وهو « بُوخْتَ نَرْسَى » عند العجم — إلى بيت المقدس ، فهدمه .

[انقسام امبراطورية سليمان]

قالوا : وقام باليمن بعد بلقيس ياسر ينعم بن عمر بن شَرَحْبِيل بن عمرو ، وكان

---

(١) الظئر مهموز ، الأنثى العاطفة على غير ولدها ، المرضعة له .

ابن أخي الهدهاد ؛ وإنما سمي ياسر ينعم لإنعامه على قومه . قالوا : وإن ياسر ينعم تجهّز غازياً لأرض المغرب ، حتى بلغ وادي الرَّمْل ، ولم يبلغه ملك قبله ، فأراد أن يعبره ، فلم يجد مجازا ، لأنه رمل فيما زعموا ، يجري كما يجري الماء ، فعسكر على حافته ، ونصب عليه صنما ، وكتب على جبهته «ليس ورائي مذهب ، فانصرفْ» ، وانصرفَ إلى بلاده .

[هدم مدينة « إيليا »]

قالوا : وإن فارسَ لما مات سليمان بن داود اجتمع عظماؤها وأشرافها ليختاروا رجلًا من ولد كَيْقُباذ الملك ، فيملّكوه عليهم ، فوقعت خيرتهم على لُهْرَاسِف ابن كَيْمِيس بن كَيَابِنَه بن كيقباذ الملك ، فملّكوه عليهم ، وإن لُهْرَاسف عقد لابن عمه ، بخت نصّر بن كانْجار بن كَيَابِنَه بن كيقباذ في اثني عشر ألف رجل من خيله ، وأمره أن يأتي الشام فيحارب أُرْخَبْعَم بن سليمان ، فإن كان الظفر له قتل من قدر عليه من عظماء إسرائيل ، وهدم مدينة إيليا ؛ فسار بخت نصّر حتى أتى الشام ، فشنّ فيها الغارات ، وعاث ؛ فانهزم ملوك الشام منه ، وهرب أُرْخَبْعَم من بيت المقدس ، فنزل فِلَسْطِين ، فتوفي بها .

وأقبل بخت نصّر حتى ورد مدينة بيت المقدس ، فدخلها لا يمتنع منه أحد ، فوضع في بني إسرائيل السيف ، وسبى أبناء الملوك والعظماء ، وهدم مدينة إيليا ، فلم يدع فيها بيتا قائما ، ونقض المسجد ، وحمل ما كان فيه من الذهب والفضة والجوهر ، وحمل كرسي سليمان ، وقفل راجعا إلى العراق ؛ وكان في السبي دانيال النبي عليه السلام ، فسار حتى قدم على لُهْرَاسف الملك ، وهو نازل بالسوس[1] ، فمات دانيال عنده بالسوس .

[ملك العجم واليمن]

قالوا : ولما حضر لُهْرَاسف الموت أسند الملك إلى ابنه بُشْتَاسِف ، وفي ذلك

(١) مدينة قديمة بأرض فارس ، تقع بإيالة خوزستان ، وقد اتخذها ملوك الفرس مشتى لهم .

المصر مات ياسر ينعم صاحب اليمن ، وقام بالأمر بعده شَمِر بن إفريقيس بن أبرهة ابن الرائش ، وهو الذى يزعمون أنه أتى الصين وهدم مدينة سَمَرْقَنْد[١] ، فيزعمون أن وزير صاحب الصين مكر به ؛ وذلك أنه أمر الملك أن يجدعه ويخلى سبيله ، فسار الأجدع إلى شمر ، فأخبره أنه نصح لصاحبه ، يعنى ملك الصين ، وأمره بالنجوع[٢] لشمر ، وإعطائه الطاعة والإتاوة ، فغضب عليه ، وجدعه ، وأنه سار إلى شمر ليدلّه على عورة صاحب الصين جزاء بما فعل به ، فَاغْتَرَّ شمر بذلك ، وسأله عن الرأى ، فقال : إن بينك وبينه مفازة ، تقطع فى ثلاثة أيام ، ومأتاه منها قريب ، فاحمل الماء لثلاثة أيام ، وسِرْ حتى أفاجئه بك من كَثَب ، فتستبيح بلده ، وتأخذه سِلْمًا ، وأهله ، وماله . ففعل ؛ فسلك به مفازة لا تُرام ؛ فلما ساروا ثلاثة ، ونفد الماء ، ولم يروا عَلَمًا ، ولا انتهوا إلى ماء ، قالوا له : أين ما زعمت ؟ ، فأعلمه أنه مكر به ، ووقى أهل بيته بنفسه ، لأنه قد علم أنه سيقتله ، وقال قد أهلكتك ، فاصنع ما أنت صانع ، فمالك ولمن تبعك فى الحياة[٣] مطمع . فوضع شمر دِرْعه[٤] تحت رأسه ، وتُرْس[٥] حديد كان معه فوق رأسه ، يستكِنّ به من الشمس .

قالوا : وقد كان المنجمون قالوا له ، إنك تموت بين جبلى حديد ، فمات بين درعه وترسه عطشا ، فلم يبق من جنوده أحد إلا هلك ، وقد سمعنا نحن بهذا الحديث فى غير قصة شمر .

(١) بلد فى أرض كسكر فيما وراء نهر جيحون ، وهى من البلاد المشهورة فى التاريخ القديم ، ويقال إنها سميت باسم الذى بناها ، شمر أبو كرب ، ثم عربها العرب فى كلامهم إلى سمرقند .

(٢) النجوع : الإتيان ، ونجع فلانا إذا أتاه طالبا معروفه .

(٣) الحياة : الحيوة .

(٤) الدرع : قميص من حديد يتدرع به فى الحرب .

(٥) الترس من السلاح : ما يتوقى به .

[زرادشت ودعوته]

قالوا : وكان زَرَادُشْت صاحب المجوس أتى بُشْتَاسِف الملك ، فقال : إنى رسول الله إليك ، وأتاه بالكتاب الذى فى أيدى المجوس ، فآمن له بُشْتَاسِف ، ودان بدين المجوسيّة ، وحمل عليه أهلَ مملكته ، فأجابوه طوعاً وكرهاً .

وكان رُسْتُم[1] الشديد عامله على سِجِسْتَان[2] وخراسان ، وكان جباراً مديد القامة ، شديد القوة ، عظيم الجسم ؛ وكان ينتمى إلى كيقباذ الملك ، ولما بلغه دخول بُشْتَاسِف فى المجوسية ، وتركه دين آبائه غضب من ذلك غضباً شديداً ، وقال : ترك دين آبائنا الذى توارثوه آخراً عن أول ، وصَبا إلى دين محدث .

ثم جمع أهل سِجِسْتان ، فزيّنَ لهم خلع بُشْتَاسِف ؛ وأظهروا عصيانه ؛ فدعا بُشْتَاسِف ابنه « أسفَنْدِياذ » وكان أشد أهل عصره ، فقال له : يا بنى ، إن المُلْك مفض إليك وشيكا ، ولا تصلح أمورك كلها إلا بقتل رُسْتُم ؛ وقد عرفت شدته وقوته ، وأنت نظيره فى الشدة والقوة ، فانتخب من الجنود ما أحببت ، ثم سِرْ إليه .

فانتخب أسفَنْدِياذ من جنود أبيه اثنى عشر ألف رجل من أبطال العجم ، وسار نحو رستم ، وزحف إليه رستم ، فالتقيا ما بين بلاد سِجِسْتان وخراسان ، فدعاه أسفَنْدِياذ إلى إعفاء الجيشين من القتال ، وأن يبرز كل واحد منهما لصاحبه ، فأيهما قتل صاحبه استولى على أصحابه ؛ فرضى رستم بذلك ، وعاهده عليه ،

---

(١) رستم : بطل فارسى مشهور ، أفرد لبطولته فى الشهنامة فصول تعتبر من أروع فصول الكتاب .

(٢) سجستان : ولاية واسعة، مدينتها فرنج، وبينها وبين هراة ثمانون فرسخا إلى الجنوب، وأرضها رملة، والرياح فيها لا تسكن ، وهى واقعة الآن بين إيران وأفغانستان وعاصمتها نصرتاباد ، وفيها نشأ رستم بطل إيران الأسطورى ، وإليها ينسب أبو حاتم السجستانى اللغوى المعروف .

وحالفه ، فوقف العسكران ، وخرج كل واحد منهما إلى صاحبه ، فاقتتلا بين الصفين ؛ فيقول العجم فى ذلك قولاً كثيراً ، إلا أن رستم هو الذى قتل أسفَنْدِياذ ، وانصرف جنوده إلى أبيه بُشْتَاسِف ، فأخبروه بمصاب ابنه أسفَنْدِياذ ؛ فخامره حزن أنهكه ، فرض من ذلك ، فمات ؛ وأسند الملك إلى ابن ابنه بَهْمَن ابن أسفَنْدِياذ .

قالوا : ولما رجع رستم إلى مستقره من أرض سِجِسْتان لم يلبث أن هلك .

[ملك اليمن]

قالوا : وإن أهل اليمن لما بلغهم مهلك شَمِر وجنوده بأرض الصين اجتمعوا ، فملكوا عليهم أبا مالك بن شمر ، وهو الذى ذكره الأعشى فى قوله :

وَخَانَ النَّعِيمُ أَبَا مَالِكٍ   وَأَىُّ امْرِئٍ صَالِحٍ لَمْ يُخَنْ

وهو الذى يزعمون أنه هلك فى طرف الظُّلمة[1] التى فى ناحية الشمال ، فدفن على طرفها .

قالوا : وذلك ، أنه بلغه مسير ذى القرنين إليها ، وأنه أخرج منها جوهراً كثيراً ؛ فتجهّز يريد الدخول فيها ، فقطع إليها أرض الروم ، وجاوزها حتى انتهى إلى طرف الظلمة ، وتهيأ لاقتحامها ، فمات قبل أن يدخلها ، فدفن فى طرفها ، فانصرف من كان معه إلى أرض اليمن .

[ملك العجم ، وخلاص بنى إسرائيل]

قالوا : وملك بهمن بن أسفَنْدِياذ ، فأمر ببقايا ذلك السبى الذى سباهم بخت نصّر من بنى إسرائيل ، أن يَرُدُّوا إلى أوطانهم من أرض الشام ، وقد كان تزوّج قبل أن يفضى المُلك إليه إبراخْت بنت سامال بن أَرْخَبْعَم بن سليمان بن داود ، وملّك « رُوبيل » أخا امرأته أرض الشام ، وأمره أن يُخرج معه من بقى من ذلك السبى ، وأن يعيد بناء إيليا ، ويسكنهم فيه ، كما لم يزالوا ، ويرد كرسي سليمان ،

(١) الأرض التى فى شمال البحر الأسود .

فينصبه مكانه ، فخرج روبيل بذلك السبي ، حتى ورد بهم إيليا ، وأعاد بناءها ، وبنى المسجد . وسار بَهْمَن إلى سِجِسْتان ، وقتل من قدر عليه من ولد رستم وأهل بيته ، وأخرب قريته .

قالوا : وقد كان بَهْمَن دخل فى دين بنى إسرائيل ، فرفضه أخيراً ، ورجع إلى المجوسية ، وتزوج ابنته « خُمانَى » وكانت أجمل أهل عصرها ، فأدركه الموت وهى حامل منه ، فأمر بالتاج فوُضع على بطنها ، وأوعز إلى عظماء أهل المملكة أن ينقادوا لأمرها حتى تضع ما فى بطنها ، فإن كان غلاماً أقروا الملك فى يدها إلى أن يشب ويدرك ، ويبلغ ثلاثين سنة ، فيسلم له الملك .

قالوا : وكان ساسان بن بَهْمَن يومئذ رجلًا ذا رُواء وعقل وأدب وفضل ، وهو أبو ملوك الفرس من الأكاسرة ، ولذلك يقال لهم الساسانية ، فلم يشك الناس أن المُلك يفضى إليه بعد أبيه ، فلما جعل أبوه المُلك لابنته خُمانَى أنف من ذلك أنفاً شديداً ، فانطلق ، فاقتنى غنما ، وصار مع الأكراد فى الجبل ، يقوم عليها بنفسه ، وفارق الحاضِرة غيظاً من تقصير أبيه .

قالوا : فمن ثمّ يُعيّر ولد ساسان إلى اليوم برعى الغنم ، فيقال ساسان الكُردى ، وساسان الراعى .

[خمانى زوج بهمن]

فملكت خُمانَى ، فلما تم حملها وضعت غلاما ، وهو دارا بنُ بَهْمَن ، ثم إنها تجهزت غازية لأرض الروم ، فسارت حتى أوغلت فى بلاد الروم ، وخرج إليها ملك الروم فى جنوده ، فالتقوا ، واقتتلوا ، فكان الظفر لخمانَى ، فقتلت ، وأسرت ، وغنمت ؛ فقفلت وقد حملت معها بنّاءين من بنّائى الروم ، فبنوا لها بأرض فارس ثلاثة إيوانات[1] : أحدها وسط مدينة اصْطَخْر[2] ، والثانى على المدرجة

---

(١) جمع إيوان ، وهو البناء ذو الصفة العظيمة.

(٢) عاصمة إيالة فارس ، وفيها نشأ بعض علماء المسلمين .

التى يسلك فيها من إصطخر إلى خراسان ، والثالث على طريق « دَارَا بجِرْد » على فرسخين من إصطخر .

[دارا بن بهمن]

فلما أتى لابنها دَارَا ثلاثون سنة جمعت عظماء المملكة ، ودعت بابنها دَارَا ، فأقعدته على سرير الملك ، وتوّجته بالتاج ، وولّته الأمر .

[ملك تبّع بن أبي مالك]

قالوا : ولما هلك أبو مالك بطرف الظلمة اجتمع أشراف أهل اليمن ، فملّكوا أمرهم ابنه تُبّع الأقْران وإنما سمى لنجدته تبعَ الأقران ، وقد قيل : بل هو تبّع الأقرن . كل ذلك يقال .

فلما ملك تجهّز يريد بلاد الصين طالبا بثأر أبيه وجده ، فسار إليها ، فمرّ بسمرقند ، وهى خراب ، فأمر ببنائها ، فأعيد ؛ ثم ركب المفازة حتى انتهى إلى بلاد التُبّت[1] ، فرأى مكانا واسعا ظاهر المياه مكلئا ، فابتنى هناك مدينة ، فأسكن فيها ثلاثين ألف رجل من أصحابه ، فهم التُبَّعِيُّون ، وزيُّهم إلى اليوم زىّ العرب ، وهيئتهم هيئة العرب ؛ ثم سار إلى أرض الصين ، فقتل ، وأخرب مدينة الملك ، فهى خراب إلى اليوم ؛ ثم قفل راجعا إلى اليمن ، وامتد ملكه ، إلى أن ملك الإسكندر ، فخرج الملك عنه ، فصار فى القاوِل . قالوا ، وفى ذلك العصر نشأ النَّضْر بن كِنانة .

[دارا والروم]

قالوا : وإن دارا بن بهمن لما ملك تجهز غازيا إلى أرض الروم ، فسار حتى أوْغل فى أرضهم ، فخرج إليه الفَيْلَقُوس ملك الروم فى جنوده ، فالتقوا ،

---

(١) التبت : سطح مرتفع فى آسيا الوسطى تقع بين خطى عرض ٢٧°، ٣٧° شمالا ، وبين خطى طول ٧٦°، ٩٦° شرقا ؛ وعاصمتها لهاسة .

فاقتتلوا ، فكان الظفر لدارا ، فصالحه الفيلفوس على إتاوة يؤديها إليه كل عام ، وهى مائة ألف بيضة ذهب ، فى كل بيضة أربعون مثقالا(١) ، وتزوج ابنته ؛ ثم انصرف إلى فارس .

[ملك داريوش]

فلما تم لدارا اثنتا عشرة سنة فى الملك حضرته الوفاة ، فأسند الملك إلى ابنه دارا بن دارا ، وهو الذى يعرف بداريوش ، مُقارع الإسكندر ، فلما أفضى الملك إلى دارا بن دارا تجبّر ، واستكبر ، وطغى . وكانت نسخة كتبه إلى عماله : من دارا بن دارا المضىء لأهل مملكته كالشمس إلى فلان . وكان عظيم السلطان ، كثير الجنود ، لم يبق فى عصره ملك من ملوك الأرض إلا يخضع له بالطاعة ، واتقاه بالإتاوة .

[نشأة الإسكندر]

ونشأ الإسكندر ؛ وقد اختلف العلماء فى نسبه ؛ فأما أهل فارس فيزعمون أنه لم يكن ابن الفَيْلَقُوس ، ولكن كان ابن ابنته ، وأن أباه دَارَا بن بَهْمَن .

قالوا : وذلك أن دَارَا بن بَهْمَن لما غزا أرض الروم صالح الفَيْلَقُوس ملك الروم على الإتاوة ، فخطب إليه دَارَا ابنته ، وحملها بعد تزويجها إياه إلى وطنه ، فلما أراد مباشرتها وجد منها ذَفَرًا(٢) ، فعافها ، وردّها إلى قيّمة نسائه ، وأمرها أن تحتال لذلك الذّفر ، فعالجتها القيّمة بحشيشة ، تسمى السَّنْدَر ، فذهب عنها بعض تلك الرائحة ، ودعا بها دَارَا ، فوجد منها رائحة السَّنْدَر ، فقال : آل سَنْدَر . أى ما أشد رائحة السَّنْدَر ، وآل ، كلمة فى لغة فارس يراد بها الشدة ؛ وواقعها ، فعلقت منه ؛ ونبا قلبه عنها لتلك الذُّفرة التى كانت بها ، فردّها إلى أبيها

---

(١) المثقال : درهم وثلاثة أسباع الدرهم .

(٢) الذفر : الريح النتنة الكريهة .

الفَيْلَقُوس ، فولدت الإسكندر ، فاشتقت له اسماً من اسم تلك العُشبة التي عولجت بها ، على ما سمعت دَارَا قاله ليلة واقعها ، فنشأ الإسكندر غلاما لبيبا أديبا ذهِنا ؛ فولّاه جدّه الفَيْلَقُوس جميع أمره لما رأى من حزمه وضبطه ما رأى . ولما حضر الفَيْلَقُوس الوفاة أسند المُلك إليه ، وأوعز إلى عظماء المملكة بالسمع والطاعة له .

[غلبة الإسكندر]

فلما ملك الإسكندر لم تكن له همّة إلا مُلك أبيه دَارَا بن بَهْمَن ، فسار إلى أخيه دَارَا بن دَارَا ، فحاربه على المُلك . وأما علماء الروم فيأبون هذا ، ويزعمون أنه ابن الفَيْلَقُوس اصابه ، وأنه لما مات الفَيْلَقُوس وأفضى المُلك إلى الإسكندر امتنع على دارا بن دارا بتلك الضريبة التي كان يؤديها أبوه إليه .

فكتب إليه دَارَا بن دَارَا يأمره بحمل تلك الإتاوة، ويعلمه ما كان بين أبيه وبينه من الموادعة عليها ، فكتب إليه الإسكندر « إن الدجاجة التي كانت تبيض ذلك البيض ماتت » . فغضب دَارَا من ذلك ، وآلى ليغزُوَنّ أرض الروم بنفسه حتى يخربها ؛ فلم يحفل الإسكندر بذلك ، ولم يعبأ به ؛ وكان الإسكندر جبّارا معجبا ، وقد كان عتا في بدء أمره عتوًّا شديدا ، واستكبر .

وكان بأرض الروم رجل من بقايا الصالحين في ذلك العصر ، حكيم فيلسوف ، يسمّى «أرسطاطاليس» ، يوحّد الله ، ويؤمن به ، ولا يشرك به شيئاً ؛ فلما بلغه عتو الإسكندر وفظاظته وسوء سيرته أقبل من أقاصي أرض الروم حتى انتهى إلى مدينة الإسكندر ، فدخل عليه ، وعنده بطارقته[1] ، ورؤساء أهل مملكته ، فمثل قائماً بين يديه غير هائب له ، فقال له : أيها الجبّار العاتي ، ألا تخاف ربك الذي خلقك ، فسوّاك وأنعم عليك ، ولا تعتبر بالجبابرة الذين كانوا قبلك ، كيف أهلكهم الله حين قلّ شكرهم، واشتد عتوّهم ... ؟!. في موعظة طويلة .

---

(١) البطارقة : جمع بطريق ، وهو الحاذق بالحرب وأمورها .

فلما سمع الإسكندر ذلك غضب غضباً شديداً ، وهمّ به ، ثم أمر بحبسه ليجعله عظة لأهل مملكته . ثم إن الإسكندر راجع نفسه ، وتدبّر كلامه لما أراد الله به من الخير ، فوقع منه فى نفسه ما غيّر قلبه ، فبعث إليه على خلاء ، فأصغى إليه ، واستمع لموعظته وأمثاله وعبره ، وعلم أن ما قال هو الحق ، وأن ما خلا الله من معبود باطل ، فارعوى واستجاب للحق ، وصح يقينه ؛ فقال لذلك العابد : فإنى أسألك أن تلزمنى ، لأقتبس من علمك ، وأستضىء بنور معرفتك . فقال له : إن كنت تريد ذلك فاحسم أتباعك من الغشم والظلم وارتكاب المحارم .

فتقدم الإسكندر بذلك ، وأوعد فيه ؛ وجمع أهل مملكته ورؤساء جنوده ، فقال لهم : اعلموا أنا إنما كنا نعبد إلى هذا اليوم أصناما ، لم تكن تنفعنا ولا تضرنا . وإنى آمركم ، فلا تردّوا علىّ أمرى ، وأرضى لكم ما أرضاه لنفسى ، من عبادة الله وحده لا شريك له ، وخَلْع ما كنا نعبده من دونه ؛ فقالوا بأجمعهم : قد قبلنا قولك ، وعلمنا أن ما قلت الحق ، وآمنا بإلهك وإلهنا .

فلما صحّت له نيّات خاصّته ، واستقامت له طريقتهم ، وطابقوه على الحق أمر أن يعلن للعامة ، إنا قد أمرنا بالأصنام التى كنتم تعبدونها أن تكسر ، فإن ظننتم أنها تنفعكم أو تضركم فلتدفع عن أنفسها ما يحل بها ، واعلموا أنه ليس لأحد عندى هوادة فى مخالفة أمرى ، وعبادة غير إلهى ، وهو الإله الذى خلقنا جميعا . ثم أمر بتفريق الكتب بذلك فى شرق الأرض ، وغربها ، ليعامل الناس على قدر القبول والإباء ، فمضت رسله بكتبه بذلك إلى ملوك الأرض .

فلما انتهى كتابه إلى دَارَا بن دَارَا غضب من ذلك غضبا شديدا ، وكتب إليه :

« من دَارَا بن دَارَا المضىء لأهل مملكته كالشمس إلى الإسكندر بن الفَيْلَقُوس ؛ إنه قد كان بيننا وبين الفَيْلَقُوس عهد ومهادنة على ضريبة ، لم يزل يؤدّيها إلينا أيام حياته ؛ فإذا أتاك كتابى هذا فلا أعلمن ما بطّأت بها ، فأذيقك وبال أمرك ، ثم لا أقبل عذرك ، والسلام » .

[دارا والإسكندر]

فلما ورد كتابه على الإسكندر جمع إليه جنوده ، وخرج متوجهاً نحو أرض العراق ، وبلغ ذلك دَارَا بن دَارَا ، فأحرز خزائنه وحرمه وأولاده فى حصن هَمَذان ، وكان من بنائه ، ثم لقى الإسكندر جادًّا مستنفراً ، فواقعه وقائع كثيرة ، لم يجد الإسكندر مطمعاً فيه ، ولا فى شيء منها ؛ ثم إنه دسّ إلى رجلين من أهل همذان ، كانا من بطانته وخاصة حرسه ، وأرغبهما ، فرغبا ؛ وغدرا بدارا : أتياه من ورائه حين صافّ الإسكندر فى بعض أيامه ، ففتكا به ، وانفضّت جموع دَارَا ، وأقبل الإسكندر حتى وقف على دَارَا صريعا ، فنزل ، فجعل رأسه فى حجره ، وبه رمق ، فجزع عليه ، وقال : « يا أخى ، إن سلمت من مصرعك خليت بينك وبين ملكك ، فاعهد إلىّ بما أحببت ، أفِ لك به » .

فقال دَارَا : « اعتبر بي[1] ، كيف كنت أمس ، وكيف أنا اليوم ؛ ألستُ الذى كان يهابنى الملوك ، ويذعنون لى بالطاعة ، ويتقوننى بالإتاوة ؟ وها أنا [ذا] اليوم صريع فريد بعد الجنود الكثيرة والسلطان العظيم » .

فقال الإسكندر : « إن المقادير لا تهاب ملكاً لثروته ، ولا تحقر فقيراً لفاقته ، وإنما الدنيا ظل يزول وشيكا ، وينصرم سريعا » .

قال دَارَا : « قد علمت أن كل شيء بقضاء الله وقدره ، وأن كل شيء سواه فانٍ ، وأنا موصيك لمن خلّفت من أهلى وولدى ، وسائلك أن تتزوج « رُوشَنَك » ابنتى ، فقد كانت قرة عينى وثمرة قلبى » .

فقال الإسكندر : « أنا فاعل ذلك ، فاخبرنى من فعل هذا بك ، لأنتقم منه » .

فلم يحر فى ذلك جواباً دَارَا ، واعتقل لسانه بعد ذلك ، ثم قضى ؛ فأمر الإسكندر بقاتليه ، فصابا على قبر دارا ، فقالا : أيها الملك ، ألم تزعم أنك ترفعنا على جنودك ؟! قال : قد فعلت .

---

(١) اعتبر بي : اعتبرنى .

ثم أمر بهما ، فرُجما حتى ماتا . ثم كتب إلى أم دَارَا وامرأته بالتعزية ، وهما بمدينة هَمَذان ؛ وكتب إلى أمه وهى بالإسكندرية أن تسير إلى أرض بابل ، فتُجَهِّز رُوشَنَك بنت دَارَا بأحسن جهاز ، وتوجّهها إليه إلى أرض فارس ، ففعلت .

[فتوح الإسكندر]

ثم شخص الإسكندر نحو « فوْر » ملك الهند ، فالتقيا على تخوم[1] أرض الهند ، وإن الإسكندر دعا « فوْرا » إلى البراز ، وألّا يقتل الجمعان ، بعضُهم بعضا بينهما ، فاهتَبَلها[2] منه فوْر ، وكان رجلًا مديدًا عظيماً أيِّدًا قويا ؛ فرأى الإسكندر قليلًا قضيفاً[3] ، وبرز إليه ، فأجلى النَّقْع عن فوْر قتيلا ، واستسلم له جنوده فقبل سلمهم .

وسار حتى دخل أرض السودان ، فرأى ناسًا كالغِربان ، عُراة ، حُفاة ، يهيمون فى الغِياض ، ويأكلون من الثمار ، فإن اسْتَنُّوا[4] وأجدبوا أكل بعضهم بعضا ، فجاوزهم حتى انتهى إلى البحر ، فقطع إلى ساحل عدن من أرض اليمن ، فخرج إليه تبّع الأقرن ملك اليمن ، فأذعن له بالطاعة ، وأقر بالإتاوة ، وأدخله مدينة صنعاء ، فأنزله ، وألطَفَه[5] من ألطاف اليمن ، فأقام شهرا .

[الإسكندر فى مكّة]

ثم سار إلى تِهامة ، وسُكّان مكّة يومئذ خُزاعة ، قد غلبوا عليها ، فدخل عليه النَّضْر بن كِنانة ، فقال له الإسكندر : ما بال هـذا الحى من خزاعة نزولًا بهذا

---

(١) التخوم : الفصل بين الأرضين من الحدود والمعالم . (٢) الاهتبال : الاغتنام .
(٣) القضف : النحافة . (٤) أصابتهم سنتهم بالجفاف وقلة الغلة .
(٥) ألطف له ، وألطفه ، أحسن إليه وبرّه .

الحرم ؟ ، ثم أخرج خزاعة عن مكة ، وأخلصه للنضر ، ولبنى أبيــه ، وحجّ الإسكندر بيت الله الحرام ، وفرّق فى ولد معد بن عدنان ، القاطنين بالحرم ، صلاتٍ وجوائز . ثم قطع البحر من جُدّة يؤمّ بلاد المغرب .

[الإسكندر فى بلاد المغرب]

وروى عن ابن عباس : أن نوحاً عليه السلام قسّم الأرض بين ولده الثلاثة ؛ فخصّ ساما بوسط الأرض التى تسقيه الأنهار الخمسة : الفُرات ، ودجْلة ، وسيْحان، وجَيحان[1] ، وفَيْشُون ، وهو نهر بلخ ؛ وجعل لحامٍ ما وراء النيل إلى منفح الدّبُور ؛ وجعل ليافث ما وراء فَيْشُون إلى منفَح الصّبا .

وقالوا : الأرض أربعــة وعشرون ألف فَرْسخ ، فبلاد الأتراك من ذلك ثلاثة آلاف فرسخ ، وأرض الخَزَر[2] ثلاثة آلاف فرسخ ، وأرض الصين ألفا فرسخ ، وأرضَ الهنــد والسند والحبشة وسائر السودان ستة آلاف فرسخ ، وأرض الروم ثلاثة آلاف فرسخ ، وأرض الصّقالبة ثلاثة آلاف فرسخ ، وأرض كَنْعان ، وهى مصر ، وما وراءها مثل إفْرِيقِيّة ، وطَنْجة ، وفَرَنْجَة ، والأندلس ثلاثة آلاف فرسخ ، وجزيرة العرب وما والاها ألف فرسخ .

قالوا : وبلغ الإسكندر أمر قِنْدَاقَة ملــكة المغرب ، وسعة بلادها ، وخصب أرضها وعظم ملــكها ، وأن مدينتها أربعة فراسخ ، وأن طول الحجر الواحد من سور مدينتها ستون ذراعا . وأُخبر عن حال قِنْدَاقَة وعقلها وحزمها ، فــكتب إليها : « من الإسكندر بن الفَيْلَقُوس الملك المسلّط على ملوك الأرض إلى قِنْدَاقَة ملــكة سَمُرَة ؛ أما بعد ، فقد بلغكِ ما أفاء الله علىّ به من البلاد ، وأعطانى من العِدّ

---

(١) سيحان وجيحان : نهران بأرض الأناضول قرب طرسوس .

(٢) الأرض المحيطة ببحر قزوين .

والنُّصرة ، فإن سمعتِ ، وأطعتِ ، وآمنتِ بالله ، وخلعتِ الأنداد التى تُعْبَدُ من دون الله ، وحملتِ إلىّ وظيفة الخراج ، قبلتُ منكِ وكففتُ عنكِ ، وتنكّبتُ أرضَكِ ، وإن أبيتِ ذلك سرتُ إليكِ ، ولا قوّة إلا بالله » .

فكتبت إليه : « إن الذى حملك على ما كتبت به فرط بغيك، وعجبك بنفسك ، فإذا شئتَ أن تسير فسر ، تذُق غير ما ذقْت من غيرى ، والسلام » .

فلما رجع جواب كتابه أرسل إليها بملك مصر ، وكان فى طاعته ، ليدعوها إلى الطاعة ، وينذرها وبال المعصية ، فسار إليها فى مائة رجل من خاصته ، فلم يجد عندها ما يحب ؛ فرجع إلى الإسكندر ، فأعلمه ، فتجهز الإسكندر إليهـا ، ومضى فى جنوده ، حتى انتهى إلى مدينة القَيْرَوَان[1] — وهى من مصر على شهر — فافتتحها بالمجانيق[2] ؛ ثم سار إلى القِنْدَاقَة ، فكانت له ولها قصص وأنباء ؛ فعاهدها على الموادعة والمسالمة ، وألا يطوّر بسلطانها وشىء مما فى مملكتها .

ثم سار من هناك قاصداً الظُّلمة التى فى الشمال ، حتى دخلها ، فسار فيها ما شاء الله ، ثم انكفأ راجعا حتى إذا صار فى تُخوم أرض الروم ابتنى هناك مدينتين ، يقال لإحداها ، قَاقُونية ، وللأخرى سُورِيّة .

[الإسكندر وبلاد الشرق الأقصى]

ثم همّ بالاجتياز إلى أرض الشرق ، فقال له وزراؤه : « كيف يمكنك الاجتياز إلى مطلع الشمس من هـذه الجهة ، ودون ذلك البحر الأخضر ، ولا تعمل فيه السفن ، لأن ماءه شبيه بالقَيْح ، ولا يصبر على نتن ريحه أحد ؟ » فقال : « لابد من المسير ، ولو لم أسر إلا وحدى » . قالوا : « نحن معك حيث سرت » . فسار حتى قطع أرض الروم ، يؤم مشرق الشمس ، ثم جاوزهم

---

(١) مدينة بتونس بناها عقبة بن نافع سنة ٥٥ هـ . واتخذت عاصمة لبلاد المغرب ، وبهـا جوامع كثيرة .

(٢) جمع منجنيق ، لفظة معربة من الفارسية ، وهو آلة للحرب ، ترمى بها الحجارة .

إلى أرض الصقالبة ، فأذعنوا له بالطاعة ، فجازهم إلى أرض الخزر ، فأذعنوا له ، فجازهم إلى أرض الترك ، فأذعنوا له ، فسار في أرضهم حتى بلغ المفازة التي بينهم وبين بلاد الصين ، فركبها ، وسار ، حتى إذا قرب من أرض الصين أجلس وزيراً له يقال له « فيناوس » في مجلسه ، وأمره أن يتسمى باسمه ، وتسمى هو فيناوس ، وقصد الملك حتى وصل إليه ، فلما دخل عليه قال له : « من أنت ؟ » قال : « أنا رسول الإسكندر ، المسلط على ملوك الأرض » ، قال : « وأين خلفته ؟ » ، قال : « على تخوم أرضك » ، قال : « وبماذا أرسلك ؟ » ، قال : « أرسلني لأنطلق بك إليه ، فإن أجبت أقرك في أرضك ، وأحسن حباءك[1] ؛ وإن أبيت قتلك ، وأخرب أرضك ، فإن كنت جاهلاً بما أقول ، فسل عن دارا بن دارا ملك إيران شهر ، هل كان في الأرض ملك أعظم ملكاً منه ، وأكثر جنودا ، وأقوى سلطانا ، وكيف سار إليه ، واغتصبه نفسه ، وسلبه ملكه ، وسل عن فور ملك الهند إلى ما آل أمره » .

قال ملك الصين : « يا فيناوس ، إنه قد بلغني أمر هذا الرجل ، وما أعطى من النصر والظفر ، وكنت على توجيه وفد إليه ، أسأله الموادعة ، وأصالحه على الهدنة ، فأبلغه ، أني له على السمع والطاعة ، وأداء الإتاوة في كل عام ، فليست به حاجة إلى دخول أرضي » .

ثم بعث إليه بتاجه ، وبهدايا من تحف أرضه ، من السمور[2] والقاقم ، والخز ، والحرير الصيني ، والسيوف الهندية ، والسروج الصينية ، والمسك ، والعنبر ، وصحاف الذهب والفضة ، والدروع ، والسواعد ، والبيض[3] ، فقبض ذلك الإسكندر .

---

(١) الحباء : العطاء .

(٢) السمور : حيوان يشبه الثعلب يتخذ من فروه بعض الالباس .

(٣) البيض جمع بيضة ، نوع من السلاح ؛ وابتاض الرجل : لبس البيضة .

[يأجوج ومأجوج]

وسار راجعا إلى عسكره ، وتنكّب أرض الصين ، وسار إلى الأمّة التى قصّ الله جل ثناؤه قصتها فـ (قَالُوا : يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ ، إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) فكان من قصته وبنائه الرَّدْمَ ما قد أخبر الله به فى كتابه[1] ، فسألهم عن أجناس تلك الأمم ، فقالوا : نحن نسمّى لك مَنْ بالقرب منا منهم ، فأما ما سوى ذلك ، فلا نعرفه ؛ هم يأجوج ومأجوج ، وتاويل وتاريس ، ومِنْسَك وكُمَارى .

فلما فرغ من بناء السّدّ بينهم وبين تلك الأمم رحل عنهم ، فوقع إلى أمة من الناس ، حُمر الألوان ، صُهب الشعور ، رجالهم معتزلون عن نسائهم ، لا يجتمعون إلا ثلاثة أيام فى كل عام ؛ فمن أراد منهم التزويج ، فإنما يتزوّج فى تلك الثلاثة الأيام ، وإذا ولدت المرأة ذكراً ، وفطمَتْهُ دفعته إلى أبيه فى تلك الثلاثة الأيام ، وإن كانت أنثى حبستها عندها ؛ فارتحل عنهم ، وسار حتى صار إلى فُرْغَانَة[2] ، فرأى قوماً لهم أجسام وجمال ، فأعطوه الطاعة ؛ فسار من فُرْغَانَة إلى سَمَرْقَنْد ، فنزلها وأقام شهرا ؛ ثم رحل ، فسلك على بُخَارى[3] ، حتى انتهى إلى النهر العظيم ، فعبره فى السفن إلى مدينة آمُوَيْه ، وهى آمُل خراسان ؛ ثم سلك المفازة حتى خرج إلى أرض قد غلب عليها الماء ، فصارت آجاما ومُروجا ، فأمر بتلك المياه ، فَسُدّت عنها حتى جفّت الأرض ، فابتنى هناك مدينة ، وأسكنها قُطّانا ، وجعل لها رساتيق، وقرى، وحصونا ، وسماها «مَرْخَانُوس» ، وهى مدينة مَرْو[4] ، وتسمّى

(١) سورة الكهف ، الآية رقم ٩٤

(٢) إيالة كبيرة فى تركستان، وصلت فيها العلوم والمعارف إلى أقصى حد من الرقى، إبان العهد الإسلامى بها، وظهر منها علماء وأدباء كثيرون ، وقد احتلها الروس سنة ١٨٧٦ م .

(٣) مدينة من أعظم المدن فى آسيا الوسطى، وهى مركز هام للتجارة بين الصين والهند والأفغان وروسيا، ولها نشاط كبير فى العلم والصناعة والأسلحة، وقد فتحها العرب فى عهد معاوية سنة ٥٥هـ.

(٤) أشهر مدن خراسان ، بينها وبين نيسابور سبعون فرسخا ، ومعنى لفظ مرو الحجارة البيض التى يقتدح بها .

أيضا مَيْلانوس ؛ ثم اجتاز بنَيْسابور ، وطُوس حتى وَافَى الرَّى[١] ؛ ولم تكن أيَامَئِذٍ ، وإنما بُنِيَتْ بعد ذلك فى مُلْك فَيْرُوز بن يَزْدَجَرْد بن بَهْرَام جُور ؛ ثم اجتاز من هناك على الجبل ، وحُلوان[٢] ، حتى وَافَى العراق ، فنزل المدينة العتيقة التى تسمى طَيْسَفُون[٣] ، فأقام حَوْلاً ، ثم سار يريد الشام حتى أتى بيت المقدس .

[ملوك الطوائف]

فلما اطمأنّ بها ، قال لمؤدّبه أرِسْطَاطَاليس : « إنى قد وَتَرْت أهل الأرض جميعا لقتلى ملوكهم ؛ واحتوائى على بلدانهم وأخذى أموالهم ، وقد خِفْتُ أن يتضافروا على أهل أرضى من بعدى ، فيقتلونهم ويبيدونهم لِحَنَقِهم علىّ ؛ وقد رأيتُ أن أرسل إلى كل نبيه وشريف ، ومَنْ كان من أهل الرياسة فى كل أرض ، وإلى أبناء الملوك فأقتلهم » .

فقال له مؤدّبه : ليس ذلك رأى أهل الورع والدين ، مع أنك إن قتلت أبناء الملوك وأهل النباهة والرياسة كان الناس عليك ، وعلى أهل أرضك أشد حنقا من بعدك ؛ ولكن لو بعثت إلى أبناء الملوك وأهل النباهة فتجمعهم إليك، فتتوّجهم بالتيجان ، وتملّك كل رجل منهم كورة[٤] واحدة ، وبلدا واحدا ، فإنك تشغلهم بذلك ، بتنافسهم فى الملك ، وحرص كل واحد على أخذ ما فى

---

(١) الرى : مدينة من أشهر مدن إيران ، وأقدمها ، وهى واقعة فى أقصى شمال عراق العجم ، وقد كانت عاصمة السلجوقيين ، وفتحها عروة بن زيد الخيل أيام الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٠ بأمر والى الكوفة عمار بن ياسر ، وقد نشأ فيها علماء كثيرون .

(٢) حلوان من المدن المشهورة بالعراق ، وتقع على بعد ١٦٠ ك.م. شمال شرق بغداد ، وقد كانت حلوان معمورة أيام الأكاسرة ، وفتحها هاشم بن عتبة بن أبى وقاص فى عهد عمر بن الخطاب ، وهى مسقط رأس بعض العلماء .

(٣) ذكر الجغرافيون أنها كانت تقع على بعد ثلاثة فراسخ من بغداد ، وقد كان بها قصر لكسرى ، ويذكرها الأوربيون باسم اكتسيفون .

(٤) الكورة : الصقع والمدينة .

يدى صاحبه ، عن إهلاك بلادك ، فتلق بأسهم بينهم ، وتجعل شغلهم بأنفسهم؛ فقبل الإسكندر ذلك منه ، وفعله ؛ وهم الذين يقال لهم ملوك الطوائف .

[نهاية الإسكندر]

ثم هلك الإسكندر ببيت المقدس ، وقد ملك ثلاثين سنة ، جال الأرض منها أربعا وعشرين سنة ، وأقام بالإسكندرية فى مبتدإ أمره ثلاث سنين ، وبالشام عند انصرافه ثلاث سنين ، فجُعل فى تابوت من ذهب ، وحمل إلى الإسكندرية .

وبنى [الإسكندر][1] اثنتى عشرة مدينة ، الإسكندرية بأرض مصر ، ومدينة نَجْران بأرض العرب ، ومدينة مَرْو بأرض خراسان ، ومدينة جَىّ بأرض أصبهان، ومدينة على شاطىء البحر تدعى صَيْدودا ، ومدينة بأرض الهند تدعى جَرْوِين، ومدينة بأرض الصين تدعى « قَرَنيه » ؛ وسائر ذلك بأرض الروم .

قالوا : ولما توفى الإسكندر حمى كلُّ رجل من أولئك الذين ملكهم حَيِّزه[2] ، ودفعوا الحرب ، فلم يكن يغلب أحدهم صاحبه إلا بالحكمة والآداب؛ يتراسلون بالمسائل ، فإن أصاب المسئول حل إليه السائل ، وإن بغى أحد منهم على الآخر ، وانتقصه شيئا من حيزه أنكروا جميعا ذلك عليه ، فإن تمادى أجمعوا على حربه ؛ فسمّوا بذلك ملوك الطوائف .

[ملوك اليمن]

وزعموا أن الملوك الأربعة[3] ، الذين لَعَنَهُم النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ولَعَنَ أختهم أبْضَعَة، لما همّوا بنقل الحجر الأسود إلى صَنْعاء ليقطعوا حَجّ العرب عن البيت الحرام إلى صَنْعاء ، وتوجّهوا لذلك إلى مكة ، فاجتمعت كِنانة إلى فِهْر بن مالك ابن النضر ، فلقيهم ، فقاتلهم ، فقُتِلَ ابنٌ لفِهْر ، يسمّى الحارثة ، لم يُعقِب ؛

---

(١) بياض فى الأصل . (٢) نواحى بلاده . (٣) ملوك كندة .

وقُتِلَ من الملوك الأربعة ثلاثة ، وأُسِرَ الرابع ، فلم يزل مأسورًا عند فِهْر بن مالك حتى مات .

وأما أبضَمَة ، فهى التى يُقال لها (العَنْقَفِير) ، ملكت بعد إخوتها بأخبث سيرة ، كانت تتخيّر الرجل على عينها ، فمَنْ أعجبها دعته إلى نفسها ، فوقَعَ بها ، لا يَقدِرُ أحد أن ينكر عليها ، وأنها أبصرت فتى من قيس ، فأعجبها ، فدَعَتْهُ إلى نفسها ، فوَقَعَ بها ، فألقحها غُلامين فى بطنٍ ، فسمّت أحدهما سَهْلًا ، والآخر عَوْفًا ؛ وفى ذلك يقول شاعر من شعراء قيس :

وَذِى تُومَةٍ فِى أُذْنِهِ وَضَفِيرَةٍ ... وَسِيمٍ جَمِيلٍ لَا يُخِيلُ مَخَايِلُهْ
إِذَا مَا رَأَتْهُ قَيْلَةٌ حِمْيَرِيَّةٌ ... تَجُرُّ لَهُ حَبْلَ الشُّمُوسِ تُهَازِلُهْ

قالوا : وكان ذو الشَّنَاتِر ملك عَنْس ويُحَابِر[1] ، وكان عظيم المُلْك ، كثير الجنود ، وكان مُلْكه على عُمَان ، والبحرين ، واليمامة ، وسواحل البحر .

[ملك أردوان بن أشه]

قالوا : ولم يكن فى ملوك الطوائف الذين كانوا بأرض العجم ملك أعظم مُلْكا ، ولا أكثر جنودا من أَرْدَوَان بن أَشَه بن أَشْغَان ملك الجبل ، كان إليه الماهَان وهَمَذان ، وماسَبذَان ، ومِهْرَجَانقَذَق ، وحُلوان[2] ؛ وسائر الملوك إنما كان يكون إلى الرجل منهم كورة واحدة وبلد واحد . وكان الملك منهم إذا مات قام بالمُلْك بعده ابنه أو حميمه ؛ وكان جميع ملوك الطوائف يقرّون لأَرْدَوَان ملك الجبل بفضله ، لاختصاص الإسكندر إياه دونهم بفضل المُلْك ؛ وكان مسكنه بمدينة نَهَاوَنْد[3] العتيقة .

قالوا : وفى ذلك العصر بُعِث المسيح عيسى بن مريم عليه السلام .

---

(١) قبيلتان يمنيتان . (٢) مدن بأرض فارس، وبالعراق العجمى .
(٣) بلد من بلاد الجبل ، جنوبى همذان .

[أسعد بن عمرو]

قالوا : وإن أَسْعَد بن عَمْرو بن ربيعة بن مالك بن صُبْح بن عبد الله بن زيد بن ياسر ينعم الملك الذى ملك بعدسليمان بن داود ، صلى الله عليه وسلم[1]، لما نشأ وبلغ، أَنِفَ من ابتزاز قبائل ولد كَهْلان بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب الملكَ حِمْيَرَ ؛ وكان المُلك لهم، وفى عصرهم، فجمع إليه حِمْيَر، وذلك بعد أن ماسكت المقاوِلُ بأرض اليمن ، فكانوا سبعة ملوك ، توارثوا المُلك مائتين وخمسين سنة ؛ فسار إلى ملك همدان ، فحاربه ، فظفر به ، ثم سار إلى ملك عَنْس ويُحَابِر ، ففعل به مثل ذلك ، وأتى ملك كِنْدَة ، وأُعطى الظفر حتى اجتمع له مُلْك جميع أرض اليمن .

فلما اجتمع لأسعد المُلك وجّه ابن عمه القَيْطون بن سعد إلى تِهَامَة والحجاز ، وجعله ملكا عليها ، فنزل يَثْرِب ، فاعتدى وتجبّر ، حتى أمر أن لا تهدى امرأة إلى زوجها حتى يبدءوه بها ، وسلك فى ذلك مسلك عِمْليق ، ملك طَسْم وجَدِيس ، إلى أن زُوِّجَت أخت لمالِك بن العَجْلان من الرّضاعة ، فلما أرادوا أن يذهبوا بها إلى القَيْطون اندسّ معها مالك بن العَجْلان متنكّرا ، فلما خَلَا له البيت عَدَا عليه بسيفه ، فقتله ، وعَدَوْا على أصحابه ، فقُتِلوا أجمعين ؛ وبلغ ذلك أسعد الملك ، فسار إليهم ، فنزل بالمدينة على نهر يسمّى ، بئر الملك ، فكان من قصته ما هو مشهور ، قد كتبناه فى غير هذا الموضع .

[بعثة عيسى الرسول]

قالوا : ولما ابتعث الله عيسى بن مريم ، فأقبلت اليهود لتقتله ، فرفعه الله إليه ، أتوا يحيى بن زكرياء ، فقتلوه ، فسلّط الله عليهم ملكا من ملوك الطوائف من ولد بُخت نَصَّر الأول[2] ، فقتل بنى إسرائيل ، وضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّةُ والمَسْكَنَة .

(١) كذا فى الأصل .

(٢) بخت نصر هو ملك الكلدانيين ، وقد ملك عرش بابل من عام (٧٤٧–٧٣٣) ق. م، ويبدأ به تقويم بطليموس، ويذكر البيرونى أن الصيغة الفارسية لاسم بخت نصر هى «بخت نرس» ، ومعناها كثرة البكاء والأنين .

[أردشير بن بابك]

قالوا : فلما تم لملوك الطوائف مائتا سنة ، وست وستون سنة ظهر أَرْدَشِير ابن بابكان ، وهو أَرْدَشِير بن بابك بن ساسان الأصغر بن فافك بن مَهْرِيس ابن ساسان الأكبر بن بَهْمَن الملك بن أَسْفَنْدِياذ بن بُشْتَاسِف ، فظهر بمدينة إصطخر ، فدبَّ في رد ملك فارس في نصابه ، واتسقت له الأمور ، فلم يزل يغلب ملكا ، ويقتل ملكا ، ويحتوى على ما تحت يده ، حتى انتهى إلى فَرّخان ملك الجبل ، وكان آخر ملك من ولد أَرْدَوان ، فكتب إليه أَرْدَشِير ، بالدخول في طاعته ، فلما أتاه كتابه امتلأ غيظاً ، وقال لرسله : لقد ارتقى ابن ساسان الراعي مرتقى وعرا ؛ ولم يحفل به ، وكتب إليه : إن الميعاد بيني وبينك صحراء الهُرْمُزْدُجان في سلخ مِهرّماه[1] ، فسبق أردشير إلى المكان ، فوافاه فرخان في سلخ مهرماه ، فاقتتلوا ، فقتله أردشير ، وسار من فوره حتى ورد مدينة نَهَاوَنْد ، فنزل قصر الفرّخان ، فأقام شهرا ، ثم سار إلى الري ، ثم إلى خراسان ، لا يأتى حَيِّزًا إلا أذعن له ملكه بالطاعة ، ثم سار إلى سجستان ، ثم إلى كرمان[2] ، ثم سار إلى فارس[3] ، فنزل مدينة إصطخر ، فأقام حَوْلاً ، ثم سار نحو العراق ، فتلقاه من كان بها من ملوك الطوائف بالأهواز ، فقاتلهم ، فقتلهم ،

---

(١) شهر من شهور السنة الشمسية الجلالية ، ووقته من ٢١ سبتمبر إلى ٢١ أكتوبر .

(٢) كرمان : ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس وسجستان وخراسان .

(٣) فارس : إيالة من إيالات إيران ، وهى أكثرها عمارة ، يحدها من الجنوب الغربى بحر فارس ومن الغرب خوزستان (الأهواز) ومن الشمال عراق العجم ومن الشرق والجنوب الشرقى إيالة كرمان ، وقد كانت فارس مركزا للدولة الإيرانية القديمة ، ثم أصبحت عاصمة لدولة الكيانية منذ عهد كيخسرو ، وبعد فتوح الإسكندر فقدت فارس مركزها كعاصمة ، ولكنها عادت ثانية إلى مركزها الأول بعد تأسيس الدولة الساسانية ، إذ اختار أردشير مؤسس الدولة الساسانية مدينة إصطخر ، وهى عاصمة فارس ، عاصمة له ولدولته . وقد فتح المسلمون فارس أيام عمر بن الخطاب ، واستمرت فتوحاتهم بها إلى عهد عثمان بن عفان ، ولما أصيبت مدينة إصطخر بالخراب ، صارت عاصمة فارس مدينة شيروز إلى أن انتقلت العاصمة إلى مدينة طهران .

ثم سار حتى عسكر بموضع المدائن اليوم ، فاختطها ، وبناها ، فلما استوثق له الملك دعا بابنة أخ القرّخان ، التى أخذها من قصر القرّخان بنهاوَنْد ، وكانت ذات جمال ولُبّ ، وقد كان أفضى إليها ، وسألها من نسبها ، فأخبرته ، فقال لها : قد أسأت حين أعلمتِنى ، لأنى أعطيت الله عهدا ، إن أظهرنى الله بالقرخان ألا أدع من أهل بيته أحداً ، ثم دعا أَبَرْسام وزيره ، فقال : انطلق بهذه الجارية فاقتلها .

فأخذ أَبَرْسام بيد الجارية ، فأخرجها لِيُنفذَ فيها أمره ، فلما خرجت قالت لِأَبَرْسام : إنى حامِلٌ لأشهر ، فلما قالت له ذلك انطلق بها إلى منزله ، وأمر بالإحسان إليها ، وقال لِأَرْدَشِير : قد قتلتها .

وزعموا أنه جَبّ نفسه[1] ، وأخذ مَذَاكِيرَه ، فجعلها فى حُقّ[2] وختم عليه ، وأتى به أَرْدَشِير ، وسأله أن يأمر بعض ثقاته بإحرازه ، فإنه سيحتاج إليه يوما ، فأمر أردشير بالحُقّ ، فأُحرِزَ .

ثم إن الجارية ولدت غلاما كأجمل ما يكون من الغلمان ، وهو سَابُور بن أَرْدَشِير الذى ملك بعده ، وأن أردشير أقام بالعراق حَوْلا ، ثم سار إلى الموصل ، فقتل ملكها ، ثم انصرف ، وجمل يسير ، فسار إلى عُمان والبحرين واليمامة ، فخرج إليه « سَنَطْرُق » ملك البحرين ، فحاربه ، فقتله أردشير ، وأمر بمدينته ، فأخربت .

قالوا : وإن أَبَرْسام دخل على أردشير يوما ، وهو مُسْتَخْلٍ وحده ، مفكّر مهموم ، فقال : أيها الملك ، عمّرك الله ، مالى أراك مهموماً حزيناً ، وقد أعطاك الله أُمنِيَتَك ، وردّ الله إليك مُلْك آبائك ، فأنت اليوم « شاهان شاه » .

قال أردشير : ذاك الذى أحزننى ، إنى قد استحوذت على الأرض ، ودان لى جميع الملوك ، وليس لى ولد ، يَرِث مُلْكى الذى أنْصَبْت فيه نفسى . فلما سمع

---

(١) استأصل خصيتيه.   (٢) الحق والحقة بالضم : وعاء من خشب، والجمع حقق وأحقاق .

ذلك أبَرْسام قال فى نفسه : هذا وقت إظهار أمر تلك المرأة الأَشْغَانِيَّة ؛ وقد كان أتى على ابنها خمس سنين ، فقال : أيها الملك ، إنى كنت استَوْدَعْتُكَ يوم أمرتنى بقتل المرأة الأَشْغَانِيَّة حُقًّا مختوماً ، وقد احتجت إليه ، فَمُرْ بإخراجه ، فأمر به أردشير ، فأُخْرِجَ إليه ، ففتحه ، وأراه أردشير ، فإذا فيه مذاكيره ، قد يبست فى جوف الحُقّ .

فقال له أردشير : ما هذا ؟ فأخبره الخبر ، وأعلمه حال الغلام ، ففرح أردشير بذلك ، ثم قال لأَبَرْسام : ائتنى بالغلام ، واجعله ما بين مائة غلام من أقرانه ، ففعل أبرسام ذلك .

فلما أدخلهم عليه تأمّلهم غلاماً غلاماً ، حتى إذا بلغ إلى سَابُور رأى تشابه ما بينه وبينه ، فتحرّك له قلبه ، فأمسك نفسه ، ولم يكلّمه ، وأمر بأن يُعْطَى الغلمان جميعاً صوالجة[1] ، ويُطْرَح لهم كرة فى الرَّحْبَة ليلعبوا بين يديه مقابل الإيوان ، وقال لأَبَرْسام : احْتَلْ أن تقع الكرة عندى فى الإيوان ؛ ففعل .

ووقعت الكرة على بساطه ، فوقف جميع أولئك الغلمان على باب الإيوان ، ولم يجترئ واحد منهم أن يدخل ، فيتناول الكرة من بين يديه إلا الغلام ، فإنه اقتحم من بينهم على أبيه ، فتناول الكرة من بين يديه .

فلما رأى ذلك أردشير مدّ يده ، فتناول الغلام ، وضمّه إليه ، وقبّله ، وأمر به وبأمه أن تُرَدّ إليه ، وهو سَابُور الذى ملك بعده ، وأكرم أبَرْسام ، وأقطعه القطائع الكثيرة ، وأمر بأن تُصَوَّر صورة أبَرْسام على الدراهم والبُسُط حتى انقضى ملكهم .

قالوا : وفى ملك أَرْدَشِير بعث الله عيسى عليه السلام ؛ ويزعمون أنه بعث بأحد حَوَارِيِّيه إلى أَرْدَشِير ، وأنه جاء إلى مدينة طَيْسَفُون ، فنزل على أبرسام

---

(١) جمع صولجان : وهو العصا معقوفة الرأس مثل المضرب تقذف به الكرة ، وكان ملوك الفرس يتخذونه من الذهب شعارا لهم .

فكان إذا أمسى استُسْرِج له سراج ، فيصلى طول ليله ، ويتلو الإنجيل ، فسأله أبرسام عن قصته ودينه ، فأخبره أنه رسول المسيح عيسى بن مريم ، فأنهى أبرسام الخبر إلى أَرْدَشِير ، فدعا به ، فنظر إلى سَمْته وهدوئه ، وأراه الشيخ آيات من آيات المسيح ، فلم يبعد عند أَرْدَشِير ، ولا هاجه بسوء .

[ملك الموصل وجرجيس]

قالوا : وفى زمان ملوك الطوائف كانت قصة جِرْجيس ، وإتيانه ملكَ الموصل ، وكان جباراً متمرداً ، يعبد الأصنام ، ويحمل الناس على عبادتها ، وكان جرجيس من أهل الجزيرة ، وكان من أمره وأمر ذلك الملك ما قد أتت به الأخبار .

وكان أَرْدَشِير هو الذى أكمل آيين[1] الملوك ورتب المراتب ، وأحكم السير ، وتفقد صغير الأمر وكبيره ، حتى وضع كل شىء من ذلك على موضعه ، وعهد عهده المعروف إلى الملوك ، فكانوا يمتثلونه ، ويلزمونه ، ويتبركون بحفظه والعمل به ، ويجعلونه دستورهم ونصب أعينهم ؛ وبنى من المدن ست مدائن ، منها بأرض فارس مدينة أَرْدَشِيرخُرَّه ، ومدينة رام أَرْدَشِير ومدينة هرمزدان أَرْدَشِير ، وهى قصبة الأهواز ، ومدينة أستاذ أَرْدَشِير ، وهى كرخ مَيْسان ، ومدينة فُوران أَرْدَشِير ، وهى التى بالبحرين ، ومدينة بالموصل ، تسمى خُرَّزاد أَرْدَشِير .

[ملكيكرب ملك اليمن]

قالوا : وملك بعد أَسْعَد ملك اليمن ، الذى كسا البيت ونحر عنده وطاف به وعظّمه ، ابن عمه مَلْكيكرب بن عَمْرو بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو ذى الأذعار ، فملك عشرين سنة لا يبرح بيته ، ولا يغزو كما كانت الملوك قبله تفعله تحرُّجاً من الدماء .

---

(١) آيين الملوك : دستورهم ونظامهم .

[ملك التبابعة]

ثم ملك بعده ابنه تبّع بن مَلْكِيكرب ، وهو تبّع الأخير ، وكانت التبابعة ثلاثة ، أوّلهم : شمر أبو كرب الذى غزا الصين ، وأخرب مدينة سَمَرْقَنْد ؛ والثانى تبّع أسعد الذى ذبح للبيت الحرام الذبائح ، وعلّق عليه باب ذهب ؛ والثالث تبّع بن مَلْكِيكرب ، ولم يسمّ غير هؤلاء الثلاثة من ملوك اليمن تُبّعا ؛ وكان تبّع هذا الأخيرَ فى عصر سَابُور بن أردشير ، وفى عصر هرمز بن سَابُور ، وكان تبّع بن مَلْكِيكرب كبيرالشأن عظيم السلطان ، وهو الذى غزا بلاد الهند ، فقتل ملكها ، وهو من أولاد فوْر الملك الذى قتله الإسكندر ، ثم انصرف إلى اليمن ، ومات فى مُلْك بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشير .

ثم ملك من بعد تبّع ابنه حسّان بن تبّع بن مَلْكِيكرب ، وهو الذى غزا أرض فارس فيما يزعمون ، وهو الذى ضجرت الحِميريّة لكثرة غزوه بها ، وقلة مقامه بأرض اليمن ، فزيّنوا لأخيه عمرو بن تبّع قتله ليملّكوه عليهم ، فطابقوه جميعاً على ذلك إلا ذَارُعَيْن فإنه أبى ذلك ، ولم يدخل فيه مع القوم ، فعدا عمرو على أخيه ، فقتله ، وملك من بعده ، وانصرف بقومه إلى اليمن ، فسلّط الله عليهم السَّهَرَ .

[سابور]

فلما ملك سابور بن أردشير غزا أرض الروم ، فافتتح مدينة قالوقيّة ، ومدينة قبدوقيّة ، وأثخن فى الروم ، ثم انصرف إلى العراق ، وسار إلى أرض الأهواز ليرتاد مكاناً يبنى فيه مدينة ، يُسْكِنها السَّبْىَ الذى قدم بهم من أرض الروم ، فبنى مدينة جُنْدَيْسَابور ، واسمها بالخوزيّة نيلاط ، وأهلها يسمونها نيلاب ؛ فكان سابور قد أسر « أليَرْيانوس » خليفة صاحب الروم ، فأمره ببناء قنطرة على نهر تُسْتَر على أن يخلّيه ، فوجّه إليه ملك الروم ناساً من أرض الروم والأموال ، فبناها ، فلما فرغ منها أطلقه .

[مانى]

وفى زمان سابور ظهر مَانِي الزِّنْدِيق(١) ، وأغوَى الناس ، ومات سابور قبل أن يظفر به ، وملك سابور إحدى وثلاثين سنة .

[هرمز]

وأفضى الملك بعده إلى ابنه هُرْمُزْ بن سابور ، فأخذ مانى ، فأمر به ، فسلخ جلده ، وحشاه بالتبن ، وعلّقه على باب مدينة جُنْدَيْسَابور ، فهو إلى اليوم يُدْعَى باب مانى ، وتتبّع أصحابه ومن استجاب له ، فقتلهم جميعا ، فملك ثلاثين سنة .

[أولاد هرمز]

وأسند المُلْك إلى ابنه بَهْرَام بن هرمز ، فملك سبع عشرة سنة ، ثم ملك ابنه بَهْرَام بن بَهْرَام ، ثم ملك ابنه نَرْسِي بن بَهْرَام بن بَهْرَام ، فملك سبع سنين ، ومات . فملك ابنه هُرْمُزْدان بن نرسى ، فملك سبع سنين ، ومات ، ولم يكن له ولد يرثه المُلْك ، غير أن امرأته كانت حاملا لأشهر ، فأمر بالتاج ، فوضع على بطنها ، وتقدم إلى عظماء أهل فارس ألا يملكوا عليهم أحدا حتى ينظروا ما يولد له ، فإن كان ذكرا سموه سابور ، وأقروه على المُلْك ، ووكلوا به من يحضنه ، ويقوم بأمر الملك إلى إدراكه ، وإن كان أنثى اختاروا رجلا لأنفسهم من أهل بيته ، فملكوه عليهم ، فولدت المرأة ذكرا ، وسموه سابور ، وهو المنبوز(٢) بذى الأكتاف .

---

(١) ولد حوالى سنة ٢٤٠م ، وادعى أنه النبى الموعود الذى جاء اسمه فى الإنجيل (بارقليت) ، ودعا الناس إلى مذهب جديد بين المسيحية والزردشت ، وقد قتل بأمر الملك بهرام سنة ٢٧٤م ، ويطلق عليه بعض المؤرخين اسم ما نى النقاش ، وقد زعم مانى أن العالم مصنوع من أصلين : أحدهما نور ، والآخر ظلمة ، وهما أزليان .

(٢) النبز بالتحريك : اللقب .

[سابور ذو الأكتاف]

فشاع لما مات هرمزدان فى أطراف الأرضين أنه ليس لأرض فارس ملك ، وأنهم يلوذون بصبي فى مهد ، فطمعوا فى مملكة فارس ، فورد جمع عظيم من الأعراب من ناحية البحرين وكاظمة[1] إلى أَبْرَشَهْر وسواحل أَرْدَشِيرخُرَّه ، فشنوا بها الغارة ، وأتى بعض ملوك غسان على الجزيرة فى جموع عظيمة حتى أغار على السواد ، فمكثت مملكة فارس حينا لا يمتنعون من عدو لِوَهْى أمر الملك .

فلما ترعرع الغلام كان أول ما ظهر من حزمه أنه استيقظ ليلة وهو نائم فى قصره بمدينة طيسفون بضوضاء الناس لازدحامهم على جسر دجلة مقبلين ومدبرين ، فقال : ما هذه الضوضاء ؟ ، فأخبر ، فقال : ليعقد لهم جسر آخر ، يكون أحدهما لمن يقبل ، والآخر لمن يدبر ، ففعلوا ، وتباشروا بما ظهر من فطنته مع طفوليته .

فلما أتت له خمس عشرة سنة تجرد لضبط الملك ، ونفى العدو عنه ، فتأهب ، وسار إلى أبرشهر ، فطرد من كان صار إليها من الأعراب ، وقتلهم أخبث قتلة .

وكذلك فعل بالجزيرة ، فصار إلى الضَّيْزَن الغسّانى ، فحاصره فى مدينته التى على شاطىء الفرات مما يلى الرَّقّة[2] ، فزعموا أن ابنة الضَّيْزَن ، واسمها « مُلَيكة » ، وزعموا أن أمها عمة سابور دَخْتَنوس ابنة نرسى ، وأن الضيزن كان سباها لما أغار على مدينة طيسفون ، فأشرفت مليكة على عسكر سابور ، وهو محاصر لأبيها ، فرأت سابور ، فعشقته ، فراسلته ، على أن تدله على عورة أبيها ، على أن يتزوجها ، فوعدها سابور ذلك ، ففعلت .

---

(١) موضع على البحر بينه وبين البصرة مرحلتان .

(٢) اسم بلد ، ومعناه كل أرض إلى جنب واد ينبسط فيها الماء أيام المد ، ثم ينحسر عنها فتعد للنبات .

فأسكرت بالخمر[1] حرس أحد الأبواب حتى ناموا ، وأمرت بفتح الباب ، فدخل سابُور وجنوده ، فأخذ الضَّيْزَن ، فقتله ، وخلع أكتاف أصحابه ، وخلاهم ، وكذا كان يفعل بمن أسر من الأعداء ، فبذلك سُمّى ذا الأكتاف .

ووفى لابنته بما وعدها ، ثم قتلها بعدُ: ربطها بين فرسين ، وأجراهما ، فقطّعاها ، وقال لها : أنتِ إذا لم تصلحى لأبيك لا تصلحين لى .

وأمر سابُور فبُنِيَت له مدينة الأنبار[2] ، وسمّاها فَيْرُوز سابُور ، وكوّرها كورة ، وبنى بالسُّوس[3] مدينة ، وهى التى إلى جانب الحصن ، الذى يسمّى « سادَانْيال » الذى كان فيه جسد دانيال عليه السلام .

[الروم وسابور]

قالوا : وكان ملك الروم فى ذلك العصر « مَانُوس » وكان يدين فيما ذكروا قبل أن يملك دينَ النصرانية ، فلما ملك أظهر ملة الروم الأولى ، وأحياها ، وأمر بتحريق الإنجيل ، وهَدَمَ البِيَع ، وقتل الأساقفة ، فلما قتل سابورُ الضَّيْزَنَ الغسَّانى غضب لذلك ، فجمع مَنْ كان بالشام من غسّان ، وأقبل فيهم ، ومعه جيوش الروم ، حتى ورد العراق .

ووجّه سابور عيوناً ليأتوه بخبرهم ، فانصرف إليه عيونه ، وقد اختلفوا عليه ، فخرج ليلاً فى ثلاثين فرساً ، ليشرف على عسكر الروم ، وقدّم أمامه عشرة منهم ، فأخذتهم الروم ، فأتوا بهم اليُوبْيَانُوس خليفة الملك وابن عمه ، فسألهم عن أمرهم ، وتوعّدهم القتل ، فقام إليه رجل منهم مُسِرّا من أصحابه ، فقال له : إنّ سابور منك بالقُرْب ، فضُمّ إلىّ خيلاً حتى آتيك به أسيرا .

---

(١) يقال إنه الزعفران . (٢) مدينة قرب بلخ، وهى قصبة ناحية جوزجان .

(٣) مدينة فى إيران، وقدفتحها العرب سنة ٦٣٨م ، وظلت مزدهرة على أيامهم ، ثم خربت فى القرون الوسطى .

وكانت بين اليُوبْيانُوس وسابور مودّة وخلة ، فأرسل إلى سابور ينذره ، فانصرف راجعا ، وسار الملك الرُّومى إلى باب مدينة طَيْسَفُون ؛ وخرج إليه سابور فى جنوده ، فهزمه الرُّومى حتى بلغوا قنطرة جازِر ، واحتوى الرُّوى على مدينة طَيْسَفُون ؛ ولم يقدروا على القصر لحصانته ، ومن فيه من الحُماة عنه ، وثاب النـــاس إلى سابور ، فزحف إلى جمع الرُّوم ، فتحامّم عن المدينة ، وعسكر ببابها ، وراسل ملك الرُّوم ؛ فبينما هم فى ذلك إذ أتى ملك الرُّوم سهم عائر ، وهو فى مضربه ، وحوله بطارقته ، فأصاب مقتله ، فسقط فى أيدى الروم لمكانهم الذى هم به ، وإشراف عدوّهم عليهم ، فطلبوا إلى اليُوبْيانُوس أن يتملك عليهم ، فأبى ، وقال : لست أتملّك على قــوم مخالفين لى فى دينى ، لأنى على دين النصرانية ، وأنتم على دين الرُّوم الأول ، فقال له البطارقة والعظماء : فإنا نحن جميعاً على مثل ما أنتم عليه ، غير أنا كنا نكاتم بذلك خوفاً من الملك ، فتملّك عليهم اليُوبْيانُوس ، ولبس التاج .

وبلغ سابور أمرهم ، فأرسل إليهم : أصبحتم اليـوم فى قبضتى وقدرتى ، ولأقتلنّكم بمكانكم هـذا جوعا وهزلا ؛ فأجمع اليُوبْيانُوس على إتيان سابُور ، لِماَ كان بينهم من المودّة ، فأبى عليـه البطارقة والرؤساء ، فخالفهم ، وأتاه ؛ فعرف له سابُور يده عنده فى إنذاره إياه تلك الليلة ، وجعل له اليُوبْيانُوس نَصِّيبين[1] ، وحيِّزها عِوَضاً مما أفسدت الرُّوم من مملكته ، وكتب له بذلك .

وبلغ أهل نصيبين ذلك ، فانتقلوا عنها ضِناً بالنصرانية ، وكراهية لتمليك الفرس عليهم ، فنقل سابور إليها اثنى عشر ألف أهل بيت من إصطخر ، فأسكنهم فيها ، فعقبهم بها إلى اليوم ؛ وانصرفت الرُّوم إلى أرضها ، فلما تمّ لسابور اثنتان وسبعون سنة حضره الموت ، فجعل الأمر من بعده لابنه سابُور بن سابُور .

فلما تمّ لمُلكه خمس سنين خرج يوماً متصيِّداً ، فنزل بمكان ، وضُرِبت

(١) انظر الخريطة، وهى مدينة فيما بين النهرين ، وقد اشتهرت قديما بمدرستها السريانية

قُبّته ، فجلس فيها ، فأقبل قوم من الفُتّاك ليلا ، فقطعوا أطناب[1] القُبّة ، فسقطت عليه ، فمات .

[بهرام بن سابور]

فملك بعده ابنه بَهْرَام بن سَابُور ، وكان على كَرْمان[2] ، فلما قُتِلَ أبوه قَدِمَ ، فقام بالمُلك ، فلما تمّ للملك ثلاث عشرة سنة خرج يوماً مُتَصَيِّدًا ، فَرُمِي بنُشّابة[3] ، فأصابته ؛ فلما أحسّ بالموت أوْصَى إلى ابن أخيه يَزْدَجَرْدَ بن سابور ابن سابور ، وكان أصغر سِنًّا منه .

[يزدجرد بن سابور]

فقام بالمُلك بعده ؛ وهو يَزْدَجَرْدَ الذى يلقّب بالأثيم ، وكان غَلِقًا سيء الخلق ، لا يكافئ على حسن بلاء ، وكان مَنّانًا ، لا يتجاوز عن زَلّة وإن صغرت ، ويعاقب على الصغيرة كما يعاقب على الكبيرة ، وما كان أحد يقدر على كلامه لفظاظته وغلظته ، إلا أن وزراءه كانوا أخيارا مترفّقين متماونين .

فوُلِدَ له بَهْرَام الذى يُقال له بَهْرَام جُوز ، فدفعه إلى المنذر أبى النعمان ليحضُنه ، فسار المنذر ببهرام إلى الحِيرَة[4] — وكانت داره — واختار له المنذر المراضع ، وأحسن حضانته ، فلما بلغ التأديب بعث إليه أبوه مؤدّبين من الفرس ، وأحضره المنذر مؤدّبين من العرب ، فأحكم الأدَبَيْن ، وكَمُلَ فيهما ، ونَشَأ نَشْأً محمودًا ، وبرع فى الأدب والفروسيّة ، وخرج عاقلًا لبيباً جميلًا بَهِيًّا ،

---

(١) أطناب جمع طنب بضمتين ، وهو حبل طويل يشد به السرادق والقباب .

(٢) إقليم بين فارس وسجستان . (٣) النشاب هو النبل .

(٤) الحيرة : مدينة كبيرة بعراق العرب على الضفة اليمنى لنهر الفرات ، يقال إن الذى بناها هو بختنصر ، وجددت فى عهد الإسكندر ، وقد ظلت الحيرة عاصمة لدولة عربية قبل الفتح الإسلامى ، وفى عهد الإمام على بن أبى طالب بنى بجوارها مدينة الكوفة واتخذت مقرا للخلافة الإسلامية ، وبقيت الحيرة خرابا إلى أن عثر فيها على قبر «على المرتضى» ، فعادت إليها حياتها قرية صغيرة ، وتعرف الحيرة اليوم باسمى نجف ، ومشهد ، وتقع على بعد ٧٧ ك . م جنوب شرق كربلاء .

ومكّنه النذر من اللهو والقِيان ، فكان يركب النجائب ، وتركب وراءه الصنّاجات(1) يُلهينه ويُطْرِبْنَه ، وتجرّد لطرْد الوحش على تلك الحال ، فضُرب به المثل ، فُتُوّة ورخاء بال .

[مقتل عمرو بن تبع]

قالوا : ولما قتل عمرو بن تبّع أخاه حسّان بن تبّع وأشراف قومه تضعضع أمر الحِمْيَرِيّة ، فوثب رجل منهم لم يكن من أهل بيت المُلْك يُقال له صُهْبان ابن ذى خَرْب على عمرو بن تبّع ، فقتله ، واستولى على المُلك .

[صهبان والعدنانيون بتهامة]

قال : وهو الذى سار إلى تِهامَة لمحاربة ولد معد بن عدنان ، وكان سبب ذلك أن معدًّا لما انتشرت تباغت وتظالمت ، فبعثوا إلى صُهْبان يسألونه أن يملّك عليهم رجلًا يأخذ لضعيفهم من قويّهم ، مَخافَةَ التعدّى فى الحروب ، فوجّه إليهم الحارث بن عمرو الكندى ، واختاره لهم ، لأن معدًّا أخوالُه ، أمّه امرأة من بنى عامر بن صَعْصَعَة ، فسار الحارث إليهم بأهله وولده ، فلما استقرّ فيهم ولّى ابنه حُجْر بن عمرو ، وهو أبو امرئ القيس الشاعر ، على أسَدٍ وكِنانَة ؛ وولّى ابنه شُرَحْبِيل على قيس وتميم ؛ وولّى ابنه مَعْدِي كَرِب ، وهو جدّ الأشعث بن قيس ، على رَبِيعة .

فمكثوا كذلك إلى أن مات الحارث بن عمرو ، فأقرّ صُهْبان كلّ واحد منهم فى مُلْكه ، فلبثوا بذلك ما لبثوا ؛ ثم إن بنى أسد وثبوا على ملكهم حُجْر ابن عمرو ، فقتلوه ، فلما بلغ ذلك صُهْبان وجّه إلى مُضَر عمرو بن نابِل اللَّخْمىّ وإلى ربيعة لَبِيد بن النعمان الغسّانى ، وبعث برجل من حِمْيَر يسمّى أَوْفَى بن عُنُق الحيّة ، وأمره أن يقتل بنى أسد أبرح القتل ؛ فلما بلغ ذلك أسدًا وكِنانَة

---

(1) جمع صناجة : وهن المغنيات ضاربات الدفوف .

استمدوا ؛ فلما بلغه ذلك انصرف نحو صُهْبان ، واجتمعت قيس وتميم ، فأخرجوا ملكهم عمرو بن نابل عنهم ، فلحق بصُهْبان ؛ وبقى مَعْدِى كَرِب جد الأشعث ، ملكاً على ربيعة ؛ فلما بلغ صُهْبان ما فعلت مُضَر بعُمّاله آلى ليَغْزُوَنّ مُضَر بنفسه .

وبلغ ذلك مُضَر ، فاجتمع أشرافها ، فتشاوروا فى أمرهم ، فعلموا أن لا طاقة لهم بالملك إلا بمطابقة ربيعة إياهم ، فأوفدوا وفودهم إلى ربيعة ، منهم عَوف بن مُنقِذ التميمىّ ، وسُوَيْد بن عمرو الأسدى جدّ عَبِيد بن الأبْرَص ، والأحْوَص بن جعفر العامرىّ ، وعُدَس بن زيد الحَنْظَلِىّ ، فساروا حتى قدموا على ربيعة ، وسيّدهم يومئذ كُلَيْب بن ربيعة التغلبى ، وهو كليب وائل ، فأجابتهم ربيعة إلى نصرهم ، وولّوا الأمر كُلَيْباً ، فدخل على مَلِكهم لبيد بن النعمان ، فقتله ؛ ثم اجتمعوا ، وساروا فلقيهم الملك بالسُّلّان ، فاقتتلوا ، فَفُلّت جموع اليمن ، وفى ذلك يقول الفرزدق لجرير :

لَوْلَا فَوَارِسُ تَغْلِبَ ابْنَةِ وَائِلٍ　　　نَزَلَ الْعَدُوُّ عَلَيْكَ كُلَّ مَكَانِ

وانصرف الملك إلى أرضه مفلولاً ، فمكث حَوْلا ، ثم تجهّز لمعاودة الحرب ، وسار ، فاجتمعت مَعَدّ ، وعليها كليب فتوافوا بخَزَازَى[1] ، فوجّه كليب السّفّاح بن عمرو أمامه ، وأمره إذا التقى بالقوم ، أن يوقدوا نارا ، علامة جعلها بينه وبينه ، فسار السّفّاح ليلاً حتى وَافَى معسكر الملك بخزازى ، فأوقد النار ، فأقبل كليب فى الجموع نحو النار ، فوافاهم صباحا ، فاقتتلوا ، فقُتِل الملكُ صُهْبان ، وانفضّت جموعه ، وفى ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

وَنَحْنُ غَدَاةَ أُوقِدَ فِى خَزَازَى　　　رَفَدْنَا فَوْقَ رَفْدِ الرَّافِدِينَا

فلما قُتِلَ صُهْبان زاد حِمْيَر قتلُه اتّضاعا ووَهْنا .

---

(١) جبل ، كانوا يوقدون عليه غداة الغارات .

[ملك ربيعة بن نصر اللخمي اليمن]

لجمع ربيعة بن نصر اللخمي جَدُّ النعمان بن المنـذر قومه ومن أطاعه من ولد كَهْلان بن سَبَأ ، فاغتصب حِمْيَر المُلْكَ ، فاجتمعت له أرض اليمن ، فملكها زمانا ، وهو ربيعـة بن نصر بن الحارث بن عمرو بن لخم بن عَدِيّ بن مُرَّة بن زيد ابن كَهْلان بن سبأ بن يَعْرُب بن قحطان . فلما استجمع لربيعة بن نصر أمرُ اليمن رأى فى منامه رؤيا هالَتْه ، ووجل منها ، فبعث إلى شِقّ وسَطِيح الكاهِنَيْن ، فأخبرهما بما رأى ، فأخبراه فى تأويلها بما يكون من غلبة السُّودان على أرض اليمن ، وبغلبة فارس بعدهم ، ثم بخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع ذلك أوْجَسَ فى نفسه خِيفَةً ، فأحَبَّ أن يخرج ولده وخاصّة أهله من أرض اليمن

[مسير عمرو اللخمي إلى الحيرة]

فوجّه ابنه عمرًا إلى يَزْدَجِرْدَ بن سابور ، ويقال بل كان ذلك فى عصر سابور ذى الأكتاف ، فأنزله الحيرة ، فيومئذ بُنِيَتِ الحيرة ، فضمّ عمرو إليـه إخوته وأهل بيته ، فمن هناك وقع آل لخم إلى الحيرة ، واتصلوا بالأكاسرة ، فجعلوا لهم على العرب سلطانا .

[جذيمة والحيرة]

فلما مات خلفه من بعده ابنه جَذِيمة بن عمرو ، فزوَّج جَذِيمة أخته من ابن عمه عَدِيّ بن ربيعـة بن نصر ، فولدت له عمرو بن عَدِيّ الذى استطار به الجن ، وله حديث ، فلم يزل جَذِيمة ملكاً بالخورنق[1] زمانا حتى دَعَتْهُ نفسه إلى تزويج ماوية ابنة الزَّبَّاء الغسّانيّة ، وكانت ملكةَ الجزيرة ، ملكت بعد عمها الضَّيْزَن

(١) الخورنق بلد فى بلخ ، وأما الخورنق قصر النعمان الأكبر فهو معرب اللفظ الفارسى (خورنكاه) أى موضع الأكل .

الذى قتله سَابُور ، وكان له ولها حديث مشهور[١] ، فقتلت جَذِيمة ، ثم قتلها قصيرٌ مولاه .

[عمرو بن عدى]

فلما هلك خلفه ابن أخته وابن ابن عمه عمرو بن عَدِىّ وهو جَدُّ النعمان بن المنذر ابن عمرو بن عَدِىّ بن ربيعة ، قالوا : وكان ذلك فى عصر يَزْدَجِرْد بن سَابُور ابن بَهْرَام جُور .

قالوا : وفى ذلك العصر توفى عبد مَناف بن قُصَىّ ، وخلفه فى سؤدده ابنه هاشم ابن عبد مناف . قالوا : وهلك يَزْدَجِرْدَ الأثيم ، وقد ملك إحدى وعشرين سنة ونصفا ، وبَهْرَام جُور ابنه غائب بالحيرة عند المنذر بالخورنق ، فتعاهدت عظماء فارس ألا يملكوا أحدًا من ولد يَزْدَجِرْد لما نالهم من سوء سيرته ؛ منهم بسطام أصْبَهْبَذ السَّواد ، الذى تدعى مرتبته[٢] هزارفت ، ويَزْدَجُشْنَس فَاذُوسْفَان الزَّوَابى ، وَفَيْرَك الذى تدعى مرتبته مِهْران ، وجُودَرْز كاتب الجُنْد ، وجُشْنَساذَرِيش كاتب الخَرَاج ، وفَنَّاخُسْرو صاحب صدقات المملكة ؛ وغير هؤلاء من أهل الشرف والبيت ، فاجتمعوا ، واختاروا رجلًا من عِتْرة[٣] أرْدَشِير بن بَابِكان ، يُقال له خُسْرو ، فملكوه عليهم ، وبلغ ذلك بَهْرَام جُور ، وهو عند المنذر ، فأمر منذر بَهْرَام بالخروج ، والطلب بتراث أبيه ، ووجّه معه ابنه النعمان ، فسار بَهْرَام حتى قدم مدينة طَيْسَفُون ، فنزل قريبًا منها فى الأبنية

---

(١) ملخص الحديث أن الزباء كانت قد دعت جذيمة إلى أن يفد إليها ويتزوج بهـا ، ويضم ملكها إلى ملكه ، فاستشار قومه فشجعوه على المسير إليها إلا قصير بن سعد اللخمى ، فقد نصحه بأن لا يذهب لأن جذيمة كان قد وتر الزباء بقتل أبيها ، وأدرك قصير أن هـذه الدعوة تخفى وراءها سرا، ولكن جذيمة عزم على المسير مخالفا رأى قصير ، ولما ذهب إليها قتلته ، فقال قصير ، لا يطاع لقصير أمر ، وقد صار قوله مثلا يضربه من لا يطاع أمره .

(٢) فى الأصل مدينه .

(٣) عترة الرجل بكسر العين وسكون التاء : رهطه وعشيرته الأدنون.

والفساطيط والقباب ، فلم يزل النعمان يسفّر بينه وبين عظماء فارس وأشرافهم إلى أن أنابوا وتابوا إلى بَهْرَام .

[ملك بهرام جور]

وبَسَط بَهْرَام من آمالهم ، وشرط لهم المعدلة وحُسن السير ، فخلوا بينه وبين المُلك ، وسمعوا وأطاعوا ، وحَبا(١) بَهْرَام المُنذر والنُّعمان ، وأكرمهما ، وكافأه بيده عنده فى تربيته ومُعاضدته ، ففوّض إليه جميع أرض العرب ، وصرّفه إلى مُستقرّه من الحيرة .

ولمّا استتبّ لبهرام المُلك آثر اللّهو على ما سواه ، حتى عَتَبَ عليه رعيّته ، وطمع فيه من كان حَوْلَه من الملوك ، فكان أوّل من شَخَصَ صاحب التُّرك ، فإنه نهض فى جُموعه من الأتراك حتى أوْغَلَ فى خراسان ، فَشَنَّ فيها الغارات ، وانتهى النبأ إلى بَهْرَام ، فترك ما كان فيه من الاستهتار باللّهو ، وقَصَدَ عدُوّه ، فأظهر أنه يريد أذْرَبيجان ليَتَصَيَّدَ هناك ، ويَلْهُو فى مسيره إليها ، فانتخب من أبطال رجاله سبعة آلاف رجل ؛ فحملهم على الإبل ، وجنبوا الخيل ، واستخلف على مُلْكه أخاه نَرْسَى ، ثم سار نحو أذْرَبيجان ، وأمر كل رجل من أصحابه الذين انتخبهم أن يكون معه بَازٌ وكلب ، فلم يَشُكَّ الناس أن مسيره ذلك هزيمة من عَدُوّه ، وإسلام لمُلْكه ، فاجتمع العظماء والأشراف ، فتآمروا بينهم ، فاتفق رأيهم على توجيه وَفْد منهم إلى خَاقَان(٢) صاحب الترك بأموال ، يمتون بها إليه ليَصُدُّوه عن استباحة البلاد .

وبلغ خَاقَان أن بَهْرَام مَضَى هارباً ، وأن أهل المملكة مُجْمِعُونَ على الخضوع له ، فاغترّ ، وأمِنَ هو وجنوده ، وأقام بمكانه ينتظر الوُفود والأموال .

---

(١) أعطاه بلا جزاء ولا منّ .

(٢) خاقان : اسم لكل ملك من ملوك الترك ، وخقنوه على أنفسهم : رأسوه .

قالوا : وأن بَهْرَام أمر بذبح سبعة آلاف ثور وحمل جلودها ، وساق معه سبعة آلاف مُهْر حَوْلِيّ ، وجعل يسير الليل ويكمن النهار ، وأخذ على طَبَرِسْتَان ، ثم تبطَّنَ ضفَّةَ البحر حتى خرج إلى جُرْجَان ، ثم سار إلى « نَسَا » ثم إلى مَرْو .

وكان خَاقَانَ مُعَسْكِرًا بها بِكُشْمِيهَن[1] حتى إذا صار بهرام من مَرْو على مَنْقلة[2] ، وخَاقَان لا يعلم شيئًا من علمه أمْرَ بتلك الجلود ، فَنُفِخَت، وألقى فيها الحَصَى ، وجُفِّفَت ، ثم علقها فى أعناق تلك المهارة ، حتى دَنَا من عسكر خاقان ، وكانوا نُزولاً على طرف المفازة ، على ستة فراسخ من مدينة مَرْو ؛ فَخَلَّوا عن تلك المهارة ليـلًا ، وطردوها من ورائها ؛ فارتفع لتلك الجلود ، والحجارة التى فيها ، وعَدْوِ المهارة بها ، وضربها إياها بأيديها أصواتٌ هائلة أشد من هدّة الجبال والصَّواعِق .

وسمعت الترك تلك الأصوات ، فلما سمعوها راعتهم ، ولا يدرون ما هى ، وجعلت تَزداد منهم قُرْبا ، فأجلوا عن معسكرهم ، وخرجوا هرباً ، وبَهْرَام فى الطَّلَب ، فَتَقَطَّرَت[3] دابةُ خَاقَان بخَاقَان ، وأدركه بَهْرَام ، فقتله بيده ، وغنم عسكره ، وكل ما كان فيه من الأموال ، وأخذ خَاتُون امرأة خَاقَان .

ومضى بَهْرَام على آثار الترك ليلته ويومه كله ، يقتل ويأسر ، حتى انتهى إلى آمُوِيَة ، ثم عَبَرَ نهر بلخ ، يتبع آثارهم ، حتى إذا صار إلى القُرْب فأذعن له الترك ، وسألوه أن يُعْلِمَ حَدًّا بينه وبينهم ، لا يُجاوِزُونَه ، فَحَدَّ لهم مكاناً واغلًا فى أرضهم ، وأمر بمنارة ، فَبُنِيَتْ هناك ، وجعلها حَدًّا ، ثم انصرف إلى دار الملك ، ووضع عن الناس خَرَاجَ تلك السنة ، وقسم فى أهل الضَّعْف والمَسْكَنَة شَطْرَ ما غنم ، وقسم الشطر الآخر بين جُنْده الذين كانوا معه ، فَعَمَّ السُّرور أهل مملكته ، فلهوا جذَلًا وابتهاجاً ، فبلغ أجر اللُّعَّابِ[4] فى اليوم عشرين درهما ، وصار إكليل الريحان بدرهم .

---

(١) قرية بمرو (٢) المنقلة مرحلة السفر زنة ومعنى .

(٣) تقطرت الدابة عثرت براكبها فألقته على قطره . (٤) فرس اللعب .

فلما أتى له فى المُلْك ثلاث وعشرون سنة خرج مُتَصَيِّدًا ، فوقعت له عانَةٌ[١] من الوحش ، فدفع فرسه فى طلبها ، فذهبت به فرسه فى جُرف مُفْضٍ إلى غَمْرٍ من الماء ، فارتطم فيه ، فغرق .

وبلغ ذلك أُمّه ، فجاءت إلى ذلك المكان ، وأمرت بطلبه فى ذلك الهَوْر[٢] ، فاستخرجوا تِلَالًا من الحَصَى والرَّمْل ، فلم يدركوه ؛ ويقال إن ذلك المكان بموضع من الماء يسمّى دَايِ مَرْج ، سُمِّىَ بأمّه ، لأن الأم بلسان الفُرْس تسمّى داى ، وهو مرج معروف ، وهذا الحديث مشهور فى الموضع ، هو كما وصفوا فى الحديث هناك ، كِوَاءٌ تنفتح فى الأرض إلى ماء لا يُدْرَكُ له غَوْر ، وذلك بقُرْب آجام وماء راكد .

[يزدجرد بن بهرام]

فلما هلك بهرام ملّكوا ابنه يَزْدَجِرْدَ بن بَهْرَام ، فسار بسيرة أبيه سبع عشرة سنة ، وحضره الموت وله ابنان : فَيْرُوز وهُرْمُزْد ، وكان فَيْرُوز أكبر سِنًّا .

[النزاع بين الأخوين]

فاستأثر هرمزد بالمُلك دون أخيه فَيْرُوز ، فهرب فَيْرُز منه حتى لحق ببلاد الهَيَاطِلَة[٣] ، وهى تخارِستان والصَّغَانِيان[٤] وكابُلِستان[٥] والأرضون التى خلف

---

(١) العانة : القطيع من حمر الوحش . (٢) الهور هو البحيرة تفيض بها مياه الغياض والآجام فتتسع .

(٣) جنس من الترك أو الهند ، وكانت لهم شوكة وبلاء ، والهيطل: الجماعة القليلة يغزى بها .

(٤) الصغانيان : إيالة كبيرة وراء نهر جيحون ، وكانت مسقط رأس علماء كثيرين : منهم رضى الدين أبو الفضائل حسن بن محمد الصغانى من أئمة اللغة ، ووصفها الجغرافيون العرب بأنها معمورة، وتحوى ستة عشر ألف قرية، وتكثر بها الحيوانات والأشجار والمراعى والطيور الكثيرة، وتوجد الآن فى تركستان الروسية .

(٥) كابلستان : إيالة واسعة فى شمال شرق أفغانستان ، وكانت عاصمتها مدينة كابل الواقعة فى حوض نهر كابل ، وتقع زابلستان فى جنوب غربيها ، ويرى بعض الجغرافيين أنهما إيالة واحدة ، ولكن الشاهنامة تذكرهما على اختلاف.

النهر الأعظم بما يلى أرض بلخ ، فدخل على ملك تلك الأرض ، فأخبره بظلم أخيه إياه ، واحتوائه على المُلك دونه ، وهو أصغر سِنًّا منه ، وسأله أن يمدّه بجيش حتى يسترجع المُلك . فقال : لن أجيبك إلى ما تسأل حتى تحلف أنك أكبر سِنًّا منه ، فحلف فَيْرُوز ، فأمدّه بثلاثين ألف رجل ، على أن يجعل له حدا لِتِرْمِذ[1] ، فسار فَيْرُوز بالجيش ؛ واتّبعه جل أهل المملكة ، ورأوا أنه أحق بالمُلك من هرمزد لفظاظة هرمزد وشَرارته ، فحاربه حتى استرجع المُلك ، وأقال أخاه عَثْرَتَه، ولم يؤاخذه بما كان منه .

[فيروز بن يزدجرد]

قالوا : وكان فَيْرُوز ملكا محدودا ، وكل جُلّ قوله وفعله فيما لا يجدى عليه نفعه ، وإن الناس قحطوا فى سلطانه سبع سنين متواليات ، فغارت الأنهار ، وغاضت المياه والعيون ، وقحلت الأرض ، وجَفّ الشجر ، ومُوِّتت البهائم والطير ، وهلكت الأنعام ، وقل ماء دجلة والفرات وسائر الأنهار .

فرفع فيروز الخراج عن الرعيـــة ، وكتب إلى عُمّاله أن يَسُوسُوا الناس سياسة ، وتوعدّهم أنه إن هلك أحد فى أرض واحد منهم جوعا يُقِيدُ العامل والوالى به ، فساس الناس فى تلك الأزمنة سياسة لم يعطب فيها أحد من الناس جوعا ، ونادى فى الناس بالخروج إلى فضاء من الأرض ، فخرج جميع الناس من الرجال والنساء والصبيان ، فاستسقى الله ، فأغاثهم ، فأرسل السماء ، وعادت الأرض إلى حُسن الحال ، وجرت الأنهار ، وجاشت العيون ، ورجع الناس إلى أحسن عادة الله عندهم فى الرفاغة والرفاهة والخصب .

وبنى فَيْرُوز مدينة الرّىّ ، وسماها رام فَيْرُوز ، وابتنى بأَذْرَبِيجان مدينة

---

(١) بلد معروف بخراسان على الضفة الشمالية لنهر جيحون شمال إيران ، وقد فتحها موسى ابن عبد الله بن خازم سنة ٦٩٠م ، وفيها آثار يرجع تاريخها إلى العصر البوذى ، وإليها ينسب كثير من العلماء ، منهم أبو عبد الله الترمذى المحدث الفقيه الحنفى .

أَرْدَبِيل ، وسماها باذ فَيْرُوز ، ثم استمد وتأهّب لغزو الترك ، وأخرج معه المُوبَذ وسائر وزرائه ، وحمل معه ابنته فَيْرُوزدُخْت ، وحمل معه خزائن وأموالا كثيرة ، وخاف على ملكه رجلا من عظماء وزرائه ، يسمى شُوخَر ، وتدعى مرتبته قارِن ، وسار حتى جاوز المنارة التى كان بَهْرَام بناها حدًّا بينه وبين الترك ، وأخربها ، ووغل فى أرضهم .

ومَلِكُ الأتراكِ يومئذ أَخْشُوَان خاقان ، فأرسل ملك الترك إلى فَيْرُوز يعلمه أنه قد تعدّى ، ويحذّره عاقبة الظلم ، فلم يحفل فَيْرُوز بذلك ، فجعل خاقان يظهر كراهةً للحرب ، ويدافع إلى أن هيأ خندقا ، عمقه فى الأرض عشرون ذراعا ، وعرضه عشرة أذرع ، وبعّد ما بين طرفيه ، ثم غمّاه بأعواد ضعاف ، وألقى عليه قَصَبا ، وأخفاه بالتراب ، ثم خرج لمحاربة فَيْرُوز ، فواقفه ساعة ، ثم انهزم عنه .

وطلبه فَيْرُوز فى جنوده ، فسلك خاقان مسالك قد فهمها بين ظهرى ذلك الخندق ، وعطف عليه أَخْشُوَان وطَراخِنَته ، فقتلوهم بالحجارة ، واحتوى أَخْشُوَان على معسكر فَيْرُوز وكل ما كان فيه من الأموال والحرم ، وأخذ الموبذ أسيرا ، وأخذ فَيْرُوزدُخت ابنة فَيْرُوز ، ولحق الفَلّ بشُوخَر ، فأعلموه بمصاب فَيْرُوز وجنوده ، فاستنهض شُوخَر الناس للطلب بثأر ملكهم ، فخف له جميع الناس من الجنود وأهل البلاد ، فسار فى جموع كثيرة حتى وغل فى بلاد الترك ؛ وهاب أَخْشُوَان ملك الترك الإقدام على شُوخَر لكثرة جموعه وعدته ، فأرسل إليه يسأله المُوَادَعَة على أن يردّ عليه الموبذ وفَيْرُوزدُخْت وكل أسير فى يده ، وجميع ما أخذ من أموال فَيْرُوز وخزائنه وآلاته ، فأجابه شُوخَر إلى ذلك ، وقبضه ، وانصرف إلى بلاده وأرضه .

---

(١) المهزمون .

[أبناء فيروز]

فملك بعد فَيْرُوز ابنهُ بَلاس بن فيروز ، فملك أربع سنين ، ثم مات ، فجعل شُوخَر المُلْك من بعده لأخيه قُبَاذ بن فَيْرُوز . قالوا : وفى مُلْك قُبَاذ بن فَيْرُوز مات ربيعة بن نَصْر اللَّخْمِىّ ، ورجع المُلْك إلى حِمْيَر .

[ذو نواس واليمن]

فوَلِيَهُم ذو نُوَاس ، واسمه زُرْعَة بن زيد بن كَعْب كهف الظُّلْم بن زيد بن سَهْل بن عمرو بن قيس بن جُشَم بن وائل بن عبد شمس بن الغَوْث بن جدار بن قَطَن ابن عريب بن الرَّائش بن حِمْيَر بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان ؛ وإنما سُمِّىَ ذا نُوَاس لِذُؤَابة[1] كانت تَنُوس[2] على رأسه .

قالوا : وكان لذى نُوَاس بأرض اليمن نارٌ يعبدها هو وقومه ، وكان يخرج من تلك النار عُنُق يَمْتَدُّ فيَبْلُغ مقدار ثلاثة فراسخ ، ثم ترجع إلى مكانها ، ثم إن مَنْ كان باليمن من اليهود قالوا لذى نُوَاس : أيها الملك ، إنَّ عبادَتك هذه النار باطلة ، وإن أنت دِنْتَ بديننا أطفأناها بإذن الله تعالى ، لتَعْلَمَ أنَّك على غرر من دينك ، فأجابهم إلى الدخول فى دينهم إن هم أطفئوها ، فلما خرجت تلك العُنق أتَوْا بالتَّوْراة ، ففتحوها ، وجعلوا يقرءونها ، والنار تتأخَّر حتى انتهوا إلى البيت الذى هى فيه ، فما زالوا يتلون التَّوْراة حتى انطفأت ، فتهوَّدَ ذو نُوَاس ، ودعا أهل اليمن إلى الدخول فيها ، فمَنْ أبَى قتله .

ثم سار إلى مدينة نَجْرَان[3] ليُهَوِّدَ من فيها من النصارى ، وكان بها قوم على دين المسيح الذى لم يُبَدَّل ، فدعاهم إلى ترك دينهم والدخول فى اليهودية ، فأبوا ، فأمر بعالمهم ، وكان اسمه عبد الله بن التامِر ، فضُرِبَت هامته بالسيف ، ثم أدْخِلَ

---

(١) الذؤابة : شعر فى أعلى الناصية . (٢) تتذبذب .
(٣) نجران بالفتح، ثم السكون ، مدينة بينها وبين الكوفة مسيرة يومين فيما بينهاوبين واسط.

فى سور المدينة ، فضمّ عليه ، وخدّ للباقين أخاديد[1] ، فأحرقهم فيها ، فهم أصحاب الأُخدُود الذين ذكرهم الله عزّ اسمه فى القرآن[2] .

[الحبش واليمن]

وأفلَتَ دَوْس ذو ثَعْلَبَان ، فسار إلى ملك الروم ، فأعلمه ما صنع ذو نُوَاس بأهل دينه من قتل الأساقفة ، وإحراق الإنجيل ، وهدمه البِيَع ؛ فكتب إلى النَّجاشىّ ملك الحبشة ، فبعث بأَرْيَاط فى جنود عظيمة ، وركب البحر حتى خرج على ساحل عَدَن ، وسار إليه ذو نواس ، فحاربه ، فَقُتِل ذو نواس ، ودخل أَرْيَاط صَنْعاء، واسمها « دَمار »، وإنما صَنْعاء كلمة حَبَشِيَة ، أى وثيق حصين ، فبذلك سُمِّيَت صَنْعاء .

فلما اطمأنّ أَرْيَاط وقتل اليهود وضبط اليمن ، درّت عليه الأموال ، فجعل يُؤْثِر بها مَنْ يُحِبّه ، فغضب حاشية الحبشة من ذلك ، فأتوا أبا يَكْسُوم أَبْرَهَة ، وكان أحد قادتهم ، فشكوا إليه الذى يصنع أَرْيَاط ، وبَايَعُوهُ .

وانصرفت الحبشة فرقتين ، إحداها مع أَرْيَاط ، والأخرى مع أَبْرَهَة ، واصطفُّوا للحرب ، فدعاه أَبْرَهَة للبراز ، فبرز إليه ، فدفع أَرْيَاط عليه حَرْبَتَه ، فوقعت فى وجه أَبْرَهَة ، فَشَرَمَتْهُ ؛ ولذلك سُمِّىَ الأشرم ، وضرب أبرهة أرياط بالسيف على مَفْرِق رأسه ، فقتله ، وانحازت الحبشة إليه ، فملكهم ، وأقرَّهُ النَّجاشىّ على سلطان اليمن ، فمكث على ذلك أربعين عاما .

وبَنَى بصَنْعاء بَيْعَة لم ير الناس مثلها ، وآذن فى جميع أرض اليمن أن تحُجّها ، فاستَفْظَعَتِ العرب ذلك ، فدخل رجل من أهل تِهامة ليلًا ، فَأَحْدَثَ فيها ، فلما أصبح القوم نظروا إلى السَّوْأة السَّوْآء فى الكنيسة ؛ فقال أَبْرَهَة : مَنْ تظنُّونَه فعل هذا ؟ قالوا : لم يفعله إلا بعض من غضب للبيت الذى بمكة ، لما أَمَرْتَ بحجّ

---

(١) الأخاديد : هى الحفر المستطيلة فى الأرض كالخدة بالضم ، والمفرد أخدود .

(٢) الآيات : ٤، ٥، ٦ ، من سورة البروج

هذه البَيْعَة ، فغضب أبْرَهَة عند ذلك غضباً شديداً ، وتجهّز للسير إلى مكة ليهدم الكعبة ، فأرسل إلى النجاشي ، فبعث إليه بفيل كالجبل الراسي ، يُقال له محمود ، فسار إلى مكة ؛ فكان من أمره ما قد قصّه الله في سورة الفيل .

[الحبشان وهدم الكعبة]

قالوا : ولما أهلك الله أبرهة خلفه في ملكه بأرض اليمن ابنه يكسوم بن أبرهة ، فكان شرًّا من أبيه وأخبث سيرة ، فلبث على اليمن تسع عشرة سنة ثم مات . فملك من بعده أخوه مسروق ، وكان شرا من أخيه ، وأخبث سيرة .

[سيف بن ذي يزن]

فلما طال ذلك على أهل اليمن خرج سَيْف بن ذي يَزَن الحِمْيَرِيّ من ولد ذي نواس حتى أتى قَيْصر ، وهو بأنطاكية[1] ، فشكى إليه ما هم فيه من السودان ، وسأله أن ينصرهم وينفيهم عن أرضهم ، ويكون ملك اليمن له ؛ فقال له قيصر : أولئك هم على ديني ، وأنتم عبدة أوثان ، فلم أكن لأنصركم عليهم .

فلما يئس منه توجّه إلى كسرى ، فقدم الحيرة على النعمان بن المنذر ، فشكى إليه أمره ، فقال له النعمان : ما كان سبب إخراج جدنا ربيعة بن نصر إيانا عن أرض اليمن ، وإسكاننا بهذا المكان إلا لهذا الشأن فَأَقِمْ ، فإن لي وفادة في كل عام إلى الملك كسرى بن قباذ ، وقد حان ذلك ، فإذا خرجت أخرجتك معي ، واستأذنت لك ، وتشفعت لك إليه فيما قصدت له ، ففعل واستأذن ، وتشفّع ، فوجه كسرى بجيش ممن كان في السجون ، وأمر

(١) أنطاكية : مدينة غربي مدينة حلب بالإقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة، تبعد عنها بحوالي ٩٥ كم ، وقد كانت مدينة عظيمة بنيت سنة ٣٠١ ق.م. وتأثرت على مرور الزمن بالزلازل والحروب ، ولا تزال آثارها القديمة باقية .

عليهم رجلا منهم ، يقال له وَهْرِزْ بن الكامَجار ، وكان شيخا كبيرا ، قد أناف على المائة ، وكان من فرسان العجم ، وأبطالها ، ومن أهل البيوتات والشرف ، وكان أخاف السبيل ، فحبسه كسرى .

فسار وهرز بأصحابه إلى الأُبُلّة(١) ، فركب منها البحر ، ومعه سيف بن ذي يزن ، حتى خرجوا بساحل عدن ، وبلغ الخبر مسروقا ، فسار إليهم ، فلما التقوا وتواقفوا للحرب أسرع له وهرز بنُشّابة ، فرماه ، فلم يخطئ بين عينيه ، وخرجت من قَفَاه ، وخرّ ميتا ، وانْفَضّ جيشه ، ودخل وهرز صَنْعاء ، وضبط اليمن ، وكتب إلى كسرى بالفتح ، فكتب إليه كسرى ، يأمره بقتل كل أسْوَد باليمن ، وبتَمْليك سَيْف عليها ، وبالإقبال إليه ، ففعل . وإن بقايا من السُّودان قد كان سيف استبقاهم ، وضمّهم إلى نفسه ، يَجْمِزون(٢) بين يديه إذا ركب ، شدُّوا على سَيْف يوماً ، وهم بين يديه في موكبه ، فضربوه بحرابهم حتى قتلوه .

[الفرس واليمن]

فردّ كسرى وَهْرِز إلى أرض اليمن ، وأمره ألّا يَدَعَ بها أسْوَد ولا من ضربت فيه السُّودان إلّا قتله ، فأقام بها خمسة أحوال ، فلما أدركه الموت دعا بقَوْسه ونُشّابه ، ثم قال : أسندوني ؛ ثم تناول قَوْسه ، فرَمَى ، وقال : انظروا حيث وقعت نُشّابتي ، فابنوا لي هناك ناووسا ، واجعلوني فيه ، فوقعت نُشّابته من وراء الكنيسة ، وسُمِّيَ ذلك المكان إلى اليوم « مقبرة وهرز » ؛ ثم وَجّه كسرى إلى أرض اليمن بَاذَان ، فلم يزل مَالِكاً عليها إلى أن قام الإسلام .

قالوا : وكان قُبَاذ عند ما أفضى إليه المُلك حَدَث السِّنّ من أبناء خمس عشرة سنة ، غير أنه كان حسن المعرفة ، ذكيّ الفؤاد ، رحيب الذراع ، بعيد الغَوْر ، فوَلّى شُوخَر أمر المملكة ، فاستخَفّ الناس بقُبَاذ ، وتهاونوا به لاستيلاء شُوخَر

---

(١) الأبلة : بلدة في زاوية الخليج العربي على شاطئ نهر دجلة . (٢) يعدون .

على الأمر دونه ؛ فأغضى قُباذ على ذلك خمس سنين من مُلكه ، ثم أنِفَ من ذلك ، فكتب إلى سابُور الرّازىّ من ولد مِهْران الأكبر ، وكان عامله على بابل وخُطَرْنِيَة(١) ، أن يقدم عليه فيمن معه من الجنود ، فلما قدم أفضى إليه ما فى نفسه ، وأمره بقتل شُوخَر ، فغدا سابُور على قُباذ ، فوجد شُوخَر عنده جالسا ، فمشى نحو قُباذ مجاوزاً لشُوخَر ، فلم يأبَهْ له شُوخَر حتى أوْهَقَه سابُور ، فوقع الوَهق(٢) فى عنقه ، ثم اجترّه حتى أخرجه من المجلس ، فأثقله حديدا ، واستودعه السجن ، ثم أمر به قباذ ، فقُتِل .

[الديانة المزدكية]

فلما مضى للملك قباذ عشر سنين أتاه رجل من أهل اصْطَخْر ، يُقال له مَزْدَك ، فدعاه إلى دين المزدكية ، فمال قباذ إليها ، فغضبت الفُرْس من ذلك غضباً شديداً ، وهَمُّوا بقتل قباذ ، فاعتذر إليهم ، فلم يقبلوا عذره ، وخلعوه من المُلك ، وحبسوه فى محبس ، ووكلوا به ، وملّكوا عليهم جاماسف بن فَيْرُوز أخا قُباذ .

وأن أخت قُباذ اندسّت لقباذ حتى أخرجته بحيلة ، فمكث أياماً مُسْتخفياً إلى أن أمِنَ الطَّلَب ، ثم خرج فى خمس نفر من ثِقاته ، فيهم زَرْمِهْر بن شُوخَر نحو الهَياطِلَة(٣) ، يَسْتَنْصِر ملكها ، فأخذ طريق الأهواز ، فانتهى إلى أرمشير ، ثم صار إلى قرية فى حَدّ الأهواز وأصْبهان ، فنزلها متنكّرًا ، وكان نزوله عند دِهْقانها(٤) ، فنظر قُباذ إلى بنت لصاحب منزله ، ذات جمال ، فوقعت بقلبه ، فقال لزَرْمِهْر بن شُوخَر : « إنى قد هويت هذه الجارية ، ووقعت بقلبى ، فانطلق إلى أبيها ، فاخطبها علىّ ، ففعل » .

(١) خطرنية: بلد كانت بأرض بابل

(٢) الحبل يرمى فى أنشوطة فتؤخذ به الدابة أو الإنسان ، والأنشوطة كأنبوبة : عقدة يسهل انحلالها .

(٣) هياطلة Houyatila اسم لبلاد ما وراء النهر .

(٤) الدهقان بالكسر والضم زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم ، وهو لفظ معرب .

فأرسل قُباذ إلى الجارية بخاتمه ، وجعل ذلك مهرها؛ فهيِّئت وأُدخلت عليه ، فخلا بها قباذ ، وسُرَّ بها سروراً شديداً لما أَلْفَاها ذات عقل وجَمال وأدب وهيئة ، فأقام عنـدها ثلاثاً ، ثم أمرها بحفظ نفسها ؛ وخرج سائراً حتى ورد على صاحب الهياطِلَة ، فشكا إليه صنيع رَعِيّته به ، وسأله أن يَمُدَّه بجيش ليسترجع مُلْكه ، فأجابه إلى ذلك ، وشرط عليه أن يُسَلِّم له حيِّز الصَّغانِيان ، ووجَّه معه ثلاثين ألف رجل .

فأقبل بهم يريد أخاه ، فأخذ على طريقه الذي شَخَصَ فيه بَديئاً حتى نزل القَرْيَة التي تزوّج فيها بتلك المرأة ، فنزل على أبيها ، وسأله عنها ، فأخبره أنها ولدت غلاماً ؛ فأمر بإدخالها عليه مع ابنها ، فدخلت ومعها الغلام ، فابتهج به ، ورآه كأجمل ما يكون من الغِلمان ، فسماه كسرى ؛ وهو كسرى أنُو شَرْوَان الذي تولّى المُلْك من بعده ، فقال لزَرْمِهْر : « اخرج ، فَسَلْ لى عن هـذا الرجل أبي الجارية هل له قديم شرف ؟ » ؛ فسأل عنه ، فأُخْبِرَ أنهم من ولد فَريدون الملك ، ففرح بذلك قباذ ، وأمر بالجارية وابنها ، فحُمِلا معه .

ولمّا انتهى إلى مدينة طَيْسَفُون تلاوَمَت العجم فيما بينها ، وقالوا : « إنّ قُباذ تَنَصَّلَ إلينا من شأن مَزْدَك ، ورجع عما كنّا اتهمناه ، فلم نقبل ذلك منه ، وظلمناه حقه ، وأسأنا إليه » ، فخرجوا إليه جميعا ، وفيهم «جاماسِف» أخوه الذي ملّكوه ، فاعتذروا إليه ، فقبل ذلك منهم ، وصَفَحَ عن أخيه جاماسِف ، وعنهم ؛ وأقبل فدخل قصر المملكة ، ووَصَلَ الجيشَ الذي أقبل بهم ، وأجازَهُم ، وأحسن إليهم ، وردَّهم إلى مَساكنهم ، وأمر بالجارية ، فأُنزِلَتْ في أفضل مساكنه .

ثم إنّ قُباذ تجهّز وسار في جنوده ، غازياً بلاد الروم ، فافتتح مدينة آمِد ومَيافارِقين ، وسَبَى أهلها ، وأمر فَبُنِيَتْ لهم مدينة فيما بين فارس والأهواز ، فأسكنهم فيها ، وسمّاها إرقُباذ ، وهي أستان الأعلى ، وجعل لها أربعة طَساسِيج : طَسُّوج[1] الأنبار ، وكان منها هِيتُ وعانات[2] ، فضمّها يزيد بن معاوية حين ملك

(١) الطسوج : هو الناحية . (٢) بلدان بأرض العراق .

إلى الجزيرة ؛ وطَسُّوج بادوريا ؛ وطَسُّوج مَسْكِن ، وكوّر كورة بِهُقُباذ الأوسط ، وبِهُقُباذ الأسفل ، وضمّ إليها ثمانية طساسيج ، لكل كورة أربعة طساسيج ، وهى الأستانات[1] ، وشَقّ كورة[2] أصبهان كورتين ، شَقّ جَيّ ، وشق التَّيْمَرة[3].

وكان لقُباذ عدّة من الأولاد ، لم يكن فيهم آثَر عنده من كسرى ، لاجتماع الشَّرَف فيه ، غير أنه كان به ظِنّة ، أى سيء الظن ، فلم يكن قُباذ يحمده عليها ، فقال له ذات يوم : « يا بُنىّ قد كملت فيك الخصال التى هى رِجاع أمور الملك ، غير أنّ بك ظِنّة ، وإنّ الظِّنَّة فى غير موضعها داعية الأوزار ، ومُحْبِطة للأعمال » فاعتذر كسرى إلى أبيه مما وقع فى قلبه من ذلك ، واستصلح نفسه عنده .

[كسرى أنو شروان]

فلما أتى للملك قُباذ ثلاث وأربعون سنة حَضَرَهُ الموت ، فَفَوّض الأمر إلى ابنه ، وهو أَنُو شِرْوَان[4] ، فملك بعد أبيه ، وأمر بطلب « مَزْدَك بن مَازْيَار » الذى زَيَّنَ للناس ركوب المحارم ، وحَرَّض بذلك السُّفَل على ارتكاب السيئات ، وسَهَّلَ للغَصَبَة الغَصْب ، وللظَّلَمَة الظُّلْم ، فَطُلِبَ حتى وُجِد ، فأمر بقتله وصلبه ، وقَتَلَ مَنْ كان فى مِلَّتِه .

ثم قسم كِسْرَى أَنُوشِرْوَان المملكة أربعة أرباع ، وولّى كل رُبْع رجلا من ثِقَاتِه ، فأحد الأرباع : خُرَاسان ، وسِجِسْتان ، وكِرْمان ، والثانى : أصبهان ، وقُمّ ، والجبل ، وأذْرَبيجان ، وأرْمِينِيَة ، والثالث : فارِس ، والأهْوَاز إلى البحرين ، والرابع : العراق إلى حد مملكة الروم . وبلغ كل رجل من هؤلاء الأربعة غاية الشرف والكرامة .

---

(١) جمع أستان وهو أربع الكور .

(٢) الكورة : هى المدينة الكبيرة أو الصقع .

(٣) جىّ وتيمرة قريتان بأصبهان .

(٤) Nouschirwan

ووجَّه الجيوش إلى بلاد الهياطِلة ، وافتتح تخارستان وزابلستان[1] ، وكابلستان والصغانيان .

وأن ملك الترك سِنجبو خاقان جمع إليه أهل المملكة، واستمد، وسار نحو أرض خَرَاسان حتى غلبا على الشَّاش[2] ، وفَرْغانة ، وسَمَرْقَنْد ، وكُش[3] ونَسَف[4]، وانتهى إلى بُخَارى .

وبلغ ذلك كسرى ، فعقد لابنه هُرْمُز ، الذى ملك من بعده ، على جيش كثيف ، ووجَّهه لمحاربة خاقان الترك ، فسار حتى إذا قرب منه خلّى ما كان غلب عليه ، ولحق ببلاده ؛ فكتب كسرى إلى ابنه هرمز بالانصراف .

[دولتا الفرس والروم فى عهد كسرى]

قالوا : وإن خالد بن جَبَلة الغَسَّانى غزا النعمان بن المنذر ، وهو المنذر الأخير ، وكانا مُنْذِرين ، ونُعْمَانين ؛ فالمنذر الأول هو الذى قام بأمر بَهْرَام جُور ، والمنذر الثانى الذى كان فى زمان كسرى أنوشروان ، وكانوا عُمَّال كسرى على تُخوم أرض العرب ، فقتل من أصحاب المنذر مقتلة عظيمة ، واستاق إبل المنذر وخيله ، فكتب المنذر إلى كسرى أنوشروان يخبره بما ارتكب منه خالد بن جبلة .

فكتب كسرى إلى قيصر: أن يأمر خالداً بإقادة المنذر و[من][5] قتل من أصحابه، ورد ما أخذ من أمواله ، فلم يحفل قيصر بكتابه ، فتجهز كسرى لمحاربته ، فسار حتى أوغل فى بلاد الجزيرة ، وكانت إذ ذاك فى يد الروم ، فاحتوى على مدينة

---

(١) زابلستان : خطة واقعة جنوب أفغانستان وشمال بلوجستان ، وكانت محاطة بكابلستان وخراسان وسجستان وسند ، ومن مدنها غزنة ، وهى إقليم جبل كثير المياه ، وأهله مشهورون بالشجاعة .

(٢) مدينة بالقرب من فرغانة ؛ وتقع على مجرى نهر سيحون .

(٣) قرية على ثلاثة فراسخ من جرجان ، تقع على جبل ، وهى مسقط رأس تيمورلنك .

(٤) نسف: مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند ، لها أربعة أبواب، وهى على مدرج بخارى وبلخ ، والجبال منها على مرحلتين فيما يلى كش ، وبينها وبين جيحون مفازة لاجبل فيها ، ولها نهر واحد يجرى فى وسط المدينة .

(٥) فى الأصل : ما .

دَارَا[١] ومدينة الرُّها[٢] ومدينة قِنَّسْرِين[٣] ومدينة مَنْبِج[٤] ومدينة حلَب حتى انتهى إلى أنطَاكِيَة ، فأخذها ؛ وكانت أعظم مدينة فى الشام والجزيرة ، وسبى أهل أنطَاكِيَه، وحملهم إلى العراق، وأمر ، فَبُنِيَت لهم مدينة إلى جانب طَيْسَفُونَ، على بناء مدينة أنطَاكِيَة، بأزِقّتها ، وشوارعها ، ودورها ، لا يغادِر منها شيئاً ، وسمّاها « زَرِخُسْرُو » وهى المدينة التى إلى جانب المدائن، تسمى الرُّومِيّة ، ثم سُرّحوا فيها ، فانطلق كل إنسان منها إلى مثل داره بمدينة أنطاكية، وولى القيام بأمرهم رجلًا من نصارى الأهواز ، يقال له بَزْدَفنَا .

وأن قيصر كتب إلى كسرى يسأله الصلح ، ورد ما احتوى عليه من هذه المدن، على أن يؤدى إليه ضريبة موظّفة عليه فى كل عام وكره كسرى البَغْيَ ، فأجابه إلى ما بذل ، ووكّل بقبضه وتوجيهه إليه فى كل عام شَرْوِين الدَّسْتَبَاى ، فأقام مع ملك الروم هناك ومعه « خُرّين » مملوكُه المشهور الخبر ؛ وكان نَجدا فارسا بطلا .

ولما قفل كسرى منصرفا من أرض الشام أصابه مرض شديد ، فمال إلى مدينة حمْص ، فأقام بها فى جنوده إلى أن تماثل ، فكان قيصر يحمل إليه كفاية عسكره إلى أن شخَص .

قالوا : وكان لكسرى أنوشروان ابن يسمى أنُوش زاذ ، كانت أمه نصرانية ، ذات جمال ، وكان كسرى مُعْجَباً بها، وأرادها على ترك النصرانيـــة و لدخول

---

(١) كان موقعها فى أرض الجزيرة بين نصيبين وماردين ، ويقال إنها بنيت بعد غلبة دارا على الإسكندر ، وقد فتحها الروم واتخذوها مركزا هاما ضد الإيران ، ويذكر ابن بطوطة فى رحلته «أنه رآها ، وهى تحوى منازل بيضاء وبها قلعة» ويوجد بجوار خرابها وآثارها اليوم قرية صغيرة.

(٢) مدينة ذات مياه جارية كثيرة، تقع على بعد ١٩٠ ك.م شمال شرق حلب ، ١٤٥ ك.م جنوب غرب ديار بكر .

(٣) مدينة قديمة على بعد ٢٥ ك.م. جنوب غربى الشام ، وقد فتحت على يد أبى عبيدة الجراح سنة ١٧ هـ ، وخربت أيام سيف الدولة بن حمدان فى القرن الرابع.

(٤) مدينة فى الإقليم الشمالى (سوريا) شمال شرق حلب ، حكمها الشاعر أبو فراس الحمدانى، وفيها أسره الروم .

فى المجوسية، فأبت، فورِث ذلك منها ابنها أنوش زاذ ، وخالف أباه فى الديانة ، فغضب عليه ، وأمر بحبسه فى مدينة جُنْدَيْسَابُور .

فلما غزا كسرى بلاد الشام بلغ أنوش زاذ مرضه ومقامه بحمص ، استغْوَى أهل الحبْس ، وبثّ رسله فى نصارى جُنْدَيْسَابُور ، وسائر كُور الأهواز ، وكسر السجن ، وخرج ، واجتمع إليه أولئك النصارى ، فطرد عُمّال أبيه من كور الأهواز ، واحتوى على الأموال ، وأشاع بموت أبيه ، وتهيأ للمسير نحو العراق . وكتب خليفتهُ بمدينة طَيْسَفُون يُنْمِه خبر ابنه ، وما خرج إليه ، فكتب إليه كسرى : « وَجِّه إليه الجنود ، وأكْمِشْ فى حربه، واحتل لأخذه ، فإن يأت القضاء عليه ، فيقتلُ ، فأهونُ دمٍ ، وأضيعُ نفس ؛ واللبيب يعلم أن الدنيا لا يخلص صَفْوُها، ولا يدوم عَفْوُها ، ولو كان شىء يسلم من شائبة إذن لكان الغَيْث الذى يُحيي الأرض الميتة ، ولكان النهار الذى يأتى النـاس رُقُودًا فيبعثهم ، وعُمْيًا فيضىء لهم ؛ فكم مع ذلك من مُتأَذٍّ بالغَيْث ومُتَدَاعٍ عليه من البُنْيان ، وكم فى سُيوله وبُرُوقه من هالِك ، وكم فى هواجر النهار من ضرر وفساد ؛ فاستأصل الثُّؤْلُول[1] الذى نجم بجَدِّك ، ولا يَهولَنَّك كثرة القوم ، فليست لهم شَوْكَة تبقى ، وكيف تبقى النَّصارَى وفى دينهم : أن الرَّجُل منهم إن لُطِم خَدُّهُ الأيسر أمْكَنَ من الأيمن ؟! ؛ فإن استسلم أنوش زاذ وأصحابه فَرُدَّ مَنْ كان منهم فى المحابس إلى محابسهم ، ولا تَزِدْهم على ما كانوا فيه من ضِيقٍ ونَقْصٍ المَطْعَم والمَلْبَس ، ومَنْ كان منهم من الأساوِرَة[2] فاضرب عنقه ، ولا يكن منك عليهم رَأْفَة ، ومَنْ كان منهم من سِفَل الناس وأوْغَادهم ، فَخَلِّ سبيلهم ، ولا تعرض لهم ؛ وقد فهمت ما ذكرت مما كان منك فى نكال القوم الذين أظهروا شَتْمَ أنوش زاذ ، وذكروا أُمّه ، فاعلم أنّ أولئك ذوو أحْقادٍ كامِنَة وعداوة باطِنَة ، فجعلوا شَتْمَ

---

(١) الثؤلول بالضم : حلمة الثدى ، وقد استعير للدلالة على ضآلة الشأن وصغر الهمة .

(٢) القادة والرماة .

أنوش زاذ ذَرِيعةً لشتمنا ، ومَرْقاةً إلى ذكرنا ، وقد وُفِّقْتَ فى تأديبك إياهم ، فلا تُرَخِّص لأحد فى مثل مقالتهم ، والسلام » .

ثم إن كسرى عُوفِىَ من مرضه ، فانصرف فى جنوده إلى دار مُلْكه ، وقد أخذ ابنه أنوش زاذ أسيرا ، وانتُهِىَ فيه إلى ما أمر به .

[الخراج فى عهد كسرى]

قالوا : وكانت ملوك الأعاجم يضمون على غَلَّات الأرَضين شيئاً معروفاً من المقاسمات : النصف ، والثلث ، والربع ، والخمس إلى العشر ، على قدر قُرْب الضِّياع من المدن ، وعلى حسب الزكاء والرَّيْع ، فَهَمَّ قُباذ بإسقاط ذلك ، ووَضْع الخَراج ، فمات قبل أن يستتم المساحة ، فأمر كسرى أنُوشَرْوَان باستتمامها .

فلما فرغ منها أمر الكُتَّاب ففصَّلوها ، ووضعوا عليها الوضائع ، ووظَّفَ الجِزْيَةَ على أربع طبقات ، وأسقطها عن أهل البُيُوتات والمرازِبة[1] والأساوِرَة[2] والكُتَّاب ، ومَنْ كان فى خِدْمَة الملك ، ولم يُلْزِم أحداً لم يأت له عشرون سنة ، أو جاز الخمسين . وكتب تلك الوضائع فى ثلاث نسخ ، نسخة خلّدها ديوانه ، ونسخة بعث بها إلى ديوان الخَراج ، ونسخة دُفِعَتْ إلى القضاء فى الكور ، ليمنعوا العُمَّال من اعتداء ما فى الدُّسْتور الذى عندهم ؛ وأمر أن يُجْبَى الخَراج فى ثلاثة أنجُم[3] ، وسَمَّى الدار التى يُجبى فيها ذلك « سَرَاىَ شَمَرَه » ، وتفسيره دار الثلاثة الأنجم ، وهى التى تُعْرَف بالشُّمَّرَج اليوم ، وقد قيل فى تفسير ذلك غير هذا ، أى إنما هى دار الحساب ، والحساب شَمَرَه ، وهذا كلام معروف فى لغة فارس إلى اليوم ، يسمّون الخَراج الشَّمَرَه بالشين على معنى الحساب ، ورفع خَراج الرءوس عن الفقراء والزَّمْنَى ، وكذلك خَراج الغَلَّات ، ورفعه عمّا نالته

---

(١) رؤساء الفرس . (٢) قواد الفرس ومجيدو الرمى بالسهام .

(٣) أوقات مضروبة ، والمفرد نجم .

الآفة على قدر ما أصاب منهـا ، ووكّلَ بكل ذلك قوماً ثِقاتا ، ذوى عدالة ، يُنْفِذونه ، ويحملون الناس منه على النَّصَفَة .

ولم يكن فى ملوك العجم ملك كان أجمع لفنون الأدب والحِكَم ، ولا أطْلَبَ للعلم منه ، وكان يقرب أهل الآداب والحِكْمَة ، ويعرف لهم فضلهم ، وكان أكبر علماء عصره بُزُرْجُمِهْر بن الْبَخْتَكان ، وكان من حكماء العجم وعقلائهم ، وكان كسرى يُفضّله على وزرائه وعلماء دهره .

وكان كسرى وَلّى رجلا من الكُتَّاب نبيهاً معروفاً بالعقل والكِفاية ، يُقال له بابَك بن النَّهروان، ديوانَ الجُنْد ؛ فقال لكسرى : « أيها الملك ، إنّكَ قد قلّدْتنى أمراً ، مِن صلاحه أن تحتمل لى بعض الغِلْظَة فى الأمور : عَرْضَ الجنود فى كل أربعة أشهر ، وأخْذَ كل طبقة بكمال آلاتها ، ومحاسبةَ المؤدِّبين على ما يأخذون على تأديب الرجال بالفروسيّة والرّمى ، والنظرَ فى مبالغتهم فى ذلك وتقصيرهم ؛ فإنّ ذلك ذريعة إلى إجْراء السياسة مجاريها .

فقال كسرى : ما المُجَاب بما قال بأحْظَى من المُجِيب ، لاشتراكهما فى فضله ، وانفراد المُجيب بعدُ بالراحة ، فحَقِّقْ مقالتك ؛ وأمر ، فَبُنِيَتْ له فى موضع العرض مصْطَبَة[1] ، وبُسِطَ له عليها الفُرُش الفاخرة ؛ ثم جلس ، ونادَى مُناديه : لا يبقيَن أحد من المقاتلة إلا حضر العرض ، فاجتمعوا ، ولم ير كسرى فيهم ، فأمرهم ، فانصرفوا . وفعل ذلك فى اليوم الثانى ، ولم ير كسرى فانصرفوا ؛ فنادى فى اليوم الثالث : أيها الناس ، لا يتَخَلَّفَن من المقاتلة أحد ، ولا من أُكْرِم بالتاج والسرير ، فإنه عرض لا رُخصة فيه ولا محاباة .

وبلغ كسرى ذلك ، فتسلَّحَ سلاحه ، ثم ركب فاعترض على بابك ، وكان

---

(١) مرتفع يقعد عليه .

الذى يؤخذ به الفارسُ تِجْفَافًا(١) ، ودِرْعا وجَوْشَنا(٢) ، وبَيْضة ، ومِغْفَرا(٣) وساعدين ، وساقَيْن ، ورُمحا ، وتُرْسا ، وجُرزا(٤) ، يُلْزِمه مِنْطقته ، وطَبرزينا وعمودا ، وجُعْبَة فيها قوسان بوتريهما ، وثلاثين نُشّابة ، ووترين ملفوفين ، يملقهما الفارس فى مِغفره ظهريًا ؛ فاعترض كسرى على بابك بسلاح تام ، خلا الوترين اللذين يُسْتَظهر بهما ، فلم يجز بابك على اسمه ، فذكر كسرى الوترين ، فعلقهما فى مغفره ، واعترض على بابك فأجاز على اسمه ، وقال : لسيد الكماة أربعة آلاف درهم ودرهم . وكان أكثر من له من الرِّزق ، أربعة آلاف درهم ، ففضّل كسرى بدرهم ، فلما قام بابك من مجلسه دخل على كسرى ، فقال : أيها الملك ، لا تَلُمْنِى على ما كان من إغلاظى ، فما أردتُ به إلا الدُّرْبة للمملكة والإنصاف ، وحَسْم المحاباة .

قال كسرى : « ما غَلُظ علينا أحد فيما يريد به إقامة أَوَدِنا أو صلاحَ مُلْكِنا إلا احتملنا له غلظته كاحتمال الرجل شُرْب الدواء الكريه لما يرجو من منفعته » .

قالوا : وكانت كَسْكَر كورة صغيرة ، فزاد كسرى أنوشَرْوان فيها من كورة بَهُرَسِير وكورة هُرْمِزدخُرَّه ، وكورة مَيْسَان ، فوسّعها بذلك ، وجعلها طَسُّوجَيْن(٥) ، طَسُّوج جُنْدَيْسَابور ، وطَسُّوج الزَّنْدَوَرْد ؛ وكوّر بِجُوخَى كورة خسروماه ، وجعل لها ستة طساسيج ، طَسُّوج طَيْسَفُون ، وهى المدائن ، وطَيْسَفُون قرية على دجلة أسفل من قباب حُمَيْد بثلاثة فراسخ ، يقال لها بالنَّبَطية طَيْسَفُونج ، وطَسُّوج جازِر ، وطَسُّوج كَلْوَاذى ، وطَسُّوج نهر بُوق ، وطَسُّوج جَلُولاء ، وطَسُّوج نهر الملك .

(١) التجفاف بالكسر : آلة الحرب ، يلبسه الفرس والإنسان ليقيه .

(٢) الصدر يدرع به فى الحرب .

(٣) المغفر — كمنبر — زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة أو حلق يتقنع بها المتسلح.

(٤) عمود من حديد . (٥) الطسوج لفظ فارسى معرب ، معناه ، الناحية .

[تاريخ العجم والتاريخ النبوى]

ووُلِدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر مُلْك أنُوشروَان ، فأقام بمكة إلى أن بُعِثَ بعد أربعين سنة ؛ منها سبع سنين بقيت من ملك أنُوشَرْوَان ، وتسع عشرة سنة ملكها هُرْمز بن كسرى أنُوشَرْوَان ، وبُعِثَ وقد مضى من ملك كسرى أبرويز ست عشرة سنة ، فأقام بمكة فى نُبُوَّته صلى الله عليه وسلم وعلى عِتْرَتِه(١) ثلاث عشرة سنة ، وهاجر إلى المدينة ، وقد مضى من مُلْك أبرويز تسع وعشرون سنة ، فأقام بالمدينة عشر سنين ؛ وتُوُفِّىَ صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما بعد موت كسرى أبرويز ، فكان عمره صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وستين سنة .

وزعموا أن بَنات آوى ظهرت بالعراق فى آخر ملك أنُوشَرْوَان ، وكانت سقطت إليها من بلاد الأتراك ، واستفظع الناس ذلك ، وتَعَجَّبوا منه ؛ وبلغ ذلك كسرى فقال للمُوبَذ(٢) : « قد كثر تَعَجُّبى من هذه السباع التى غزت أرضنا » فقال الموبذ : « بلغنى أيها الملك فيما يُؤْثَر من أخبار الأوَّلين ، أن كل أرض يغلب جورُها عدلَها تغزوها السِّباع » . فلما سمع ذلك ارتاب بسيرة عُمَّاله ، فوَجَّهَ ثلاثة عشر رجلًا من أُمنائه الذين لا يَكْتُمُونَه شيئًا إلى آفاق مملكته متنكِّرين ، لا يُعْرَفون ؛ فانصرفوا ، فأخبروه عن سوء سيرة عُمَّاله ما غمَّه ، فأرسل إلى تسعين رجلا منهم ، ذُكِروا بسوء السيرة ، فضرب أعناقهم ؛ فضبط عُمَّاله أنفسهم ، ولزموا عدل السيرة .

[ملك هرمزد]

وكان لكسرى أنوشَرْوَان عِدَّةَ بنين ، وكانوا جميعا أولاد سُرِّيَّة وإماء إلا ابنه هُرْمُزْد بن كسرى الذى ملك بعده ، فإن أمه كانت ابنة خاقان الترك ، وأم أمه

(١) العترة : نسل الرجل ورهطه ، وعشيرته الأدنون ممن مضى وغبر.
(٢) الموبذ أو الموبذان هو الحكيم من الفرس .

خاتون الملكة ، فعزم أبوه على تمليكه من بعده ، فوضع عليه عُيُونا ، يأتونه بأخباره ، فكان يأتيه عنه ما يحبه ، فكتب له عهدا ، واستودعه رئيس نُسّاكهم فى دينهم ، فلما تم للملك ثمان وأربعون سنة مات .

فلما مات أنُوشِرْوَان ملك ابنه هُرْمُزْد بن كسرى ، فقال يوم مَلَكَ : « الحِلْمُ عِماد المُلك ، والعقل عِماد الدين ، والرِّفق مِلاك الأمر ، والفِطْنَة مِلاك الفكرة ، أيها الناس ، إن الله خَصّنا بالمُلك ، وعمّكم بالعبودية ، وكرّم مَلَكتنا فأعتقكم بها ، وأعزّنا ، وأعزّكم بعزّنا ، وقلّدنا الحكومة فيكم ، وألزمكم الانقياد لأمرنا ، وقد أصبحتم فرقتين : إحداهما أهل قوة ، والأخرى أهل ضَعَة ، فلا يستأكلن منكم قوى ضعيفا ، ولا يغشَنّ ضعيف قويا ، ولا تتوقنّ نفس أحد من الغَلَبة إلى ضيم أحد من أهل الضَّعَة ، فإن فى ذلك وَهْناً لملكنا ، ولا يرُومَنّ أهلٌ من أهل الضَّعَة الأخذ بمأخذ الغالبة ، فإن فى ذلك انتشارَ ما نحب نظامه وزوالَ ما نحاول قوامَه ، وفوتَ ما نحاول دركه ، واعلموا أيها الناس ، أن مِنْ سوسْنا العطفَ على الأقوياء من النَّكَبَة ، ورفع مراتبهم ، والرحمةَ على الضعفاء ، والذّبَّ عنهم ، وحسم الأقوياء عن ظلمهم والتعدّى عليهم ؛ واعلموا أيها الناس أن حاجتكم إلينا فى نفس حاجتنا إليكم ، وحاجتنا إليكم هى مسد لحاجتكم إلينا ، وأن الثقيل مما أنتم مُنْزِلوه بنا من أموركم عندنا خفيف ، والخفيف مما نحن مُجَشِّموكم ثقيل لعجزكم عما نحن مضطلعون به ، واضطلاعنا لما أنتم عنه عاجزون ، وإنما تحمدون حسن ملكتنا إياكم ، وفضل سيرتنا فيكم إذا حسمتم أنفسكم عما نهيناكم عنه ، وألزمتم ما أمرناكم به .

أيها الناس ، ميِّلُوا بين الأمور المتشابهات ، ولا تُسمّوا النُّسْك رياء ، ولا الرياء مراقبة ، ولا الشرارة شجاعة ، ولا الظلم حزما ، ولا رحمة الله نقمة ، ولا مُخُوف الفوت هُوَيْناً ، ولا البر بالقربى ملقا ، ولا العُقوق موجِدة ، ولا الشك استبراء ، ولا الإنصاف ضعفا ، ولا الكرم مَعْجزَة ، ولا التبرّم عادة ، ولا الأخذ

بالفضل ذُلّا ، ولا الأدب عقلا ، ولا العَماية غَفْلَة ، ولا القَذَر ضرورة ، ولا النَّزاهَة تضييعا ، ولا التَّصنُّع عفافا ، ولا الوَرَع رَهْبَة ، ولا الحذر جُبْنا ، ولا الشَّرَه اجتهادا ، ولا الجِنَاية غنا ، ولا القصد تَقْتِيرا ، ولا البُخْل اقتصادا ، ولا السَّرَف تَوَسُّعا ، ولا السَّخَاء سرفا ، ولا الصلَف بُعد همة ، ولا النُّبل صَلَفا ، ولا البَذَخ تجلدا ، ولا الحِرْمان استحقاقا ، ولا رفع الأنذال صنيعة ، ولا المجون ظرفا ، ولا التخلُّف تثبتا ، ولا التثبُّت بلادة ، ولا النَّميمة وسيلة ، ولا السِّعَاية دَرَكا ، ولا اللِّين ضعفا ، ولا الفُحْش انتصافا ، ولا الهَذَر[1] بلاغة ، ولا البلاغة تَفَيْهقا[2] ، ولا الميل فى هوى الأشرار شكرا ، ولا المُداهَنَة مُوَاتاة ، ولا الإعانة على الظلم حِفاظا . ولا الزَّهْو مروءة ، ولا اللهو فكاهة ، ولا الحَيْف استقصاء ، ولا الاستطالة عزّا ، ولا حسن الظن تفريطا ، ولا إيطاء العَشْوة نصيحة ، ولا الغش كَيْسا ، ولا الرياء تعطفا ، ولا التوانى تُؤَدَة ، ولا الحياء مهابة ، ولا السفه صرامة ، ولا الدَّغَل[3] استقامة ، ولا البغى استعادة ، ولا الحسد شفاء ، ولا العُجب كمالا ، ولا الفتك حَمِيّة ، ولا الحقد مكرُمة ، ولا الضيق احتياطا ، ولا التعسف انكماشا ، ولا النَّزَق تيقظا ، ولا الأدب حِرفة ، ولا المانية مفاسدة ، ولا بُعد القدَر سُمُوّا ، ولا مجارىَ التقادير أسباب الذنوب ، ولا ما لا يكون كائنا ، ولا كائنا ما لا يكون.

اجتنبوا المزدولات من هذه الأمور المتشابهات ، وثابروا على ما تحظَوْن به عندنا ، فإن وقوفكم عند أمرنا مَنجاة لكم من سخطنا ، وتنكّبكم معصيتنا سلامة لكم من عقابنا ، فأما العدل الذى نحن عليه مقتصرون ، وبه نصلح وتصلحون ، فأنتم فيه عندنا مُسْتَوُون ، ستعرفون ذلك إذا قمَعْنَا أهل القوة عن أهل الضَّعْف ، وتولَّيْنَا بأنفسنا أمر المضطهدين الملهوفين ، وأخضعنا أهل الضَّعة لأهل العُلا بإزالتنا إياهم منازلهم ، ورددنا مَن رام من أهل الضعة مرتبة لا يستوجبها إلا المستحقون منهم الحَباء ، والشرف لنجدة توجد عنده ، أو بلاء حسن يظهر منه .

---

(١) سقط الكلام . (٢) التشدق فى الكلام . (٣) الدخول فى الأمور بما يفسدها .

واعلموا أيها الناس ، أنَّا فارقون بين سَوْطِنَا وسيفنا ، ومستعملوهما بتثبت وحُسْن روية ، فمن غَمِطَ نعمتنا وخالف أمرنا ، وحاول ما نهيناه عنه ؛ فإنا لا نكاد نصلح رعايانا ، وتضبط أمورنا إلا بتنكيل من خالف أمرنا ، وتعدّى سيرتنا ، وسعى في فساد سلطاننا ، ولا يطمعنّ أحد في رُخْصَة منا ، ولا يَرْجُونّ هَوَادَة عندنا ، فإنا غير مُداهنين في حق الله الذي قلّدنا ، فوطّنوا أنفسكم على إحدى خلتين : إما استقامة بما تصلحون ، وإما مخافة على ما تتلفون ، فإن الصلاح حجّتان ممتدّان لكم عندنا من تدبير ملكنا ، وضبطنا سلطاننا ، فلا تستصغروا وَعِيدَنا ، وتَهَدُّدَنا ، ولا تحسبوا أن فعلنا يقصُر عن قولنا ، وإنما أحببنا أن نعلمكم رأينا في اجتناب الرُّخَص والمُحَاباة ، وحرصنا على الاعتذار قبل الإيقاع ، والأخذ بقصد السيرة والعدل في الرعية ، واختيار طاعتكم التي بها تكون أُلفتكم واستقامتكم ، فثقوا بما بدأنا به من وعد ، وخافوا ما أظهرنا من وعيد ، ونحن نسأل الله أن يعصمكم من استدراج الشيطان وضلاله ، وأن يُسَدِّدَكم لما يقرب من طاعته ، وبلوغ مرضاته ، والسلام عليكم » .

فلما سمع الناس ذلك تباشر به الضعفاء وأهل الضّعة ، وفتّ ذلك في أعضاد العِلْية وساءهم ، فتنكّبوا ما كانوا فيه من الاستطالة على الضعفاء ، والقهر لأهل الضعة ،

وكان هرمزد ملكا متحرّيا لحسن السيرة ، مثابرا على استصلاح الرعية ، رحيما بالضُّعفاء ، شديداً على الأقوياء ، وبلغ من عدله وتحرّيه الحق أنه كان يسير في كل عام إلى أرض الماهَيْن[1] . فيصيف بها ، وكان يأمر عند مسيره إليها مُناديه ، فيُنادي في عسكره أن يتحاموا الإضرار بالدَّهاقين[2] ، ويوكل بتعهد ذلك ومعاقبة من تعدّى أمره فيه رجلا من ثقاته .

---

(١) الماهان : الدينور ونهاوند ، إحداهما ماه الكوفة ، والأخرى ماه البصرة .

(٢) الدهاقين جمع دهقان وهو المزارع أو الفلاح .

وكان ابنه كسرى الذى ملك من بعده ، ويسمّى أبرويز ، معه فى مسيره ، فعار[١] ذات يوم مَركب من مراكبه ، فوقع فى زرع على طريقه ، فرَتَعَ فيه ، وأفسد ، فأخذ صاحب الزرع ذلك المركب ، فدفعه إلى المُوَكّل بذلك الأمر ، فلم يمكنه معاقبة كسرى ، فرَقّ أمره إلى أبيه ، فأمر أن يُجدَع أُذُنا الفرس ، ويُحذَف ذَنَبه ، ويُغرَّم ابنه مقدار مائة ضعف مما أفسد الفرس من ذلك الزرع .

فخرج المُوَكّل بذلك من عند الملك لِيُنَفِّذَ أمر الملك ، فوجّه كسرى رهطاً من المرازِبَة والأشراف إلى المُوَكّل بذلك ، ليسألوه التغييب عن ذلك ويدفع ألف ضعف مما أفسد مركبه ، لما فى جَدْع أذن الفرس وتبتير ذَنَبه من الطِيَرَة ، فلم يُجبهم الموكّل إلى ذلك ، وأمر بالمركب فجُدِعَت أُذُناه ، وبتر ذَنَبه ، وغُرّمَ كسرى ما أصاب صاحب الزرع كنحو ما كان يغرم سائر الناس ؛ فلم يكن للملك هُرْمزد بن كسرى هِمّة ولا نَهْمَة إلا استصلاح الضُّعَفاء ، وإنصافهم من الأقوياء ، فاستوى فى مُلْكه القوى والضعيف .

وكان هُرْمزد منصورًا مُظَفَّرًا لا يروم تناول شيء إلّا ناله ، لم يُهزَم له جيش قطّ ، وكان أكثر دهره غائباً عن المدائن . إمّا بالسواد متشتّيا ، وإمّا بالماه متصيّفا .

فلما كانت سنة إحدى عشرة من ملكه حدق به الأعداء من كل وجه فاكتنفوه اكتناف الوَتَرسِيَتَى[٢] القوس ، أما من ناحية الشرق فإن شاهنشاه الترك أقبلَ حتى صار إلى هَرَاة[٣] ، وطرد عُمّال هرمزد ، وأما من قبل المغرب فإن ملك الروم أقبل حتى شارف « نَصيبين » ليسترد آمِد[٤] ومَيّافارِقين[٥]

---

(١) عار الفرس بعير ذهب كأنه منفلت . (٢) سيتا القوس : طرفاه .

(٣) مدينة فى أفغانستان سكانها سنيون وبينهم طائفة من الشيعة ، وينسب بناؤها إلى الإسكندر ، وهى مشهورة بجامعها القديم وفيها تصنع الطنافس .

(٤) آمد وهى ديار بكر ، مدينة على الشاطئ الأيسر لنهر دجلة ، فتحها عياض بن غنام الفهرى .

(٥) ميافارقين: قاعدة بلاد ديار بكر بين الجزيرة وأرمينية ، وقد سميت قديما مارتيروبوليس أو مدينة الشهداء لما جمع فيها من عظام الفرس المسيحيين .

ودارًا ونصيبين[1] ، وأما من قبل أرْمِينية فإن ملك الخَزَر أقبل حتى أوْغَلَ في أذرْبيجان ، فبث الغارات فيها .

فلما انتهى ذلك إلى هُرْمزد بدأ بقيصر ، فرد عليــه المدن التي كان أبوه اغتصبه إياها ، وسأله الصلح والموادعة ، فأجابه قيصر إلى ذلك ، فانصرف ؛ ثم كتب إلى عُماله بأرمينية وأذرْبيجان ، فاجتمعوا وصمدوا صَمدَ صاحبِ الخَزَر ، حتى نفوْه عن أرضه .

فلما فرغ من ذلك كله صرف همّــه إلى صاحب الترك ، وكان أشد الأعداء عليــه ، فــكتب إلى بَهْرَام بن بَهْرَام جُشْنَسْ ، عامله على ثَغر أذرْبيجان وأرْمينِيّة ، وهو الملقّب ببهرام شُوبين ، يأمره بالقدوم عليه ، فما لبث أن قدم ، فأذن له ، فدخل عليــه ، فرفع مجلسه ، وأظهر كرامته ، وخَلَا به ، وأخبره بالأمر الذى أراده له ، من التوجّه إلى شاهِنْشاه الترك .

فسارع بَهْرَام إلى طاعته واتّباع أمره ، فأمر هرمزد أن يُسَلَّط بَهْرَام على بيوت الأموال والسلاح ، وأن يُسَلّم إليه ديوان الجند ، ليختار مَنْ أحبَّ على عينه ، فأحضر بَهْرَام الديوان ، وجمع إليــه المرازبة والأشراف ، فانتخب اثنى عشر ألف رجل من الفرسان ، ليس فيهم إلّا مَنْ أنافَ الأربعين .

وبلغ ذلك الملك ، فقال له : « لِمَ لَمْ تنتخب إلّا هــذا المقدار ، وإنما تريد أن تسير بهم إلى ثلاثمائة ألف رجل؟ » . فقال بَهْرَام : « ألم تعلم أيها الملك أنّ قابُوس حين أُسِر فَحُبِس في حِصْن ماسَفْرى إنما سار إليه رُستم في اثنى عشر ألفا ، فاستنقذه من أيدى مائتى ألف ، وأنّ أسْفَنْدِياد إنما سار إلى أرْجاسِف ليطلب منه الوِتر الذى كان له عنــده في اثنى عشر ألفا ، وأنّ « كيخسرو » إنما أرسل « جودَرْز » ليطلب بدم أبيه سِيَاوُش في اثنى عشر ألفا ، فَظَهَرَ على ثلاثمائة ألف ؛ فأىُّ جيش لا يُقَلّ باثنى عشر ألفا لا يُقَلّ بشىء أبدا » .

---

(١) نصيبين مدينة فيما بين النهرين ، اشتهرت قديما بمدرستها السريانية .

فلما فَصَلَ بهرام بالجنود من المدائن وَدَّعه الملك ، وقال له : « إيَّاك والبَغْيَ ؛ فإنَّ البَغْيَ مصرعه بصاحبه ، وعليك بالوَفاء ، فإنَّ فيه نجاة لمحاوله ، وإيَّاك أن تسير إلّا على تَعبِيَة الحرب ، فإذا نزلت فاحرس عسكرك بنفسك ، وامنع جنودك من العيث والفساد ، وإيَّاك أن تعزم حتى تُرَوِّى ، ولا تُرَوِّى حتى تستشير أهل النُّصْح والأمانة » ؛ ثم انصرف الملك ، ومضى بهرام ، فأخذ على طريق الأهواز .

وبلغ ملك الترك قدوم الجيش لمحاربته ، وقد كان الملك هُرْمزد وجَّه إلى ملك الترك رجلًا من مرازبته يسمَّى هرمزد جُرابزين ، وكان من أدهى العجم ، وأشدهم خِلابة وكيْدا ، وأمره أن يُعْلِمه أنه رسول الملك ، أرسله لمصالحته ، وإعطائه الرِّضَى ؛ فأتاه هرمزد جُرابزين ، فاستعمل فيها الخديعة ، وكفَّه بها عن الفساد فى أرض خُراسان ؛ فلما علم هرمزد أن بهرام قد دَنَا من هَراة خرج ليلًا ، فلحق ببهرام .

ولما بلغ ملك الأتراك ورود الجيش قال لصاحب حرسه : انطلق فائتنى بهذا الفارس الخَدَّاع ؛ فطلبوه ، فوجدوه قد هرب فى جوف الليل .

وخرج خاقان من مدينة هَراة للقاء بَهْرَام ، وعلى مقدمته أربعون ألفا . فلما التقوا أرسل إلى بَهْرَام : أن انضمّ إلىَّ حتى أُمَلِّكك على إيران شَهْر ، وأجعلك أخصَّ الناس بى .

فأرسل إليه بَهْرَام كيف تملّكنى على إيران شهر ، وإنما مُلكها لأهل بيت فينا لا يجوز أن يعدوهم إلى غيرهم ، ولكن هلُمَّ إلى الحرب .

فغضب ملك الترك من ذلك ، وأمر ، فضُرِبَ بُوق الحرب ، وتزاحف الفريقان ، وملك الترك على سرير من ذهب فوق رابيَة ، يُشرف على الفريقين .

فلما استمرَّت الحرب قصد بهرام للتلّ فى مائة فارس من أبطال جنوده، فانفضَّ عنه مَنْ حول ملك الترك ؛ فلما رأى الملك ذلك دعا بمركبه ، واستبان لبهرام ،

فرماه بنُشّابة نفذته ، فخرّ صريعا ، وانهزم الأتراك ؛ وقد كان شاهِنْشاه خلّف على ملكه ابنه « يُلْتَكِين » فلما أتاه مقتل أبيه استجاش[1] الترك ، وأقبل فى دهم داهم من أمم الأتراك ، وانضم إليه الفَلّ .

وبلغ بَهْرَام الخبر ، فأرسل فى أقطار خراسان ، فاجتمع إليه بشر كثير فسار مستقبلا لِيُلْتَكِين ، فالتقوا على شاطىء النهر الأعظم مما يلى التِّرمذ ، وهاب كل واحد منهما صاحبه ، وجرت بينهما السُّفراء فى الصلح .

وأرسل بَهْرَام إليه « إنكم معاشر الخاقانية قتلتم ملكنا فَيْرُوز ، فأهدرنا دمه ، وقبلنا الصلح منكم ، فكذلك ، فافعلوا بنا » .

فأجابه يُلْتَكِين إلى الصلح على حكم هُرمزد الملك ، وأقاما بمكانهما .

فكتب بَهْرَام إلى هرمزد بذلك ، فكتب إليه هرمزد : أن تُوَجِّه إلىّ يُلْتَكِين مكرّما فى خاصة طَرَاخِنته[2] وعظماء جنوده .

فتوجه يُلْتَكِين إلى العراق ، فلما دنا من المدائن خرج هرمزد ملتقيا له ، وترجّل كل واحد منهما لصاحبه ، وأظهر هرمزد إكرام يُلْتَكِين ، وأنزله معه فى قصره ، وأخذ كل واحد منهما عهدا وَكِيدا على صاحبه بالمسالمة ما بقيا ، ثم أذن له ، فانصرف إلى مملكته .

ولما وَغَلَ فى خُراسان استقبله بَهْرَام فى جنوده ، وسار معه إلى حد مملكته ؛ وانصرف بَهْرَام حتى أتى مدينة بلخ ، فنزلها ، ووجه إلى الملك هرمزد ما كان غنمه من عسكر شاهِنْشاه ، ووجه إليه بذلك السرير الذهب ، فبلغ ما وجه إليه وِقر[3] ثلاثمائة بعير .

فلما وصلت الغنائم إلى هرمزد ، وعرضت عليه ، وحوله وزراؤه وعظماء

---

(١) طلب الجيوش منهم . (٢) جمع طرخان وهو الرئيس ، ويلقب به الأعيان فى خراسان .
(٣) الوقر بالكسر : الحمل الثقيل .

مبارزته ، قال يَزْدَان جُشْنَس رئيس وزرائه : « أيها الملك ، ما كان أعظم الفائدة التى منها هذه اللقمة » ؛ فوقعت هذه الكلمة فى قلب هرمزد ، وارتاب بأمانة بَهْرَام ، وظن أن الأمر كما قال يَزْدَان جُشْنَس ؛ فانظر كم داهية دَهْياء وحروب وبلاء جرت هذه الكلمة .

ودخل هرمزد منها الغضب والغيظ على بَهْرَام ما أنساه حُسْنَ بلائه ، فأرسل إلى بَهْرَام بجامعة ومِنطق امرأة ومَغزل ، وكتب إليه « إنه قد صح عندى أنك لم تبعث إلىّ من تلك الغنائم إلا قليلا من كثير ، والذنب لى فى تشريفى إياك ، وقد بعثت إليك بجامعة ، فضعها فى عنقك ، ومنطق امرأة ، فتنطق بها ، ومغزل ، فليكن فى يدك ، فإن الغدر والكفران من أخلاق النساء » .

فلما وصل ذلك إلى بَهْرَام كظم غيظه ، وعلم أنه إنما أُتى من الوُشاة ، فوضع الجامعة فى عنقه ، وصيَّر المنطق فى وسطه ، وأخذ المغزل فى يده ، ثم أذِنَ لعظماء أصحابه ، فدخلوا عليه ، ثم أقرأهم كتاب الملك إليه ، فلما سمع أصحابه ذلك يئسوا من خير الملك ، وعلموا أنه لم يشكر لهم حُسْنَ بلائهم ، فقالوا : نقول كما قال أوَّلُو خوارِجنا لأرْدَشير: «مَلِكٌ ولا يَزْدَان». ونحن نقول: « لا هرمزد ملك ، ولا يَزْدَان جُشْنَسْ وزير » .

وكانت قصة أوّل خوارجهم : أن أرْدَشِير بَابَكان كان صار إليه بعض الحَوَارِيين ، فاستجاب له ، ودخل فى دين المسيح صلى الله عليه وسلم ، وكان فى عصره ، وشايعه على ذلك وزيره يَزْدَان ، فغضب العجم لذلك ، وهَمُّوا بخلع أرْدَشِير حتى أظهر لهم الرجوع عمّا همّ به من ذلك ، فأقرُّوه على الملك .

فقال أصحاب بهرام لبهرام : « إن أنت تابعتنا على خلع هرمزد والخروج عليه ، وإلا خلعناك ، ورأَّسْنا غيرك ، فلما رأى اجتماعهم على ذلك أجابهم على أسَف وهمّ وكراهية .

وخرج هُرْمزد جُرابزين ويَزْدك الكاتب من معسكر بهرام ليلا حتى قدما المدائن ، وأخبرا هرمزد الخبر .

ثم إن بهرام سار في جنوده نحو العراق لمحاربة هرمزد الملك حتى ورد مدينة الرّيّ فأقام ، واتخذ سِكّة للدراهم بتمثال كسرى أبرويز ابن الملك ، وصورته ، واسمه ، وضرب عليه عشرة آلاف درهم ، وأمر بالدراهم ، فحُمِلَت سِرا حتى ألقيت بالمدائن ، ففشت في أيدي الناس .

وبلغ ذلك الملك هرمزد ، فلم يَشُك أن ابنه كسرى يحاول الملك ، وأنه الذي أمر بضرب تلك الدراهم ، وذلك الذي أراد بهرام بما فعل ، فهم الملك بقتل ابنه كسرى ، فهرب كسرى من المدائن ليلا نحو أذَرْبيجان حتى أتاها ، وأقام بها ، ودعا الملك بِندَوَيْه وبِسْطاما ، وكانا خالَيْ كسرى ، فسألهما عن كسرى ، فقالا « لا علم لنا به » ، فارتاب بهما ، فأمر بحبسهما .

ثم إن الملك جمع نصحاءه ، فاستشارهم ، فقالوا : « أيها الملك ، إنك عَجِلت في أمر بهرام ، وقد رأينا أن توجه إلى بهرام يِزْدان جشنس ، فليس بهرام بقاتله ، إذا أتاه فاعتذر إليه ، وباء بذنبه عنده ، وتكون قد طَيَّبْت نفس بهرام ، ورددته إلى الطاعة ، وحقنت بذلك الدماء » ؛ فقبل الملك ذلك .

وبعث يِزدان جشنس الوزير ، فلما تهيأ للمسير أرسل إليه ابن له كان محبوسا في حبس الملك ببعض الجرائم ، يسأله أن يستوهبه من الملك ، ويخرجه معه ، فإن عنده غَناء ومعونة في الأمور ، ففعل يزدان جشنس وأخرجه معه .

فلما صار بمدينة همذان ارتاب بابن عمه ذلك ، وكتب كتابا إلى الملك يعلمه : أنه قد ردّه إليه ، ليأمر بقتله ، أو يرده إلى محبسه ، فإنه فاجرٌ فتّاك ، وقال له : « إني قد كتبت إلى الملك كتابا في بعض الأمور ، فأغِذ السير به حتى تدفعه إليه ، ولا تُطْلِعَنّ على ذلك أحدا » .

فارتاب الرجل بذلك ، فلما تغيّب عن يَزْدَان جُشْنَس ، وفكّ الكتاب ، وقرأه فإذا فيه حَتْفه ، فرجع إلى يَزْدَان جُشْنَسْ ، وهو مُسْتَخْلٍ ، فضربه حتى قتله ، وأخذ رأسه ، فانطلق به إلى بَهْرَام ، وهو بالرّىّ ، فألقاه بين يديه ، وقال : هـذا رأس عدوك يَزْدَان جُشْنَسْ الذى وَشَى بك إلى الملك ، وأفسد قلبه عليك ؛ فقال له بَهْرَام : « يافاسق ، أقتلت يَزْدَان جُشْنَسْ فى شرفه وفضله ، وقد كان خرج نحوى ليعتذر إلى مما كان منه ، ويصلح بينى وبين الملك ؟. ثم أمر به ، فضربت عنقه .

وبلغ من بباب الملك من العظماء والأشراف والمرازبة مقتل يَزْدَان جُشْنَسْ ، وكان عظيما فيهم ، فمشى بعضهم إلى بعض ؛ وعزموا على خلع الملك ، وتمليك ابنه كسرى ، وكان الذى زَيّنَ لهم ذلك، وحملهم عليه « بِنْدَوية وبِسْطام » خالا كسرى . وكانا محتبَسين ، فأرسلا إلى العظماء ، أنْ أريحوا أنفسكم من ابن التُرْكية ، يعنيان الملك هرمزد ، وقد قتل خيارنا ، وأباد سَرَاتنا ، وذلك أنه كان مُولَعا بالعِلية من أجل استطالتهم على أهل الضعف ، فقتل منهم خَلْقا كثيراً ، فاتفقوا على يوم يجتمعون فيه لذلك ، فأقبلوا جميعا حتى أخرجوا بِندوية وبِسْطاما من الحبس ، وجميع من كان فيه .

[تولية كسرى أبرويز]

ثم أقبلوا إلى الملك هرمزد فنكّسوه عن سريره ، وأخذوا تاجه ومنطقته وسيفه وقباءه ، فأرسلوا بها إلى كسرى ، وهو بأذَرْبيجَان .

فلما انتهى ذلك إليه سار مُقْبِلا حتى وَرَدَ المدائن ، ودخل الإيوان ، واجتمع إليه العظماء ، فقام فيهم خطيبا ، فكان مما قال : المقادير تُرِى المرء مالا يخطر بباله ، والأسباب تأتى على خلاف الهوَى ، والبَغْى مصرعه لأهله ، والخائب من أورطته رغبته ، والحازم من قنع بما قضى له ولم تَتُقْ نفسه إلى أكثر منه . أيها الناس : ثابروا على ما يقربكم إلينا من طاعتنا ومناصحتنا ، وإياكم

ومخالفة أمرنا ، والبغى علينا ، فإنا لكم بمنزلة العُرَى والأركان .

فلما تفرق الناس عنه قام يمشى حتى دخل على أبيه ، وهو فى بيت من بيوت القصر ، فقبّل يديه ورجليه ، وقال : « يا أبتِ ، ما أحببت هذا الأمر فى حياتك ، ولا أردته ، ولو لم أقبله لصُرِفَ منّا ، وأُزيلَ عنّا إلى غيرنا » .

فقال له أبوه : « صدقتَ وقد قبلت عذرك ، فدونك الأمر ، فقُمْ به ، وقد عرضت لى إليك حاجة » .

قال : « يا أبتِ ، وما عسى أن يعرض لك إلىّ ؟ » .

قال : « تنظر الذين توَلَّوْا نكسى عن السرير ، وأخذوا التاج عن رأسى ، واستخفّوا بى ، وهم فلان وفلان ، وسمّاهم ، فعجِّلْ قتلهم ، واطلبْ لأبيك بثأره منهم » .

قال كسرى : « هــذا لا يمكن يومنا هذا حتى يقتل الله عدوّنا بهرام ، ويستدفّ[1] لنا الأمر ، فتنظر عند ذلك كيف أُبيرهم[2] وأنتقم لك منهم » .
فرَضِيَ أبوه بذلك منه ، وخرج كسرى من عنده ، فجلس مجلس الملك .

وبلغ بهرام ما جرى ، وهو بالرّىّ ، وما كان من الأمر ، فغضب لهُرْمُزْد غضباً شديداً ، وأدركته له حَمِيَّة ورقّة ، وذهب عنه الحقد ، فسار فى جنوده جادًّا مُجِدًّا ليقتُلَ كسرى ومَنْ وَالاَهُ على أمره ، ويَرُدَّ هُرْمُزد إلى مُلْكه .

وبلغ كسرى فُصوله من الرّىّ ، وما يَهُمّ به ، فكتم ذلك عن أبيه ، وسار ملتقياً لبهرام فى جنوده ، وقدّم رجلا من ثقاته ، وأمره أن يأتى عسكر بهرام متنكّرا ، فينظر سيرته ، ويعرف له كُنْهَ أمره .

فسار الرجل ، فاستقبل بهرام بهَمَذان ، فأقام فى عسكره حتى عرف جميع أمره ، ثم انصرف إلى كسرى ، فأخبره : أن بهرام إذا سار كان عن يمينه مَرْدَان سِينَه الرُّوَيْدَشتِى ، وعن يساره يَزْدَجُشْنَس بن الحلبان ، وأن أحداً

---

(١) يستدف = يستقيم . (٢) أبيرم = أهلكهم .

من جنوده لا يُطمِع نفسه فى اغتصاب أحد من الرَّعِيّة مقدار حَبّة فما فوقها ؛ وأنه إذا نزل المنزل دعا بكتاب كليلة ودِمْنَة ، فلا يزال مُنكبًّا عليه طول نهاره .

فقال كسرى لخاليه بِنْدَوية وبِسْطام : « ما خِفْتُ بهرام قط تخوفى منه الساعة ، حين أُخْبِرْتُ بإدمانه النظر فى كتاب كليلة ودِمْنـة ، لأن كتاب كليلة ودمنة يفتح للمرء رأياً أفضل من رأيه ، وحزماً أكثر من حزمه ، لما فيه من الآداب والفِطَن .

وأن كسرى وبَهْرَام توقفَا بالنَّهْروان ، فعسكر كل منهما بأصحابه فى ناحية، وخَنْدَقَ على نفسه ؛ ثم إن بَهْرَام عقد جسرا ، وعَبَرَ إلى كسرى ؛ فلما تواقف الجمعان بَدَرَ بَهْرَام حتى دنا من صفوف كسرى ، ثم صاح بأعلى صوته « تبًّا لكم يامعشر العجم ، فى خلعكم ملككم ، أيها الناس : توبوا إلى ربكم مما فعلتم ، وانحازوا إلىّ بجماعتكم حتى نرد السلطان على ملككم قبل أن ينزل الله نقمته عليكم » .

فلما سمع أصحاب كسرى ذلك قال بعضهم لبعض « قد والله صدق بَهْرَام ، وإن الأمر لعلى ما قال ، فهلموا بنا نتلافَ أمرنا ، ونصلح ما كان منا بإجابة بَهْرَام إلى ما رأى » .

وانحازوا جميعا ، فانضموا إلى بَهْرَام ، ولم يبق مع كسرى إلا خالاه ، بِنْدَوية وبِسْطام ، وهُرْمزد جُرابزين ، والنُّخارجان ، وسابور بن أبركان ، ويَزْدَك كاتب الجند ، وباد بن فَيْرُوز ، وشَروِين بن كامَجار ، وكُرْدى بن بَهْرَام جُشْنَس أخو بَهْرَام شُوبين لأبيه وأمه ، وكان من ثقات كسرى وأحبّائه .

فقال[1] هؤلاء لكسرى : « أيها الملك ، ما تفعل ؟ ألا ترى إلى جميع الناس قد فارقوك ، وانحازوا إلى عدوك » . فمضى نحو المدائن حتى إذا انتهى إلى قنطرة « جُوذَرْز » التفت وراءه ، فإذا هو ببهرام وحده ، قد ترك الناس خلفه حتى

(١) فى الأصل : فقالوا .

دَنا منه ومن أصحابه ؛ فوقف له كسرى على طرف القنطرة ، ووتر قوسه ، وكان من رُماة الناس ، فوضع فيها نُشَّابة ، وخاف أن يعمِد برميته بَهْرَام ، فلا يعمل السهم فيه لجودة درعه ، فأراد أن يعمد وجهه ، فلم يأمن أن يَتَتَرَّسَ بدَرَقته(١) أو يميل وجهه عن سهمه ، فرمى جبهة فرسه ، فلم يخطئ وسط جبهته ، واستدار الفرس من شدة الرمية ، ثم سقط .

وبقى بهرام راجلا ، فأمعن كسرى ركضا حتى دخل المدائن ، وأتى أباه ، ولم يعلمه أن بهرام إنما يحاول رد الملك إليه غير أنه قال له : « إن أصحابى جميعا مالوا إليه ثم قال « ما الذى ترى ؟ » قال « أرى لك أن تلحق بقيصر ، فإنه سينجدك، وينصرك حتى يسترجع لك ملكك» .

فقبّل كسرى يدى أبيه ورجليه ، وودّعه ، وسار نحو البحر فى أصحابه ، وكانوا تسعة ، هو عاشرهم ، فقال بعضهم لبعض : « إن بَهْرَام يُوافى المدائن اليوم أو غدا ، فيملّك هرمزد ، فيكون ملكا كما لم يزل ، ثم يكتب هرمزد إلى قيصر ، فيردنا إليه ، فيقتلنا جميعا ، وليس كسرى يملك ما دام أبوه حيا » . فقال بدونية وبسطام خالا كسرى « نحن نكفيكم ذلك » .

فانصرفا على القَبَض ، ثم أقبلا حتى دخلا قصر المملكة ، وولجا على هرمزد البيت الذى كان فيه ؛ وقد شُغِل الحشم بالبكاء والعويل ، لهرب كسرى من عدوه ، فألقيا عمامة فى عنقه ، فخنقاه حتى مات .

ثم لحقا بكسرى، ولم يخبراه بذلك، وساروا بالركض الشديد يومهم، مخافة الطلب، ومن الغد حتى شارفوا مدينة هيت(٢) ، وانتهوا إلى دير رهبان ، فنزلوه ، فأتوهم بخبز شعير ، فبلوه بالماء ، وأكلوه ، وأتوهم بخلّ ، فمزجوه بماء ، وشربوا منه ، وأتكأ كسرى على خاله بسطام، فنام لشدة ما أصابه من التعب ، فبيناهم كذلك إذ ناداهم الراهب من صومعته : أيها النفر ، قد أتتكم الخيل ، وهم بالبُعْد .

---

(١) الدرقة معرب دريجة ، والدرق بالفتح الصلب من كل شىء ، والدرقة كالدرع يتخذها المحارب ليحمى نفسه من النشاب والسهام .

(٢) بلدة على الفرات ، فوق الأنبار على جهة البرية ، وقد سميت باسم بانيها .

وقد كان بَهْرَام، حين وَافَى المدائن، فصادف هُرْمُزد الملك قتيلا، ازداد غيظا على كسرى وحنقا، فوجه بَهْرَام بن سِياوشان فى ألف فارس على الخيل العتاق. فلما نظر كسرى وأصحابه إلى الخيل سقط فى أيديهم، وأيِسُوا من أنفسهم، فقال بِنْدوية لكسرى: أنا أخلّصك بحيلتى، غير أنى أغرِّر بنفسى.

قال له كسرى: ياخال، إنك إن وَقَيْتَنى بنفسك سلمت أو قتلت، فكفاك بذلك ذكرا باقيا وشرفا عاليا، فقد خاطر أَرَشْنَاس بنفسه فى أمر مَنُوشِهر، وأتى فَرَاسياب ملك الأتراك، وهو فى وسط جنوده، فرماه بسهم فقتله، وأراح زاب الملك منه، فأصاب بثأر مَنُوشِهر، فقتل، فَبَعُدَ صيته فى الناس، وعَظُمَ ذكره، وقد خاطر جُوذَرْز بنفسه بسبب سابور ذى الأكتاف حين قام بتدبير ملكه، وضبط سلطانه، فحسده الناس لذلك، فلما أدرك سابور ملّكه على جميع أموره، وفَوَّضَ إليه سلطانه.

قال له بِنْدوية « قم، فألق عنك قِباءك، ومِنْطقتك، وحُلّ عنك سيفك، وضع تاجك، واركب فى سائر أصحابك، فتبطّنوا هذا الوادى، فأغِذّوا فيه السير، ودَعُونى والقوم ».

ففعل كسرى ماأمره، وتَبَطَّنَ الوادى، وسار فى بقية أصحابه، وعمد بندوية إلى قباء كسرى فلبسه، وتَنَطَّقَ بمنطقته، ووضع التاج على رأسه. ثم قال للرهبان « عليكم بالجبل، فالحقوا به إلى أن ينصرف هذا الخيل، وإلا لم آمن أن يقتلوكم عن آخركم ». فتركوا الصَّوْمَعَة جميعا، وخرجوا عن الدير.

وعمد بندوية، فصار على سطح الدير، وقد أغلق عليه الباب، وهو لابس بِزّة كسرى، فقام على رجليه قائما، حتى علم أن القوم قد رأوه جميعا، ثم نزل إلى الدير، فخلع بزة كسرى، ولبس بزة نفسه، ثم عاد إلى سطح الدير، وقد حدقت به الخيل، فقال « ياقوم، من أميركم؟ » فأتى بهرام بن سِياوُشيان وقال « أنا أميرهم، ماتشاء يابندوية؟ »

قال: إن الملك يُقرِئُكَ السلام، ويقول، أنا إنما نزلنا آنِفا[1]، وقد كللنا، وتعبنا ، وليس عليك منا فوتٌ ، فدعنا على حالنا فى هـذا الدير إلى المساء ، لنخرج إليك ، وننطلق معك إلى بهرام ، فيحكم فينا بما يرى .

قال بهرام بن سياوُشان « ذلك له ، وعَزازة » .

ثم نزل بندوية ، والقوم مُحْدِقُونَ بالدير ، فلما أمسوا عاد بندوية إلى سطح الدير ، وقال لبهرام بن سِياوُشان : « إن الملك يقول لك : هذا المساء ، وليست لنا أجنحة نطير بها ، وقد حدقتم بالدير ، فدعْنا ليلتنا هذه لنستريح ، وامتنّ علينا بذلك ، فإذا أصبحنا خرجنا إليك ، ومضينا معك .

قال بهرام « وذلك له ، وحُبًّا وكرامة » . ثم أمر أصحابه أن يكونوا فرقتين ، فرقة تنام ، وأخرى تحرس نَوائِبَ .

فلما أصبح بندوية فتح الباب وخرج إلى القوم وقال : «إن كسرى قد فارقنى لمنذ أمس ، هذا الوقت ، ولو كنتم على نجائب كالريح ما لحقتموه ، وإنما كان ماسمعتم منى مكيدة وحيلة . فلم يصدقوه ، ودخلوا الدير ، ففتشوه بيتا بيتا ، فسقط فى يد بهرام بن سياوشان، ولم يدر مايعتذر به إلى بهرام شوبين . فحمل بندوية ، وانصرف حتى دخل على بهرام شوبين ، وأخبره بالحيلة التى احتالها بندوية ؛ فدعابه بهرام ، وقال : « لم ترض بما كان منك من قتل الملك هرمزد ، حتى خلصت الفاسق كسرى، فنجا منى ؟

قال بندوية « أما قتلى هرمزد فلست أعتذر منه ، إذ طغى وبغى ، وقتل صَناديد العجم ، وألقى بأسهم بينهم ، وفرق كلمتهم ، وأما حيلتى فى تخليص ابن أختى كسرى فلا لوم علىّ فى ذلك ، إذ كان ولدى .

قال بهرام : « أما إنه ليس يمنعنى من تعجيل قتلك إلا ما أرجو من ظفرى بالفاسق كسرى، فأقتله ، وأقتلك على أثره ؛ ثم قال لبهرام بن سياوشان « احبسه عندك مقيدا إلى أن أدعوك به» .

(١) أى منذ ساعة .

ثم إن بهرام جمع إليه وجوه المملكة ، فقال : « قد علمتم ما ارتكب كسرى من الوزر العظيم بقتل أبيه ، وقد مضى هاربا ، فهل ترضون أن أقوم بتدبير هذا الملك حتى يُدرك شهربار بن هرمزد مدرك الرجال ، فأُسلمه إليه » . فرضى بذلك فريق، وأباه فريق . فمن أبَى مُوسِيل الأرمنىّ، وكان من عظماء المرازبة، وقال لبهرام: «أيها [الإصْبِهْبذ][1] ، ليس لك أن تقوم بشىء من ذلك ، وكسرى صاحب الملك ووارثه فى الأحياء» ، فقال بهرام : من لم يَرْضَ فَلْيَرْتَحِل عن المدائن ، فإنى إن صادفت بعد ثالثةٍ أحدا ممن لم يرض ثاوِياً بالمدائن ضربتُ عنقه .

فارتحل موسيل الأرمنى فيمن كان على رأيه ، وكانوا زهاء عشرين ألف رجل ، فساروا إلى أذْرَبيجان ، فنزلوها ينتظرون قُدُومَ كسرى من الرُّوم ؛ ولم يزل بِنْدَوية محتبسا عند بَهْرَام بن سِياوُشان ، فكان بهرام بن سِياوُشان يُحْسِن إليه فى المَطْعم والشرب ليتخذ بذلك زُلْفَةً عنده ، لما ظن أن كسرى سينصرف ، ويرجع إليه الملك ، وكان إذا جَنَّ عليه الليل أخرجه من محبسه ، فأجلسه معه على شرابه ، فقال بِندَوية ذات ليلة لبهرام : يا بهرام ، إن ما أنتم فيه سَيَضْمَحِلّ ، ويذهب لظلم بهرام شوبين واعتدائه . فقال بهرام : والله لأعرف ما تقول ، وإنى لأهُمّ بأمر . قال بِنْدَوية : وما هو ؟ قال : « أقتل غدا بهرام شوبين ، وأُريح الناس منه ، ليرجع الملك إلى نظامه وعنصره » قال بِندَوية : « أما إذ كان رأيك ، فأطلقنى من قيدى، ورُدّ علىّ دابتى وسلاحى » ، ففعل .

ولما أصبح بهرام بن سِياوُشان تَدَرّع تحت ثيابه دِرْعاً ، واشتمل على السيف؛ فأبصرت ذلك امرأته ، وكانت بنت أخت بهرام شوبين ، فاسْتَرابَت به ، وبعثت إلى بهرام تُعْلِمه ذلك .

وابتكر بهرام إلى الميدان ، فكان لا يمر به أحد من أصحابه إلا ضرب جنبه بالصَّوْلَجان ، فلم يسمع حِسّ[2] الدرع مِن أحد منهم ، حتى مر به بهرام

---

(١) كلمة فارسية Ispehbed معناها قائد ، وفى الأصل إصبهبذ ، وهو تحريف ، فإصبهبذ مدينة فى بلاد الديلم .

(٢) الحس بالكسر : الحركة والصوت .

ابن سياوشان فضرب جنبه بالصَّوْلَجان ، فلما سمع حسّ الدرع استلّ سيفه وضربه حتى قتله .

وتَنَادَى الناس : قتِل بهرام فى الميدان ؛ فظَنّ بِنْدَوية أن بهرام شُوبين المقتول ؛ فركِب دابّته ، ومَضَى نحو الميدان ؛ فلما علم أنّ المقتول صاحبه خرج متنكّرا ، يسير الليل ، ويَكْمُنَ النهار ، حتى أتى أذَرْبيجان ، فأقام مع مُوسيل وأصحابه هنــاك .

ولما سار كسرى من الدير سار يوماً وليلة ، وتَلَقّاهم أعرابيّ ، فوقفوا عليه ، فسأله كسرى ، وكان يُحْسِن بالعربيّة شيئاً ، مَنْ هو ؟ فأخبر أنه من طيّء ، وأن اسمه إياس بن قَبيصة ، فقال له : « أين الحَيّ ؟ » ، فقال : « قريبٌ » ، قال : « فهل مِن قِرًى ، فقد بَلَغَ مِنّا الجوع ؟ » ، قال : « نعم » ، فعدَلوا معه إلى الحَيّ ، فنزلوا به ، وسَرّحوا خيلهم ترْتَع ، وأقاموا عنده يومهم ، فأحسن قِرَاهم ، وزَوّدَهم ، وخرج بهم حين أمسوا يَدُلّهم الطريق ، حتى أخرجهم لثلاث بيالس[1] من شاطىء الفُرَات . ثم انصرف .

وسار كسرى حتى انتهى إلى اليَرْمُوك ، فخرج إليه خالد بن جَبَلة الغسّانيّ ، فقَرَاهُ ، ووجّهَ معه خيلًا حتى بلغ قَيْصَر ، فدخل عليـه ، وأبَثّهُ شأنه ، وما توجّه له ، فوجده بحيث أمّل من نصره ، ومعونته .

فقال له بَطارِقته : « أيها الملك قد علمتَ ما لقِيَ مَنْ كان قبلك من آبائك من هؤلاء ، منذ زمان الإسكندر ، وكان آخر ما لقينا منهم اغتصاب جَدّ هذا إيّانا مدن الشام التى لم تزل فى أيدينا إرْثاً من آبائنا منذ ألف عام ، فرَدّها عليك أبو هذا حين أجلبت بخيلِكَ ورَجْلِكَ ، فدَعِ القوم يَشْتَغِلُ بعضهم ببعض ، فإنّ حرب العدوّ بعضهم بعضاً فَتْحٌ عظيم » .

فقال قيصر لعظيم الأساقفة : « ما تقول أنتَ يا كبيرَنا ؟ » .

فقال : « لا يَحِلُّ لك خِذْلانه ، إذ كان مَبْغِيًا عليه ، والرّأى أن تنصُرَهُ ، ليكون لك سِلْمًا ما بقيت وبقى » .

(١) مراحل السفر .

قال قيصر : « وهل يجوز للملوك أن يُستَجار بهم فلا يُجيروا ؟ » .

فأخذ على كسرى العهود والمواثيق بالمسالمة ، وزَوَّجه ابنته مريم ، ثم عقد لابنه ثِيَاذُوس فى أبطال جنوده ، وفيهم عشرة رجال من الهَزَارْمَرْدِين[1] ، وقوّاهم بالأموال والعتاد ، وأمرهم بالمسير معه ، وشَيَّعَهم ثلاثة أيام .

فسار كسرى بالجيش ، فأخذ على أَرْمِينِيَة حتى إذا صار بأَذَرْبِيجان انضمّ إليه خاله بِنْدَوِية ومُوسيل الأَرْمَنِيّ ومن معه من مرازبته ومرازبة فارس .

وبلغ خبره بَهْرَام شُوبِين ، فسار جادًّا بالجنود حتى وَافَاهُ بِأَذَرْبِيجان ، فَعَسكَرَ على فرسخ من معسكر كسرى . ثم تَزاحفوا ، ونُصِبَ لكسرى وثِيَاذُوس سرير من ذهب فوق رَابِيَة تُشْرِف بهما على مُجْتَلَد القوم ، ولما تواقفت الخيلان أقبل رجل من الهَزَارْمَرْدِين حتى دَنا من كسرى ، فقال : « أَرِنى هذا الذى غَلَبَكَ على مُلْكِكَ » . فدخلت كسرى أَنَفَة من تَعْيِيرِه إياه بذلك ، فكظمها ، غير أنه أراه بَهْرَام شُوبِين ، فقال : « هو صاحب الفرس الأَبْلَق المُعْتَجِر[2] بالعمامة الحمراء ، الواقف أمام أصحابه » .

فمضى الرُّومِىّ نحو بَهْرَام شُوبِين ، فناداه : أن هَلُمَّ إلى المُبارزة ؛ فخرج إليه بهرام ، فاختلفا ضربتين ، فلم يصنع سيف الرومى شيئا فى بهرام ، لجودة دِرْعه ؛ وضَرَبه بَهْرَام على مَفْرِق رأسه ، وعليه البَيْضَة ، فَقَدَّ البيضة ، وأفضى السيف إلى صدر الرُّومى ، فَقَدَّه حتى وقع نصفين ، عن يمين وشمال .

وأبصر ذلك كسرى ، فَاسْتَغْرَب ضحكا ، فغضب ثِيَاذُوس ، وقال : « تَرَى رجلا من أصحابى يُعَدّ بألف رجل قد قُتِل فتضحك ، كأنك مسرور بقتل الرُّوم » ؛ فقال كسرى : « إنّ ضحكى لم يكن سرورا منى بقتله ، غير أنه عَيَّرَنى بما قد سمعتَ ، فأحببت أن يعلم أنّ الذى غَلَبَنى على مُلْكى ، وهربت منه إليكم ، هذه ضَرْبته » .

---

(١) جماعة من المحاربين المختارين ، وكانت عدتهم ألفا . (٢) الاعتجار : لف العمامة دون التلحى .

وأن القوم اقتتلوا يومين ، فلما كان فى اليوم الثالث دعا بهرام كسرى إلى المبارزة ، فهَمّ كسرى أن يفعل ، فنمه ثِيادُوس، وأبَى كسرى ، فخرج إلى بهرام، فتطارَدَا ساعة .

ثم إن كسرى وَلَّى مُنهزماً ، وعارَضَه بهرام فاقتطعه عن أصحابه ؛ ومضَى كسرى نحو جبل ، وبهرام فى أثره يهتف به ، وبيده السيف ، وهو يقول : « إلى أين يافاسق ؟ » . فجمع كسرى نفسه ، فساعدته القوة على تَسَنُّم الجبل ؛ فلما نظر بهرام إلى كسرى قد عَلَا ذروة الجبل علم أنه قد نُصِرَ عليه ، فانصرف خاسِئاً ، وهبط كسرى من جانب آخر حتى أتى أصحابه ، ثم ابْتَكَرَ[١] الفريقان على مَصَافّهم فى اليوم الرابع ، فاقتتلوا ، فكان الظَّفَرُ لكسرى .

وانصرف بَهْرَام فى جنوده مُنهزماً إلى معسكره ، فقال بِنْدَوية لكسرى : « أيها الملك ، إنّ الجنود الذين مع بهرام لو قد أَمِنُوكَ على أنفسهم انحازوا إليك ، فائذَن لى أن أعطيهم الأمان عنك » ، فَأَذِنَ له .

فلما أمْسَى بِنْدَوية أقبل حتى وَقَفَ على رَابِيَة مُشْرِفَة على معسكر بهرام ، ثم نَادَى بأعْلَى صوته : « أيها الناس ، أنا بِنْدَوية بن سَابُور ، وقد أمرَنى الملك كسرى أن أعطيكم الأمان ، فمَن انحاز إلينا منكم فى هذه الليلة فهو آمِنٌ على نفسه وأهله وماله » . ثم انصرف .

فلما أظْلَمَ الليل على أصحاب بهرام تَحَمَّلُوا حتى لحقوا بمعسكر كسرى إلّا مِقْدار أربعة آلاف رجل ، فإنهم أقاموا مع بهرام .

ولما أصبح بهرام نَظَرَ إلى معسكره خَالِياً قال : « الآن حَسُنَ الفرار » . فارْتَحَلَ فى أصحابه الذين أقاموا معه ، وفيهم مَرْدَان سِينَه ويَزْدَجُشْنَس ، وكانا من فرسان العجم .

فوَجَّهَ كسرى فى طَلَبه سَابُور بن أبرَ كان فى عشرة آلاف فارس ، فَلَحِقَه ،

---

(١) ابتكر وبكر وباكر بمعنى أى أتاه بكرة .

وعطف عليه بهرام فى أصحابه ، فاقتتلوا ، فانهزم سَابُور ، ومضى بهرام على وجهه ، فمرّ فى طريقه بِقَرْيَةٍ ، فنزلها ، ونزل هو ومَرْدَانْ سِينَه ويَزْدَجُشْنَس بيتَ عجوز ، فأخرجوا طعاماً لهم ، فتَعَشَّوْا وأطعموا فَضْلَتَه العجوز ، ثم أخرجوا شراباً ، فقال بهرام للعجوز : « أمَا عِنْدَكِ شىء نشرب فيه ؟ » ، قالت : « عندى قَرعة صغيرة » ، فأتتهم بها ، فجَبُّوا رأسها ، وجعلوا يشربون فيها ، ثم أخرجوا نَقْلاً[1] ، وقالوا للعجوز : « أمَا عِنْدَكِ شىء يُجْعَل عليه النَّقل ؟ » فأتتهم بِمِنْسَف[2] ، فألقوا فيه ذلك النُّقْل ؛ فأمَرَ بهرام ، فَسُقِيَتِ العجوز ، ثم قال لها : « ما عندكِ من الخبر أيَّتُها العجوز ؟ » ، قالت : « الخبر عندنا أن كسرى أقبل بجيش من الرُّوم ، فحارب بهرام ، فغَلَبَه ، واسْتَرَدَّ منه مُلْكه » ، قال بهرام : « فما قَوْلُكِ فى بهرام ؟ » ، قالت : « جاهِل ، أحمق ، يَدَّعِى المُلْك ، وليس من أهل بيت المملكة » .

قال بَهْرَام : « فمن أجل ذلك يشرب فى القرع ، ويتَنَقَّل من المنسف » . فجرى مثلا فى العجم يتمثلون به .

وسار بَهْرَام حتى انتهى إلى أرض قُومِس[3] ، وبها قارِن الجَبَلِى النِّهاوَنْدِىّ وكان وَالِىَ خراسان على حربها وخَرَاجها ، وعلى قُومِس وجُرْجَان ، وكان شيخاً كبيراً قد أنافَ على المائة ، وكان على تلك الناحية من قبل كسرى أنُو شَرْوَان . ثم أقرّه هُرْمُزْد بن كسرى ، فلما أفضى الأمر إلى بَهْرَام عرف له قدره فى العجم ، وفضله ، فأقرّه مكانه .

فلما انتهى بَهْرَام إليه وجّه قارن ابنه فى عشرة آلاف فارس ، فحالوا بين بَهْرَام وبين النفوذ ، فأرسل إليه بَهْرَام « ما هذا جزائى منك ، إذ أقررتك على عملك ؟ » فأرسل إليه قارن : « إن ما علىّ من حق الملك كسرى وحق

---

(١) النقل بفتح النون وقد تضم وسكون القاف ما يتنقل به على الشراب .

(٢) المنسف كمنبر ما ينفض به الحب ، وهو شىء طويل منصوب الصدر ، أعلاه مرتفع .

(٣) قومس ، تعريب كومس وهى كورة كبيرة واسعة قرب جبل طبرستان .

آبائه أعظم مما علىّ من حقك ، وكذلك عليك ، لو عرفت ، إذ شرّفك ، فكافأته ، أن خلعت طاعته ، وسعّرت مملكة العجم ناراً وحرباً ، فكان قصاراك أن رجعت خائباً حسيراً ، وصرتَ أُحْدُوثة لجميع الأمم».

فأرسل إليه بهرام : أن العَنْزَ يساوى درهمين مرتين : إذا كان عَنَاقاً صغيراً ، وإذا هَرِمَ وسقطت أسنانه لم يساوِ أيضا إلا دِرْهَمَيْن ، وكذلك أنت فى هرمك ونُقْصان عقلك .

فلما أتت قارن هذه الرسالة ، غضب وخرج فى ثلاثين ألف فارس ورَجل من جنوده ، وتهيّأ الفريقان للحرب . فلما التقوا قُتِلَ ابن قارن ، فانهزم أصحابه ، حتى لحقوا بمدينة قُومِس . ومضى بهرام على خَوارزم ، فعبَرَ النهر ، ووَغَلَ فى بلاد التّرك من ذلك الوجه يؤمّ خاقان لِيَسْتَجِيرَ به فيُجيره ، ويمنع عنه .

وبلغ خاقان قُدُومَ بهرام عليه ، فأمر طَراخِنَته ، فاستقبلوه ، وأقبل حتى دخل على خاقان ، فحيّاه بتحيّة الملك ، وقال : « إنى أتيتُكَ أيها الملك مُسْتَجيرًا بك من كسرى وأهل مملكته لتمنعنى وأصحابى» ، فقال له خاقان : « لك ولأصحابك عندى الحِماية والجِوَار والمُوَاساة » .

ثم ابتنى له مدينة ، وبنى فى وسطها قصرًا ، فأنزله وأصحابه فيها ، ودوّنَ لهم ، وفَرَضَ الأُعْطيات ، فكان بهرام يدخل على خاقان كل يوم ، فيجلس منه مجلس إخوته ، وخاصّ أقاربه .

وكان لخاقان أخٌ يسمّى « بَغَاوِر » وكانت له نجدة وفُرُوسيّة ، فرآه بهرام يَتَذَرَّع فى مِنْطقته غير هائبٍ من المِلك ، ولا مُوَقِّرًا لمجلسه ، فقال ذات يوم لخاقان : « أيها المِلك ، إنى أرَى أخاك بَغَاوِر يتذرّع فى الكلام ، ولا يَرْعَى لمجلسك ما يجب أن يَرْعَى لمجلس الملوك ، وعَهْدُنا بالملوك لا يتكلم إخوتهم وأولادهم عندهم إلّا بما يُسْأَلُونَ عنه » . فقال خاقان : « إنّ بَغَاوِر قد أُعْطِىَ نَجدة فى الحروب وفُرُوسيّة ، فهو يُدِلّ بذلك ، على أنه يَتَرَبّص بى الدّوائر ، ويُضْمِر لى الحسد والعداوة » . قال له بهرام : « أفتحِبّ أيها المَلِك أن أريحك منه » .

قال : « عماذا ؟ » . قال : « بقتله » . قال : « نعم ، إن أمكنكَ ذلك من وَجْهٍ لا يكون عليّ فيه مَسَبّة » . قال بهرام : « سآتى من ذلك ما لا يلزمك فيه عارٌ ولا عَيْبٌ » .

فلما أصبحوا من غدٍ أقبل بهرام ، فجلس عند خاقان مجلسه الذى كان يجلس فيه ، فأقبل بَغَاوِر ، فجلس وجَعَلَ يَتَذَرّع فى كلامه .

فقال له بهرام : يا أخى ، لِمَ لا تُوفِى الملِك حقّه ، وتُظهِر للناس هَيْبَتَه وإجلاله .

فقال له بغاوِر : وما أنتَ وذلك أيها الفارس الطّرِيد الشّرِيد ؟ !

قال له بهرام : كأنكَ تَصُول بفُرُوسِيّة لست فيها بأكثر منى .

قال له بغاوِر : فهل لك إلى مُبارَزَتى ، فأُعَرّفك نفسك .

قال له بهرام : أمّا أنا فلا أُحِبّ ذلك ، فإنى متى غلبتك لم أقتلك لمكانك من الملِك .

قال بغاوِر : لكنى إن غلبتك قتلتك ، فاخرج بنا إلى الصحراء .

قال بهرام : على النَّصَفَة إذا قال الملِك ذلك ، وعلى أن لا قَوَدَ علىّ إن قتلتُكَ، ولا لَائِمَة من الملِك وطَرَاخِنَته .

قال : نعم .

فقال خاقان : مالَكَ ولهذا الرَّجُل المُسْتَجِير بنا ، العائذ بجوارنا ؟

قال بغاوِر : أدْعُوهُ إلى النَّصَفَة .

قال : وأىّ نَصَفَة ؟

قال : يَقِف لى وأقِف له على مائتى ذراع ، فأرميه ، ويرمينى ، فأيُّنا قتَلَ صاحبه لم يكن عليه لَوْمٌ ولا عقل(١) .

قال له خاقان : إرْبَعْ(٢) على نفسك، لا أمّ لك .

---

(١) دية .   (٢) كف وارفق.

قال : والله ليفعلنَّ أو لأفتكنَّ به بين يديك .

قال : فدُونَكَ إذَنْ .

* * *

فخرج بَفَاوِر وبَهْرَام فى نَفَرٍ من الطَّراخِنَة ينظرون ، ووقف بَفَاوِر من بَهْرَام على مائتى ذراع ، فقال بهرام للطَّراخِنَة : لا تلومونى إنْ أنا قتلته ، فقد بَغَى علىَّ كما ترون .

فقالوا : ليس عليك لوم .

فصاح بفاور ببهرام ، أتبدأ أنتَ ، أم أبدأ أنا ؟

فناداه بهرام : بل ابدأ أنتَ ، فارْمِ ، فأنت الباغى الظالم .

فوَتَّرَ بفاور قوْسَه ، ووضع فيها نُشَّابة ، ثم نزع حتى أغرقها ، ثم أرسلها ، فَصَكَّتْ بهرام أسفل من سُرَّتِهِ فى وسط منطقته ، فنَفَذَتِ المنطقة والدرع وسائر الألباس حتى انتهت إلى صِفَاق[1] بطنه الظاهر ، وأثَّرَتْ فيه .

وبادر بهرام فنزعها ، ووقف هُنَيْهَةً لا يضرب بيده إلى قوسه من شدة ما أصابه من ألم الرَّمية ؛ وظَنَّ بفاور بأنْ قد قتله ، فركض نحوه ، فصاح بهرام : أن ارجع إلى مكانك ، فَقِفْ لى كما وقفت لك ؛ فانصَرَفَ إلى مكانه ، فوقف ، وأخرج بهرام قوسه ، فوَتَّرَها[2] ، وكان لا يُوَتِّرها سِوَاه ، ثم وضع فيها نُشَّابة ، ونَزَعَ حتى أغرقها ، ثم أرسلها ، فوقعت من بفاور فى مثل الموضع الذى وقعت نُشَّابته من بهرام ، فى وسط المنطقة والدِّرْع وسائر اللباس ، ومَرَقَتْ من الجانب الآخر ، لم يذهب شىء من ريشها ولا عقبها ، وسقط بفاور ميتا .

وبلغ ذلك خاقان ، فقال : لا يُبْعِدُ الله غَيْرَه ، قد نَهَيْتُهُ عن البَغْى ، فأبَى ؛ ثم تقدمَ إلى طَرَاخِنَته وأهل بيته ، فقال : لا أعْلَمَنَّ أحداً منكم نَوَى لبهرام سُوءًا ولا مكروهاً .

---

(١) جلد .	(٢) أى جعل لها وترا ، والوتر محركة شرعة القوس ومعلقها .

فلما خَلَا بَهْرَام بخاقان شَكَرَ له ما كان منه ، وقال : « لقد أَرَحْتَنِى ممن كان يتمنَّى مَوْتِى ، لِيَسْتَبِدَّ بالْمُلك دون ولدى » ؛ ثم زاده إكراماً ومنزلة وبِرًّا ، وعَظُمَ قدر بَهْرَام بأرض التُّرْك ، واتخذ ميدانا على باب قصره ، واتخذ الجَوَارِى والقِيَان(١) والجَوَارِح(٢) ، وكان من أكرم الناس على خاقان .

وإن كسرى عند انهزام بَهْرَام وهربه أكرم ثِيَاذُوس ، ومن معه ، فأحسن جوائزهم وصِلَاتِهم ، وسَرَّحَهم إلى بلادهم ، وَوَلَّى خاله بِنْدَوية دَوَاوِينَه وبيوت أمواله ، ونَفَّذَ أمره فى جميع المملكة ؛ وَوَلَّى خاله بِسْطَام أرض خراسان وقُومِس وجُرْجَان وطبرستان ، ووجّه عُمّاله فى الآفاق ، ووضع عن الناس نصف الخراج .

ولما بلغ كسرى عظيم قدر بَهْرَام عند خاقان وجسيم منزلته ببلاد الترك خافه أن يستجيش ويعود إلى محاربته ، فوجه هُرْمُزْد جُرابزين إلى خاقان وافداً فى تجديد العهد ، ووجّه معه بألطاف وطُرَف ، وأمره أن يتلطف بخاقان حتى يُفْسِدَ قلبه على بَهْرَام .

فسار هُرْمُزْد جُرابزين حتى دخل على خاقان ، ومعه كتاب كسرى ، وأوصل إليه هدايا كسرى وألطافه ، فقبلها خاقان ، وأمره بالمقام ليقضى حوائجه ، فكان هرمزد يدخل على خاقان مع وُفُود الملوك ، فَيُحَيِّيه بتحية الملك .

ثم إنه دخل ذات يوم ، فرآه جالسا ، فقال : أيها الملك ، إنى أراك قد استَصْفَيْتَ بهرام وأسْنَيْتَ منزلته ، ولم تفعل به من ذلك شيئا إلا وما كان فعل به ملكنا أكثر منه ، فكان جزاؤه منه أن خانه ، وأراد سفك دمه

---

(١) القينة : هى الجارية بيضاء اللون مغنية كانت أو غير مغنية ، وقيل تختص بالمغنية .

(٢) جمع جارحة وهى الطير والسباع الكواسب التى تتخذ فى الصيد ، وتطلق الجارحة على الذكر والأنثى .

وخرج على ابنه كسرى حتى نفاه من مملكته ، وما أحسب قُصارى أمرك منه إلا الغَدْر وَنَكْثَ العهد ، فاحذره أيها الملك ، لا يُفْسِد عليك مُلْكَك .

فلما سمع خاقان منه ذلك غضب غضباً شديداً ، وقال : « لولا أنك وافدٌ ورسول لمنعتك من الدخول إلىّ لما استبان لى من خرقك وعيبك بحضرتى أخى وصَفِيّي ، فلا تَعُودَنّ لمثل هذا » .

فقال هُرْمُزْد جُرابزين : أما إذ كان أيها الملك هذا رأيك فيه ، فأسألك أن تكتم علىّ ، لا يبلغه ذلك ، فيقتلنى ، فقال : « هذا لك » .

فخرج هُرْمُزْد آيساً منه ، فاندسّ إلى امرأته خاتون ـ ومن النساء السخافةُ وكفرانُ النّعم ـ فدخل عليها ذات يوم ، فلم يصادف عندها أحداً يخافه ، فقال لها : « أيتها الملكة ، إنكم قد اصطفيتم بهرام ، ورفعتموه فوق قدره ، وليس يأمون أن يفسد عليكم مُلْككم كما أفسده على هُرْمُزْد ملكنا ، ثم قصّ عليها ما كان منه ، وقال : أيتها الملكة ، أفقد نسيت قتله عمّك شاهان شاه واحتواءه على سريره وخزائنه ؟ فلم يزل يُذَكّرها هذا ، وأشباهه حتى أوْقَعَ فى قلبها بُغْضَ بهرام والخوف منه على زوجها وولدها .

قالت : « وَيْحَكَ ، وما الذى يمكننى فى أمره ، ومنزلته من الملك منزلته؟ » .

قال : « الرّأى أن تدسّى إليه مَنْ يقتله ، فتأمنى على زوجك وولدك » .

فأمَرَتْ غلاماً لها قد عرفته بالفَتْك والإقدام ، فقالت له : « انطلق الساعة حتى تدخل على بهرام وتتلطّف لتقتله ، ولا تأتنى إلا بعد الفَرَاغ منه » .

فانطلق الغلام حتى استأذن على بهرام ، وفى حُجزته خنجر ، قد سَتَرَه ، وكان ذلك اليوم يوم وَرْهام رُوز .

قالوا : وقد كان المُنَجّمون قالوا فى مولده ، إنّ مَنِيّتَه فى وَرْهام رُوز[1] ،

---

(١) روز بالفارسية بمعنى يوم ، ويوم ورهام واحد من الأيام المعروفة عند الفرس .

فكان لا يخرج ذلك اليوم من منزله ، ولا يأذَن لأحد إلّا لثقاته وخاصته ، فدخل الآذن ، فأعلَمَه أن رسول الملكة يطلب الإذن ، فأذِنَ له ، فدخل ، فحَيّا بهرام وقال : « إنّ الملكة قد وَجّهتْنى إليك برسالة ، فأخلِنى » .

فقام مَنْ عند بهرام ، فخرجوا . ودَنا التركىّ منه ، كأنه يريد أن يُسارّه ، ثم استلّ الخنجر فبَعَجَهُ[1] به ، وخرج ، فركب دابّته ، ومضى .

ودخل أصحاب بهرام عليه ، فصادَفوه يَتشَحّط ، وبيده ثَوبٌ يُنشّف به الدم ، فلما رأوه بتلك الحال بُهِتُوا ، وقالوا : « كيف لم تَهتدِ بنا ، فنأخذه ؟ » ، فقال : « إنما كان كلباً أُمِرَ بشيء فنفذ له » ، وقال لهم : « إذا جاء القَدَر لم يُغْنِ الحَذَر ، وقد خَلّفْتُ عليكم أخى مَرْدان سِينَه ، فأطيعوا أمره» .

وأرسل إلى خاقان يُعْلِمه أمره ، فأقبل خاقان نحوه وَالِهاً[2] ، فصادَفَه قد مات . فوَارَاهُ فى نَاوُوس[3] ، وَهَمّ بقتل خاتون ، فحُجِز عن ذلك لمكان ولده منها .

وإنّ أصحاب بهرام تَناظَرُوا فيما بينهم ، فقالوا : « مالَنا عند هؤلاء خير ، وما الرّأى إلّا الخروج عن أرضهم ، فإنهم غَدَرَة بالعهد ، كَفَرَة للإحسان ، والانتقالُ إلى بلاد الدَّيْلَم ، فإنها أقرب إلى بلادنا ، وأمكَن للطَّلَب بثأرنا من ملوكنا الذين شرّدُونا » ؛ فسألوا خاقان الإذن لهم فى الانصراف ، فأذِنَ لهم ، وأحسن إليهم ، وقوّاهم ، وبَذْرَقَهم[4] إلى حدود أرضه .

وكان مع بهرام أخته « كُرْدِيَة » ، وكانت من أجمل نساء العجم ، وأبرَعهن بَرَاعَةً ، وأكملهنّ خُلُقاً ، وأفرَسهنّ فُرُوسِيّة ؛ فخرج أصحاب بهرام وكُرْدِية أمامهم على دابّة بهرام مُتسَلّحَة بسلاحه ، حتى انتهوا إلى نهر جَيْحُون مما يلى خوارزم ، فعَبَرُوا هناك ، وانصرف عنهم الطَّراخِنَة ، وأخذ أصحاب بهرام

---

(١) بعجه : شق بطنه . (٢) غضبان قد ذهب عقله من شدة الحزن .
(٣) الناووس : مقابر النصارى. (٤) خفرهم والمبذرق الخفير .

على شاطىء النهر ، ثم انحطُّوا إلى جُرْجَان ، وسلكوا طَبَرَستان ، ثم لزموا ساحل البحر حتى انتهوا إلى بلاد الدَّيْلَم ، فسألوهم السُّكْنَى معهم فى بلادهم ، فأجابوهم إليه ، وكتبوا بينهم كتاباً : « ألّا يَتأذَّى أحَدٌ بأحَدٍ » ، فأقاموا آمنين ، واتَّخَذُوا المَعَايِشَ والقُرَى والمزارع ، وأيديهم مع أيدى الدَّيْلَم فى كل أمر .

فلما قُتِلَ بهرام رأى كسرى أنْ قد صَفَا له المُلْك ، فلم يكن له هِمَّة إلّا الطَّلَب بثأر أبيــه هُرْمُزْد ، وأحَبَّ أن يبدأ بِخَالَيْه بِنْدَوية وبِسْطام ، وتَنسَى أيادى بِنْدَوية عنده ، فمكث كسرى يُكاشِرُهُمَا[1] عشر سنين ، وأنه خرج فى أيام الرَّبيع كعادته ، يريد الجبــل لِيَصِيفَ فيه ، فنزل حُلوان[2] وبِنْدَوية معه ، فأمر أن يضرب له قُبَّة على الميدان ، لينظر إلى المرازبة إذا لعبوا الكرة .

فجلس على تلك القُبَّة ، فرأى شيرزاد بن البَهْبُوذَان يضرب بالكرة ويُجيد ، فكان كلما ضَرَبَ ، فأجاد ، قال له كسرى « زِهْ سوار »[3] ، فأحْصَى الموكل ذلك مائة مرة قالها .

فكتب له إلى بِنْدَوية بأربعمائة ألف درهم ، لكل مرة أربعة آلاف درهم ، فلما وَصَلَ الصَّكُّ إلى بِنْدَوية قَذَفَه من يده ، وقال : « إنَّ بُيُوتَ الأموال لا تقوم لهذا التَّبْذِيرِ » .

وبلغ كسرى قوله ، فجعل ذلك ذَرِيعَةً إلى الوثوب به ، فأمر صاحب حرسه أن يأتيه ، فيقطع يديه ورجليه ، فأقبل صاحب الحرس لِيُنَفِّذَ فيه أمر كسرى ، فاستقبله بِنْدَوية يريد الميدان ، فأمر به ، فَنُكِّسَ عن دابته ، وقطع يديه ورجليه ، وتركه مُتَشَحِّطاً فى دمه بمكانه .

---

(١) يظهر لهما الرضى ، والكشر بسكون الشين : التبسم ، وكشر عن أسنانه أبداها ، ويكون فى الضحك وغيره. (٢) قرية بالعراق .

(٣) زه كلمة للاستحسان بمعنى مرحبا أو بارك الله ، وسوار معناها فارس، وهو تعبير فارسى

فجعل بِندَويه يَشتِمُ كسرى، ويشتم أباه، ويذكُرُ غَدْرَ آل ساسان، ونكثهم، ويُقال كل ذلك لكسرى، فقال لِمَنْ حوله من وزرائه: تَزْعُم بِندَويه أن آل ساسان غَدَرَةٌ نَكَثَةٌ، ويَنْفى نفسه فى غَدْرِه بالملك، أرأيتما، حين دخل عليه مع أخيه بِسْطام، فألقيا العمامة فى عنقه، ثم خَنَقَاهُ بها ظُلْماً وعدوا، لِيَتقرّبا بذلك إلىّ، كأنه ليس لى بوالد.

ثم ركب إلى الميدان، فمرّ ببِندَويَه، وهو مُلْقًى على قارِعَة الطَّرِيق، فأمر الناس أنْ يرجموه بالحجارة، فرجموه حتى مات. وقال: هذه، حتى تأتى أختها. يعنى ما أراد من إلحاق بِسْطام بأخيه بِندَويَه؛ ثم أمر كاتب السِّرّ أن يكتبَ إلى بِسْطام لِيُخَلِّفَ على عمله ثِقَةً، ويَقْدُم مُسْتَخْفِياً لِيناظِرَه فى بعض الأمر، ففعل بِسْطام ذلك، وأقبل على البريد، فلما انتهى إلى حَدّ قُومِس استقبله مَرْدَان بَهْ قهرمان أخيه بِندَويَه، فلما نظر إليه من بعيد رفع صوته بالبكاء والعويل، فقال له بِسْطام: «ما وراءك؟» فأخبره بمَقْتَل أخيه، فلم يجد مَذْهَباً فى الأرض، فعَدَلَ إلى مَنْ بالدَّيْلَم مِن أصحاب بهرام.

وبلغ مَرْدَان سِينَه رئيس أصحاب بهرام قُدُومَ بِسْطام عليه، ففرح بذلك، وخرج مُتلقّياً له فى جميع أصحابه، لِشَرَف بِسْطام فى العجم، وفضله؛ ثم أقبلوا به حتى أنزلوه منزلاً بَهِيًّا، وركب إليه أشراف تلك البلاد، فأقام عندهم آمِناً، ثم إنّ مَرْدَان سِينَه وبَزْدَجُشْنَس والعُظَماء قالوا لبِسْطام: ما بال كسرى أحَقّ بالملك منك، وأنتَ ابن سابور بن خُرْبُنْداد من صميم ولد بَهْمَن بن أسْفَنْدِياذ، وإنكم لإخْوَة بنى ساسان وشركاؤهم، فهلمّ نُبايعك ونُزَوِّجك كُرْدِيَة أخت بهرام، ومعنا سرير ذهب قد كان حمله بهرام من المدائن، فاجلس عليه، وادْعُ لنفسك، فإنّ أهل بيتك من ولد دارا بن بَهْمَن سَيَنْحَلِبُونَ إليك، وإذا قَوِيَتْ شَوْكَتُكَ، وكَثُرَ جُنْدُك، سِرْتَ إلى الغادر كسرى، فحاربته، وحاولت ملكه، فإن نلتَ ما تريد فذاك الذى نحبّ وتحبّ، وإن قُتِلْتَ قُتِلْتَ وأنت تحاول ملكا، وإنّ ذلك أبْعَدُ لصوتك، وأنْبَهُ لذِكْرِك.

فلما سمع بِسْطام ذلك الكلام أصغَى إليه ، وأجابهم إلى ما عرضوا عليه ، فزوَّجوه كُرْدِيَّة ، وأجلسوه على سرير الذهب ، وعقَدُوا على رأسه التاج ، وبايَعُوهُ عن آخرهم ، ودعوه مَلِكا ، وتابعه أشراف البلاد ، وانْحَلَبَ إليه جِيلان والبَبْر والطَّيْلَسان(١)، وقومٌ كثير من أهل بيته من ناحية العراق ممَّنْ كان يهْوَاهُ ويهْوَى أخاه ، حتى صار فى مائة ألف رجل .

فخرج إلى الدَّسْتَبَى(٢) وأقام بها ، وبثَّ السَّرَايَا فى أرض الجبل ، حتى بلغوا حُلوان والصَّيْمرة(٣) وماسَبَذان ، وهرب عُمَّال كسرى ، وتحصَّن الدَّهاقين فى الحصون ورءوس الجبال .

وبلغ ذلك كسرى ، فَسَقط فى يده ، وعلم أنه لم يأخذ وجه الأمر فى قتله بِنْدَوية ، فأخذ الأمر من قِبَل الخديعة ، فكتب إلى بِسْطام : « إنه قد بلغنى مصيرك إلى الغدَرَة الفسَقَة ، أصحاب الفاسق بهرام ، وتزيينهم لك ما لا يليق بك ، ثم حملوك على الخروج على المملكة والعَيْث فيها والفساد من غير أن تعلم ما أنوى لك ، وما انطوى عليه فى بابك ، فَدَع التَّمَادِى فى الغىّ وأقْبِلْ إلىّ آمِنا ، ولا يُوحِشَنَّكَ قتل أخيك بِنْدَوية » .

فأجابه بِسْطام : « أنْ قد أتانى كتابك بما خَبَّرْتَ به من خديعتك ، وسطَّرْتَ من مكيدتك ، فَمُتْ بِغَيْظِك ، وذُقْ وَبَالَ أمرك ، واعلم أنَّك لست بأحَقّ بهذا الأمر منى ، بل أنا أحقُّ به منك ، لأنى ابن دَارَا مُقارِع الإسكندر ، غير أنكم يابنى ساسان غَلَبْتُمُونا على حقّنا وظلمتمونا ، وإنما كان أبوكم ساسان راعى غنم ، ولو علم أبوه بَهْمَن فيه خيراً ما زوى(٤) عنه المُلْك إلى أخته « خُمَانَى » .

فلما ورد كتابه على كسرى علم ألّا طمع فيه ، فوجّه إليه ثلاثة قُوَّاد فى ثلاثة عساكر ، كل عسكر اثنا عشر ألف رجل ، فنفذ العسكر الأول ، وعليه سابُور

---

(١) أقوام من سكان نواحى الديلم والخزر.
(٢) كورة كبيرة فى دنباوند مقسومة بين الرى وهمذان .
(٣) بلد بين ديار الجبل وديار خوزستان . (٤) نحاه وأزاله .

ابن أبركان ، ثم أردفه بالمعسكر الثانى، وعليه الفُخَارجان ، ثم أردفهما بالثالث، وعليه هُرْمُزْد جُرابْزِين ؛ فلما اتّصل ببسطام فصول العساكر نحوه سار حتى أتى هَمَذَان ، فأقام بها ، ووَجَّهَ الرَّجَّالة إلى رءوس العِقاب[1] ، ليمنعوا النـاس من الصعود والنفوذ .

قال : فأقامت العساكر دون الجبل بمكان يُدْعَى قَلُوص ، وكتبوا إلى كسرى يُعْلِمُونَه ذلك ، فخرج كسرى بنفسه فى خمسين ألف فارس ، حتى وَافَى جنوده وهم معسكرون بقَلُوص ، فأقام عندهم ريثما أراح ، ثم سار على رُسْتاق[2] يسمّى شَرَاه[3] ، فنفذ منه إلى هَمَذَان فى طريقٍ لا جَبَل فيه ولا عَقَبَة ، حتى أفضى إلى بطن هَمَذَان ، فعسكر هناك ، وخَنْدَقَ على نفسه .

وسار إليه بِسْطام فى جنوده ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ثلاثة أيام ، لا ينهزم أحد من الفريقين عن صاحبه ، فلما رأى كسرى ذلك ، قال لكُرْدِى بن بَهْرَام جُشْنَس أخى بهرام شُوبين لأبيه وأمه ، وكان من أنصح المرازبة لكسرى ، وأشدهم له وُدًّا ، وأسرعهم فى طاعته نهوضا ، فقال : « قد تَرَى ما نحن فيه من شدة هذه الحروب ، وإنى قد رَجَوْتُ الراحة مما نحن فيه بباب لطيف » . قال : « وما هو أيها الملك ؟ » قال : « إنّ أختك كُرْدِيَة امرأة بِسْطام مُتَشَوِّقَة[4] لا محالة إلى الرجوع إلى أهلها ووطنها ، وأنا أعرف أنها إنْ آثَرَتْ قَتْلَ بِسْطام قَدَرَتْ لطمأنينته إليها ، ولما بلغنى من صرامتها وإقدامها ، وإن هى قَتَلَتْهُ فلها علىّ ذِمّة الله : أن أتزوّجها وأجعلها سيّدة نسائى ، وأجعل المُلك من بعدى لولدٍ ، إن كان لى منها ، وأنا كاتبٌ على ذلك بخطى ، فأرسِلْ إليها حتى تَعْرِض ذلك عليها ، وتَنْظُر ما عندها فيه » . قال له كُرْدِى : « أيها الملك ، فاكتب لها بخطّك ما تطمئنّ إليه ، وتَعْرِف صِدْق

(١) جمع عقب وهو المرقى الصعب من الجبال .
(٢) معرب رستا بضم الراء وسكون السين ، وهو السواد والقرى .
(٣) فى الأصل : شرآء ، (٤) فى نسخة أخرى متشوفة ، والتشوف : التطلع والشوق.

قولك فيه ، لِأُوَجِّه إليها بالكتاب مع امرأتى ، فإنى لا أثِقُ بسِواها فى كِتمان السِّرّ » .

فكتب لها كسرى بذلك ، وأكّدَ ، فأخذ كُرْدى الكتاب ، ووَجّهه مع امرأته إلى كُرْدية . وقد كان بِسْطام خرج بها معه لشدة وَجْده بها .

فلما قرأت كُرْدِيّة كتاب كسرى عرفت وَثاقته ، فأفضَتْ بِسرّها إلى ظُئورَتِها وثِقاتِها ، فزَيّنّ لها ذلك لتَشوقِهنّ إلى أوطانهن . ولم ينكر بِسْطام مجىء المرأة إلى كُرْدِية لما عرف من إلف النساء وتَزاوُرِهِنّ .

وإن بِسْطام انصرف ذات عشاء إلى مضربه الذى فيه كُرْدِية تَعِباً قد مَسّهُ الكَلَال لشدة الحرب ، فدعا بطعام ، فنال منه ، ثم دعا بشرابه ، فجعلت كُرْدِيَة تسقيه صِرفا حتى غلبه السُّكْر ، فنام ، فقامت إلى سيفه ، فوضعت ظُبَتَه (٢) فى ثُنْدُوَته (٣) ، وتَحامَلَتْ عليه حتى خرج من ظهره ، ثم خرجت من ساعتها ، فتَحمَّلَت فى حَشَمِها وظُئورتِها ، وقد كان أخوها كُرْدِى وقف لها على الطَّرِيق فى خيل ، فلما انتهت إليه انطلق بها ، فأنزلها فى رحله .

ولما أصبح أصحاب بِسْطام ووجدوه قتيلا ارتحلوا هاربين نحو بلاد الدَّيْلَم ، فوجّهَ كسرى سابُور بن أبْرَكان فى عشرة آلاف فارس ، وأمره أن يُقيم بقزوين ، فتكون مَسْلَحَة هناك ، ويمنع من أراد النفوذ من أرض الدَّيْلَم إلى مملكته ؛ ثم تزوج كردية ، وضمها إليه ، وانصرف إلى المدائن ، ونزلت كَرْدِيّة من قلبه بموضع محبّة شديدة ، وشَكَرَ لها ما كان منها ، وزاح عن كسرى ما يجد فى نفسه من الفَضاضَة بانتقامه من قتلة أبيه ، واطمأن له ملكه وهَدَأ واستقرّ

---

(١) المراد مربيتها الحانية عليها والظئورة والظئر : المرضعة غير ولدها .

(٢) الظبة : حد السيف والسنان والخنجر وما أشبه ذلك . (٣) لحم الثدى أو أصله .

[حرب أبرويز مع الرومٌ]

قالوا : ثم إن ابن قيصر ملك الروم قدم على كسرى أبرويز ، فأخبره بأن بطارقة الروم وعظماءها وَثَبُوا على أبيه قيصر وأخيه ثِيَاذُوس بن قيصر ، فقتلوهما جميعا ، وملكوا عليهم رجلا من قومهم ، يسمى كُوْكَسَان ، وَذَكَرَ بلاء أبيه وأخيه عنده ، فغضب أبرويز له ، ووجه معه ثلاثة قواد : أحدهم شاهين فى أربعة وعشرين ألف رجل ، فَوَغَلَ فى أرض الروم ، وبَثَّ فيها الغارات حتى انتهى إلى خليج القُسْطَنْطِينِيَّة ، فعسكر هناك ؛ والقائد الآخر « بوبُوذ » (١) فسار نحو أرض مصر ، فأغار ، وعَاثَ ، وأفسد حتى انتهى إلى الإسكندرية ، فافتتحها عَنْوَة ، وسار إلى البيعة العظمى التى بالأسكندرية ، فأخذ أسقفها ، فعذَّبه ، حتى دلّه على الخشبة التى تزعم النصارى أن المسيح صُلِبَ عليها ؛ وكانت مدفونة فى موضع قد زرع فوقها الرَّيَاحين ؛ والقائد الثالث « شَهْرَيَار » فسار حتى أتى الشام ، فقتل أهلها قتلا ذريعا ، حتى أخذها كلها عَنْوَة .

فلما رأى عظماء الروم ما حل بهم من كسرى اجتمعوا ، فقتلوا الرجل الذى كانوا مَلَّكوه ، وقالوا « إن مثل هذا لا يصلح للمُلْك » ومَلَّكوا عليهم ابن عم لقيصر المقتول يسمى هِرَقْل ، وهو الذى بنى مدينة هرقلة (٢) ، فكانت هـذه الغَلَبَة التى ذكرها الله تعالى فى كتابه (٣) :

وأن هِرَقْل الذى مَلَّكته الروم استجاش أهل مملكته ، وسار إلى القائد الذى كان معسكرا على الخليج ، فحاربه حتى أخرجه من أرض الروم ، ثم صمَدَ للذى كان بأرض مصر ، فطرده عنها ، ثم عطف على شهريار ، فأخرجه عن الشام ، فوافت

---

(١) فى إحدى النسخ الأوربية رميوزان ، ولقد كان استيلاء الفرس على مصر فى عهد ملكهم قنبز بن كورش سنة ٥٢٥ ق.م. وقد دخلت جيوش الفرس إلى مصر بقيادته .

(٢) مدينة ببلاد الروم سميت باسم هرقلة بنت ملك الروم ، وهى بالقرب من صفين من الجانب الغربى .

(٣) سورة الروم الآيات من ١ إلى ٦ .

العساكر كلها الجزيرة ، وسار هِرَقْل نحوهم ، فَوَاقَعَهم ، فهزمهم حتى بلغ بهم الموصِل .

وذلك بلغ كسرى ، فخرج فى جنوده نحو الموصِل ، وانضمّ إليه قواده الثلاثة ، وسار نحو هِرَقْل ، فاقتتلوا ، فانهزم الفُرْس ؛ فلما رأى ذلك كسرى غضب على عظماء جنوده ومَرَازِبَته[1] ، فأمر بهم ، فحُبِسوا ليقتلهم .

[تولية شيرويه بن أبرويز]

ولما رأى أهل المملكة ذلك تَرَاسَلُوا ، وعَزَمُوا على خَلْع كسرى ، وتمليك ابنه شِيرُوَيه بن كسرى ، فخلعوه وملّكوا شِيرويه ، وحبسوا كسرى فى بيت من بيوت القصر ، ووَكّلُوا به « حَيْلُوس » رئيس المُسْتَمِيتة ، وكان ذلك سنة تسع[2] من هجرة النبىّ ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وأن شِيرُوَيه أمر أن يُنقَل بأبيه من دار المملكة ، فيُحبَس فى دار رجل من المرازِبة ، يسمّى « هَرْسَفْتَه »[3] ، فقُنِّعَ رأسه ، وحُمِلَ على بِرْذَوْن[4] ، فانطلق به إلى تلك الدّار ، فحُبِس فيها ، ووكل أمره حيلوس فى خمسمائة من الجند المُسْتَمِيتة .

ثم إنّ عظماء أهل المملكة دخلوا على شِيرويَه ، وقالوا : إنه لا يَصلُح أن يكون علينا مَلِكان اثنان ، فإمّا أن تأمر بقتل أبيك وتنفَرِد بالأمر ، أو تخلعك ونَرُدّ الأمر إليه كما كان .

فهَدّت شِيرُويه هذه المَقالة ، فقال : « أجّلُونى يومى هذا » .

[بين الأب والابن]

ثم أمر يَزْدَانَ جُشْنَس رئيس كتاب الرسائل ، فقال له : انطلق عن رسالتنا

---

(١) المرزبة كمرحلة = رياسة الفرس ، والواحد مرزبان بضم الزاى.

(٢) الموافقة سنة ٦٣٠م .   (٣) فى بعض النسخ الأوربية : مارسفند .

(٤) مفرد براذين وهى من الخيل ما كان من غير نتاج العرب .

لأبينا ، وقل له : « إن الذى حَلَّ بك عُقُوبَة من الله للذى سلف من سوء أعمالك ، وأول ذلك ما كان منك إلى أبيك هُرْمُزْد ؛ ومنها حظرك علينا معاشرَ أولادك ، ومنعك إيانا البَرَاح ، وحبسك إيانا فى دار كهيئة المحبس بلا رِقّة ولا رحمة ؛ ومنها كُفْرَانك إنعام قيصر عليك وأياديه عندك ، فلم تحفظ فيه ابنه وأقاربه حين أتوك يسألونك أن ترد عليهم خشبة الصَّليب التى بعث بها إليك شاهين من الإسكندرية ، فرددتهم عنها بلا حاجة منك إليها ولا دَرَك لك فى حبسها ؛ ومنها ما أمرت به من قتل الثلاثين الألف رجل من مرازبتك وعظماء أساوِرَتك بزعمك أنهم أول من انهزم عن الروم ؛ ومنها كثرة ما جمعت من الأموال ، وكثرتها فى خزائنك من جبايتكها عن الخراج بأعنف العُنْف ، وإنما ينبغى للملوك أن يملأوا خزائنهم مما يغنمون من بلاد أعدائهم بنحور الخيل وصُدُور الرِّماح ، لا مما يسألونه من رَعِيَّتهم ؛ ومنها قتلك النُّعمان بن المنذر ، وصرفك ملك أرضه عن ولده وأهل بيته إلى غيرهم ، يعنى إياس بنَ قبيصة الطائىّ ، فلم تحفظ فيهم ما كان يحفظه آباؤك ، من حضانته بَهْرَام جُور جَدَّك ، ومعونته بعد أن خرج الملك عنه ، حتى رَدَّهُ عليه ، فبكل هذه ذُنُوب ارتكبتها ، وآثام اقترفتها ، لم يكن الله ليرضى منك فأخذك بها » .

فانطلق يَزْدَان جُشْنَس فأبلغ كسرى رسالة شِيرُويه لم يخرم منها حرفا ، فقال له كسرى : قد أبلغت، فأدِّ الجواب كما أدَّيْتَ الرسالة : « قل لِشرويه القصير العُمُر ، القليل العَمْرَ ، الناقص العقل ، نحن مجيبوك عن جميع ما أرسلت به إلينا من غير اعتذار لتزداد عِلْماً بجهلك ؛ أما رِضَانا عما ارتكب من أبينا فإنى ما اطلعتُ على ما دَبَّرَ القوم من الوثوب به ، وقد علمتَ لما استَوْطَدَ لى السُّلطان أنى لم أدع أحدا مالأ على خلعه وأجاب عليه بارتكاب حقه إلا قتلته ، وختمت ذلك بخالَىَّ بِنْدَوَيه وبِسْطام مع ما كان من قيامهما بأمرى ؛ وأما حظرى عليكم معاشرَ أبنائنا فإنى فرَّغتكم لتعلم الأدب ، ومنعتكم من الانتشار فيما لا يعنيكم ، ولم أقصر فى مطاعمكم مع ذلك ومصارفكم وملابسكم وطيبكم ومراكبكم ، وأما أنت خاصة فإن المُنَجِّمين قضوا فى مولدك بتَثْريب مُلْكنا ، وفسخ سلطاننا على يدك ، فلم نأمرْ

بقتلك ، ومع ذلك كتاب قَرْميشيا ملك الهند إلينا يعلمنا أن فى انقضاء سنة ثمان وثلاثين من ملكنا يفضى إليك هذا الأمر ، فكتمنا ذلك الكتاب عنك ، مع علمنا أنه لايفضى إليك إلا بهلاكنا ، وذلك الكتاب مع قضية مولدك عند شيرين صاحبتنا ، فإن أردت فَدُونَكَهُ ، فاقرأهما لتزداد حسرةً وثبوراً ؛ وأما ما ذكرتَ من كُفرانى نعمة قيصر عنى ولده وأهل بيته خشبةَ الصَّليب ، فأيها المائق ، إن أكثر من ذلك الخشب ثلاثون ألف ألف درهم فرقتها فى رجال الروم الذين قدموا معى ، وألف ألف درهم هدايا وجهتها إلى قيصر ، ومثل ذلك وصلت ابنه ثِيَاذُوس عند رجوعه إلى مملكته ، أفكنتُ أجودُ لهم بخمسين ألف ألف درهم وأبخل بخشبة لا تساوى شيئا ؟ إنما احتبستُها لأرتهِنَ بها طاعتهم ، ولينقادوا لى فى جميع ما أريده منهم لعظيم قدر الخشبة عندهم ؛ وأما غضبى لقيصر وطلبى بثأره ، فقد قتلت به من الروم ما لم يحص عدده ؛ وأما قولك فى أولئك المرازبة ورؤساء الأساورة الذين هممت بقتلهم فإن أولئك اصطنعتهم ثلاثين سنة ، وأسنيت أعطياتهم وأعظمتُ حُبُوتَهم(١) فلم أحتج إليهم فى طول دهرى إلا ذلك اليوم الذى فشلوا فيه وخاموا(٢) ، فسَلْ أيها الأخرق فقهاء هذه المِلَّة عمن قصر فى نُصرة ملكه ، وخام عن محاربة عَدُوّه ، فسيخبرونك أنهم لايستوجبون العفو ولا الرحمة ؛ فأما ماعنفتنى به من جمع الأموال فإن هذا الخراج لم يكن منى بِدْعَة ، ولم يزل الملوك يجبونه قبلى ليكون قوة للملك وظهرا للسلطان ؛ فإن ملكا من ملوك الهند كتب إلى جَدّى أنوشروان : أن مملكتك شبيهة بباغ عامر عليه حائط وثيق ، وباب منيع ، فإذا انهدم ذلك الحائط أو تكسرت الأبواب لم يؤمن أن ترعى فيه الحمير والبقر . وإنما عنى بالحائط الجنود، وبأبوابه الأموال . فاحتفظ أيها السخيف العقل بتلك الأموال ، فإنها حصن للملك ، وقوام للسلطان ، وظهير على الأعداء ، ومفخرة عند الملوك ؛ وأما ما زعمتَ من قتلى النعمان بن المنذر ، وإزالتى الملك عن آل عمرو بن عَدِىّ إلى إياس

---

(١) العطاء . (٢) خام عنه يخيم : نكص وجبن .

ابنَ قَبِيصَة ، فإنّ النُّعمان وأهل بيته واطئوا العرب ، وأعلموهم تَوَكُّفهم(١) خروج المُلك عنّا إليهم ، وقد كانت وَقَعَتْ إليهم فى ذلك كُتُب ، فقتلته ، ووَلَّيْتُ الأمر أعرابيًا لا يَعْقِل من ذلك شيئاً » . انطلق إلى شِيرَويه ، فأخبره بذلك كله ؛ فأبلغه يزْدان جُشْنَس ، لم يخرم منه شيئاً ، فعلَتْ شِيرويه كآبة .

ولمّا كان من الغد اجتمع عظماء أهل المملكة ، فدخلوا على شِيرُويه كما فعلوا بالأمس ، فخاف على نفسه ، فجعل يرسل الرّجل بعدَ الرّجل من مرازِبته لقتل أبيه ، فلا يقدم عليه أحد ، حتى بعث بشاب منهم يسمّى يَزْدَك بن مَرْدَان شاه مَرْزبان بابِل وخُطَرْنِيَة ؛ فلما دخل عليه ، قال : مَنْ أنت ؟ قال : أنا ابن مَرْدَان شاه مرزبان بابِل وخُطَرْنِيَة ؛ قال له كسرى : أنتَ لعَمْرِى صاحبى ، وذلك أنى قتلْتُ أباك ظُلْماً ، فضربه الغلام حتى قتله ، وانصرف إلى شِيرويه فأخبره ، فلَطَمَ شِيرُويه وجهه ، ونَتَفَ شعْرَه ، وحبسه ، وانطلق فى عظماء أهل المملكة حتى استودعه النّاوُوس ، ثم انصرف ؛ وأمر ، فقُتِلَ الغلام الذى قتَلَ أباه . وفى ذلك العام الذى ملك فيه شِيرُويه توفى(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستُخْلِفَ أبو بكر رضى الله عنه .

ثم إنّ شِيرويه لمّا ملك عمد إلى إخوته ، وكانوا خمسة عشر رجلا ، فضرَبَ أعناقهم ، مخافةَ أن يفسدوا عليه مُلكه ، فسُلِّطَتْ عليه الأمراض والأسقام حتى مات ، وكان مُلكه ثمانية أشهر .

[بعد موت شيرويه]

فملَكَت فارس عليها بعده ابنه شيرزاد بن شِيرُويه ، وكان طفلا ، ووكلوا به رجلًا يحضنه ، ويقوم بتدبير المُلك إلى أنْ أدرَكَ .

---

(١) يتوكف الخبر : ينتظره ويتوقعه .

(٢) كانت وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فى ١٣ من شهر ربيع الأول سنة ١١هـ . الموافق ٢٠ يونيه سنة ٦٣٢م .

ولما بلغ شهريار وهو مُقيم فى وجه الروم مَقْتَل كسرى أقبل فى جنوده حتى وَرَدَ المدائن ، وقد مات شِيرويه وملك ابنه شيرزاد ؛ فاغتصب الأمر ، ودخل المدائن ، فقتل كل مَنْ مَالأَ على قتل كسرى وخَلْعِه ، وقَتَل شيرزاد وحاضِنه ، وتَوَلَّى أمر المُلك ، ودَعَا نفسه ملكا ، وذلك فى العام الثانى عشر من التاريخ [الهجرى] .

فلما تم تَمَلُّك شهريار حَوْلَيْن أنف عظماء أهل المملكة من أن يلى مُلْكَهم مَنْ ليس مِن أهل بيت المملكة ، فوَثَبُوا عليه فقتلوه ، ومَلَّكُوا عليهم جُوَان شير ابن كسرى ، وكان طِفْلا ، وأمه كُرْدِيَّة أخت بهرام شُوبِين ، فملك حَوْلاً ، ثم مات .

فملّكوا عليهم بُوران بنت كسرى ، وذلك أنّ شِيرويه لم يَدَع من إخوته أحداً إلا قتله ، خَلَا جُوَان شير فإنه كان طفلا ، فعند ذلك وَهَى سلطان فارس وضَعُفَ أمرهم ، وفُلَّتْ شوكتهم .

[حروب العرب مع العجم]

قالوا : فلما أُفضِى الملك إلى بُورَان بنت كسرى بن هُرْمُز شاع فى أطراف الأرَضِين أنه لا ملك لأرض فارس ، وإنما يلوذون بباب امرأة ؛ فخرج رجلان من بكر بن وائل ، يقال لأحدهما المُثَنَّى بن حارثة الشَّيْبَانىّ ، والآخر سُوَيْد بن قُطْبَة العِجْلىّ ، فأقبلا حتى نزلا فيمن جمعا بتخوم أرض العجم ، فكانا يُغيران على الدَّهَاقين ، فيأخذان ما قدرا عليه ، فإذا طُلبا أمْعَنَا فى البر فلا يتبعهما أحد ، وكان المُثَنَّى يغير من ناحية الحيرة ، وسُوَيْد من ناحية « الأُبُلَّة » (1) وذلك فى خلافة أبى بكر ، فكتب المُثَنَّى بن حارثة إلى أبى بكر رضى الله عنه يُعلمه ضَرَاوَته بفارس ، ويعرفه وَهَنَهم ، ويسأله أن يَمُدَّه بجيش .

فلما انتهى كتابه إلى أبى بكر رضى الله عنه كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد ،

---

(1) الأبلة : بلد معروف قرب البصرة من جانبها البحرى فى زاوية الخليج ، وهى أقدم من البصرة ، وكان فيها للفرس مسالح وقادة .

وقد كان فرغ من أهل الرِّدّة ، أن يسير إلى الحيرة فيحارب فارس ، ويضم إليه المُثَنّى ومَن معه ؛ وكَرِهَ المُثَنّى وُرُود خالد عليه ؛ وكان ظَنَّ أن أبا بكر سيُوَلّيه الأمر ، فسار خالد والمُثَنّى بأصحابهما ، حتى أناخا على الحيرة ، وتحصّن أهلها فى القصور الثلاثة .

ثم نزل عَمْرُو بن بُقَيلة ، وحديثُه مع خالد، وأنه وجد معه شيئا من البيش[1] فاستفّه[2] على اسم الله ولم يَضُرّه ذلك معروفٌ ، ثم صالحوه من القصور الثلاثة على مائة ألف درهم يُؤَدّونها فى كل عام إلى المسلمين ؛ ثم ورد كتاب أبى بكر على خالد مع عبد الرحمن جميل الجُمَحِيّ ، يأمره بالشخوص إلى الشام ليُمِدّ أبا عبيدة بن الجراح بمن معه من المسلمين ، فمضى ، وخَلّفَ بالحيرة عمرو بن حَزْم الأنصاريّ مع المُثَنّى ؛ وسار على الأنبار ، وانْحَطّ على عين التمر[3]، وكان بها مَسْلَحَة لأهل فارس ، فرمى رجل منهم عمرو بن زياد بن حُذَيفة بن هشام بن المُغيرة بنُشّابة ، فقتله ، ودُفِن هناك .

وحاصَرَ خالد أهل عين التمر حتى استنزلهم بغير أمان ، فضرب أعناقهم ، وسَبَى ذَرَارِيّهم ؛ ومن ذلك السَّبْي أبو محمد بن سيرين وحُمران بن أبان مَوْلَى عثمان بن عفّان ، وقتَلَ فيها خالدٌ خفيراً كان بها من العرب يسمّى هلال بن عُقبة ، وصَلَبَه ، وكان من النّمر بن قاسط ؛ ومَرّ بحيٍّ من بنى تَغلب والنَّمِر ، فأغار عليهم ، فَقَتَلَ وغَنِم حتى انتهى إلى الشام . ولم يزل عَمْرُو بن حَزْم والمُثَنّى بن حارثة يتطرّفان أرض السواد ويُغيران فيها حتى توفى أبو بكر[4] رضى الله عنه .

---

(١) البيش بالكسر ، نبات كالزنجبيل فيه سمّ قتال لكل حيوان.

(٢) تناوله غير مسحوق (٣) بلدة فى طرف البادية غربى الفرات .

(٤) كانت وفاة أبى بكر فى ٢١ جادى الثانية سنة ١٣ الموافق أغسطس سنة ٦٣٤ م .

[الفتوحات الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب]

وولّى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكانت وِلاية عمر سنة ثلاث عشرة ؛ ثم إنّ عمر رضى الله عنه عزم على توجيه خيل إلى العراق ، فدعا أبا عُبَيْد بن مسعود ، وهو أبو المختار بن أبى عُبَيْد الثقفىّ فَعَقَدَ له على خمسة آلاف رجل ، وأمره بالسير إلى العراق ؛ وكتب إلى المُثَنَّى بن حارثة ، أن ينضم بمن معه إليه ؛ ووجه مع أبى عُبَيْد سَلِيط بن قيس ، من بنى النَّجّار الأنصارىّ ، وقال لأبى عُبَيْد : « قد بعثت معك رجلا هو أفضل منك إسلاما ، فاقْبَلْ مَشُورَته » وقال لسَلِيط : « لولا أنك رجل تَعْجَل فى الحرب لَوَلَّيْتُكَ هذا الجيش ، والحرب لايصلح لها إلا الرجل المَكِيث» فسار أبو عُبَيْد نحو الحيرة ، لا يمر بحىّ من أحياء العرب إلا استنفرهم ، فتبعه منهم طوائف ، حتى انتهى إلى قُسّ الناطف[١] فاستقبله المُثَنَّى فيمن معه .

وبلغ العجم إقبال أبى عُبَيْد ، فوجّهوا مَرْدَان شاه الحاجب فى أربعة آلاف فارس ، فأمر أبو عُبَيْد بالجسر ، فعُقِد ليعبر إليهم . فقال له المُثَنَّى : « أيها الأمير لا تقطع هذه اللُّجّة ، فتجعل نفسك ومن معك غرضا لأهل فارس » . فقال له أبو عُبَيْد « جُبُنْتَ يا أخا بكر » . وعبر إليهم بمن معه من الناس ، وولّى أبا مِحْجَن الثَّقَفِىّ الخيل ، وكان ابنّ عمه ، ووقف هو فى القلب ، وزحف إليهم الفرس ، فاقتتلوا ، فكان أبو عُبَيْد أول قتيل ، فأخذ الراية أخوه الحَكَم ، فَقُتِلَ ، ثم أخذها قيس بن حبيب أخو أبى مِحْجَن ، فَقُتِل ، وقتل سَلِيط بن قيس الأنصارىّ فى نفر من الأنصار كانوا معه ، فأخذ المثنى الراية ، وانهزم المسلمون .

فقال المُثَنَّى لعُرْوَة بن زيد الخَيْل الطّائىّ « انطلق إلى الجسر ، فقف عليه ، وحُلْ بين العجم وبينه » . وجعل المُثَنَّى يُقَاتِل من وراء الناس ، ويحميهم حتى عبَرُوا ؛ ويوم جسر أبى عُبَيْد معروف ؛ وسار المُثَنَّى بالمسلمين حتى بلغ الثَّعْلَبِيّة[٢] ، فنزل ،

---

(١) موضع قريب من الكوفة على شاطىء الفرات الشرقى .

(٢) الثعلبية موضع بطريق مكة ، وفى الأصل « التغلبية » .

وكتب إلى عُمَرَ بن الخطاب رضى الله عنه مع عُرْوَة بن زيد الخيْل ، فبكى عمر ، وقال لعُرْوَة : « ارجع إلى أصحابك ، فرُهم أن يقيموا بمكانهم الذى هم فيه ، فإن المَدَد وارد عليهم سريعا » ، وكانت هذه الوَقْعَة فى شهر رمضان يوم السبت سنة ثلاث‌عشرة من التاريخ .

ثم إنّ عمر بن الخطاب اسْتَنْفَرَ الناس إلى العراق ، فخفّوا فى الخروج ، ووَجّه فى القبائل يستجيش ، فقَدِمَ عليه مِخْنَفُ بن سُلَيْم الأزدىّ فى سبعمائة رجل من قومه ، وقدم عليه الحُصَيْن بن مَعْبَد بن زُرارة فى جَمْعٍ من بنى تميم زُهاء ألف رجل ، وقدم عليه عَدِىّ بن حاتم فى جَمْعٍ من طَيّء ، وقدم عليه أنس بن هلال فى جَمْعٍ من النَّمر بن قاسط ؛ فلما كَثُرَ عند عمر الناس عَقَدَ لجرير بن عبد الله البَجَلىّ عليهم ، فسار جرير بالناس حتى وَافَى الثَّعْلَبِيّة ، فضم إليه المُثَنّى فيمن كان معه ، وسار نحو الحيرة ، فعسكر بدير هِنْد[1] ، ثم بثّ الخيل فى أرض السواد ، تُغِير.

وتحصّنَ منه الدَّهاقين ، واجتمع عظماء فارس إلى بُوران ، فأمرت أن يُتخيّر اثنا عشر ألف رجل من أبطال الأساوِرَة[2] ، ووَلّتْ عليهم « مِهْران بن مهرويَة الهَمَذانىّ » فسار بالجيش حتى وَافَى الحِيرة ، وزَحَفَ الفريقان ، بعضهم لبعض ، ولهم زَجَلٌ[3] كزجل الرعد ، وحَمَل المُثَنّى فى أوّل الناس ، وكان فى مَيْمَنَة جرير ، وحملوا معه . وثار العَجَاج ، وحمل جرير بسائر الناس من المَيْسَرَة والقلب ، وصَدَقَتْهم العجم القتال ، فجال المسلمون جَوْلَة ، فقبض المُثَنّى على لحيته ، وجعل ينتف ما تبعه منها من الأسف ، ونادَى : « أيها الناس ، إلىّ ، إلىّ ، أنا المُثَنّى » فثاب المسلمون ، فحَمَل بالناس ثانية ، وإلى جانبه مسعود بن حارثة أخوه ، وكان من فرسان العرب ، فقُتِلَ مسعود ، فنادَى المُثَنّى : « يا معشر المسلمين ، هكذا مَصْرَع خيارِكم ، ارفعوا راياتكم » . وحَضّ عَدِىّ بن حاتم أهل المَيْسَرَة ،

---

(١) مكان بالحيرة ، بنته أم عمرو بن هند ، وهو على طريق النجف ، ويسمى دير هند الكبرى ، وبالحيرة أيضا دير هند الصغرى التى بنته هند بنت النعمان بن المنذر ، وهو الآن بالكوفة قرب خطة بنى دارم. (٢) الأساورة هم الفرسان المقاتلة ، مفرده أسوار . (٣) الجلبة .

وحَرَّضَ جرير أهل القلب ، وذَمَّرهم(١) ، وقال لهم : « يا معشر بَجيلة ، لا يكونَنَّ أحد أسرع إلى هذا العدوّ منكم ؛ فإن لكم في هذه البلاد ـ إنْ فتحها الله عليكم ـ حُظْوَةً ليست لأحد من العرب » ، فقاتلوهم الناس إحدى الحُسْنَيَيْن » .

فتَدَاعَى المسلمون ، وتحاضّوا ، وثاب مَنْ كان انهزم ، ووقف الناس تحت راياتهم ، ثم زحفوا ، فحمل المسلمون على العجم حملة صَدَقُوا الله فيها ؛ وباشَرَ مِهْرَان الحرب بنفسه ، وقاتل قتالاً شديداً ، وكان من أبطال العجم ، فقُتِلَ مِهْرَان ؛ وذَكَرُوا أن المُثَنَّى قتله ، فانهزمت العجم لمّا رأوا مهران صريعاً ، واتّبعهم المسلمون ، وعبد الله بن سُلَيْم الأزديّ يَقْدُمُهم ، واتبعه عُرْوَة بن زيد الخيل ، فصار المسلمون إلى الجسر ، وقد جازه بعض العجم ، وبقى بعض ، فصار من بقى منهم في أيدى المسلمين ؛ ومضت العجم ، حتى لحقوا بالمدائن ، وانصرف المسلمون إلى معسكرهم ، فقال عُرْوَة بن زيد الخيل في ذلك :

هَاجَتْ لِعُرْوَةَ دَارُ الحَيِّ أَحْزَانَا ... وَاسْتَبْدَلَتْ بَعْدَ عَبْدِ القَيْسِ هَمْدَانَا
وَقَدْ أَرَانَا بِهَا ، وَالشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ ... إِذْ بِالنُّخَيْلَةِ قَتْلَى جُنْدِ مِهْرَانَا
أَيَّامَ سَارَ المُثَنَّى بِالجُنُودِ لَهُمْ ... فَقَتَّلَ القَوْمَ مِنْ رَجْلٍ وَرُكْبَانَا
سَمَا لِأَجْنَادِ مِهْرَانٍ وَشِيعَتِهِ ... حَتَّى أَبَادَهُمُ مَثْنَى وَوُحْدَانَا
مَا إِنْ رَأَيْنَا أَمِيرًا بِالعِرَاقِ مَضَى ... مِثْلَ المُثَنَّى الَّذِي مِنْ آلِ شَيْبَانَا
إِنَّ المُثَنَّى الأَمِيرُ القَرْمُ لَا كَذِبٌ ... فِي الحَرْبِ أَشْجَعُ مِنْ لَيْثٍ بِخَفَّانَا(٢)

قالوا : ولمّا أهلك الله مِهْرَان ومَنْ كان معه من عظماء العجم استَمْكَنَ المسلمون من الغارة في السواد ، وانتقضت مسالح(٣) الفُرْس ، وتَشَتَّتَ أمرهم ، واجترأ المسلمون عليهم ، وشَنُّوا الغارات ما بين سُورَا(٤) وكَسْكَر(٥) والصَّرَاة(٦)

---

(١) ذمرهم حضهم على القتال .

(٢) القرم من الرجال: السيد المعظم ، والخفان : رئال النعام، واحدته خفانة ، وهو فرخها .

(٣) جمع مسلحة بفتح الميم وهي الثغر فيه الجنود . (٤) كورة قريبة من الفرات .

(٥) كورة واسعة، كانت قصبتها بين الكوفة والبصرة. (٦) الصراة بالفتح : نهران قرب بغداد ، أحدهما كبير والآخر صغير ، وقد سميا باسم المحلة عند منبعهما .

إلى الفَلاليج[١] والأسْتانات ، فقال أهل الحيرة للمُثَنَّى : « إنّ بالقرب مِنّا قرية فيها سوق عظيم ، تقوم فى كل شهر مرة ، فتأتيها تجار فارس والأهواز وسائر البلاد ؛ فإن قدرت على الغارة على تلك السُّوق أصَبْتَ أموالًا رَغِيبَة » يعنون سوق بغداد ، وكانت قرية تقوم بها سوق فى كل شهر .

فأخذ المُثَنَّى على البَرّ حتى أتى الأنبار[٢] ، فتحصَّنَ منه أهلها ، فأرسل إلى بَسفَرّوخ مرزبانها ليسير إليه ، فيكلّمه بما يريد ، وجعل له الأمان ؛ فأقبل الزربان حتى عبر إليه ، فخَلَا به المُثَنَّى ، وقال : « إنى أريد أن أُغِيرَ على سوق بغداد ، فأريد أن تبعث معى أدِلّاء ، فيدلونى على الطريق ، وتُسوّى لى الجسر ، لأعْبُرُ الفُرات » ، ففعل المرزبان ذلك ، وقد كان قطع الجسر لئلا تعبر العرب إليه ، فعبر المثنى مع أصحابه ، وبعث المرزبان معه الأدِلّاء ، فسار حتى وَافَى السُّوق ضَحْوَةً ، فهرب الناس ، وتركوا أموالهم ، فملأوا أيديهم من الذهب والفضة ، وسائر الأمتعة ، ثم رجع إلى الأنبار ، ووَافَى معسكره .

ولما بلغ سُوَيْد بن قُطْبَة العجلىّ أمر المثنى بن حارثة ، وما نال من الظفر يوم مِهْرَان كتب إلى عمر بن الخطاب ، يعلمه وَهَنَ الناحية التى هُو بها ، ويسأله أن يَمُدّه بجيش . فندب عمر بن الخطاب لذلك الوجه عُتْبَة بن غَزْوان المازنىّ ، وكان حَلِيفاً لبنى نَوْفَل بن عبد مَنَاف ، وكانت له صُحْبَة من رسول الله ﷺ ، وضم إليه ألفى رجل من المسلمين ، وكتب إلى سُوَيْد بن قُطْبَة يأمره بالانضمام إليه .

فلما سار عُتْبَة شيَّعَه عمر رضى الله عنه ، فقال : « ياعُتْبَة ، إن إخوانك من المسلمين قد غلبُوا على الحيرة ، ومايليها ، وعبرت خيلهم الفُرات حتى وطئت بابل ، مدينة هَارُوتَ ومَارُوتَ ومنازل الجبّارين ، وإن خيلهم اليوم لتُغِير حتى تُشارِفَ المدائن ، وقد بَعثْتُكَ فى هذا الجيش ، فاقصد قصد أهل الأهواز ، فاشغَلْ أهل تلك الناحية ، أن يمدوا أصحابهم بناحية السواد على إخوانكم الذين هناك ، وقاتلهم مما يلى الأُبُلّة » .

(١) الفلاليج : قرى السواد من أرض فارس واحده فلوجة ، وبالقرب من بغداد فلوجان .

(٢) مدينة على الفرات غربى بغداد ، كانت الفرس تسميها فيروز سابور .

فسار عُتْبة بن غَزْوان حتى أتى مكان البصرة اليوم ، ولم تكن هناك يومئذ إلا الخُرَيْبَة ، وكانت منازل خَرِبَة ، وبها مَسَالح لكسرى تمنع العرب من العبث فى تلك الناحية ؛ فنزلها عُتْبَة بن غَزْوَانَ بأصحابه فى الأخبية والقِباب ؛ ثم سار حتى نزل موضع البصرة ، وهى إذ ذاك حجارة سُود وحَصى ، وبذلك سُمِّيَت البصرة ، ثم سار حتى أتى الأُبُلَّة ، فافتتحها عَنْوَة ، وكتب إلى عمر رضى الله عنه : « أما بعد ، فإن الله، وله الحمد، فتح علينا الأُبُلَّة ، وهى مَرْقَى سفن البحر من عُمان، والبحرين، وفارس، والهند، والصين ، وأغنمنا ذهبهم وفضتهم وذَرارِيَّهم ، وأنا كاتبٌ إليك ببيان ذلك إن شاء الله ».

وبعث بالكتاب مع نافع بن الحارث بن كَلَدَة الثَّقَفِيّ ، فلما قدم على عمر رضى الله عنه تباشَر المسلمون بذلك ، فلما أراد نافع الانصراف ، قال لعمر : « يا أمير المؤمنين . إنى قد اقْتَنَيْتُ[1] فِلاء بالبصرة ، واتخذت بها تجارة . فاكتب إلى عُتْبَة ابن غَزْوَان أن يُحْسِنَ جِوَارى » .

فكتب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى عُتْبَة : « أما بعد ، فإن نافع بن الحارث ذكر أنه قد اقْتَنَى فِلَاء ، وأحب أن يتخذ بالبصرة دارا ، فأحْسِنْ جِواره ، واعرف له حَقَّه ، والسلام » .

فخطَّ له عُتْبَة بالبصرة خطة ، فكان نافع أول من خط خِطة بالبصرة ، وأول من اقْتَنَى بها الأفلاء، وارتبط بها رِباطا ؛ ثم إن عُتْبَة سار إلى المذار[2] ، وأظهره الله عليهم ، ووقع مرزُبانها فى يده ، فضرب عنقه ، وأخذ بِزّته ، وفى مِنْطَقَته الزُّمُرّد والياقوت ، وأرسل بذلك إلى عمر رضى الله عنه ؛ وكتب إليه بالفتح ، فتباشر الناس بذلك ، وأكبُّوا على الرسول، يسألونه عن أمر البصرة ؛ فقال إن المسلمين يَهِيلُون بها الذهب والفضة هيْلا ، فرغب الناس فى الخروج ، حتى كثروا بها ، وقوى أمرهم ، فخرج عُتْبَة بهم إلى فُرَات البصرة[3] ، فافتتحها ، ثم سار إلى

---

(١) اقتنيت قنية ، والفلى أى أتخذ . (٢) المذار بفتح الميم بلدة بين واسط والبصرة .
(٣) البلاد قرب البصرة التى تسقى من نهر الفرات .

«دَسْت مِيسان»[1] فافتتحها بعد أن خرج إليه مرزُبانها بجنوده ، فالتقوا ، فقتل المرزبان ، وانهزمت العجم ، فدخل مدينتها لايمنعه شيء ، فخلّف بها رجلا ، وسار إلى « ابرقباذ » فافتتحها ، ثم انصرف إلى مكانه من البصرة ، وكتب إلى عمر رضى الله عنه بما فتح الله عليه من هـذه المدن والبلدان ، وبعث بالكتاب مع أنس بن الشيخ بن النعمان ، فاختلفت القبائل إليها حتى كثروا بها .

ثم إن عُتبة استأذن عمر فى القدوم عليه ، فأذِنَ له ، فاستَخْلَفَ المُغيرة بن شُعبة ، ثم خطب الناس حين أراد الخروج خطبة طويلة ، قال فيها : « أعوذ بالله أن أكون فى نفسى عظيما ، وفى أعيُن الناس صغيرا ، وأنا سائر ، ولا حَوْلَ ولا قُوّة إلّا بالله ، وستُجرّبون الأمراء بعدى ، فتعرفون » . وكان الحسن البصرىّ يقول ، إذا حدّث بهذا الحديث : قد جرّبنا الأمراء بعده ، فوجدنا له الفَضْلَ عليهم .

وأنّ عمر رضى الله عنه أقرّ المُغيرة على ثَغر البصرة ، فسار بالناس نحو «مِيسَان» ، فخرج إليه مرزبانها ، فحاربه ، فأظهر الله المسلمين ، وافتتح البلاد عَنْوَة ، وكتب إلى عمر بالفتح ، ثم كان من أمر المُغيرة والنفَر الذين رَمَوْهُ ما كان .

وبلغ ذلك عمر رضى الله عنه ، فأمر أبا موسى الأشعَرىّ بالخروج إليها ، وأن يصرف الخِطَط لمن هناك من العرب ، ويجعل كل قبيلة فى محلّة ، وأن يأمر الناس بالبِناء ، وأن يبنى لهم مسجداً جامعاً ، وأن يُشْخِصَ إليه المُغيرة بن شُعبة ؛ فقال أبو موسى : « يا أمير المؤمنين ، فوَجّه معى نفراً من الأنصار ، فإنّ مَثَلَ الأنصار فى الناس كمَثَل المِلْح فى الطّعام » ؛ فوَجّهَ معه عشرة من الأنصار ، فيهم أنس ابن مالك ، والبَرَاء بن مالك ، فقدم أبو موسى البصرة ، وبعَثَ إليه بالمغيرة بن شعبة ، والنفَر الذين شَهِدوا عليه ، فسألهم عمر رضى الله عنه ، فلم يُصرّحُوا ، فجلدَهُم ، وأمر المُغيرة أن يلحق بالبصرة ، فيُعَاوِنَ أبا موسى على أمره ؛ ونظر أبو موسى إلى زِياد بن عُبَيْد ، وكان عبداً مملوكاً لثقيف ، فأعجبه عقله وأدبه ، فاتّخَذَهُ كاتباً ، وأقام معه ، وقد كان قبل ذلك مع المُغيرة بن شُعبة .

(١) كورة كبيرة بين واسط البصرة والأهواز .

قالوا : فلما نظرت الفُرْس إلى العرب قد حَدَقُوا بهم ، وبَثُّوا الغارات فى أرضهم قالوا فيما بينهما : إنما أُتِينا من تملّك النساء علينا ؛ فاجتمعوا على يَزْدَجِرْدَ بن شَهْرِيار بن كسرى أَبْرويز ، فملّكوه عليهم ، وهو يومئذ غلام ابن ست عشرة سنة ، وثبتت طائفة على آزَرْميدُخْت ، فتحارَبَ الفريقان ، فكان الظَّفَر ليَزْدَجِرْدَ ، فَخُلِعَتْ آزَرْميدُخْت ، وتملّك يَزْدَجِرْد ، فجمع إليه أطرافه ، واستجاش أقطار أرضه ، وولى عليهم رُسْتُم بن هُرْمُز ، وكان حَنَكا ، قد جرّبته الدّهور ، فسار رستم نحو القادِسِيّة .

[موقعة القادسية]

وبلغ ذلك جرير بن عبد الله والْمُثَنَّى بن حارثة ، فكتبا إلى عمر رضى الله عنه ، يُخبِرانه ، فندَب عمر الناس ، فاجتمع له نحو من عشرين ألف رجل ، فوَلّى أمرهم سعد بن أبى وقّاص ، فسار سعد بالجيوش حتى وَافَى القادِسِيّة ، فضم إليه مَنْ كان هناك ، وتوفى الْمُثَنَّى بن حارثة رحمه الله ؛ فلما انقضت عِدّة امرأة الْمُثَنَّى تزوّجها سعد بن أبى وَقّاص ، وأقبل رستم بجنوده حتى نزل دير الأعور(١) .

وأنّ سعداً بَعَثَ طُلَيْحَة بن خُوَيْلد الأسدىّ ، وكان من فرسان العرب فى جَمْعٍ ليأتيه بخبر القوم ، فلما عاينُوا سوادهم ، ورأوا كثرتهم قالوا لطُلَيْحَة : « انصرف بنا » ، فقال : « لا ، ولكنى ماضٍ حتى أدخل عسكرهم ، وأعلم علمهم » . فاتّهمُوهُ ، وقالوا له : « ما نحسبك تريد إلّا اللَّحاق بهم ، وما كان الله ليهديك بعد قتلك عُكّاشَة بن مِحْصَن وثابت بن أَقْرَم » ؛ فقال لهم طُلَيْحَة : « مَلأَ الرُّعب قلوبكم » ؛ وأقبل طُلَيْحَة حتى دخل عسكر الفُرْس ليلًا ، فلم يزل يجوسه ليلته كلها ، حتى إذا كان وجه السَّحَر مَرّ بفارس منهم يُعَدّ بألف فارس ، وهو نائم ، وفرسه مُقَيّد ، فنزل ، فَفَكّ قَيْدَه ، ثم شَدّ مِقوده بِثَفَرِ(٢) فرسه ،

(١) مكان بظاهر الكوفة ، بناه رجل من إياد ، يقال له الأعور .

(٢) ثفر الدابة بالتحريك السير الذى فى مؤخر السرج .

وخرج من المعسكر ، واستيقظ صاحب الفَرَس ، فنادى فى أصحابه ، وركب فى أثره ، فلحقوه ، وقد أضاء الصُّبح ، فَبَدَرَ صاحب الفرس إليه ، ووقف له طُلَيْحَة ، فاطّعنا ، فقتله طُلَيْحَة ، ولحقه فارس آخر ، فقتله طُلَيْحَة ، ولحقه ثالث ، فأَسَرَهُ طُلَيْحَة ، وحمله على دابته ، وأقبل به نحو عسكر المسلمين ، فكَبَّرَ الناس ، ودخل على سعد ، وأخبره الخبر .

وأقام رستم بدير الأعور معسكرا أربعة أشهر ، وأرادوا(١) مُطاولة العرب ليضجروا ، وكان المسلمون إذا فَنِيَتْ أزوادهم وأعلافهم جرّدوا الخيل ، فأخذت على البر حتى تهبط على المكان الذى يريدون ، ويُغِيرُون ، فينصرفون بالطعام والعلف والمواشى .

ثم إن عمر رضى الله عنه كتب إلى أبى موسى يأمره أن يمدّ سعدا بالخيل ، فوجّه إليه أبو موسى المغيرة بن شُعْبَة فى ألف فارس ، وكتب إلى أبى عُبَيْدَة بن الجرّاح ، وهو بالشام يحارب الروم أن يمدّ سعدا بخيل ، فأمدّه بقَيْس بن هُبيرة المرادىّ فى ألف فارس ، وكان فى القوم هاشم بن عُتْبَة بن أبى وقّاص ، وكانت عينه فُقِئَت يوم اليَرْمُوك ، وفيهم الأشعث بن قَيْس ، والأشتر النَّخَعىّ ، فساروا حتى قدموا على سعد بالقادِسِيّة .

وأن يزدجرد الملك كتب إلى رستم يأمره بمناجزة العرب ، فزحف رستم بجنوده وعساكره حتى وَافَى القادِسيّة ، فعسكر على ميل من معسكر المسلمين ، وجرت الرُّسُل فيما بينه وبين سعد شهرا ، ثم أرسل إلى سعد : أن ابعث إلىّ من أصحابك رجلا ، له فهم وعقل وعلم ، لأكلّمه ، فبعث إليه بالمغيرة بن شُعْبَة ، فلما دخل عليه قال له رستم : « إن الله قد أعظم لنا السلطان ، وأظهرنا على الأمم ، وأخضع لنا الأقاليم ، وذلّل لنا أهل الأرَضِين ، ولم يكن فى الأرض أمة أصغر قدرا عندنا منكم ، لأنكم أهل قِلّة وذِلّة وأرض جَدْبَة ، ومعيشة ضَنْك ، فما حملكم على تخطّيكم إلى

(١) فى الأصل : وأراد .

بلادنا ؟ فإن كان ذلك من قَحْطٍ نزل بكم ، فإنا نُوسعكم ونُفضل عليكم ، فارجعوا إلى بلادكم » .

فقال له المغيرة : « أما ما ذكرت من عظيم سلطانكم، ورفاهة عيشكم، وظهوركم على الأمم ، وما أوتيتم من رفيع الشأن ، فنحن كل ذلك عارفون ، وسأخبرك عن حالنا : إن الله وله الحمد ، أنزلنا بقفار من الأرض ، مع الماء النَّزْر ، والعيش القَشِف يأكل قَوِيُّنا ضعيفنا ، ونقطع أرحامنا ، ونقتل أولادنا خشية الإملاق ، ونعبد الأوثان ، فبينا نحن كذلك بعث الله فينا نبيًّا ، من صميمنا وأكرم أَرُومة[1] فينا ، وأمره أن يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن نعمل بكتاب أنزله إلينا ، فآمنا به ، وصدَّقناه ، فأمرنا أن ندعو الناس إلى ما أمره الله به ، فمن أجابنا كان له مالنا، وعليه ما علينا ، ومن أبى ذلك سألناه الجِزْيَة[2] عن يَدٍ ، فمن أبى جاهدناه، وأنا أدعوك إلى مثل ذلك ، فإن أبيت فالسيف ». وضرب يده مشيرا بها إلى قائم سيفه .

فلما سمع ذلك رستم تداخله ما استقبله به، واغتاظ منه، فقال: «والشمسِ ، لا يرتفع الضحى غداً حتى أقتلكم أجمعين» فانصرف المغيرة إلى سعد ، فأخبره بما جرى بينهما، وقال لسعد « استعد للحرب » ؛ فأمر الناس بالتهيؤ والاستعداد ، فبات الفريقان يُكَتِّبُون الكتائب ، ويعبّون الجنود، وأصبحوا وقد صَفُّوا الصفوف ، ووقفوا تحت الرايات ؛ وكانت بسعد عِلّة من خرّاج[3] في فخذه قد منعه الركوب ، فولّى أمر الناس خالد بن عُرْفُطة ، وولى القلب قَيْس بن هُبيرة ، وولى الميمنة شُرَحْبيل ابن السِّمط، وولى الميسرة هاشمَ بن عُتبة بن أبي وقّاص، وولّى الرجّالة قيسَ بن خُرَيْم، وأقام هو في قصر القادسيّة ، مع الحُرَم والذّرّية ، ومعه في القصر أبو مِحْجن الثّقفِي محبوسا في شراب شربه .

---

(١) الأرومة: الأصل والجمع أروم. (٢) الجزية هي عبارة عن المال الذي يعقد الكتابي عليه الذمة . (٣) في الأصل: من جراح .

ثم إن سعدا تقدم إلى عمرو بن مَعْدِى كَرِبَ ، وقَيس بن هبيرة ، وشُرَحْبِيل بن السِّمط ، وقال : إنكم شعراء وخطباء وفرسان العرب ، فدوروا فى القبائل والرايات، وحَرِّضُوا الناس على القتال .

قال : ثم زحف الفريقان بعضهم إلى بعض ، وقد صُفّ العجم ثلاثة عشر صفا ، بعضها خلف بعض ، وصفّتِ العرب ثلاثة صفوف ، فرَشَقَتْهُم العجم بالنُّشَّاب حتى فَشَتْ فيهم(١) الجِرَاحات ؛ فلما رأى قَيْس بن هبيرة ذلك ، قال لخالد ابن عُرْفُطَة ، وكان أمير الأمراء : أيها الأمير ، إنا قد صِرْنا لهؤلاء القوم غرضا ، فاحْمِل عليهم بالناس حملة واحدة ، فتطاعِنُ الناس بالرِّماح مَلِيًّا ، ثم أفيضوا إلى السيوف .

وكان زيد بن عبد الله النَّخَعى صاحب الحملة الأولى ، فكان أول قتيل ، فأخذ الراية أخوه أَرْطاة ، فقُتِل ، ثم حملت بَجِيلة ، وعليها جرير بن عبدالله ، وحملت الأَزْد ، وثار القَتام ، واشتد القتال ، فانهزمت العجم حتى لحقوا برستم ، وتَرَجَّلَ رستم ، وتَرَجَّلَ معه الأساوِرَة والمرازِبة وعظماء الفرس ، وحملوا ؛ فجال المسلمون جولة . وكلّم أبو مِحْجَن أمَّ ولد سعد ، فقال : أطلقينى من قيدى ، ولك علىّ عهد الله إن لم أقتل أن أرجع إلى محبسى هـذا ، وقيدى. ففعلت ؛ وحملته على فرس لسعد أَبْلَق(٢)، فانتهى إلى القوم مما يلى الأَزْد، وبجيلة، مما يلى الميمنة، فجعل يحمل، ويكشف العجم ، وقد كانوا كثروا على بجيلة ، فجعل سعد يعجب ، ولا يدرى من هو ، ويعرف الفرَس .

وبعث سعد إلى جرير بن عبد الله ، وكان معه لواء بجيلة ، وإلى الأشعث بن قَيس ، ومعه لواء كِنْدَة، وإلى رؤساء القبائل : أن احملوا على القوم من ناحية الميمنة على القلب ، فحمل الناس عليهم من كل وجه ، وانتقضت تعبية الفرس ، وقُتِلَ رستم ، ووَلَّتِ العجم هاربة ؛ وانصرف إلى محبسه أبو مِحْجَن ، وطُلِبَ رستم فى المعركة ،

(١) فى الأصل : بهم . (٢) فى لونه سواد وبياض .

فأصيب بين القتلى ، وبه مائة جراحة ، ما بين طعنة وضربة ، ولم يُدْرَ من قتله ، ويقال : بل ارتطم فى نهر القادسيّة ، فغرق ؛ وانتهت هزيمة العجم إلى دير كعب ، فنزلوا هناك ، فاستقبلهم النُّخارجان ، وقد وجهه يزدجرد مددًا ، فوقف بدير كعب ، فكان لا يمر به أحد من الفلّ إلا حبسه قِبَله .

ثم عبى القوم ، وكتّبوا كتائبهم وأوقفوهم مواقفهم حتى وافقهم العرب ، وتواقف الفريقان، وبرز النَّخارجان ، فنادى ، مَرْدُ ومَرْد ، أى رجلٌ ورجل ، فخرج إليه زُهير بن سُليم أخو مِخْنَف بن سُلَيْم الأزدى ؛ وكان النُّخارجان سمينا بدينا جسيما ، وزهير رجلا مَربوعا(1) شديد العضدين والساعدين ، فرمى النُّخارجان نفسه عن دابته عليه ، فاعتركا ، فصرعه النُّخارجان ، وجلس على صدره ، واستل خنجره ليذبحه ، فوقعت إبهام النخارجان فى فم زهير ، فضغها ، واسترخى النخارجان. وانقلب عليه زهير ، وأخذ خنجره وأدخل يده تحت ثيابه ، فبعجه(2) ، وقتله .

وكان بِرذَون النخارجان مدرّبا ، فلم يبرح ، فركبه زهير وقد سلبه سواريه ودرعه وقباءه ومنطقته ، فأتى به سعدا ، فأغنمه إياه ، وأمره سعد أن يتزيّى بزّيه ، ودخل على سعد ، فكان زهير بن سليم أول من لبس من العرب السوارين ، وحمل قيس بن هبيرة على جَيْلُوس رأس الستمية ، فقتله ، وحمل المسلمون من كل جانب ، فانهزمت العجم ، وبادر جرير بن عبد الله إلى القنطرة ، فعطفوا عليه ، فاحتملوه برماحهم ، فسقط إلى الأرض ، ولحقه أصحابه ، وهربت عنه العجم ، ولم يُصبه شىء ، وعار فرسه(3) ، فلم يُلحق ، فأتى ببرذون من مراكب الفرس فى عنقه قلادة زُمرّد ، فركبه ، وذهبت العجم على وجوهها حتى لحقت بالمدائن .

وكتب سعد إلى عمر رضى الله عنه بالفتح . وكان عمر يخرج فى كل يوم ماشيا وحده ، لا يدع أحدا يخرج معه ، فيمشى على طريق العراق ميلين أو ثلاثة ،

---

(1) لا هو بالقصير ولا بالطويل .

(2) شق بطنه .   (3) عار الفرس = خرج من يد صاحبه ، وذهب .

فلا يطلع عليه راكب من جهة العراق إلا سأله عن الخبر ؛ فبينا هو كذلك يوما طلع عليه البشير بالفتح ، فلما رآه عمر رضى الله عنه ناداه من بعيد : ما الخبر ؟ ، قال : فتح الله على المسلمين ، وانهزمت العجم . وجعل الرسول يُخِبّ ناقته ، وعمر يعدو معه ، ويسأله ، ويستخبره ، والرسول لا يعرفه ، حتى دخل المدينة كذلك ، فاستقبل الناس عمر رضى الله عنه ، يسلمون عليه بالخلافة وإمرة المؤمنين ؛ فقال الرسول ، وقد تحيّر : سبحان الله يا أمير المؤمنين ! ألَا أعلمتنى ؟ فقال عمر : لا عليك . ثم أخذ الكتاب ، فقرأه على الناس .

وأقام سعد فى عسكره بالقادسية إلى أن أتاه كتاب عمر ، يأمره أن يضع لمن معه من العرب دار هجرة ، وأن يجعل ذلك بمكان لا يكون بين عمر وبينهم بَحْرٌ ؛ فسار إلى الأنبار[1] ليجعلها دار هجرة ، فكرهها لكثرة الذباب بها ، ثم ارتحل إلى كُوَيْفَة ابن عمر[2] ، فلم يعجبه موضعها ، فأقبل حتى نزل موضع الكوفة اليوم ، فخطّها خططا بين مَنْ كان معه ، وبنى لنفسه القصر والمسجد .

وبلغ عمر أنّ سعداً علّقَ باباً على مدخل القصر ، فأمر محمد بن مَسْلَمَة أن يسير إلى الكوفة ، فيدعو بنار ، فيحرق ذلك الباب ، وينصرف من ساعته ؛ وأقبل محمد ، فسار حتى دخل الكوفة ، وفعل ما أُمِرَ به ، وانصرف من ساعته ، وأُخْبِرَ سعد ، فلم يحر جوابا ، وعلم أنّ ذلك من أمر عمر ، فقال بِشْر بن أبى رَبيعة :

أَلَمَّ خَيَالٌ مِنْ أُمَيْمَةَ مَوْهِناً … وَقَدْ جَعَلَتْ إِحْدَى النُّجُومِ تَغُورُ
وَنَحْنُ بِصَحْرَاءِ الْعُذَيْبِ وَدُونَهَا … حِجَازِيَّةٌ إِنَّ الْمَحَلَّ شَطِيرُ
فَزَارَتْ غَرِيباً نَازِحاً ، جُلُّ مَالِهِ … جَوَادٌ ، وَمَفْتُوقُ الْغِرَارِ طَرِيرُ
وَحَلَّتْ بِبَابِ الْقَادِسِيَّةِ نَاقَتِى … وَسَعْدُ بْنُ وَقَّاصٍ عَلَىَّ أَمِيرُ
تَذَكَّرْ ، هَدَاكَ اللهُ ، وَقْعَ سُيُوفِنَا … بِبَابِ قُدَيْسٍ وَالْمَكَرُّ عَسِيرُ

(١) مدينة قديمة فى العراق على نهر الفرات فتحها خالد بن الوليد سنة ٦٣٤م ، وكانت مقرا للخلافة إلى أن تأسست مدينة بغداد .

(٢) تصغير الكوفة ، ومكانها قرب الكوفة المعروفة ، وكل رملة يخالطها حصى تسمى كوفة.

عَشِيَّةَ وَدَّ الْقَوْمُ لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ يُعَارُ جَنَاحَيْ طَائِرٍ فَيَطِيرُ
إِذَا بَرَزَتْ مِنْهُمْ إِلَيْنَا كَتِيبَةٌ أَتَوْنَا بِأُخْرَى كَالْجِبَالِ تَمُورُ
فَضَارَبْتُهُمْ حَتَّى تَفَرَّقَ جَمْعُهُمْ وَطَاعَنْتُ ، إِنِّي بِالطِّعَانِ بَصِيرُ
وَعَمْرُو أَبُو ثَوْرٍ شَهِيدٌ ، وَهَاشِمٌ وَقَيْسٌ ، وَنُعْمَانُ الْفَتَى ، وَجَرِيرُ

وقال عُروة بن الوَرد :

لَقَدْ عَلِمَتْ عَمْرُو وَنَبْهَانُ أَنَّنِي أَنَا الْفَارِسُ الْحَامِي إِذَا الْقَوْمُ أَدْبَرُوا
وَأَنِّي إِذَا كَرُّوا شَدَدْتُ أَمَامَهُمْ كَأَنِّي أَخُو قَصْبَاءَ جَهْمٌ غَضَنْفَرُ
صَبَرْتُ لِأَهْلِ الْقَادِسِيَّةِ مُعْلِماً وَمِثْلِي إِذَا لَمْ يَصْبِرِ الْقِرْنُ يَصْبِرُ
فَطَاعَنْتُهُمْ بِالرُّمْحِ حَتَّى تَبَدَّدُوا وَضَارَبْتُهُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى تَكَرْكَرُوا
بِذَلِكَ أَوْصَانِي أَبِي ، وَأَبُو أَبِي بِذَلِكَ أَوْصَاهُ ، فَلَسْتُ أُقَصِّرُ
حَمِدْتُ إِلَهِي إِذْ هَدَانِي لِدِينِهِ فَلِلَّهِ أَسْعَى مَا حَيِيتُ وَأَشْكُرُ

وقال قَيْس بن هُبيرة :

جَلَبْتُ الْخَيْلَ مِنْ صَنْعَاءَ تَرْدِي بِكُلِّ مُدَجَّجٍ كَاللَّيْثِ حَامِي
إِلَى وَادِي الْقُرَى فَدِيَارِ كَلْبٍ إِلَى الْيَرْمُوكِ وَالْبَلَدِ الشَّامِي
فَلَمَّا أَنْ زَوَيْنَا الرُّومَ عَنْهَا عَطَفْنَاهَا ضَوَامِرَ كَالْجِلَامِ
فَأُبْنَا الْقَادِسِيَّةَ بَعْدَ شَهْرٍ مُسَوَّمَةً دَوَابِرُهَا دَوَامِي(١)
فَنَاهَضْنَا هُنَالِكَ جُمُوعَ كِسْرَى وَأَبْنَاءَ الْمَرَازِبَةِ الْعِظَامِ
فَلَمَّا أَنْ رَأَيْتُ الْخَيْلَ جَالَتْ قَصَدْتُ لِمَوْقِفِ الْمَلِكِ الْهُمَامِ
فَأَضْرِبُ رَأْسَهُ فَهَوَى صَرِيعاً بِسَيْفٍ لَا أَفَلَّ وَلَا كَهَامِ
وَقَدْ أَبْلَى الْإِلَهُ هُنَاكَ خَيْراً وَفِعْلُ الْخَيْرِ عِنْدَ اللهِ نَامِي
تُفَلِّقُ هَامَهُمْ بِمُهَنَّدَاتٍ كَأَنَّ فَرَاشَهَا قَيْضُ النَّعَامِ(٢)

---

(١) في الأصل : دوابرها . (٢) القيض : قشر البيض .

قالوا : ولما انهزمت العجم من القادسيّة وقُتِل صَنادِيدهم مرُّوا على وجوههم حتى لحقوا بالمدائن ، وأقبل المسلمون حتى نزلوا على شط دجلة بإزاء المدائن ، فعسكروا هناك ، وأقاموا فيـــه ثمانية وعشرين شهرا ، حتى أكلوا الرُّطَب مرتين ، وضَحّوا أضْحِيتين ، فلما طال ذلك على أهل السواد صالحه عامة الدّهاقين بتلك الناحية .

ولما رأى يَزْدَجِرْد ذلك جمع إليه عظماء مَرازِبته ، فقسّم عليهم بيوت أمواله وخزائنه ، وكتب عليهم بها القَبَالات [1] ، وقال : إن ذهب ملكنا ، فأنتم أحق به ، وإن رجع رددتموه علينا ، ثم تحمّل في حُرَمه وحَشَمِه ، وخاصّة أهل بيته ، حتى أتى حُلوان [2] ، فنزلها ، وولّى خُرَّزاد بن هُرْمُز أخا رستم المقتول بالقادسيّة الحرب ، وخلفه بالمدائن .

وبلغ ذلك سعدا ، فتأهّب ، وأمر أصحابه أن يقتحموا دجلة ، وابتدأ ، فقال باسم الله ، ودفع فرسه فيها ، ودفع الناس ، فَسَلِمُوا عن آخرهم إلا رجلا غرق ، وكان على فرس شقراء [3] ، فخرجت الفرس تنفض عُرْفها ، وغرق راكبها ، وكان من طيء ، يسمى سُلَيْك بن عبد الله ؛ فقال سَلْمان ، وكان حاضرا يومئذ : يا معشر المسلمين ، إن الله ذلّلَ لكم البحر ، كما ذلّلَ لكم البَرّ ، أما والذى نفس سَلْمان بيده، ليُغَيِّرُنّ فيه، وليُبَدِّلُنّ .

قالوا : ولما نظرت الفرس إلى العرب قد أقحموا دوابهم الماء، وهم يعبرون ، تنادوا « ديوان آمدند ، ديوان آمدند » [4] ، فخرج خُرَّزاد في الخيل حتى وقف على الشريعة ، ونادى : يا معشر العرب ، البحر بحرنا ، فليس لكم أن تقتحموه علينا. وأقبلوا يرمون العرب بالنُّشّاب ، واقتحم منهم ناس كثير الماء ، فقاتلوا ساعة ،

---

(١) القبالات جمع قبالة بفتح القاف وهو أن يتقبل العامل بخراج أو جباية أكثر مما أعطى، وفي حديث ابن عباس : إياكم والقبالات فإنها صغار وفضلها ربا .

(٢) حلوان مدينة قديمة في العراق العجمي فتحها العرب سنة ٦٤٠ وأحرقها السلجوقيون سنة ١٠٤٦ . (٣) في الأصل أشقر . (٤) جملة فارسية معناها : جاء الشياطين .

وكاثرتهم العرب ، فخرجت الفرس من الشريدة ، وخرج المسلمون ، وقاتلوهم مليا ؛ وانهزمت العجم حتى دخلت المدائن ، فتحصّنوا فيها ، وأناخ المسلمون عليهم مما يلي دجلة ؛ فلما نظر خرّزاد إلى ذلك خرج من الباب الشرقي ليلا في جنوده نحو جَلُولاء ، وأخلَى المدائن ، فدخلها المسلمون ، فأصابوا فيها غنائم كثيرة ، ووقعوا على كافور[١] كثير ، فظنّوه مِلحا ، فجعلوه في خبزهم ، فأمَرّ عليهم .

وقال مِخْنف بن سُلَيم : لقد سمعت في ذلك اليوم رجلاً ينادي : من يأخذ صَحْفَةً حمراء بصحفةٍ بيضاء . لصحفة من ذهب لا يعلم ما هي .

وكتب سعد إلى عمر رضي الله عنه بالفتح ، وأقبل علج[٢] من أهل المدائن إلى سعد ، فقال : أنا أدلّكم على طريق ، تدركون فيه القوم قبل أن يمعنوا في السير . فقدمه سعد أمامه ، واتبعته الخيل ، فقطع بهم مخائض وصحارى .

[موقعة جلولاء]

ثم إن خرّزاد لما انتهى إلى جَلُولَاء أقام بها ، وكتب إلى يَزْدَجِرْد ، وهو بحلوان ، يسأله المدد ، فأمَدَّه ، فخندق على نفسه ، ووجهوا بالذراري والأثقال إلى خانقين[٤] ، ووجه سعد إليهم بخيل ، وولى عليها عمرو بن مالك بن نَجَبَة بن نَوْفَل بن وهب بن عبد مناف بن زُهْرة ؛ فسار حتى وَافَى جَلُولَاء ، والعجم مجتمعون قد خندقوا على أنفسهم . فنزل المسلمون قريبا من معسكرهم ، وجعلت الأمداد تقدم على العجم من الجبل ، وأصْبهان .

فلما رأى المسلمون ذلك قالوا لأميرهم عمرو بن مالك : « ما تنتظر بمناهضة القوم ،

---

(٥) الكافور : نبات له نور أبيض . (٦) العلج : الرجل من كفار العجم .

(٢) جلولاء : مدينة في العراق على طريق خراسان ، وعندها انتصر العرب على جيش ملك ساسان . (٣) خانقين : بلدة في العراق على الطريق بين بغداد وخراسان على نهر حلوان ثنائي وفيها اعتقل ومات النعمان الخامس ملك الحيرة على عهد كسرى الثاني ، وعندها حدثت وقعة بين الفرس والعرب .

وهم كل يوم فى زيادة؟ » . فكتب إلى سعد بن وقاص يعلمه ذلك ، ويستأذنه فى مناجزة القوم ، فأذن له سعد ، ووجّه إليه قيس بن هُبيرة مدداً فى ألف رجل ، أربعمائة فارس، وستمائة راجل.

وبلغ العجم أن العرب قد أتاهم المدد ، فتأهبوا للحرب ، وخرجوا ؛ ونهض إليهم عمرو بن مالك فى المسلمين ، وعلى مَيْمَنته حُجْر بن عَدِىّ ، وعلى مَيْسَرته زُهير ابن جُوَيَّة ، وعلى الخيـل عمرو بن مَعْدِى كَرِب ، وعلى الرجّالة طُلَيْحة ابن خُوَيْلد ؛ فتزاحف الفريقان ، وصبر بعضهم لبعض ، فتراموا بالسهام حتى أنفدوها ، وتطاعنوا بالرّماح حتى كسروها ، ثم أفضـوا إلى السيوف وعَمَد الحديد ؛ فاقتتلوا يومهم ذلك كله إلى الليل ؛ ولم يكن للمسلمين فيه صلاة إلا إيماء والتكبير ، حتى إذا اصفرّتِ الشمس أنزل الله على المسلمين نصره ، وهَزَمَ عدوّهم ، فقتلوهم إلى الليل ، وأغنَمَهم الله عسكرهم بما فيه .

فقال مَحْقَن بن ثَعْلَبة ، فدخلت فى معسكرهم إلى فُسْطاط ، فإذا أنا بجارية على سرير فى جوف الفُسْطاط ، كأن وجهها دارَة القمر ، فلما نظرت إلىّ فزعَت وبكت ، فأخذتها ، وأتيت الأمير عمرو بن مالك ، فاستوهَبْتُه إياها ، فوهبها لى ، فاتخذتها أم ولد .

وأصاب خارجـة بن الصَّلْت فى فُسْطاط من فساطيطهم ناقة من ذهب مُوَشَّحَة باللؤلؤ والدُّرّ الفارد[1] ، والياقوت ، عليها تمثال رجل من ذهب ، وكانت على كبر الظَّبْيَة ، فدفعها إلى المتولّى لقبض الغنائم .

قال : ومرّت الفُرْس على وجوهها، لا تلوى على شىء حتى انتهت إلى يَزْدَجِرْد، وهو بحلوان ، فَسُقِطَ فى يديه ، فتحمل بحرمه وحشمه وما كان معه من أمواله وخزائنه حتى نزل « قُمْ »[2] و « قاشَان » .

---

(١) منقطع النظير ، لا مثل له فى جودته .

(٢) مدينة بين أصفهان وساوة ، وتذكر دائما مع قشان ، وبينهما اثنا عشر فرسخاً، وكل أهلها حاليا شيعة إمامية ، ويقال إن آبار قم ليس فى الأرض مثلها عذوبة وبرداً .

وأصاب المسلمون يوم جَلُولاء غنيمة لم يغنموا مثلها قط ، وسبوا سَبْيا كثيرا من بنات أحرار فارس ؛ فذكروا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول : اللهم إنى أعوذ بك من أولاد سبايا الجلوليات . فأدرك أبناؤهن قتال صِفِّين ، تخلّف عمرو بن مالك بجَلُولاء جرير بن عبد الله البَجَلىّ فى أربعة آلاف فارس مَسْلَحة بها ، ليردوا العجم عن نفوذها إلى ما يلى العراق ، وسار ببقية المسلمين حتى وَافَى سعد بن أبى وَقّاص ، وهو مُقيم بالمدائن ، فارتحل سعد بالناس حتى ورد الكوفة ، وكتب إلى عمر رضى الله عنه بالفتح ، وأقام سعداً أميرا على الكوفة وجميع السواد ثلاث سنين ونصفا ، ثم عزله عمر ، وولّى مكانه عَمّار بن ياسِر على الحرب ، وعبد الله بن مسعود على القضاء ، وعمرو بن حُنَيْف على الخَرَاج .

قالوا : ولما انتهت هزيمة العجم إلى حُلوان ، وخرج يَزْدَجِرْد هاربا حتى نزل « قُم » و « قاشَان » ومعه عظماء أهل بيته وأشرافهم ، قال له رجل من خاصّته وأهل بيته ، يسمى هُرمُزان ، وكان خال شِيرُويه بن كسرى أبرويز : أيها الملك إن العرب قد اقتحمت عليك من هذه الناحية ، يعنى حُلوان ، ولهم جمع بناحية الأهواز ، ليس فى وجوههم أحد يردهم ، ولا يمنعهم من العيث والفساد ، يعنى خيل أبى موسى الأشعَرىّ ومن كان معه . قال يَزْدَجِرْد : فما الرأى؟ قال الهرمزان : الرأى أن توجّهنى إلى تلك الناحية ، فأجمع إلىّ العجم ، وأكون رِدْءاً فى ذلك الوجه ، وأجمع لك الأموال من فارس والأهواز ، وأحملها إليك ، لتتقوى بها على حرب أعدائك ؛ فأعجبه ذلك من قوله ، وعقد له على الأهواز وفارس ، ووَجّه معه جيشا كثيفا .

[يوم مدينة تُسْتَر]

فأقبل الهُرمزان حتى وافى مدينة تُسْتر[١]، فنزلها، ورمّ حصنها، وجمع المِيرة فيها لحصار، إن رَهِقَه[٢]، وأرسل فيما يليه يستنجدهم، فوافاه بشر عظيم، فكتب أبو موسى إلى عمر، يخبره الخبر، فكتب عمر رضى الله عنه إلى عمار بن ياسر، يأمره أن يوجه النعمان بن مُقَرّن فى ألف رجل من المسلمين إلى أبى موسى، فكتب عمار إلى جرير، وكان مقيما بجلولاء، يأمره باللحاق بأبى موسى، فخلّف جرير بجلولاء عروة ابن قيس البَجلى فى ألفى رجل من العرب، وسار ببقية الناس حتى لحق بأبى موسى، فكتب أبو موسى إلى عمر يستزيده من المدد، فكتب عمر إلى عمار يأمره أن يستخلف عبد الله بن مسعود على الكوفة فى نصف الناس، ويسير بالنصف الآخر حتى يلحق بأبى موسى، فسار عمار حتى ورد على أبى موسى، وقد وافاه جرير من ناحيـة جلولاء.

فلما توافت العساكر عند أبى موسى ارتحل بالناس، وسار حتى أناخ على تُستر، وتحصّن الهُرمزان منه فى المدينة، ثم تأهّب للحرب، وخرج إلى أبى موسى؛ وعبّى أبو موسى المسلمين، فجعل على ميمنته البَراء بن مالك أخا أنس بن مالك، وعلى ميسرته مَجزَأة بن ثَور البَـكرى، وعلى جميع الناس أنس بن مالك، وعلى الرَّجّالة سلَمة بن رَجاء.

وتزاحف الفريقان فاقتتلوا قتالا شديدا، حتى كثرت القتلى بين الفريقين، ثم أنزل الله نصره، فانهزمت الأعاجم حتى دخلوا مدينة تُستَر، فتحصنوا بها؛ وقتل البَراء بن مالك ومجزأة بن ثور، وقتل من الأعاجم فى المعركة ألف رجل، وأسر منهم ستمائة أسير، فقدمهم أبو موسى، فضرب أعناقهم.

---

(١) أعظم مدينة بخوزستان، معرب شوشتر، ومعناه التفضيل فى الطيب والنزهة، وهى مركز تجارى هام، وسكانها شيعيون من العرب والإيرانيين، وقد سميت بإدعم «دار المؤمنين» لشدة ورعهم. وإليها ينسب سهل التسترى من علماء الصوفية.   (٢) غشيه وأرهقه.

وأقام المسلمون على باب مدينة تُسْتَر أياما كثيرة ، وحاصروا العجم بها ، فخرج ذات ليلة رجل من أشراف أهل المدينة ، فأتى أبا موسى مُسْتَسِرًّا ، فقال « تؤمِّنني على نفسي وأهلي وولدي ومالي وضياعي حتى أعمل في أخذك المدينة عَنْوَة ؟ قال أبو موسى : إن فعلت فلك ذلك . قال الرجل ، وكان اسمه سِينَة : ابعث معي رجلا من أصحابك . فقال أبو موسى : من رجل يَشْرِي نفسه ، ويدخل مع هذا العجمي مدخلا لا آمن عليه فيه الهلاك ، ولعل الله أن يسلمه ، فإن يهلك فإلى الجنة ، وإن يسلم عمّت منفعته جميع الناس؟ .

فقام رجل من بني شيبان ، يقال له « الأشْرَس بن عوف » ، فقال : أنا . فقال أبو موسى « امض ، كلأك الله » . فمضى حتى خاض به دُجَيل [1] ، ثم أخرجه من سَرَب [2] حتى انتهى به إلى داره ، ثم أخرجه من داره ، وألقى عليه طَيْلسانا [3] ، وقال : امش ورائي كأنك من خدمي . ففعل ، فجعل سينة يمر به في أقطار المدينة طولا وعرضا ، حتى انتهى به إلى الأحراس الذين يحرسون أبواب المدينة ، ثم انطلق حتى مرّ به على الهُرمزان ، وهو على باب قصره ، ومعه ناس من مَرازِبته ، وشمّع أمامه ، حتى نظر الرجل إلى جميع ذلك ، ثم انصرف إلى داره ، وأخرجه من ذلك السرب ، حتى أتى به أبا موسى ، فأخبره الأشْرَس بجميع ما رأى ، وقال : وجّه معي مائتي رجل حتى أقصد بهم الحرس ، فأقتلهم ، وأفتح لك الباب ، ووَافِنا أنت بجميع الناس .

فقال أبو موسى : من يشترى نفسه لله ، فيمضى مع الأشرس؟ . فانتدب مائتا رجل ، فمضوا مع الأشْرَس وسِينَة حتى دخلوا من ذلك النَّقْب ، وخرجوا في دار سِينَة ، وتأهّبوا للحرب ، ثم خرجوا والأشْرَس أمامهم ، حتى انتهوا إلى باب المدينة ؛ وأقبل أبو موسى في جميع الناس حتى وافوا الباب من خارج ؛ وأقبل

---

(١) نهر صغير متشعب من دجلة .

(٢) السرب حفير تحت الأرض أو القناة الجوفاء التي يدخل منها الماء .

(٣) معرب من الفارسية ، وهو نوع من الأكسية أسود اللون .

الأشرس وأصحابه حتى أتوا الأحراس، فوضعوا فيهم السيف، وتداعى الناس، وأسندوا ظهورهم إلى حائط السور، وأبو موسى وأصحابه يُكبِّرُون لتشتدّ بذلك ظهورهم، وأفضى أصحاب الأشرس إلى الباب، فضربوا القُفْل حتى كسروه، وفتحوا الباب، ودخل أبو موسى والمسلمون، فوضعوا فيهم السيوف، وهرب الهُرْمُزان في عظماء مَرَازبته حتى دخلوا الحصن الذى فى جوف المدينة، وأخذ أبو موسى المدينة بما فيها وحاصروا الهُرْمُزان حتى فنى ما كان أعدّ فى الحِصْن من المِيرة، ثم سأل الأمان، فقال أبو موسى: أؤمنك على حكم أمير المؤمنين. فرضى بذلك، وخرج فيمن كان معه من أهل بيته ومرازبته إلى أبى موسى، فوجَّهَ به وبهم أبو موسى إلى عمر رضى الله عنه، ووجه معه ثلاثمائة رجل، وأمَّرَ عليهم أنس بن مالك، فساروا حتى انتهوا إلى ماء يُقال له « الشُّمَيْنة »[1]، فأقبل أهل الماء يمنعونهم من النزول خوفاً من أن يُفنوا ماءهم، فلما علموا أن أنسا صاحب القوم جاءوهم، فنزلوا، فقال رجل من أصحاب أنس لأنس: أخْبِرْ أمير المؤمنين بما صنع هؤلاء بنا، ليخرجوهم من هـذا الماء. قال الهرمزان: وإن أراد مريد أن يحوّلهم إلى مكان شرّ منه، هل كان يجده ؟.

ثم ساروا حتى وافوا المدينة، فأتوا دار عمر، وقد زيَّنُوا الهُرْمُزان بقبائه[2] ومِنْطَقته وسيفه وسَوَارِيه وتَوْأَمَتَيْه[3]، وكذلك من كان معه، لينظر عمر رضى الله عنه إلى زِىّ الملوك والمرازبة وهيئتهم، فكان من خبره ماهو مشهور.

وانصرف عمار بن ياسر فيمن كان معه من أصحابه إلى أوطانهم بالكوفة، وسار أبو موسى من تُسْتَر، حتى أتوا السوس[4]، فحاصرها، فسأله مزربانها أن يُؤمِّنَه فى ثمانين رجلا من أهل بيته وخاصّة أصحابه، فأجابه إلى ذلك؛ فخرج إليه، فعد ثمانين رجلا، ولم يعد نفسه فيهم فأمر أبو موسى به، فضربت عنقه، وأطلق الثمانين الذين عدهم، ثم دخل المدينة، فغنم ما فيها، ثم بعث مَنْجُوف بن ثور إلى

(١) ماء لبنى الهجيم، تصغير سمنة: أول منزل من النباج لقاصد البصرة
(٢) نوع من الثياب تجمع أطرافه. (٣) درتان للأذنين إحداها توأمة للأخرى.
(٤) بلدة بخوزستان.

مِهْرِجان قَذَق(١) ، فافتتحها ، ومعه السَّائب بن الأقْرَع ، فانتهى السائب إلى قصر الهرمزان صاحب تُستر ، وكان موطنه الصَّيْمَرة ، فدخل القصر ، وكان من المدينة على ميل، فنظر فى بعض البيوت إلى تمثال فى الحائط مَادٍّ إصبعه مُصَوِّبها إلى الأرض؛ فقال السائب « ما صُوِّبَت إصْبَعُ هذا التمثال إلى هذا المكان إلا لأمر ، احفروا هاهنا » فحفروا ، فأصابوا سفطا(٢) ، كان للهرمزان مملوءا جوهرا ، فاحتبس منه السائب فصّ خاتم، وسَرَّحَ بالباقى إلى أبى موسى ، وأعلمه أنه أخذ منه فَصًّا ، فسأله أن يهبه له ؛ ففعل أبو موسى ، ووجه بالسفط إلى عمر رضى الله عنه، فأرسل عمر إلى الهرمزان ، وقال : « هل تعرف هذا السفط ؟ » فقال : « نعم ، أفقد منه فصًّا » قال عمــر : « إن صاحب القَسم استوْهبه ، فوهبه له أبو موسى » ، فقال : « إن صاحبكم لبصير بالجوهر » .

ثم إن عمر ولى عثمان بن أبى العاص أرض البحرين ، فلما بلغه فتح الأهواز سار بمن كان معه حتى أوغل فى أرض فارس ، فنزل مكانا يسمى «تَوَّج»(٣) فصيره دار هجرة ، وبنى مسجدا جامعا ؛ فكان يحارب أهل أرْدَشير ، حتى غلب على طائفة من أرضهم ، وغلب على ناحية من بلاد سَابُور ، وبلاد إصْطَخْر ، وأرَّجان ، فمكث بذلك حَوْلًا ، ثم خلَّفَ أخاه الحَكَم بن أبى العاص على أصحابه ولحق بالمدينة .

وإنّ مرزبان فارس جَمَعَ جُموعاً عظيمة ، وزحف إلى الحَكَم ، فظفر به الحَكَم ، فقتله ، وكان اسمه « سُهْرَك » .

[وقعة نهاوند]

ثم كانت وقعة نَهَاوَنْد(٤) سنة إحدى وعشرين [٦٤١م] ؛ وذلك أن العجم لما قُتِلُوا بجَلُولاء ، وهرب يَزْدَجِرْد ، فصار بقُمّ ، ووَجَّهَ رسله فى البلدان يستجيش ، فغضب له أهل مملكته ، فتحلَّبَت(٥) إليه الأعاجم من أقطار البلاد ،

(١) كورة حسنة واسعة ، ذات مدن وقرى ، قرب الصيمرة من نواحى الجبال ، عن يمين القاصد من حلوان العراق إلى همذان .

(٢) السفط كالجوالق ، يعبى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء .

(٣) مدينة بفارس ، شديدة الحر ، قريبة من كازرون .

(٤) مدينة عظيمة من أقدم المدن فى الجبل ، وبها آثار حسنة للفرس ، وفى وسطها حصن عجيب البناء ، عالى السمك ، وبها قبور جماعة من الشهداء. (٥) جاءوا من كل أوب للنصرة .

فأتاه أهل قُومِس، وطَبَرِسْتَان، وجُرْجان، ودُنْباوَنْد، والرَّيّ، وأَصْبهان، وهَمَذَان، والماهَين، واجتمعت عنده جموع عظيمة، فولّى أمرهم مَرْدَان شاه بن هُرْمُز، ووَجّهم إلى نَهاوَنْد.

وكتب عَمّار بن يَاسِر إلى عمر بن الخطاب بذلك، فخرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وبيده الكتاب حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا معشر العرب، إنّ الله أيّدَكم بالإسلام، وألّفَ بينكم بعد الفُرْقَة، وأغناكم بعد الفاقَة، وأظفرَكم فى كل مَوْطِن لقيتم فيه عدوّكم، فلم تُفَلّوا، ولم تُغْلَبُوا، وإنّ الشيطان قد جمع جموعاً لِيُطْفِىء نور الله، وهذا كتاب عَمّار ابن يَاسِر، يَذْكُر أنّ أهل قُومِس وطَبَرِسْتان ودُنْباوَنْد وجُرْجان والرّيّ وأصْبهان وقُمّ وهَمَذان والماهين وماسَبَذان قد أجفلوا[1] إلى مَلِكهم، ليَسيروا إلى إخوانكم بالكوفة والبصرة حتى يطردوهم من أرضهم، ويغزوكم فى بلادكم، فأشِيرُوا علىّ».

فتكلم طَلْحَة بن عُبَيْد الله، فقال: «يا أمير المؤمنين، إنّ الأمور قد حَنّكَتْكَ، وإنّ الدهور قد جَرّبَتْكَ، وأنت الوالى، فمُرْنا نُطِع، واستَنْهِضْنا نَنهض». ثم تكلّم عثمان بن عفّان، فقال: «يا أمير المؤمنين، اكتب إلى أهل الشام، فيسيروا من شامهم؛ وإلى أهل اليمن، فيسيروا من يمنهم؛ وإلى أهل البصرة، فيسيروا من بصْرتهم؛ وسِرْ أنت بأهل هذا الحرم حتى توافى الكوفة، وقد وافاك المسلمون من أقطارِ أرضهم وآفاق بلادهم، فإنّكَ إذا فعلت ذلك كنت أكثرهم جمْعاً وأعَزّ نفرًا».

فقال المسلمون من كلّ ناحية «صَدَقَ عثمان»، فقال عمر لعلىّ رضى الله عنهما: «ما تقول أنت يا أبا الحسن؟»، فقال علىّ رضى الله عنه: «إنّكَ إن أشخصْتَ أهل الشام من شامهم سارت الرُّوم إلى ذَرَارِيّهم، وإن سَيّرْتَ أهل اليمن من يمنهم خلفت الحبشة على أرضهم، وإن شخصت أنت من هذا الحَرَم انتقضت عليك

---

(١) أسرعوا.

الأرض من أقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك من العيالات أهمّ إليك مما قدّامك ، وإنّ العجم إذا رأوك عيانا قالوا ، هـــذا مَلِك العرب كلها ، فكان أشدّ لقتالهم ؛ وإنّا لم نُقاتِل الناس على عهد نبيّنا صلى الله عليه وسلم ولا بعده بالكثرة ، بل اكتب إلى أهل الشام أن يُقيم منهم بشامهم الثلثان ، ويشخص الثلث ، وكذلك إلى عمّان ، وكذلك سائر الأمصار والكُوَر » .

فقال عمر : هو الرأى الذى كنتُ رأيته ، ولكنى أحببت أن تتَابعونى عليه، فكتب بذلك إلى الأمصار ، ثم قال : لأُوَلِّينّ الحرب رجلا يكون غدًا لِأَسِنّة القوم جَزْرا(١) . فولّى الأمر النعمان بن مُقَرّن المُزَنىّ ، وكان من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان على خَرَاج كَسْكر ، فدعا عمر السائب بن الأقرع ، فدفع إليه عهد النعمان بن مُقَرّن ، وقال له : إن قُتِل النعمانُ فَوَلِىُّ الأمر حُذَيْفَة بن اليَمان، وإن قتل حذيفة فَوَلِىُّ الأمرجرير بن عبد الله البَجَلىّ ، وإن قُتِل جرير فالأمير المُغيرة ابن شُعْبة ، وإن قُتِل المغيرة فالأمير الأشعث بن قَيس .

وكتب إلى النعمان بن مُقَرّن « إن قبلك رجلين هما فارسا العرب : عَمْرُو بن مَعْدى كَرِب ، وطُلَيْحَة بن خُوَيلِد فشاورهما فى الحرب ، ولا تُوَلِّهما شيئا من الأمر» ، ثم قال للسائب : إن أظفر الله المسلمين فَتَوَلّ أمر المَغْنَم، ولا ترفع إلىّ باطلا ، وإن يهلك ذلك الجيش فاذهب ، فلا أرينّك .

فسار السائب حتى ورد الكوفة ودفع إلى النعمان عهده ، ووافت الأمداد ، وخلف أبو موسى بالبصرة ثلثى الناس ، وسار بالثلث الآخر حتى وافى الكوفة ، فتجهّز الناس ، وساروا إلى نَهَاوَنْد ، فنزلوا بمكان يسمّى « الإسْفِيذَهَان »(٢) من مدينة نَهاوَنْد على ثلاثة فراسخ، قرب قرية يقال لها « قُدَيْسِجان » ، وأقبلت الأعاجم يقودها مَرْدَان شاه بن هُرْمُزْد ، حتى عسكروا قريبا من عسكر المسلمين ، وخندقوا على أنفسهم ، وأقام الفريقان بمكانهما ، فقال النعمان لعمرو وطلحة : « ما تريان ؟

---

(١) الجزر : القطع والاستئصال .

(٢) كذا فى الأصل ، والصواب « أسفيذبان » واحدة من قرى أصبهان .

فإن هؤلاء القوم قد أقاموا بمكانهم لا يخرجون منه ، وأمدادهم تترى عليهم كل يوم » فقال عمرو : « الرّأى أن تشيع أن أمير المؤمنين تُوفى ، ثم ترتحل بجميع من معك ، فإن القوم إذا بلغهم ذلك طلبونا فنقف لهم عند ذلك » ، ففعل النعمان ذلك ، وتباشرَت الأعاجم ، وخرجوا فى آثار المسلمين ، حتى إذا قاربوهم وقفوا لهم ، ثم تزاحفوا ، فاقتتلوا ، فلم يُسمع إلا وقع الحديد على الحديد ، وكَثُرت القتلَى من الفريقين ، وحالَ بينهما اللّيل ، فانصرف كل فريق إلى معسكرهم ؛ وباتَ المسلمون لهم أنين من الجراح ، ثم أصبحوا ، وذلك يوم الأربعاء ، فتزاحفوا ، واقتتلوا يومهم كله ، وصبَرَ الفريقان ، ثم كان ذلك دأبهم يوم الخميس ، وتزاحفوا يوم الجمعة ، وتواقفوا ، وركب النُّعمان بن مُقرّن بِرْذَونا أشهبَ ، ولبس ثيابًا بيضاء ، وسار بين الصفوف ، يُذمّر المسلمين ، ويحضّهم ، وجعل ينتظر الساعة التى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يُقاتِل فيها ، ويَستنزِلَ النصر ، وهى زوال النهار ، ومَهبّ الرّياح ، وسار فى الرّايات يقول لهم : « إنى هازٌّ لكم الرّاية ثلاثا ، فإن هززتها أوّلَ مرة فليَشُدَّ كل رجل منكم حزام فرسه ، وليَستقِمْ شِكّته ، فإذا هززتها الثانية فصوّبوا رماحكم ، وهزّوا سيوفكم ، فإذا هززتها الثالثة ، فكبّروا ، واحملوا ، فإنى حاملٌ » .

فلما زالت الشمس بأدْنَى صلّوا ركعتين ركعتين ، ووقف ، ونظر الناس إلى الرّاية ، فلما هزّها الثالثة كبّروا ، وحملوا ، فانتقضت صفوف الأعاجم ، وكان النُّعمان أوّل قتيل ، فحمله أخوه سُوَيد بن مُقرّن إلى فُسطاطه ، فخلع ثيابه ، فلبسها ، وتقلّدَ سيفه ، وركب فرسه ، فلم يَشُكَّ أكثر الناس أنه النعمان ، وثبتوا ، يُقاتلون عدوّهم ، ثم أنزل الله نصره ، وانهزمت الأعاجم ، فذهبت على وجوهها ، حتى صاروا إلى قرية من نهاوَند على فرسخين ، تسمّى « دَزيزيد » فنزلوها لأنّ حِصْنَ نهاوَند لم يسعهم ؛ وأقبل حُذَيفة بن اليمَان ، وقد كان تولّى الأمر بعد النعمان ، حتى أناخ عليهم ؛ فحاصرهم بها .

قال : وإنهم خرجوا ذات يوم مستعدِّين للحرب ، فقاتلهم المسلمون ، فانهزمت الأعاجم ، وانقطع عظيم من عظمائهم يسمَّى « دِينار » فحالَ المسلمون بينه وبين الدخول إلى الحِصْن ، واتّبعه رجل من عَبْس ، يسمّى « سِمَاك بن عُبَيد » فقَتَلَ قوماً كانوا معه ، واستسلم له الفارس ، فاستَأْسَرَهُ سِمَاك ، فقال لسماك : « انطلق بي إلى أميركم ، فإنى صاحب هذه الكورة ، لأصالحه على هذه الأرض ، وأفتح له باب الحِصْن » ، فانطلق به إلى حُذَيْفَة ، فصالحه حذيفة عليها ، وكتب له بذلك كتابا .

فأقبل دينار حتى وقف على باب حصن نَهَاوَنْد ، ونادى من فيه « افتحوا باب الحصن، وانزلوا ، فقد آمنكم الأمير ، وصالحنى على أرضكم ». فنزلوا إليه ، فبذلك سميت « ماه دينار » . وأقبل رجل من أشراف تلك البلاد إلى السائب بن الأقرع ، وكان على المغانم ، فقال له « أتصالحنى على ضياعى ، وتؤمننى على أموالى ، حتى أدلّك على كنز لا يُدْرى ماقدره ، فيكون خالصا لأميركم الأعظم ، لأنه شيء لم يؤخذ فى الغنيمة» .

وكان سبب هذا الكنز أن النُخارِجان الذى كان يوم القادِسيّة أقبل بالمدد ، فألفى العجم قد انهزموا ، فوقف ، فقاتل حتى قتل ، وكان من أعاظم الأعاجم ، وكان كريما على كسرى أبرويز ، وكانت له امرأة من [أكمل][1] النساء جمالاً ، وكانت تختلف إلى كسرى ، فبلغ النخارجان ذلك ، فرفضها ، فلم يقربها ، وبلغ ذلك كسرى ، فقال يوما للنخارجان وقد دخل عليه مع العظماء والأشراف: « بلغنى أن لك عينا عذبة الماء ، وأنك لا تشرب منها » . فقال النخارجان « أيها الملك ، بلغنى أن الأسد ينتاب تلك العين ، فاجتنبتها مخافة الأسد » فاستحلى كسرى جواب النخارجان ، وعجب من فطنته، فدخل دار نسائه ، وكانت له ثلاثة آلاف امرأة لفراشه، فجمعهن وأخذ ما كان عليهن من حُلِيّ ، فجمعه، ودفعه إلى امرأة النخارجان،

(١) فى الأصل أجل .

ودعا بالصاغة ، فاتخذوا للنخارجان تاجا من ذهب مكللا بالجوهر الثمين ، فتوجه به ، فبقى ذلك التاج وتلك الحلى عند ولد بنى المرأة ؛ فلما وقعت الحرب بناحيتهم ساروا به إلى قرية لأبيهم ، سميت باسمه ، يقال لها « الخوارجان » وفيها بيت نار ، فاقتلعوا الكانون[1] ودفنوا الحلىّ تحته ، وأعادوا الكانون كهيئته .

فقال له السائب : إن كنت صادقا فأنت آمن على أولادك وضياعك وأهلك وولدك ؛ فانطلق به حتى استخرجه فى سفطين : أحدهما التاج ، والآخر الحلى .

فلما قسم السائب الغنائم بين من حضر القتال ، وفرغ حمل السفطين فى خُرجين على ناقته ، وقدم بهما على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكان من أمرها الخبر المشهور ، اشتراها عمرو بن الحارث بعطاء المقاتلة والذرية جميعا ، ثم حملهما إلى الحيرة فباع بفضل كثير ، واعتقد بذلك أموالًا بالعراق ، وكان أوّل قرشىّ اعتقد بالعراق ، فقال عُرْوَة بن زيد الخيل يذكر أيامهم :

أَلَا طَرَقَتْ رَحْلِى وَقَدْ نَامَ صُحْبَتِى   بِإِيوَانِ سِيرِينَ الْمُزَخْرَفِ خُلَّتِى
وَلَوْ شَهِدَتْ يَوْمَىْ جَلُولَاء حَرْبَنَا   وَيَوْمَ نَهَاوَنْدَ الْهَوْلَ اسْتَهَلَّتِ
إِذًا لَرَأَتْ ضَرْبَ امْرِئٍ غَيْرِ خَامِلٍ   مُجِيدٍ بِطَعْنِ الرُّمْحِ أَرْوَعَ مِصْلَتِ
وَلَمَّا دَعَوْا يَا عُرْوَةَ بْنَ مُهَلْهِلٍ   ضَرَبْتُ جُمُوعَ الْفُرْسِ حَتَّى تَوَلَّتِ
دَفَعْتُ عَلَيْهِمْ رَحْلَتِى وَفَوَارِسِى   وَجَرَّدْتُ سَيْفِى فِيهِمُ ثُمَّ أَلَّتِى
وَكَمْ مِنْ عَدُوٍّ أَشْوَسٍ مُتَمَرِّدٍ   عَلَيْهِ بِخَيْلِى فِى الْهِيَاجِ أَظَلَّتِ
وَكَمْ كُرْبَةٍ فَرَّجْتُهَا وَكَرِيهَةٍ   شَدَدْتُ لَهَا أَزْرِى إِلَى أَنْ تَجَلَّتِ
وَقَدْ أَضْحَتِ الدُّنْيَا لَدَىَّ ذَمِيمَةً   وَسَلَّيْتُ عَنْهَا النَّفْسَ حَتَّى تَسَلَّتِ
وَأَصْبَحَ هَمِّى فِى الْجِهَادِ وَنِيَّتِى   فَلِلَّهِ نَفْسٌ أَدْبَرَتْ وَتَوَلَّتِ
فَلَا ثَرْوَةَ الدُّنْيَا نُرِيدُ اكْتِسَابَهَا   أَلَا إِنَّهَا عَنْ وَفْرِهَا قَدْ تَخَلَّتِ
وَمَاذَا أُرَجِّى مِنْ كُنُوزٍ جَمَعْتُهَا   وَهَذِى الْمَنَايَا شُرَّعًا قَدْ أَظَلَّتِ

---

(١) الكانون : الموقد .

[ولاية عثمان بن عفان]

وتوفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوم الجمعة لأربع ليالٍ بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر ، واسْتُخْلِفَ عثمان ابن عفّان ، فعزل عمّار بن ياسِر عن الكوفة ، وولّى الوليد بن عُقبة بن أبى مُعيْط ، وكان أخا عثمان لأمه ، أمهما أرْوَى بنت أمّ حكيم بن عبد المطلب بن هاشم ، وعَزَلَ أبا موسى الأشْعَرِىّ عن البصرة ، وولّاها عبد الله بن عامر بن كُرَيْز ، وكان ابن خال عثمان ، وكان حَدَث السِّنّ ؛ واستعمل عمرو بن العاص على حرب مصر ، واستعمل عبد الله بن أبى سَرْح على خراجها ، وكان أخاه من الرَّضاعة ، ثم عزل عمرو بن العاص ، وجمع الحرب والخراج لعبد الله بن أبى سرح .

[الفتوحات فى عهد عثمان]

ثم كانت غزوة سابُور من أرض فارس ، وافتتاحها . وأميرها عثمان بن أبى العاص ، ثم كان فتح إفريقيّة سنة تسع وعشرين ، وأميرها عبد الله بن أبى سرح ، ثم كان فتح قُبْرُس ، وأميرها معاوية بن أبى سفيان.

ثم إن أهل إصْطَخَر نزعوا يداً من الطاعة ، وقَدِمها يَزْدَجِرْد الملك فى جمع من الأعاجم ، فسار إليهم عثمان بن أبى العاص وعبد الله بن عامر ، فكان الظفر للمسلمين ، وهرب يَزْدَجِرْد نحو خراسان ، فأتى مَرْو . فأخذ عامله بها ، وكان اسمه « مَاهُوَيَة » بالأموال ، وقد كان مَاهُوَيَة صاهر خاقان ملك الأتراك ؛ فلما تَشَدّدَ عليه أرسل إلى خاقان يُعْلِمه ذلك ، فأقبل خاقان فى جنوده حتى عبر النهر مما يلى آمُوَيَة ، ثم ركب المفازة حتى أتى مَرْو ، ففتح له مَاهُوَيَة أبوابها ، وهرب يَزْدَجِرْد على رجليه وحده ، فمشى مقدار فرسخين حتى انتهى فى السَّحَر إلى رَحى فيها سراج يتّقد ، فدخلها ، وقال للطّحّان : « آونى عندك الليلة » قال الطّحّان : « اعطنى أربعة دراهم ، فإنى أريد أن أدفعها إلى صاحب الرَّحا[1] » ، فناوله سيفه

---

(١) الرحا : الحجر العظيم ، وتكتب بالياء والألف .

ومنطقته ، وقال : « هــذا لك » ، ففرش له الطحان كساءه ، فنام يَزْدَجِرْد لما ناله من شِدّة التعَب ، فلما استثقل نوماً قام إليه الطّحّان بمنقار الرَّحا ، فقتله ، وأخذ سَلَبه(١) ، وألقاه فى النهر .

ولما أصبح الناس تداعوا ، فأجلبوا على الأتراك من كلّ وجه ، فخرج خاقان مُنهزماً حتى أوْغَلَ فى المَفازة ، فطلبوا الملِك فلم يجدوه ، فخرجوا يقفون أثره حتى انتهوا إليه ، فوجدوه قتيلًا مطروحاً فى الماء ، وأصابوا بِزّته عند الطّحّان .

وذلك فى السنة السادسة من خلافة عثمان ، وهى سنة ثلاثين من التاريخ(٢) ، فعند ذلك انقضى مُلْك فارس ، وأرّخُوا عليه تاريخهم الذى يكتبون به اليـــوم . وهرب مَاهُويَه حتى نزل أبْرَشَهْر مَخافَةَ أن يقتله أهل مَرْو ، فمات بها .

وسار عبد الله بن خازم السلمىّ إلى سَرَخْس(٣) ، فافتتحها أيضاً ؛ وسار عبد الله ابن عامر إلى كَرْمان وسِجِسْتان ، فافتتحهما .

[بيعة على بن أبى طالب]

ثم قُتِلَ(٤) عثمان رضى الله عنه ، فلما قُتِلَ بقى الناس ثلاثة أيام بلا إمام ، وكان الذى يُصَلّى بالناس الغافِقىّ ، ثم بايَعَ الناس عَليّاً رضى الله عنه ، فقال : « أيهــا الناس ، بايعتمونى على مابُويِعَ عليه من كان قبلى ، وإنما الخيار قبل أن تقع البيعة ، فإذا وقعت فلاخيار ، وإنما على الإمام الاستقامة، وعلى الرَّعيّة التسليم ، وإن هذه بيعة عامة ، من رَدّها رغب عن دين الإسلام ، وإنها لم تــكن فلتة » .

ثم إن عَلِيّاً رضى الله عنه أظهر أنه يريد السير إلى العراق ، وكان على الشام يومئذ معاوية بن أبى سفيان ، وَلِيها لعمر بن الخطاب سنين ، ووليها جميعَ ولاية عثمان

---

(١) السلب : كل ما على الإنسان من اللباس .

(٢) سنة ثلاثين من التأريخ الهجرى أى ٦٥٠م

(٣) مدينة قديمة بين نيسابور ومرو ، فى وسط الطريق ، وهى مدينة معطشة ، ليس بها ماء .

(٤) وكان قتله فى ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ (٣١ مايو ٦٥٥م) .

رضى الله عنه اثنتى عشرة سنة ، فوافاه الناس على السير إلا ثلاثة نفر : سعد بن أبى وقّاص ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، ومحمد بن مَسْلمة الأنصارىّ .

وبعث على رضى الله عنه عُمّاله إلى الأمصار ، فاستعمل عثمان بن حُنَيْف على البصرة ، وعُمارَة بن حسّان على الكوفة، وكانت له هجرة ، واستعمل عبد الله ابن عباس على جميع أرض اليمن ، واستعمل قيْس بن سعد بن عُبادة على مصر ، واستعمل سَهل بن حُنَيف على الشام .

فأما سهل فإنه لما انتهى إلى تبُوكَ ، وهى تخوم أرض الشام استقبله خيل لمعاوية ، فردّوه ، فانصرف إلى على ، فعلم على رضى الله عنه عند ذلك أن معاوية قد خالف ، وأن أهل الشام بايعوه .

وحضر الموسمُ ، فاستأذن الزُّبَيْر وطَلْحَة عَلِيًّا فى الحج ، فأذن لهما ، وقد كانت عائشة أم المؤمنين خرجت قبل ذلك مُعْتَمِرَة ، وعثمان محصور ، وذلك قبل مقتله بعشرين يوما ، فلما قضت عُمْرَتَهَا أقامت ، فوافاها الزُّبَيْر وطَلْحَة .

وكتب علىّ بن أبى طالب إلى معاوية « أما بعد ، فقد بلغك الذى كان من مصاب عثمان رضى الله عنه ، واجتماع الناس علىّ ومبايعتهم لى ، فادخل فى السلم أو ائذن بحرب» . وبعث الكتاب مع الحجاج بن غَزِيّة الأنصارىّ ، فلما قدم على معاوية ، وأوصل كتاب علىّ إليه ، فقرأه ، فقال : « انصرف إلى صاحبك ، فإن كتابى مع رسولى على إثرك » ، فانصرف الحجاج ، وأمر معاوية بطُومارين(١) ، فوصل أحدهما بالآخر ، ولُفّا ، ولم يكتب فيهما شيئا إلا بسم الله الرحمن الرحيم ؛ وكتب على العنوان « من معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب» .

ثم بعث به مع رجل من عَبْس ، له لسان وجَسارة ، فقدم العبسىّ على علىّ ، فناوله الكتاب ، ففتحه ، فلم ير فيه شيئا ، إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، وعند علىّ وجوه الناس .

---

(١) الطامور والطومار : الصحيفة .

فقام العبسيّ ، فقال : « أيها الناس ، هل فيكم أحـد من عَبْس ؟ » قالوا : نعم . قال : فاسمعوا مني ، وافهموا عني ، إني قد خلّفت بالشام خمسين ألف شيخ خاضبي لحاهم بدموع أعينهم تحت قميص عثمان ، رافعيه على أطراف الرّماح ، قد عاهدوا الله ألا يَشِيمُوا[1] سيوفهم حتى يقتلوا قتلته ، أو تلحق أرواحهم بالله » .

فقام إليه خالد بن زُفر العبسي ، فقال : بئس لعمر الله وافدُ الشام أنت ، أتُخَوِّف المهاجرين والأنصار بجنود أهل الشام وبكائهم على قميص عثمان ، فوالله ما هو بقميص يوسف ولا بحزن يعقوب ، ولئن بكوا عليه بالشام ، فقد خَذَلوهُ بالعراق» .

ثم إن المغيرة بن شُعبة دخل على عليّ رضي الله عنه ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن لك حَقّ الصُّحْبَة ، فأقِرّ معاوية على ما هو عليه من إمرة الشام ، وكذلك جميع عُمّال عثمان ، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعتهم استبدلت حينئذ أو تركت » ، فقال عليّ رضي الله : « أنا ناظر في ذلك » .

وخرج عنه المغيرة ثم عاد إليه من غَدٍ ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إني أشرت أمس عليك برأي ، فلما تَدَبّرته عرفت خطاءه ، والرأي أن تُعاجِلَ معاوية وسائر عُمّال عثمان بالعَزْل ، لتعرف السامع المطيع من العاصي ، فتكافئْ كُلًّا بجزائه » ثم قام ، فتلقاه ابن عباس داخلا ، فقال لعليّ رضي الله عنه : « فيم أتاك المغيرة ؟ » فأخبره عليّ بما كان من مَشُورته بالأمس ، وما أشار عليه بعدُ ؛ فقال ابن عباس : « أمّا أمس فإنه نَصَحَ لك ؛ وأمّا اليوم فَغَشّك » .

وبلغ المغيرة ذلك ، فقال : « صَدَقَ ابن عباس ، نَصَحْتُ له ، فلما رَدّ نُصْحي بَدّلْتُ قَوْلي » ، ولما خاض الناس في ذلك سار المغيرة إلى مكة ، فأقام بها ثلاثة أشهر ، ثم انصرف إلى المدينة .

ثم إنّ عَلِيًّا رضي الله عنه نادَى في الناس بالتأهُّب للسير إلى العراق ، فدخل عليه سعد بن أبي وقّاص ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، ومحمد بن مَسْلَمَة ،

---

(١) شام السيف شيما : سله أو أغمده وهو من الأضداد .

فقال لهم : « قد بلغنى عنكم هَنَاة كرهتها لكم » ، فقال سعد : « قد كان ما بلغك ، فأعطنى سيفاً يعرف المسلم من الكافر حتى أُقاتل به معك » .

وقال عبد الله بن عمر : « أنشدك الله أن تحملنى على ما لا أعرف » .

وقال محمد بن مَسْلَمَة : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن أقاتِلَ بسيفى ما قُوتِلَ به المشركون ، فإذا قُوتِلَ أهل الصلاة ضربت به صخر أُحُد حتى ينكسر ، وقد كسرته بالأمس » . ثم خرجوا من عنده .

ثم إن أسامة بن زَيْد دخل ، فقال : « أعفنى من الخروج معك فى هذا الوجه ، فإنى عاهدت الله ألّا أقاتِلَ مَنْ يشهد أن لا إله إلا الله » .

وبلغ ذلك الأشتَر ، فدخل على علىّ ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنا وإن لم نكن من المهاجرين والأنصار ، فإنا من التابعين بإحسان ، وإن القوم وإن كانوا أولى بما سبقونا إليه فليسوا بأولى مما شركناهم فيه ، وهذه بيعة عامة ، الخارج منها طاعِنٌ مُسْتَعْتِب ، فَحُضَّ هؤلاء الذين يريدون التخلُّف عنك باللسان ، فإن أبوا فأدِّبهم بالحبس » فقال علىّ : « بل أَدَعهم ورأيهم الذى هم عليه » .

ولما هَمّ على رضى الله عنه بالمسير إلى العراق ، اجتمع أشراف الأنصار ، فأقبلوا حتى دخلوا على علىّ ، فتكلم عُقْبة بن عامر ، وكان بَدْرِيًّا[1] فقال : « يا أمير المؤمنين إن الذى يفوتك من الصلاة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسعى بين قبره ومنبره أعظم مما ترجو من العراق ، فإن كنت إنما تسير لحرب الشام ، فقد أقام عمر فينا ، وكفاه سعدٌ زحف القادِسِيّة ، وأبو موسى زحفَ الأهواز ، وليس من هؤلاء رجل إلا ومثله معك ، والرجال أشباه ، والأيام دُوَل » ، فقال علىّ « إن الأموال والرجال بالعراق ، ولأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريبا منها » . ونادى فى الناس بالسير ، فخرج وخرج معه الناس .

---

(١) ممن شهدوا غزوة بدر .

[وقعة الجمل][1]

قالوا : ولما قضى الزُّبَيْر وطلحة وعائشة حجّهم تآمروا فى مقتل عثمان ، فقال الزُّبَيْر وطلحة لعائشة : « إن أطعتنا طلبنا بدم عثمان » . قالت : « وممن تطلبون دمه ؟ » ، قالا : « إنهم قوم معروفون ، وإنهم بِطانة علىّ ورؤساء أصحابه ، فاخرجى معنا حتى تأتى البصرة فيمن تبعنا من أهل الحجاز ، وإن أهل البصرة لو قد رَأَوْكِ لكانوا جميعاً يَدًا واحدة مَعَكِ » . فأجابتهم إلى الخروج ، فسارت والناس حولها يمينا وشمالا .

ولما فَصَلَ علىّ من المدينة نحو الكوفة بلغه خبر الزُّبَيْر وطَلْحَة وعائشة ، فقال لأصحابه : « إنّ هؤلاء القوم قد خرجوا يؤمّون البصرة ، لما دَبَّرُوه بينهم ، فسيروا بنا على أثرهم ، لعلّنا نلحقهم قبل مُوافاتهم ، فإنهم لو قد وَافَوْها لَمَالَ معهم جميع أهلها » ، قالوا : « سِرْ بنا يا أمير المؤمنين » . فسار حتى وَافَى ذا قار[2] ، فأتاه الخبر بموافاة القوم البصرة ، ومُبايَعة أهل البصرة لهم إلا بنى سعد ، فإنهم لم يدخلوا فيما دخل فيه الناس ؛ وقالوا لأهل البصرة : « لا نكون معكم ولا عليكم » ؛ وقعد عنهم أيضا كعب بن سُور فى أهل بيته ، حتى أتَتْهُ عائشة فى منزله ، فأجابها ، وقال : « أكره ألا أجيب أمى » ، وكان كعب على قضاء البصرة .

ولما انتهى الخبر إلى علىّ وجّه هاشم بن عُتبة بن أبى وقّاص ليستنهض أهل الكوفة ، ثم أردفه بابنه الحسن وبعمّار بن ياسر ، فساروا حتى دخلوا الكوفة ، وأبو موسى يومئذ بالكوفة ، وهو جالس فى المسجد ، والناس مُحتوِشوه[3]

---

(١) وقعت فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦ (نوفبر ٦٥٦م) .

(٢) مكان قريب من البصرة ، اشتهر بيوم لبنى شيبان فيه ، وكان أبرويز أغزاهم جيشا فظفرت بنو شيبان ، وهو أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم .

(٣) احتوش القوم فلانا واحتوشوا عليه جعلوه وسطهم .

وهو يقول : « يا أهل الكوفة ، أطيعونى تكونوا جُرثومة[1] من جراثيم العرب ، يأوى إليكم المظلوم ، ويأمن فيكم الخائف ؛ أيها الناس ، إن الفتنة إذا أقبلت شبّهت ، وإذا أدبرت تبيّنت ، وإن هذه الفتنة الباقِرة[2] لا يُدْرى من أين تأتى ، ولا من أين تُؤْتَى ، شِيموا سيوفكم ، وانزعوا أسِنّة رماحكم ، واقطعوا أوتار قِسيّكم ، والزموا قعور البيوت ، أيها الناس ، إن النائم فى الفتنة خير من القائم ، والقائم خير من الساعى » .

فانتهى الحسن بن علىّ وعمّار رضى الله عنهما إلى المسجد الأعظم وقد اجتمع عالَم من الناس على أبى موسى ، وهو يقول لهم هذا وأشباهه ، فقال له الحسن : « اخرج عن مسجدنا ، وامض حيث شئت » . ثم صعد الحسن المنبر ، وعمّار صعد معه ، فاستنفرا الناس ؛ فقام حُجْر بن عَدِىّ الكندىّ ، وكان من أفاضل أهل الكوفة فقال : « انفِرُوا خِفَافًا وثقَالًا ، رحمكم الله » فأجابه الناس من كل وجه : سمعًا وطاعة لأمير المؤمنين ، نحن خارجون على اليُسر والعُسر والشدّة والرّخاء .

فلما أصبحوا من الغد خرجوا مستعدّين ، فأحصاهم الحسن ، فكانوا تسعة آلاف وستمائة وخمسين رجلا ، فوافوا عليًا بذى قار قبل أن يرتحل . فلما همّ بالسير غَلَسَ الصُّبح ؛ ثم أمر مناديا ، فنادى فى الناس بالرحيل ، فدنا منه الحسن ، فقال : « يا أبَتِ أشرتُ عليك حين قُتل عثمان وراح الناس إليك وغدوا ، وسألوك أن تقوم بهذا الأمر ألا تقبله حتى تأتيك طاعة جميع الناس فى الآفاق ، وأشَرْتُ عليك حين بلغك خروج الزبير وطلحة بعائشة إلى البصرة أن ترجع إلى المدينة ، فتُقيم فى بيتك ، وأشَرْتُ عليك حين حُوصِرَ عثمان أن تخرج من المدينة ، فإنْ قُتِل قُتِل وأنت غائب ، فلم تقبَل رأيى فى شىء من ذلك » .

---

(١) جرثومة كل شىء أصله ومجتمعه . (٢) يعنى أنها مفسدة للدين ومفرقة بين الناس ومشتتة أمورهم .

فقال له عليّ : « أمّا انتظاري طاعة جميع الناس من جميع الآفاق ، فإنّ البيعة لا تكون إلّا لمن حضر الحرمَيْن من المهاجرين والأنصار ، فإذا رضُوا وسلّموا وجب على جميع الناس الرّضا والتّسليم ؛ وأمّا رجوعي إلى بيتي والجلوس فيه ، فإنّ رجوعي لو رجعت كان غَدْرًا بالأُمّة ، ولم آمن أن تقع الفُرْقة، وتتصدّع عصا هذه الأمّة ؛ وأمّا خروجي حين حُوصِرَ عثمان فكيف أمكنني ذلك ؟! وقد كان الناس أحاطوا بي كما أحاطوا بعثمان ، فاكْفُفْ يا بُنيّ عما أنا أعلم به منك » .

ثم سار بالناس ، فلما دنا من البصرة كتّبَ الكتائب ، وعقد الألوية والرّايات ، وجعلها سبع رايات ، عقد لحِمْيَر وهَمْدان راية ، وولّى عليهم سعيد بن قيس الهَمْداني ؛ وعقد لمَذحِج والأشعريّين راية ، وولّى عليهم زياد ابن النّضْر الحارثيّ ؛ ثم عقد لطيّء راية ، وولّى عليهم عَديّ بن حاتم ؛ وعقد لقَيْس وعَبْس وذُبيان راية ، وولّى عليهم سعد بن مسعود الثقفيّ عمّ المختار بن أبي عُبَيد ؛ وعقد لكِندة وحَضرموت وقُضاعة ومَهْرة راية ، وولّى عليهم حُجْر ابن عَديّ الكنديّ ؛ وعقد للأزد وبَجيلة وخَثْعَم وخُزاعة راية ، وولّى عليهم مِخْنَف بن سُلَيْم الأزديّ ؛ وعقد لبكر وتغلب وأفناء ربيعة راية ، وولّى عليهم مَحْدُوج الذُّهْليّ ؛ وعقد لسائر قريش والأنصار وغيرهم من أهل الحجاز راية ، وولّى عليهم عبد الله بن عباس ، فشهد هؤلاء الجمل وصِفّين والنَّهْر ، وهم أسباع كذلك ، وكان على الرّجّالة جُنْدب بن زُهَيْر الأزديّ .

ولما بلغ طلحة والزبير ورود عليّ رضي الله عنه بالجيوش ، وقد أقبل حتى نزل « الخُرَيْبَة »(١) فعبّأهم طلحة والزبير ، وكتّباهم كتائب ، وعقدا الألوية ، فجعلا على الخيل محمد بن طلحة ، وعلى الرّجّالة عبد الله بن الزبير ، ودفعا اللواء الأعظم إلى عبد الله بن حَرام بن خُوَيْلد ، ودفعا لواء الأزد إلى كعب بن سُور ، وولّياه الميمنة ، وولّيا قريشاً وكِنانة عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد ، وولّيا أمر

(١) محلة من محال البصرة ينسب إليها كثيرون ، وقد كانت مدينة للفرس خربت لتواتر الغارات عليها ، ولما مصرت البصرة ابتنيت إلى جانبها .

الميسرة عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وهو الذى قالت عائشة فيه : « وَدِدْتُ لو قعدت فى بيتى ولم أخرج فى هذا الوجه لكان ذلك أحَبّ إلىّ من عشرة أولاد ، لو رُزِقْتُهُنّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم على فضل عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام وعقله وزُهده » . وولّيا على قَيْس مُجاشِعَ بن مسعود ، وعلى تَيْم الرّباب عمرو بن يَثْرِبى ، وعلى قَيْس والأنصار وثقيف عبد الله بن عامر بن كُرَيْز ، وعلى خُزاعة عبد الله بن خَلَف الخُزاعىّ ، وعلى قُضاعَة عبد الرحمن بن جابر الرّاسِبىّ ، وعلى مَذْحِج الربيع بن زِياد الحارثىّ ، وعلى ربيعة عبد الله بن مالك .

قالوا : وأقام علىّ رضى الله عنه ثلاثة أيام يبعث رسله إلى أهل البصرة ، فيدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة والدخول فى الجماعة ، فلم يجد عند القوم إجابة ، فزحف نحوهم يوم الخميس لعَشْرٍ مضين من جمادى الآخرة ، وعلى ميمنته الأشتَر ، وعلى ميسرته عَمّار بن يَاسِر ، والراية العُظمى فى يد ابنه محمد بن الحَنَفِيّة ، ثم سار نحو القوم حتى دَنا بصفوفه من صفوفهم ، فواقفهم من صلاة الغَداة إلى صلاة الظهر ، يدعوهم ويُناشِدهم ، وأهل البصرة وُقوفٌ تحت رايتهم ، وعائشة فى هَوْدَجِها أمام القوم .

قالوا : وإنّ الزبير لما علم أنّ عمّارًا مع علىّ رضى الله عنه ارتاب بما كان فيه ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحقّ مع عمّار ، وتقتُلك الفِئَة الباغِيَة » .

قالوا : ثم إنّ عَلِيًّا دَنا من صفوف أهل البصرة ، وأرسل إلى الزبير يسأله لِيَدْنُوَ ، فيكلّمه بما يريد ؛ وأقبل الزبير حتى دَنا من علىّ رضى الله عنه ، فوقفا جميعاً بين الصفّين حتى اختلفت أعناق فرسيهما ، فقال له علىّ : « نَاشَدْتُكَ الله يا أبا عبد الله ، هل تَذْكُرُ يوما مررنا أنا وأنت برسول الله صلى الله عليه وسلم ويدى فى يدك ، فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتحبّه ؟ ، قلت : نعم ، يا رسول الله ، فقال لك : أما إنك تُقاتله ، وأنتَ له ظالِمٌ ...؟ » ، فقال الزبير : « نعم ، أنا ذاكِرٌ له » .

ثم انصرف علىّ إلى قومه ، وقال لأصحابه : « احملوا على القوم ، فقد أعذرْنا إليهم» ، فحَمَل بعضهم على بعض ، فاقتتلوا بالقَنا والسيوف . وأقبل الزبير حتى دَنا من ابنه عبد الله وبيده الرّاية العُظمى ، فقال : « يا بُنىّ ، أنا منصرف » ، قال : « وكيف يا أبتِ ؟ » ، قال : « مالى فى هــذا الأمر من بَصيرَة ، وقد أذْكَرَنى علىّ أمراً ، قد كنت غَفَلْت عنه ، فانصرف يا بُنىّ معى » ، فقال عبد الله : « والله لا أرجع أوْ يَحْكُمَ الله بيننا » . فتركه الزبير ، ومضى نحو البصرة لِيَتَحَمّلَ منها ، ويمضى نحو الحجاز . ويُقال : إنّ طلحة لما علم بانصراف الزبير هَمّ أن ينصرف ، فعلم مَرْوَان بن الحكم ما يريده ، فرماه بسهم ، فوقع فى رُكْبَته ، فَنَزَفَ حتى مات .

وأقبل الزبير حتى دخل البصرة ، وأمر غلمانه أن يَتَحَمّلُوا ، فيلحقوا به ، وخرج من ناحية الخُرَيْبَة ، فمرّ بالأحْنَف بن قَيْس ، وهو جالسٌ بفناء داره ، وحَوْلَه قومه ، وقد كانوا اعْتَزَلُوا الحرب ، فقال الأحنف : « هذا الزبير ، ولقد انصرف لأمرٍ ، فهل فيكم مَنْ يأتينا بخَبَرِه؟ »، فقال له عَمْرُو بن جُرْموز : « أنا آتيك بخَبَرِه » . فركب فرسه ، وتقلّد سيفه ، ومضى فى أثره ، وذلك قبل صلاة الظهر ، فلحقه ، وقد خرج من دور البصرة ، فقال له : « أبا عبد الله ، ما الذى تَرَكْتَ عليه القوم ؟ » ، قال الزبير : « تركتهم ، وبعضهم يضرب وُجوه بعض بالسيف » ، قال : « فأين تريد ؟ » ، قال : « أنصرف لحال بالى ، فما لى فى هذا الأمر من بَصيرَة » . قال عَمْرُو بن جُرْموز : « وأنا أيضاً أريد الخُرَيْبَة ، فَسِرْ بنا » . فساروا حتى دَنا وقت الصلاة ، فقال الزبير : « إنّ هذا وقت الصلاة ، وأنا أريد أن أقضِيَها » ، قال عمرو : « وأنا أريد أن أقضيها » ، قال الزبير : « أنت منى فى أمان ، فهل أنا منك كذلك » ، قال : « نعم » . فنزلا جميعاً ، وقام الزبير فى الصلاة ، فلما سَجَدَ حمل عليه عمرو بالسيف ، فضربه حتى قتله ، وأخذ دِرْعَه وسيفه وفرسه ، وأقبل حتى أتى عَلِيّاً ، وهو واقفٌ ، والناس

يَجْتَلِدُونَ بالسيوف ، فألقى السلاح بين يديه ، فلما نظر علىّ رضى الله عنه إلى السيف ، قال : « إنّ هـذا السيف طَالَما فَرّجَ به صاحبه الـكَرْبَ عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أَبْشِرْ يا قاتل ابن صَفِيّة بالنار » ، فقال عمرو : « نَقْتُل أعداءكم ، وتُبَشّرُونَنَا بالنار ؟! » .

قالوا : ثم إن عَلِيًّا أمر ابنه محمد بن الحَنَفِيّة ، فقال : تقدم برايتك . وكان معه الراية العظمى ، فتقدم بها وقد لَاثَ [١] أهل البصرة بعبد الله بن الزبير ، وقلّدُوه الأمر ، فتقدم محمد بالراية ، فاستقبله أهل البصرة بالقنا والسيوف ، فوقف بالراية ، فتناولها منه علىّ رضى الله عنه ، وحمل وحمل معه الناس ، ثم ناولها ابنه محمدا ، واشتد القتال وحميت الحرب ، وانكشف الناس عن الجمل ، وقُتِلَ كعب بن سُور ، وثبتت الأَزْد وضبّة ، فقاتلوا قتالا شديدا .

فلما رأى علىّ شدة صبر أهل البصرة جمع إليه حماة أصحابه ، فقال : إن هؤلاء القوم قد مَحِكوا [٢] ، فاصْدُقُوهم القتال ، فخرج الأشتر وعَدِىّ بن حاتم وعمرو بن الحَمِق وعمّار بن ياسر فى عددهم من أصحابهم ، فقال عمرو بن يَثْربِىّ لقومه ، وكانوا فى ميمنة أهل البصرة « إن هؤلاء القوم الذين قد برزوا إليكم من أهـــل العراق هم قتلة عثمان ، فعليكم بهم » ، وتقدم أمام قومه بنى ضَبّة ، فقاتل قتالا شديدا ، وكثرت النبل فى الهَوْدَج ، حتى صار كالقُنْفُذ ؛ وكان الجمل مجفّفا [٣] ، والهَوْدَج مُطبّق بصفائح الحديد .

وصبر الفريقان بعضهم لبعض حتى كثرت القتلى وثار القتام ، وظلّت الألوية والرايات ، وحمل علىّ بنفسه ، وقاتل حتى انثنى سيفه ، وخرج فارس أهل البصرة عمرو بن الأشرف ، لا يخرج إليـــه أحد من أصحاب علىّ إلا قتله ، وهو يرتجز ، ويقول :

---

(١) اجتمعوا به ، ولاث به يلوث كلاذ . (٢) المحك : التمادى فى الغضب .
(٣) أى عليه تجفاف ، وهو ما يوضع على الخيل والإبل من حديد أو غيره فى الحرب .

يا أُمَّنا يا خَيْرَ أُمٍّ نَعْلَمُ والأمُّ تَغْذُو وُلْدَها وَتَرْحَمُ
ألا تَرَيْنَ كَمْ جَوَادٍ يُكْلَمُ وتُخْتَلى هامَتُهُ والمِعْصَمُ

فخرج إليه من أهل الكوفة الحارث بن زُهَيْر الأزدِيّ ، وكان من فرسان عليّ ، فاختلفا ضربتين ، فأوْهَطَ(١) كلٌّ منهما صاحبه ، فَخَرّا جميعاً صَرِيعَيْنِ ، يَفْحَصَانِ(٢) بأرجلهما حتى ماتا .

قالوا : وانكشف أهل البصرة انكشافة ، وانتهى الأشتر إلى الجمل ، وعبد الله بن الزبير آخِذٌ بخِطامِه ، فرمى الأشتر بنفسه على عبد الله بن الزبير ، فصار تحته ، فصاح عبد الله بن الزبير : « اقتلونى ومالكا » ، فثاب إلى ابن الزبير أصحابه .

فلما خاف الأشتر على نفسه قام عن عبد الله بن الزبير ، وقاتَلَ حتى خَلَصَ إلى أصحابه ، وقد عار فرسه ، فقال لهم : « ما أنجانى إلّا قول ابن الزبير : اقتلونى ومالكا ؛ فلم يَدْرِ القوم مَنْ مالك ، ولو قال اقتلونى والأشتر لقتلونى » .

وقاتَلَ عَدِيّ بن حاتم حتى فُقِئَتْ إحدى عينيه ، وقاتَلَ عمرو بن الحَمِق ، وكان من عُبّاد أهل الكوفة ، ومعه النُسّاك قتالاً شديداً ، فضَرَبَ بسيفه حتى انثنى ، ثم انصرف إلى أخيه رباح ، فقال له رباح : « يا أخى ، ما أحسن ما نصنع اليوم ، إنْ كانت الغَلَبَة لنا » .

قالوا : ولمّا رأى عليّ لوْثَ أهل البصرة بالجمل ، وأنهم كلّما كشفوا عنه عادوا ، فَلاثُوا به ، قال لعمّار وسعيد بن قَيْس وقَيْس بن سعد بن عُبَادَة والأشتر وابن بُدَيْل ومحمد بن أبي بكر وأشباههم من حماة أصحابه : « إنّ هؤلاء لا يزالون يُقاتلون ما دام هذا الجمل نَصْبَ أعْيُنهم ، ولو قد عُقِرَ فَسَقَطَ لم تثْبُتْ له ثابِتَة » ، فقَصَدوا بذوى الجِدّ من أصحابه قَصْدَ الجمل حتى كشفوا أهل البصرة عنه ، وأفضى

---

(١) الإيهاط : الإثخان ضربا ، أو الرمى المهلك .
(٢) يتمرغان فى التراب كما تفحص الدجاجة لتتخذ لها أفحوصة تبيض فيها .

إليه رجل من مُرَاد الكوفة ، يُقال له « أعْيَن بن ضُبَيْعَة » ، فكشف عُرْقُوبَه بالسيف ، فسقط وله رُغَاء ، فغرق فى القَتْلَى ، ومَالَ الهَوْدَج بعائشة ، فقال علىّ لمحمد بن أبى بكر : « تَقَدَّمْ إلى أُخْتك » ، فدَنَا محمد ، فأدخل يده فى الهَوْدَج ، فنَالَتْ يده ثياب عائشة ، فقالت : « إنّا لله ، مَنْ أنت ، ثَكِلَتْكَ أُمُّك » ، فقال « أنا أخُوكِ محمد » .

ونادَى علىّ رضى الله عنه فى أصحابه : « لا تَتَّبِعوا مُوَلِّيًا، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تَنْتَهِبُوا مالًا ، ومَنْ ألْقَى سلاحه فهو آمِنٌ ، ومَنْ أغْلَقَ بابه فهو آمِنٌ » .

قال : فجعلوا يمرون بالذهب والفضة فى معسكرهم والمتاع ، فلا يعرض له أحد إلا ما كان من السلاح الذى قاتلوا به ، والدواب التى حاربوا عليها ، فقال له بعض أصحابه : « يا أمير المؤمنين ، كيف حل لنا قتالهم ، ولم يحل لنا سَبْيهم وأموالهم » فقال على رضى الله عنه: « ليس على المُوَحِّدين سَبْي ، ولا يغنم من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه ، فدعوا ما لا تعرفون ، والزموا ما تؤمرون » .

قال : وأمر علىّ محمد بن أبى بكر أن ينزل عائشة فأنزلها دار عبد الله بن خلف الخُزَاعِىّ ، وكان عبد الله فيمن قُتِلَ ذلك اليوم ، فنزلت عند امرأته صَفِيَّة .

وقال على رضى الله عنه لمحمد: « انظر هل وصل إلى أختك شىء ؟» قال : «أصاب ساعدها خدش سهم ، دخل بين صفائح الحديد » .

ودخل علىّ رضى الله عنه البصرة ، فأتى مسجدها الأعظم ، واجتمع الناس إليه ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وصَلّى على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « أما بعد ، فإن الله ذو رحمة واسعة وعقاب أليم ، فما ظنكم بى يا أهل البصرة جندَ المرأة وأتْباعَ البهيمة ؟ رَغَا ، فقاتلتم ، وعُقِر ، فانهزمتم ، أخلاقكم دِقاق ، وعهدُكم شِقَاق ، وماؤكم زُعاق [1] ، أرضكم قريبة من الماء ، بعيدة من السماء ،

---

(١) ماء زعاق ، مر غليظ لا يطاق شربه .

وايم الله ليأتيَنّ عليها زمان لا يُرى منها إلا شُرُفات مسجدها في البحر ، مثل جُؤجؤ(١) السفينة ، انصرفوا إلى منازلكم » . ثم نزل ، وانصرف إلى معسكره ، وقال لمحمد بن أبي بكر : « سِرْ مع أختك حتى توصلها إلى المدينة ، وعَجِّل اللحوق بي بالكوفة » ، فقال : « أعفني من ذلك يا أمير المؤمنين » ، فقال علي : « لا أعفيك منه ، ومالك بُدّ » . فسار بها حتى أوردها المدينة .

وشَخَصَ عليّ عن البصرة ، واستعمل عليها عبد الله بن عباس ، فلما انتهى إلى المِرْبَد(٢) التفت إلى البصرة ، ثم قال : « الحمد لله الذي أخرجني من شرّ البقاع تُرابا ، وأسرعها خَرابا ، وأقربها من الماء ، وأبعدها من السماء » . ثم سار ، فلما أشرَفَ على الكوفة ، قال : « وَيْحَكِ يا كوفان ، ما أطيب هواءك ، وأغذى تُربتك ، الخارج منك بذنب ، والداخل إليك برحمة ، لا تذهب الأيام والليالي ، حتى يجيء إليك كل مؤمن ، ويبغض المُقام بكِ كل فاجر ، وتعمرين ، حتى إنّ الرجل من أهلك ليُبَكِّر إلى الجمعة فلا يلحقها من بُعْد المسافة » .

قالوا : وكان مقدمه الكوفة يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خَلَتْ من رجب سنة ست وثلاثين ؛ فقيل له : « يا أمير المؤمنين ، أتنزل القصر ؟ » ، قال : « لا حاجة لي في نزوله ، لأنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يبغضه ، ولكني نازل الرَّحْبة » ، ثم أقبل حتى دخل المسجد الأعظم ، فصلّى ركعتين ، ثم نزل الرَّحْبة ، فقال الشَّنّيّ يُحرِّض عليًّا على المسير إلى الشام :

قُلْ لِهَذَا الإمامِ قَدْ خَبَتِ الحَرْ ... بُ ، وَتَمَّتْ بِذَلِكَ النَّعْمَاءُ
وَفَرَغْنَا مِنْ حَرْبِ مَنْ نَكَثَ العَهْ ... دَ ، وَبِالشَّامِ حَيَّةٌ صَمَّاءُ
تَنْفُثُ السُّمَّ ، مَا لِمَنْ نَهَشَتْهُ ... فَارْمِهَا قَبْلَ أَنْ تَعَضَّ شِفَاءُ

قالوا : وإنّ أوّل جمعة صلّى بالكوفة خطب ، فقال : « الحمد لله أحمده ،

---

(١) الجؤجؤ : الصدر . (٢) المربد : فضاء وراء البيوت يرتفق به ، وبه سمي مربد البصرة .

وأستعينه وأستهديه ، وأومن به وأتوكّل عليه ، وأعوذ بالله من الضَّلالة والرَّدَى ، مَنْ يهد الله فلا مُضِلّ له ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ، انْتَخَبَهُ لرسالته ، واختصّه لتبليغ أمره ، أكْرَم خَلْقِه عليه ، وأحبهم إليه ، فبلّغ رسالة ربّه ، ونَصَح لِأُمّته ، وأدّى الذى عليه صلى الله عليه وسلم ؛ أُوصيكم عِبَادَ الله بتقْوَى الله ، فإنّ تقْوَى الله خير ما تَوَاصَى به عباد الله ، وأقربه لرضوان الله ، وأفضله فى عواقب الأمور عند الله ، وبتَقْوَى الله أُمِرْتُم ، وللإحسان خُلِقْتُم ، فاحْذَروا من الله ما حَذَّرَكم من نفسه ، فإنه حَذَّرَ بأسًا شديداً ، واخْشَوا الله خشية ليست بتَعْذِير ، واعملوا من غير رِيَاء ولا سُمْعَة ، فإنه مَنْ عمل لغير الله وَكَلَه الله إلى ما عمل ، ومَنْ عمل مُخْلِصًا له تَوَلّاه الله ، وأعطاه أفضل نيّته ، وأشفقوا من عذاب الله ، فإنه لم يخلقكم عَبَثًا ، ولم يترك شيئًا من أمركم سُدًى ، قد سَمّى آثاركم ، وعلم أسراركم ، وأحْصَى أعمالكم ، وكتب آجالكم ، فلا تَغُرّنّكم الدُّنيا ، فإنها غَرّارَة لأهلها ، والمغرور مَنِ اغْتَرّ بها ، وإلى فَنَاء مّا هِىَ ، وإنّ الآخرة هى دار القَرَار ؛ نسأل الله منازل الشُّهداء ، ومُرافقة الأنبياء ، ومعيشة السُّعَدَاء ، فإنما نحن به وله » .

ثم وَجّه عُمّاله إلى البلدان ، فاستعمل على المدائن وجُوخَى[1] كلها يزيد بن قيس الأَرْحَبِىّ ، وعلى الجبل وأصبهان محمد بن سُلَيم ، وعلى البِهْقُبَاذَات قُرْظ بن كعب ، وعلى كَسْكَر وحيّزها قُدَامَة بن عجلان الأَزْدِىّ ، وعلى بَهُرَسِير وأستانها عَدِىّ ابن الحارث ، وعلى أستان العالى حَسّان بن عبد الله البكرى ، وعلى أستان الزّوابى سعد[2] بن مسعود الثقفىّ ، وعلى سِجِسْتان وحيّزها رِبْعِىّ بن كاس ، وعلى خراسان كلها خُلَيْد بن كاس .

---

(١) كورة واسعة فى سواد بغداد .   (٢) فى الأصل : سعيد .

فأمّا خُلَيْد بن كاس فإنه لما دَنا من خراسان بلغه أنّ أهل نيسابور خلعوا يدًا من طاعة ، وأنه قَدِمَتْ عليهم بنتٌ لكسرى من كابُل ، فَمَالُوا معها ، فقاتلهم خُلَيْد ، فهزمهم ، وأخذ ابنة كسرى بأمان ، وبعث بها إلى علىّ . فلما أُدْخِلَتْ عليه ، قال لها : « أتُحِبّينَ أنْ أزوّجك من ابنى هذا ؟ » يعنى الحسن ، قالت : « لا أزوّج أحداً على رأسه أحد ، فإنْ أنتَ أحببتَ رَضِيتُ بِكَ » ، قال : « إنى شيخ ، وابنى هذا مِنْ فَضْلِه كذا وكذا » ، قالت : « قد أعطيتك الجملة » . فقام رجل من عظماء دهاقين العراق ، يسمّى تَرْسَى ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، قد بلغك أنى من سِنْخ[1] المملكة ، وأنا قرابتها ، فزوّجنيها » فقال : « هى أمْلَك بنفسها » ، ثم قال لها : « انطلق حيث شِئْتِ ، وانكحى مَنْ أحببتِ ، لا بأسَ عليكِ » .

واستعمل على المَوصِل ، ونصيبين ، ودَارَا ، وسنجار ، وآمُد ، وميافارقين ، وهَيت ، وعانات ، وما غَلَبَ عليها من أرض الشام الأشتر ؛ فسار إليها ، فلقيه الضَّحّاك بن قيس الفهرى ، وكان عليها من قِبَل معاوية بن أبى سفيان ، فاقتتلوا بين حرّان[2] والرّقة[3] بموضع يُقال له المرج إلى وقت المساء . وبلغ ذلك معاوية ، فأمَدّ الضّحّاك بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد فى خَيْلٍ عظيمة ، وبلغ ذلك الأشتر ، فانصرف إلى الموصل ، فأقام بها يُقاتِل مَنْ أتاه من أجناد معاوية ، ثم كانت وقعة صفين .

---

(١) السنخ : الأصل من كل شئ .

(٢) حران : مدينة قديمة فيما بين النهرين ، قاعدة بلاد مضر ، فتحها العرب على يد عياض ابن غنم سنة ٦٣٩م ، وقد اشتهرت بالفلاسفة والعلماء أمثال ثابت بن قرة والبتانى .

(٣) الرقة : قاعدة ديار مضر فى الجزيرة على الفرات ، وعندها قطع على بن أبى طالب نهر الفرات فى وقعة صفين سنة٦٥٦م ، وفيها آثار قديمة .

[وقعة صفين][1]

قالوا : وضربت الرُّكْبان إلى الشام بنعىّ عثمان ، وتحريض معاوية على الطَّلَب بدمه ، فبينا معاوية ذات يوم جالس إذ دخل عليه رجل ، فقال : « السلام عليك يا أمير المؤمنين » ، فقال معاوية : « وعليك ، مَنْ أنتَ ، لله أبوك ؟ فقد رَوَّعتنى بتسليمك علىّ بالخلافة قبل أن أنالها » ، فقال : « أنا الحجّاج بن خُزَيْمة بن الصِّمَّة » ، قال : « ففيم قدمت ؟ » ، قال : « قدمت قاصدًا إليك بنعىّ عثمان » ، ثم أنشأ يقول :

إنَّ بَنِي عَمِّكَ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ   هُمْ قَتَلُوا شَيْخَكُمْ غَيْرَ الْكَذِبْ
وَأَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْوَثْبِ فَثِبْ   وَسِرْ مَسِيرَ الْمُحْزَئِلِّ[2] الْمُتْلَئِبّْ

قال : ثم إنى كنت فيمن خرج مع يزيد بن أسد لنصر عثمان ، فلم نلحقه ، فلقيت رجلا ، ومعى الحارث بن زُفَر ، فسألناه عن الخبر ، فأخبرنا بقتل عثمان ، وزَعَم أنه ممن شايَع على قتله ، فقتلناه ، وإنى أخبرك ، أنك تقوى بدون ما يقوى به علىّ ، لأن معك قوما لا يقولون إذا سكتّ ، ويسكتون إذا نطقتَ ، ولا يسألون إذا أمرت ؛ ومع علىّ قوم يقولون إذا قال ، ويسألون إذا سكت ، فقليلُك خير من كثيره ، وعلىّ لا يرضيه إلا سخطك ، ولا يرضى بالعراق دون الشام ، وأنت ترضى بالشام دون العراق ، فضاق معاوية بما أتاه به الحجاج بن خزيمة ذرعا ، وقال :

أَتَانِيَ أَمْرٌ فِيهِ لِلنَّاسِ غُمَّةٌ   وَفِيهِ بُكَاءٌ لِلْعُيُونِ طَوِيلُ
مُصَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهٰذِهِ   تَكَادُ لَهَا صُمُّ الْجِبَالِ تَزُولُ
فَلِلَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِثْلَ هَالِكٍ   أُصِيبَ بِلَا ذَحْلٍ وَذَاكَ جَلِيلُ[3]

---

(١) كان مبدأ محاربات صفين فى أول صفر سنة ٣٧ هـ (يوليه سنة ٦٥٧) .
(٢) المحزئل : المرتفع .   (٣) الذحل : الثأر .

تَدَاعَتْ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ عُصْبَةٌ ... فَرِيقَانِ ، مِنْهُمْ قَاتِلٌ وَخَـذُولُ
دَعَاهُمْ ، فَصَمُّوا عَنْهُ عِنْدَ دُعَائِهِ ... وَذَاكَ عَلَى مَا فِي النُّفُوسِ دَلِيلُ
سَأَنْعَى أَبَا عَمْرٍو بِكُلِّ مُثَقَّفٍ ... وَبِيضٍ لَهَا فِي الدَّارِعِينَ صَلِيلُ
تَرَكْتُكَ لِلْقَوْمِ الَّذِينَ تَظَاهَرُوا ... عَلَيْكَ ، فَمَاذَا بَعْدَ ذَاكَ أَقُولُ
فَلَسْتُ مُقِيمًا مَا حَيِيتُ بِبَلْدَةٍ ... أَجُرُّ بِهَا ذَيْلِي وَأَنْتَ قَتِيـلُ
وَأَمَّا الَّتِي فِيهَا مَـوَدَّةُ بَيْنِنَا ... فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيِيتُ سَبِيـلُ
سَأُلْقِحُهَا حَرْبًا عَوَانًا مُلِحَّـةً ... وَإِنِّي بِهَا مِنْ عَامِنَا لَكَفِيلُ

وكتب عليّ إلى جرير بن عبد الله البَجَليّ ، وكان عامل عثمان بأرض الجبل مع زَحْر بن قَيْس الجُعْفيّ ، يدعوه إلى البيعة له ، فبايع وأخذ بيعة مَن قِبله ، وسار حتى قدم الكوفة .

وكتب إلى الأشعث بن قَيْس بمثل ذلك ، وكان مقيما بأذْرِبيجان طول ولاية عثمان بن عفان ، وكانت ولايته مما عتب الناس فيه على عثمان ، لأنه ولّاه عند مصاهرته إياه ، وتزويج ابنة الأشعث من ابنه ، ويقال إن الأشعث هو الذى افتتح عامة أذْرِبيجان ، وكان له بها أثر ونصح واجتهاد ، وكان كتابه إليه مع زياد بن مَرْحَب ، فبايع لعليّ ، وسار حتى قدم عليه الكوفة .

وإن عَليًّا أرسل جرير بن عبد الله إلى معاوية يدعوه إلى الدخول فى طاعته ، والبيعة له ، أو الإيذان بالحرب ، فقال الأشتر : « ابعث غيره فإنى لا آمن مراهنته » فلم يلتفت إلى قول الأشتر . فسار جرير إلى معاوية بكتاب عليّ ، فقدم على معاوية ، فألفاه وعنده وجوه أهل الشام ، فناوله كتاب عليّ ، وقال : « هذا كتاب عليّ إليك ، وإلى أهل الشام يدعوكم إلى الدخول فى طاعته ، فقد اجتمع له الحَرَمان ، والمصران ، والحجازان ، واليمن ، والبحران ، وعمان ، واليمامة ، ومصر ، وفارس ، والجبل ، وخراسان ، ولم يبق إلا بلادكم هذه ، وإن سالَ عليها وادٍ من أوديته غرقها » .

وفتح معاوية الكتاب فقرأه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان ، أما بعد فقد لزمك ومن قِبَلَك من المسلمين بيعتى، وأنا بالمدينة، وأنتم بالشام ، لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم. فليس للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الأمر فى ذلك للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل مسلم ، فسموه إماما ، كان ذلك لله رضى ، فإن خرج من أمرهم أحد بطعن فيه أو رَغْبَة عنه رد إلى ما خرج منه ، فإن أبَى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تَوَلَّى ، ويُصْلِه جهنم وساءت مصيرا ، فادخل فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار ، فإن أحب الأمور فيك وفيمن قبلك العافِيَة ، فإن قبلتها وإلا فائذن بحرب ، وقد أكثرت فى قَتَلَة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إلىّ، أحملك وإياهم على ما فى كتاب الله وسُنَّة نبيّه ، فأما تلك التى تريدها ، فإنما هى خِدْعَة الصبى عن الرضاع » .

فجمع معاوية إليه أشراف أهل بيته ، فاستشارهم فى أمره ، فقال أخوه عُتْبَة بن أبى سفيان : « استعن على أمرك بعمرو بن العاص » وكان مقيما فى ضَيْعَة له من حيز فلسطين ، قد اعتزل الفتنة . فكتب إليه معاوية « أنه قد كان من أمر على فى طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين ما بلغك ، وقد قدم علينا جرير بن عبد الله فى أخذنا ببيعة علىّ ، فحبست نفسى عليك ، فأقبل ، أناظرك فى ذلك ، والسلام » .

فسار ومعه ابناه عبد الله ومحمد حتى قدم على معاوية ، وقد عرف حاجة معاوية إليه ، فقال له معاوية : « أبا عبد الله ، طَرَقَتْنا فى هذه الأيام ثلاثة أمور ، ليس فيها وِرْد ولا صَدَر » ، قال : « وما هُنّ ؟ » قال : « أمّا أولهن ، فإن محمد بن أبى حُذَيْفَة كسر السِّجْن وهرب نحو مصر فيمن كان معه من أصحابه ، وهو من أعدَى الناس لنا ؛ وأمّا الثانية فإنّ قيصر الرُّوم قد جمع الجنود ليخرج إلينا فيحاربنا على الشام ؛ وأمّا الثالثة فإن جريراً قَدِمَ رسولاً لعلىّ بن أبى طالب يدعونا إلى البَيْعَة له أو إيذان بحرب » .

قال عمرو : « أمّا ابن أبي حُذَيْفَة فما يَغُمّكَ من خروجه من سجنه في أصحابه ، فأرْسِلْ في طلبه الخيل ، فإن قدرت عليه قدرت ، وإن لم تقدر عليه لم يضُرّك ؛ وأمّا قيصر ، فاكتُبْ إليه تُمْلِيه ، أنك تَرُدُّ عليه جميع مَنْ في يديك من أسارى الروم ، وتَسْأَله المُوَادَعة والمُصالحة تجده سريعاً إلى ذلك ، راضياً بالعفو منك ؛ وأمّا عليّ بن أبي طالب فإن المسلمين لا يُساوُونَ بينك وبينه » .

قال معاوية : « إنه مالأ على قتل عثمان ، وأظهر الفِتْنَة ، وفَرّقَ الجماعة » .

قال عمرو : « إنه وإن كان كذلك ، فليست لك مثل سابقته وقَرَابته ، ولكن ما لي إنْ شايَعْتُكَ على أمرك حتى تنَالَ ما تريد ؟ » .

قال : « حكمك » .

قال عمرو : « اجعل لي مِصْرَ طُعْمَة ما دامت لك وُلَايَة » .

فتلكّأ معاوية ، وقال : « يا عبد الله ، لو شئتَ أن أخدعك خدعتُك » .

قال عمرو : « ما مثلي يُخْدَع » .

قال له معاوية : « ادْنُ مني أسارّك » .

فَدَنا عمرو منه ، فقال : « هذه خُدْعَة ، هل ترى في البيت غيري وغيرك »

ثم قال : « يا عبد الله ، أما تعلم أنّ مصر مثل العراق ؟ » .

قال عمرو : « غير أنها إنما تكونُ لي إذا كانت لك الدُّنيا ، وإنما تكون لك إذا غلَبْتَ عليّ » .

فتلكّأ عليه ، وانصرف عمرو إلى رَحْله ، فقال عُتْبَة لمعاوية : « أما تَرْضَى أن تشترى عَمْرًا بمصر إن صَفَتْ لك قَلِيّتُك[1] لا تُغلَب على الشام » .

وقال معاوية : « بِتْ عندنا ليلتك هذه » ، فبات عُتْبَة عنده ، فلما أخذ معاوية مضجعه أنشأ عُتْبَة :

(١) القلية : مرقة تتخذ من لحوم الجزور وأكبادها .

أَيُّهَا الْمَانِعُ سَيْفاً لَمْ يُهَزّْ ... إِنَّمَا مِلْتَ عَلَى خَزٍّ وَقَزّْ
إِنَّمَا أَنْتَ خَرُوفٌ نَاعِمٌ ... بَيْنَ ضَرْعَيْنِ وَصُوفٍ لَمْ يُجَزّْ
نَالَكَ الْخَيْرُ، فَخُذْ مِنْ دَرِّهِ ... شُخْبَهُ الْأَوَّلَ، وَاتْرُكْ مَا غَرَزْ
وَاتْرُكِ الْحِرْصَ عَلَيْهَا ضِنَّةً ... وَاشْبُبِ النَّارَ لِمَقْرُورٍ يَكَزّْ
إِنَّ مِصْراً لِعَلِيٍّ أَوْ لَنَا ... يَغْلِبُ الْيَوْمَ عَلَيْهَا مَنْ عَجَزْ

وسمع معاوية ذلك ، فلما أصبح بعث إلى عمرو ، فأعطاه ما سأل ، وكتبا بينهما فى ذلك كتابا ، ثم إن معاوية استشار عمراً فى أمره ، وقال ما ترى ؟

قال عمرو : « إنه قد أتاك فى هذه البَيْعَة خير أهل العراق من عند خير الناس ، ولست أرى لك أن تدعو أهل الشام إلى الخلافة ، فإن ذلك خطر عظيم حتى تتقدم قبل ذلك بالتَّوْطِين للأشراف منهم ، وإشراب قلوبهم اليقين ، بأن عليًّا مالأ على قتل عثمان ، واعلم أن رأس أهل الشام شُرَحْبِيل بن السِّمْط الكِنْدِيّ ، فارسل إليه ليأتيك ، ثم وطِّنْ له الرجال على طريقه كله ، يخبرونه بأن عليًّا قَتَلَ عثمان ، وليكونوا من أهل الرِّضَى عنده ، فإنها كلمة جامِعَة لك أهل الشام ، وإن تَعَلَّق هذه الكلمة بقلبه لم يخرجها شىء أبدا .

فدعا يزيد بن أسد ، وبُسْر بن أبى أرْطَاة ، وسفيان بن عمرو ، ومخارق بن الحارث ، وحمزة بن مالك ، وحابس بن سعد ، وغير هؤلاء من أهل الرِّضا عند شُرَحْبِيل بن السِّمْط ، فوَطَّنَهُم له على طريقه ؛ ثم كتب إليه يأمره بالقدوم عليه ، فكان يلقى الرجل بعد الرجل من هؤلاء فى طريقه ، فيُخْبِرُونه أن عليًّا مالأ على قتل عثمان ، ثم أشربوا قلبه ذلك .

فلما دنا من دمشق أمر معاوية أشراف الشام باستقباله ، فاستقبلوه ، وأظهروا تعظيمه ، فكان كلما خلا برجل منهم ألقى إليه هذه الكلمة ، فأقبل حتى دخل على معاوية مغضبا ، فقال : « أبى الناس إلا أن ابن أبى طالب قتل عثمان ، والله لئن بايعته لنخرجنّك من الشام » ، فقال معاوية : « ما كنت لأخالف أمركم ، وإنما أنا

واحد منكم . قال : فاردد هـذا الرجل إلى صاحبه ـ يعنى جريرا ـ فعلم عنـد ذلك معاوية أن أهل الشام مع شرحبيل ، فقال لشرحبيل : إن هذا الذى نهم به لا يصلح إلا برضى العامة ، فسر فى مدائن الشام، فأعلمهم ما نحن عليه من الطلب بثأر خليفتنا وبايعهم على النصرة والمونة .

فسار شُرَحْبِيل يستقرى مدن الشام ، مدينة بعد مدينة ، ويقول : « أيها الناس ، إن عليا قتل عثمان ، وإنه غضب له قوم فلقيهم ، فقتلهم ، وغلب على أرضهم ، ولم يبق إلا هذه البلاد ، وهو واضع سيفه على عاتقه ، وخائض به غمرات الموت حتى يأتيكم، ولا يجد أحدا أقوى على قتاله من معاوية ، فانهضوا أيها الناس بثأر خليفتكم المظلوم . فأجابه النـاس كلهم إلا نفرا من أهل حمص نُسّاكا ، فإنهم قالوا « نلزم بيوتنا ومساجدنا ، وأنتم أعلم » .

فلما ذاق معاوية أهل الشام ، وعرف مبايعتهم له قال لجرير « إلحق بصاحبك ، وأعلمه أنى وأهل الشام لانجيبه إلى البيعة » ، ثم كتب إليه بأبيات كعب بن جُعَيل :

أَرَى الشَّامَ تَكْرَهُ مُلْكَ الْعِرَاقِ وَأَهْلُ الْعِرَاقِ لَهُمْ كَارِهُونَا
وَكُلٌّ لِصَاحِبِهِ مُبْغِضٌ يَرَى كُلَّ مَا كَانَ مِنْ ذَاكَ دِينَا
وَقَالُوا عَلِيٌّ إِمَامٌ لَنَا فَقُلْنَا رَضِينَا ابْنَ هِنْدٍ رَضِينَا
وَقَالُوا نَرَى أَنْ تَدِينُوا لَنَا فَقُلْنَا لَهُمْ لَا نَرَى أَنْ نَدِينَا
وَكُلٌّ يُسَرُّ بِمَا عِنْدَهُ يَرَى غَثَّ مَا فِى يَدَيْهِ سَمِينَا
وَمَا فِى عَلِيٍّ لِمُسْتَعْتِبٍ مَقَالٌ سِوَى ضَمِّهِ الْمُحْدِثِينَا
وليس بِرَاضٍ ولا ساخِطٍ ولا فى النُّهَاةِ ولا الآمِرِينَا
ولا هو سَاءَهُ ولا سَرَّهُ ولابُدَّ مِنْ بَعْدِ ذَا أَنْ يَكُونَا

فلما قرأ على رضى الله عنه قال للنجاشى أجب ، فقال :

دَعَنْ مُعَاوِىَ مَالَنْ يَكُونَا فَقَدْ حَقَّقَ اللهُ مَا تَحْذَرُونَا
أَتَاكُمْ عَلِيٌّ بِأَهْـلِ الْعِرَاقِ وَأَهْـلِ الحِجَازِ فَمَا تَصْنَعُونَا

يَرَوْنَ الطِّعَانَ خِلَالَ الْعَجَاجِ وَضَرْبَ الْقَوَانِسِ فِي النَّقْعِ دِينَا
هُمُ هَزَمُوا الْجَمْعَ جَمْعَ الزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَالْمَعْشَرَ النَّاكِثِينَا
فَإِنْ يَكْرَهِ الْقَوْمُ مُلْكَ الْعِرَاقِ فَقِدْمًا رَضِينَا الَّذِي تَكْرَهُونَا
فَقُولُوا لِكَعْبٍ أَخِي وَائِلٍ وَمَنْ جَعَلَ الْغَثَّ يَوْمًا سَمِينَا
جَعَلْتُمْ عَلِيًّا وَأَشْيَاعَهُ نَظِيرَ ابْنِ هِنْدٍ أَمَا تَسْتَحُونَا

ولما رجع جرير إلى علىّ كَثُرَ قول الناس فى التُّهَمَة له ، واجتمع هو والأشتر عند علىّ ، فقال الأشتر : « أما والله يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتنى فيما أرسلت فيه هذا لَمَا أَرْخَيْتُ من خناق معاوية ، ولم أَدَعْ له بابا يرجو فتحه إلا سَدَدْتُه ، وَلَأَعْجَلْتُه عن الفِكْرَة » ، قال جرير : « فما يمنعك من إتيانهم ؟! » ، قال الأشتر : « الآن وقد أفْسَدْتَهم ، والله ما أحسبك أتيتهم إلا لتتخذ عندهم مَوَدَّة ، والدليل على ذلك كثرة ذِكْرِكَ مساعدتهم وتَخْوِيفُنا بكثرة جُموعهم ؛ ولو أطاعنى أمير المؤمنين لَحَبَسَكَ وأشباهك من أهل الظِّنَّة مَحْبَسًا لا يخرجون منه حتى يَسْتَتِبَّ هذا الأمر » . فغضب جرير مما استقبله به الأشتر ، فخرج من الكوفة ليلًا فى أناس من أهل بيته ، فلحق بقَرْقِيسيا ، وهى كورة من كُوَر الجزيرة ، فأقام بها .

وغضب علىّ لخروجه عنه ، فركب إلى داره ، فأمر بمجلسٍ له فأُحْرِقَ ؛ فخرج أبو زُرْعَة بن عمرو ابن عم جرير ، فقال : « إن كان إنسانٌ قد أَجْرَمَ فإنّ فى هذه الدار أناسًا كثيرًا لم يُجْرِمُوا إليك جُرْمًا ، وقد رَوَّعْتَهم » ، فقال علىّ : « أستغفر الله » . ثم خرج منها إلى دار لابن عم جرير ، يُقال له ثُوَيْر بن عامر ، وقد كان خرج معه ، فَشَعَّثَ فيها شيئًا ، ثم انصرف .

قالوا : ولما فرغ علىّ رضى الله عنه من أصحاب الجَمَل خافه عُبَيْد الله بن عمر أن يقتله بالهُرْمُزَان ، فخرج حتى لحق بمعاوية ، فقال معاوية لعمرو : « قد أحيا الله لنا ذِكْر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقُدُوم عُبَيْد الله ابنه علينا » . قال :

فأراده معاوية على أن يقوم فى الناس فيَلْزِمَ عَلِيًّا دم عثمان ، فأبى ، فاستَخَفَّ به معاوية ، ثم أدْنَاهُ بعدُ وقَرَّبَهُ .

قالوا : ولما عزم أهل الشام على نصر معاوية ، والقيام معه أقبل أبو مُسلم الخَوْلانِيّ ، وكان من عُبّاد أهل الشام ، حتى قدم على معاوية ، فدخل عليه فى أناس من العُبّاد ، فقال له : « يا معاوية ، قد بلغنا أنك تَهم بمحاربة علىّ بن أبى طالب ، فكيف تُنَاوِئه(١) وليست لك سابقته ؟ » ، فقال لهم معاوية : « لست أدعى أنى مثله فى الفضل ، ولكن هل تعلمون أنّ عثمان قُتِلَ مظلوما ؟ » ، قالوا : [نعم](٢) ، قال : « فليَدْفَعْ لنا قتلته حتى نُسَلِّمَ إليه هذا الأمر » .

قال أبو مسلم : « فاكْتُبْ إليه هذا الأمر ، حتى أنطلق أنا بكتابك » ، فكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب ، سلامٌ عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ؛ أمّا بعد ، فإنّ الخليفة عثمان قُتِلَ معك فى المحلّة ، وأنت تسمع من داره الهَيْعَة(٣) ، فلا تدفع عنه بقول ولا بفعل ، وأقسم بالله لو قُمْتَ فى أمره مقاماً صادقاً ، فنَهْنَهتَ(٤) عنه ما عَدَلَ بك مَن قبلنا من الناس أحداً ، وأخرى أنت بها ظنين ، إيواؤُكَ قتلتَه ، فهم عَضُدُكَ ويدك وأنصارك وبِطَانَتُكَ ، وبلغنا أنك تبتهل(٥) من دمه ، فإن كُنتَ صادقاً فأمكِنّا من قتلته ، نقتلهم به ، ونحن أسرع الناس إليك ؛ وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا السيف ، فوالله الذى لا إله غيره لنَطْلُبَنّ قَتَلَةَ عثمان فى البرّ والبحر حتى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله والسلام » .

فسار أبو مسلم بكتابه حتى وَرَدَ الكوفة ، فدخل على علىّ ، فناوله الكتاب ، فلما قرأه تكلّم أبو مسلم ، فقال : « يا أبا الحسن ، إنّكَ قد قُمْتَ بأمرٍ ، ووَلِيتَه ،

---

(١) فى الأصل : تناويه . (٢) فى الأصل : بلى .
(٣) الهيعة : صوت الصارخ للفزع . (٤) النهنهة : الزجر والكف .
(٥) أى تتحلل .

ووالله ما نحبّ أنه لغيرك إن أعطيتَ الحقّ من نفسك ؛ إنّ عثمان رضى الله عنه قُتِلَ مظلوما ، فادفع إلينا قَتَلَتَه ، وأنتَ أميرُنا ، فإن خالفك أحد من الناس كانت أيدينا لك ناصِرَة ، وألسنتنا لك شاهِدَة ، وكنت ذا عُذْرٍ وحُجَّة » ، فقال له علىّ : « اغْدُ علىّ بالغَدَاة » . وأمر به ، فأُنْزِلَ ، وأُكْرِمَ .

فلما كان من الغد دخل إلى علىّ وهو فى المسجد ، فإذا هو بزُهاء عشرة آلاف رجل ، قد لبسوا السّلاح ، وهم ينادون : « كلُّنا قَتَلَةُ عثمان » ، فقال أبو مسلم لعلىّ : « إنى لأرَى قوماً مالَكَ معهم أمر ، وأحسب أنه بلغهم الذى قدمتُ له ، ففعلوا ذلك خوفاً من أن تدفعهم إلىّ » .

قال علىّ : « إنى ضربت أنف هذا الأمر وعَينه ، فلم أرَ يستقيم دفعهم إليك ولا إلى غيرك ، فاجلس حتى أكتُبَ جوابَ كتابك » . ثم كتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان ؛ أمّا بعد ، فإنّ أخا خَوْلان قدم عَلَىّ بكتابٍ منك ، تَذْكُرُ فيه قَطْعى رَحِم عثمان ، وتأليبى الناس عليه ، وما فعلتُ ذلك ، غير أنّه رحمه الله عتَب الناس عليه ، فمِنْ بين قاتلٍ وخاذلٍ ، فجلستُ فى بيتى ، واعتزلتُ أمره ، إلا أن تَتَجَنّى فتَجَنَّ ما بَدَا لك ، فأمّا ما سألت من دفعى إليك قَتَلَته ، فإنى لا أرَى ذلك ، لعلمى أنك إنما تطلب ذلك ذَرِيعَةً إلى ما تأْمُل ، ومَرْقاة إلى ما ترجو ، وما الطّلَبَ بدمه تُريد ؛ ولعَمْرى لئن لم تنزع عن غِيّكَ وشِقاقك ليَنزل بك ما ينزل بالشّاقّ العاصى الباغى ، والسلام » .

وكتب إلى عمرو بن العاص :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص ؛ أما بعد ، فإنّ الدنيا مَشْغَلة عن غيرها ، صاحبها مَنْهُومٌ فيها ، لا يُصيب منها شيئاً إلا ازداد عليها حِرْصاً ، ولم يَسْتَغْنِ بما نال عما لا يبلغ ، ومن وراء ذلك فِرَاق ما جَمَع ؛ والسّعيد مَن اتّعَظَ بغيره ، فلا تُحْبِط عملك بمجاراة معاوية فى باطله ، فإنه سَفِهَ الحقّ واختارَ الباطل والسلام » .

فكتب إليه عمرو بن العاص :

« من عمرو بن العاص إلى عليّ بن أبي طالب ، أما بعد ، فإن الذى فيه صلاحنا وأُلفَةَ ذات بَيْنِنا أن تُجيبَ إلى ما ندعوك إليه ، من شورى تحملنا وإيّاك على الحق، ويعذرُنا الناس لها بالصدق والسلام » .

قالوا : ولما أجمع عليّ على السير إلى أهل الشام، وحضرت الجمعة صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال: « أيها الناس ، سِيرُوا إلى أعداء السُّنَن والقرآن ، سِيرُوا إلى قتلة المهاجرين والأنصار ، سِيرُوا إلى الجُفَاة الطَّغام الذين كان إسلامهم خَوْفًا وكَرْهًا ، سيروا إلى المؤلَّفة قلوبُهم ليكفوا عن المسلمين بأسَهم » .

فقام إليه رجل من فَزَارَة ، يسمى أَرْبَد ، فقال : « أتريد أن تسير بنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم كما سِرْتَ بنا إلى إخواننا من أهل البصرة ، فقتلناهم؟ كلاّ ، ها الله ، إذًا لا نفعل ذلك » .

فقام الأشتر ، فقال : « أيها الناس ، مَنْ لهذا ؟ » فهرب الفزارى وسعى شُؤْبُوب [1] من الناس فى إثره ، فلحقوه بالكُناسة [2] فضربوه بنعالهم حتى سقط، ثم وطئوه بأرجلهم حتى مات ؛ فأُخْبِرَ بذلك عليّ رضى الله عنه فقال : « قتيل عِمِّيَّة ، لا يُدْرَى مَنْ قتله » فدَفَع دِيَتَه إلى أهله من بيت المال ، وقال بعض شعراء بنى تميم :

أَعُوذُ بِرَبِّي أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِي كَمَا مَاتَ فِي سُوقِ الْبَرَاذِينِ أَرْبَدُ
تَعَاوَرَهُ هَمْدَانُ خَصْفَ نِعَالِهِمْ إِذَا رُفِعَتْ عَنْهُ يَدٌ وُضِعَتْ يَدُ

وقام الأشتر ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، لا يُؤْيِسَنَّكَ من نُصرتنا ما سمعت من هذا الخائن ، إنّ جميع مَنْ تَرَى من الناس شيعتك ، لا يَرْغَبُون بأنفسهم عنك ،

(١) الشؤبوب : الدفعة من المطر ، والمراد جماعة . (٢) اسم موضع بالكوفة .

ولا يحبون البقاء بعدك ، فَسِرْ بنا إلى أعدائك ، فوالله ما ينجو من الموت مَنْ خافه ، ولا يُعْطَى البقاء مَنْ أحبّه ، ولا يعيش بالأَمَل إلا المغرور » .

فأجابه جُلّ النـاس إلى المسير ، إلا أصحاب عبد الله بن مسعود ، وعَبِيدَة السَّلْمَانيّ ، والرَّبيع بن خُثَيْم في نحو من أربعمائة رجل من القُرَّاء ، فقالوا : « يا أمير المؤمنين ، قد شككنا في هذا القتال ، مع معرفتنا فضلك ، ولا غِنَى بك ولا بالمسلمين عمن يُقاتِل المشركين ، فوَلِّنا بعض هذه الثُّغُور لنُقاتِل عن أهله » . فوَلَّاهم ثَغْرَ قَزْوِين والرَّيّ ، ووَلّى عليهم الرَّبيع بن خُثَيْم ، وعَقَد له لواء ، وكان أوّل لواء عُقِدَ في الكوفة .

قالوا : وبلغ عَلِيًّا أنّ حُجْر بن عَدِيّ وعمرو بن الحَمِق يُظهِران شَتْمَ معاوية ، ولَعْنَ أهل الشام ، فأرسل إليهما أن كُفَّا عما يبلغني عنكما . فأتياه ، فقالا : « يا أمير المؤمنين ، ألسنا على الحق ، وهم على الباطل؟ » ، قال : « بلى ، وربّ الكعبة المُسدّنة » ، قالوا : « فلِمَ تمنعنا من شَتْمِهم وَلَعْنهم ؟ » ، قال : « كرهت لكم أن تكونوا شتّامِينَ لعّانِينَ ، ولكن قولوا : اللهم احْقِنْ دماءنا ودماءهم ، وأصْلِحْ ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحق مَن جهله ، ويرعوى عن الغيّ مَنْ لَجِج به » .

قالوا : ولما عزم عليّ رضى الله عنه على الشُّخُوص أمر مُنادِيًا ، فنادَى بالخروج إلى المعسكر بالنُّخَيْلَة[1] ، فخرج الناس مستعدِّين ، واستَخْلَفَ عليّ على الكوفة أبا مسعود الأنصاريّ ، وهو من السبعين الذين بايَعُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العَقَبة . وخرج عليّ رضى الله عنـه إلى النُّخَيْلَة ، وأمامه عمّار بن ياسر ، فأقام بالنُّخَيْلَة معسكرا ، وكتب إلى عُمّاله بالقدوم عليه .

ولما انتهى كتابه إلى ابن عباس نَدَبَ الناس ، وخطبهم ، وكان أوّل مَنْ تكلّم الأَحْنَف بن قَيْس ، ثم قام خالد بن المُعَمَّر السَّدُوسِيّ ، ثم قام عمرو بن مَرْحوم

---

(١) موضع بالبادية قرب الكوفة على سمت الشام .

العَبْدِىّ ، وكلّهم أجاب ، فخلف على البصرة أبا الأسود الدُّؤلىّ ، وسار بالناس حتى قدم على علىّ بالنُّخَيْلة .

فلما اجتمع إلى علىّ قَوَاصِيه ، وانضمت إليه أطرافه تهيّأ للمسير من النُّخَيْلَة ، ودعا زياد بن النَّضْر وشُرَيْح بن هانىء ، فعقد لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس ، وقال : « لِيَسِرْ كل واحد منكما منفرداً عن صاحبه ، فإن جمعتكما حرب ، فأنتَ يا زياد الأمير ، واعلما أن مقدّمة القوم عيونُهم ، وعيونَ المقدّمة طلائعهم ، فإيَّاكما أن تَسْأَمَا عن توجيه الطلائع ، ولا تسيرا بالكتائب والقبائل من لدن مسيركما إلى نزولكما إلّا بِتَعْبِيَة وحَذَر ، وإذا نزلتم بعدُوّ أو نزل بكم ، فليكن معسكركم فى أشرف المواضع ليكون ذلك لكم حِصْناً حَصِيناً ، وإذا غَشِيَكم الليل فَحُفُّوا عسكركم بالرِّماح والتِّرَسَة ، ولِيَلِيهُم الرماة ، وما أقمتم فكذلك فكونوا ، لئلا يصاب منكم غِرّة ، واحرُسا عسكركما بأنفسكما ، ولا تَذُوقا نوماً إلا غِرارا ومضمضة ، وليكن عندى خبركما ، فإنى ولا شىء إلا ما شاء الله حثيث السير فى إثركما ، ولا تُقاتلا حتى تُبْدَآ أو يأتيكما أمرى إن شاء الله » .

فلما كان اليوم الثالث من مخرجهما قام فى أصحابه خطيبا ، فقال : « يا أيها الناس ، نحن سائرون غداً فى آثار مقدّمتنا ، فإياكم والتخلُّفَ ، فقد خَلَّفْتُ مالكَ بن حَبِيب اليَرْبُوعىّ ، وجعلته على الساقة ، وأمرته ألّا يدع أحداً إلا ألحقه بنا » .

فلما أصبح نادَى فى الناس بالرّحيل ، وسار ، فلما انتهى إلى رسوم مدينة بَابِل ، قال لمن كان يُسايره من أصحابه : « إنّ هذه مدينة قد خُسِفَ بها مرارا ، فحرّكوا خيلكم ، وارْخُوا أعِنّتها ، حتى تجوزوا موضع المدينة ، لعلّنا نُدْرِكَ العصر خارجا منها » . فحرّك ، وحرّكوا دوابهم ، فخرج من حدّ المدينة وقد حضرت الصلاة ، فنزل ، فصلّى بالناس ، ثم ركب ، وسار حتى انتهى إلى دير كَعْب فجاوَزَه ، وأتى سَابَاط المدائن ، فنزل فيه بالناس ، وقد هُيِّئَتْ له فيه الأنْزَال .

فلما أصبح ركب وركب الناس معه ، وإنهم لثمانون ألف رجل ، أو يزيدون ،

سوى الأتباع والخدم ، ثم سار حتى أتى مدينة الأنبار ، فلما وَافَى المَدائن عقد لمَعْقِل بن قَيْس في ثلاثة آلاف رجل ، وأمره أن يسير على المَوْصِل ونَصِيبين حتى يوافيه بالرَّقَّة[1] ، فسار حتى وَافَى حديثة الموصل ، وهي إذ ذاك المِصر ؛ وإنما بنى الموصل بعد ذلك مَرْوَان بن محمد .

فلما انتهى مَعْقِل إليها إذا هو بكبشين يتناطحان ، ومع مَعْقِل رجل من خَثْعَم زجر ، فجعل الخَثْعَمِيّ يقول : « إيهٍ ، إيهٍ » ، فأقبل رجلان ، فأخذ كل منهما كبشا ، فقاده وانطلق به . فقال الخَثْعَمِيّ لمعقل « لا تُغْلَبُونَ ولا تَغْلِبُونَ » فقال معقل : « يكون خيرا ، إن شاء الله » .

ثم مضى حتى وافى عليا وقد نزل «البَلِيخ»[2] فأقام ثلاثا ، ثم أمر بجسر ، فعقد، وعبر الناس ، ولما قطع على رضى الله عنه الفرات أمر زياد بن النَّضر وشُرَيح ابن هانئ أن يسيرا أمامه ، فسارا حتى انتهيا إلى مكان يدعى « سُور الروم » لقيهما أبو الأعور السُّلَمِيّ في خيل عظيمة من أهل الشام ، فأرسلا إلى عليّ يُعلمانه ذلك .

فأمر عليّ الأشتر أن يسير إليهما ، وجعله أميرا عليهما ، فسار حتى وافى القوم ، فاقتتلوا ، وصبر بعضهم لبعض حتى جَنَّ عليهم الليل ، وانْسَلَّ أبو الأعور في جوف الليل حتى أتى معاوية .

وأقبل معاوية بالخيل نحو صِفِّين ، وعلى مقدمته سُفيان بن عمرو ، وعلى ساقته بُسْر[3] بن أبي أرْطاة العامِرِيّ ، فأقبل سفيان بن عمرو ، ومعه أبو الأعور ، حتى وَافَيا صِفِّين ، وهى قرية خراب من بناء الروم ، منها إلى الفُرَات غَلْوَة[4] ، وعلى شَطّ الفُرات مما يليها غَيْضَة[5] مُلْتَفَّة ، فيها نُزُور طولها نحو من فرسخين ، وليس في ذينك الفرسخين طريق إلى الفُرات إلا طريق واحد مفروش بالحجارة ،

(١) مدينة مشهورة على الفرات من الجانب الشرقى . (٢) نهر بالرقة يجتمع فيه الماء من عيون.
(٣) فى الأصل : بشر . (٤) الغلوة : قدر رمية بسهم وقد تستعمل فى سباق الخيل.
(٥) الغيضة بالفتح: الأجمة، ومجتمع الشجر فى مغيض ماء .

وسائر ذلك خِلاف وغَرْب مُلتفّ لا يُسْلَك ، وجميع الغَيْضَة نُزور ووحل إلا ذلك الطريق الذى يأخذ من القرية إلى الفُرات .

فأقبل سفيان بن عمرو وأبو الأعور حتى سبقا إلى موضع القرية ، فنزلا هناك مع ذلك الطريق ، ووافاهما معاوية بجميع الفَيْلَق ، حتى نزل معهما ، وعسكر مع القرية ؛ وأمر معاوية أبا الأعور أن يقف فى عشرة آلاف من أهل الشام على طريق الشريعة ، فيمنع مَنْ أراد السلوك إلى الماء من أهل العراق .

وأقبل علىّ رضى الله عنه حتى وَافَى المكان ، فصادف أهل الشام قد احتووا على القرية والطريق ، فأمر الناس ، فنزلوا بالقرب من عسكر معاوية ، وانطلق السَّقّاءون والغلمان إلى طريق الماء ، فحال أبو الأعور بينهم وبينه .

وأُخْبِرَ علىّ رضى الله عنه بذلك ، فقال لصَعْصَعَة بن صُوحان « إيت معاوية ، فقل له ، إنا سِرْنا إليكم لنُعْذِرَ قبل القتال ، فإن قبلتم كانت العافية أحب إلينا ، وأراك قد حلتَ بيننا وبين الماء ، فإن كان أعجبَ إليك أن ندع ما جئنا له، وندر الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشاربَ فعلنا .

فقال الوليد : « امنعهم الماء كما منعوه أمير المؤمنين عثمان ، اقتلهم عطشاً ، قتلهم الله » .

فقال معاوية لعمرو بن العاص : ماترى؟ .

قال : « أرى أن تُخلّى عن الماء ، فإن القوم لن يعطشوا وأنت ريّان » .

فقال عبد الله بن أبى سَرْح ، وكان أخا عثمان لأمه : « امنعهم الماء إلى الليل ، لعلهم أن ينصرفوا إلى طرف الغيضة ، فيكون انصرافهم هزيمة » .

فقال صَعْصَعَة لمعاوية : « ما الذى ترى ؟ » .

قال معاوية : « ارجع ، فسيأتيكم رأيى » . فانصرف صَعْصَعَة إلى علىّ ، فأخبره بذلك .

وظل أهل العراق يومهم ذلك وليلتهم بلا ماء إلا من كان ينصرف من الغلمان إلى طرف الغيضة ، فيمشى مقدار فرسخين ، فيستقى ، فغمّ عَلياً رضى الله عنه

أمرُ الناس غمًّا شديدا ، وضاق بما أصابهم من العطش ذَرْعا ؛ فأتاه الأشعث بن قيس فقال : « يا أمير المؤمنين ، أيمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا ؟ وَلِّنِي الزحف إليه ، فوالله لا أرجع أو أموت ، ومُر الأشتر فلينضم إليّ في خيله » ، فقال له عليّ : « إيت في ذلك ما رأيت » .

فلما أصبح زاحف أبا الأعور ، فاقتتلوا ، وصدَقهم الأشتر والأشعث حتى نفيا أبا الأعور وأصحابه عن الشريعة ، وصارت في أيديهما ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : « ما ظَنُّكَ بالقوم اليوم إن منعوك الماء كما منعتهم أمس ؟ » ، فقال معاوية : « دَعْ ما مضى ، ما ظَنُّكَ بعليّ ؟ » ، قال : « ظَنِّي أنه لا يَسْتَحِلّ منك ما استحللْتَ منه ، لأنه أتاك في غير أمر الماء » .

ثم توادعَ الناس ، وكَفَّ بعضهم عن بعض ، وأمر عليّ ألا يُمنَع أهل الشام من الماء ، فكانوا يسقون جميعاً ، ويختلط بعضهم ببعض ، ويدخل بعضهم في معسكر بعض ، فلا يعرض أحد من الفريقين لصاحبه إلا بخير ، ورَجوا أن يقع الصُّلح .

وأقبل عُبَيْد الله بن عمر بن الخطاب حتى استأذن على عليّ ، فأذن له ، فدخل عليه ، فقال له عليّ : «أَقَتَلْتَ الهُرْمُزَان ظُلْماً، وقد كان أسْلَمَ على يَدَيْ عَمِّي العباس ، وفَرَضَ له أبوك في ألْفَيْن ، وتَرجو أن تَسْلَم مني ؟ » .

فقال له عُبَيْد الله : « الحمد لله الذي جعلك تطالبني بدم الهُرْمُزَان ، وأنا أطالبك بدم أمير المؤمنين عثمان » .

فقال له عليّ : « ستجمعنا وإيَّاك الحرب ، فتعلم » .

قال: فلم يزالوا يتراسلون شهرى ربيع[١] وجمادى الأولى ، ويفزعون فيما بين ذلك، يزحف بعضهم إلى بعض ، فيحجز بينهم القُرّاء والصالحون ، فيفترقون من غير

---

(١) ربيع الثاني من سنة ٣٧هـ = أغسطس ٦٥٧م .

حرب حتى فزعوا فى هذه الثلاثة الأشهر خمسا وثمانين فَزْعَةً ، كل ذلك يحجز بينهم القُرّاء .

فلما انقضت جمادى الأولى بات علىّ رضى الله عنه يُعَبّى أصحابه ، ويكتّب كتائبه ، وبعث إلى معاوية يؤذنه بحرب ، فَعَبّى معاوية أيضا أصحابه ، وكتّب كتائبه .

فلما أصبحوا تزاحفوا وتواقفوا تحت راياتهم فى صفوفهم ، ثم تحاجزوا ، فلم تكن حرب ، وكانوا يكرهون أن يلتقوا بجميع الفَيْلَقَيْن مخافة الاستئصال ، غير أنه يخرج الجماعة من هؤلاء إلى الجماعة من أولئك ، فيقتتلون بين العسكرين ، فكانوا كذلك حتى أهَلّ هلال رجب ، فأمسك الفريقان .

قالوا : وأقبل أبو الدَّرْدَاء وأبو أُمَامَة الباهلىّ حتى دخلا على معاوية ، فقالا : « عَلاَمَ تُقَاتِل عَلِيًّا ، وهو أحق بهذا الأمر منك ؟ » .

قال : « أقاتله على دم عثمان » .

قالا : « أو هو قتله ؟ » .

قال : « آوَى قتلته ، فَسَلُوهُ أن يُسَلِّم إلينا قتلته ، وأنا أول من يُبايعه من أهل الشام » .

فأقبلا إلى علىّ رضى الله عنه ، فأخبراه بذلك . فاعتزل من عسكر علىّ زهاء عشرين ألف رجل ، فصاحوا : « نحن جميعا قتلنا عثمان » .

فخرج أبو الدَّرْدَاء وأبو أُمَامَةَ فلحقا ببعض السواحل ، ولم يشهدا شيئا من تلك الحروب .

وأنّ معاوية بعث إلى شُرَحْبِيل بن السِّمْط ، وحبيب بن مَسْلَمَة ، ومَعْن بن زيد ابن الأخْنَس ، وقال : « انطلقوا إليه ، وسَلُوهُ أن يُسَلِّمَ إلينا قتلة عثمان ، ويَتَخَلَّى مما هو فيه حتى نجعلها شُورَى بين المسلمين ، يختارون لأنفسهم مَنْ رضوا وأحبُّوا » .

فأقبلوا حتى دخلوا على علىّ رضى الله عنه ، فَبَدَأَ حبيب بن مَسْلَمَة ، فتكلم

بما حمله معاوية ، فقال له علىّ : « وما أنت وذاك ، لا أمّ لك ، فلست هناك ؟! » فقام حبيب مُغْضَباً ، فقال : « والله لتريني بحيث تكره » ، فقال شُرَحْبِيل : « أفلا تُسَلِّم إلينا قتلة عثمان ؟ » ، قال علىّ : « إنى لا أستطيع ذلك ، وهم زهاء عشرين ألف رجل » ، فقاما عنه ، فخرجا ، قالوا : فمكث الناس كذلك إلى أن انْسَلَخَ المحرّم(١) .

وفى ذلك يقول حابس بن سعد الطائىّ ، وكان صاحب لواء طَيِّئ مع معاوية :

فَمَا بَيْنَ الْمَنَايَا غَيْرُ سَبْعٍ ... بَقِينَ مِنَ الْمُحَرَّمِ أَوْ ثَمَانِ
أَلَمْ يُعْجِبْكَ أَنَّا قَدْ هَجَمْنَا ... وَإِيَّاهُمْ عَلَى الْمَوْتِ الْعِيَانِ
أَيَنْهَانَا كِتَابُ اللهِ عَنْهُمْ ... وَلَا يَنْهَاهُمُ آىُ الْقُرَانِ

فلما انسلخ المحرم بعث علىّ مُنَادِياً ، فنادى فى عسكر معاوية عند غروب الشمس : « إنّا أمسكنا لتنصرم الأشهر الحرم ، وقد تصرّمت ، وإنّا نَنْبِذُ إليكم على سَوَاء ، إن الله لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » .

فبات الفريقان يكتبُونَ الكتائب ، وقد أَوْقَدُوا النيران فى العسكرين ، فلما أصبحوا تزاحفوا ، وقد استعمل علىّ على الخيل عمّار بن ياسر ، وعلى الرَّجَّالة عبد الله بن بُدَيْل بن وَرْقَاء الْخُزاعىّ ، ودفع الراية العظمى إلى هاشم بن عُتْبَة المِرقال ، وجعل على الميمنة الأشْعَث بن قَيْس وعلى الميسرة عبد الله بن عباس ، وعلى رجّالة الميمنة سليمان بن صُرَد ، وعلى رجالة الميسرة الحارث بن مُرّة العَبْدىّ ، وجعل فى القلب مُضَر ، وفى الميمنة ربيعة ، وفى الميسرة أهل اليمن ، وضم قريشا وأسدا وكنانة إلى عبد الله بن عباس ، وضمّ كندة إلى الأشعث ، وضمّ بكر البصرة إلى الْحُضَيْن(٢) ابن المنذر ، وضمّ تميم البصرة إلى الأحْنَف بن قَيْس ، ووَلّى أمر خُزَاعَة عمرو بن الحمِق ، ووَلّى بكر الكوفة نُعَيْم بن هُبَيْرة ، ووَلّى سعد رباب البصرة خارجة

(١) من سنة ٣٨ هـ .
(٢) فى الأصل : الحصين .

ابن قُدامة ، وولى بَجِيلة رِفاعة بن شدّاد ، وولى ذُهل الكوفة رُوَيْماً الشَّيْبانىّ ، وولى حَنْظَلَة البصرة أعْيَن بن ضُبَيْعة ، وجعل على قُضاعة كلها عَدِىّ بن حاتم، وجعل على لَهَازِم الكوفة عبد الله بن بُدَيل، وعلى تَيم الكوفة عُمَير بن عُطارد ، وعلى الأزْد جُنْدب بن زهير ، وعلى ذُهل البصرة خالد بن المُعَمَّر ، وعلى حَنْظَلَة الكوفة شَبَث ابن رِبْعِىّ ، وعلى هَمْدان سعد بن قَيْس ، وعلى لَهَازم البصرة خُزَيْمة بن خازم ، وعلى سعد رباب الكوفة أبا صِرْمَة ، واسمه الطُفَيل ، وعلى مَذْحِج الأشتر ، وعلى عبد قيس الكوفة عبد الله بن الطُفَيل، وعلى عبد قَيْس البصرة عمرو بن حَنْظَلَة، وعلى قَيْس البصرة شدادا الهلالىّ ، وعلى اللفيف من القَوَاصِى القاسم بن حنظلة الجُهَنِىّ .

واستعمل معاوية على الخيل عبد الله بن عمرو بن العاص، وعلى الرجالة مُسلم ابن عقبة ، لعنه الله ، وعلى الميمنة عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى الميسرة حبيب ابن مسلمة ، ودفع اللواء الأعظم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، واستعمل على أهل دمشق الضَّحاك بن قَيْس ، وعلى أهل حِمْص ذا الكَلاع ، وعلى أهل قِنَّسرين زُفَر بن الحارث ، وعلى أهل الأرْدُن سفيان بن عمرو ، وعلى أهل فِلَسْطين مَسْلَمة ابن خالد ، وعلى رجّالة دمشق بُسْر بن أبى أرْطَاة ، وعلى رجالة حِمْص حَوْشَباً ذا ظَلِيم ، وعلى رجالة قِنَّسرين طريفَ بن حابس ، وعلى رجالة الأردنّ عبد الرحمن القَيْنِىّ ، وعلى رجالة فلسطين الحارث بن خالد الأزْدِى ، وعلى قيس دمشق همّام ابن قَبِيصة ، وعلى قيس حِمص هلال بن أبى هُبيرة ، وعلى رجالة اليمنة حابس ابن ربيعة ، وعلى قُضاعة دمشق حسان بن بَحْدَل ، وعلى قُضاعة حِمص عبّاد ابن زيد ، وعلى كندة دمشق عبد الله بن جَوْن السَّكْسَكِىّ ، وعلى كندة حمص يزيد بن هُبيرة ، وعلى النَّمِر بن قاسط يزيد بن أسد البَجَلِىّ ، وعلى حِمْيَر هانئ بن عُمَير ، وعلى قضاعة الأردن مُخَارق بن الحارث، وعلى لَخْم فلسطين نائل ابن قيس، وعلى همدان الأردنّ حمزة بن مالك، وعلى غسّان الأردن زيد بن الحارث ،

وعلى أهل القَوَاصِى القَعقَاع بن أبْرَهَة ، وعلى الخيل كلها عمرو بن العاص ، وعلى الرجالة كلها الضَّحَّاك بن قيس .

واصطف كل فريق منهم سبعة صفوف ، صفين فى الميمنة وصفين فى الميسرة ، وثلاثة صفوف فى القلب ، فكان الفريقان أربعة عشر صفا ، فوقفوا تحت راياتهم ، لا ينطق أحد منهم بكلمة ، فخرج رجل من أهل العراق يسمى حَجْل بن أُثال ، وكان من فرسان العرب ، فوقف بين صفوف أهل العراق وأهل الشام ، ثم نادى « هل من مبارز ؟ وهو متقنّع بالحديد ؛ فخرج إليه أبوه أثال ، وكان من معدودى فرسان أهل الشام متقنّعا بالحديد ، ولم يعلم واحد منهما مَن صاحبه ؛ فتطاردا ، والناس قد شخصت أبصارهم ، ينظرون ، فطعن كل واحد منهما صاحبه ، فلم يصنعا شيئاً ، لكمال لأْمَتَيْهِما[١] ، فحمل الأب على الابن ، فاحتضنه حتى أشاله[٢] عن سرجه ، فسقط وسقط الأب عليه ، فانكشفت وجوهيما ، فعرف كل واحد منهما صاحبه ، فانصرفا إلى عسكريهما ، ثم تفرق الناس يومئذ ، ولم يكن بينهما غير هذا .

فلما أصبحوا عادوا إلى مواقفهم ، كما كانوا بالأمس ، فخرج عُتبة بن أبى سفيان حتى وقف على فرسه بين الصفين ، فدعا جَعْدة بن هُبيرة بن أبى وهب القرشىّ ، ليخرج إليه ، فأقبل جعدة حتى دنا من عتبة ، فتجاريا ماهم فيـــه ، وتقاولا حتى أغضب جعدةُ عتبة ، فتناوله عتبة بلسانه ، فانصرفا مغضَبين ، وعبّى كل منهما لصاحبه كتيبة ، فاقتتلوا بين الصفين ، وأعين الناس إليهم ، وباشر جعدةُ القتال ، فانهزم عتبة ، وانصرف الفريقان لم يكن بينهم يومئذ إلا ذاك ، فقال النجاشى يذكر ما كان بينهما :

إنَّ شَتْمَ الكَرِيمِ يا عُتْبَ خَطْبٌ ... فَاعْلَمَنْهُ مِنَ الخُطُوبِ عَظِيمُ
أُمُّهُ أُمُّ هَانِئٍ ، وَأَبُوهُ ... مِنْ لُؤَىِّ بن غَالِبٍ لَصَمِيمُ
إنَّهُ لِلْهُبَيْرَةِ بْنُ أَبِى وَهْـ ... ـبٍ ، أَقَرَّتْ بِفَضْلِهِ مَخْزُومُ

(١) اللأمة : الدرع .   (٢) رفعه .

وقال أيضاً :

مَازِلْتَ تَنْظُرُ فِي عِطْفَيْكَ أُبَّهَةً لَا يَرْفَعُ الطَّرْفَ مِنْكَ التِّيهُ وَالصَّلَفُ
لَمَّا رَأَيْتَهُمُ صُبْحًا حَسِبْتَهُمُ أُسْدَ الْعَرِينِ حَمَى أَشْبَالَهَا الْغَرَفُ(١)
نَادَيْتَ خَيْلَكَ إِذْ عَضَّ السُّيُوفُ بِهَا عُوجِي إِلَيَّ ، فَمَا عَاجُوا وَمَا وَقَفُوا
هَلَّا عَطَفْتَ إِلَى قَتْلَى مُصَرَّعَةً مِنْهَا السَّكُونُ وَمِنْهَا الْأَزْدُ والصَّدَفُ
قَدْ كُنْتَ فِي مَنْظَرٍ عَنْ ذَا وَمُسْتَمَعٍ يَا عُتْبَ لَوْلَا سَفَاهُ الرَّأْيِ وَالنَّزَقُ

قالوا « وخرج الأشعث فى يوم من الأيام فى خيل من أبطال أهل العراق ، فخرج إليه حبيب بن مَسْلَمَة فى مثل ذلك من أهل الشام ، فاقتتلوا بين الصفين مَلِيًّا حتى مضى جُلّ النهار ، ثم انصرفوا وقد انتصف بعضهم من بعض .

وخرج يوما آخر المِرقال هاشم بن عُتْبَة بن أبى وقَّاص فى خيل ، فخرج إليه أبو الأعور السُّلَمِيّ فى مثل ذلك ، فاقتتلوا بين الصفين جُلّ النهار . فلم يفرّ أحد عن أحد .

وخرج يوما آخر عمّار بن ياسر فى خيل من أهل العراق ، فخرج إليه عمرو ابن العاص فى ذلك ، ومعه شُقَّة سوداء على قناة ، فقال الناس : « هذا لواء عَقَدَهُ رسول الله ﷺ » ؟ فقال علىّ رضى الله عنه : « أنا مُخبركم بقصّة هذا اللواء : هذا لواء عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : مَنْ يأخذه بحقه ؟ ، فقال عمرو : وما حقه يارسول الله ؟ فقال : لا تفرّ به من كافر ، ولا تقاتل به مسلما » . فقد فرّ به من الكافرين فى حياة رسول الله ﷺ ، وقد قاتل به المسلمين اليوم . فاقتتل عمرو وعمّار ذلك اليوم كله ، لم يولّ واحد منهما صاحبه الدُّبُر .

وخرج فى يوم آخر محمد بن الحَنَفِيَّة ، فخرج إليه عُبَيْد الله بن عمر فى مثل عدده من أهل الشام ، فقال عُبَيْد الله لابن الحَنَفِيَّة : « ابْرُزْ لى » فقال محمد :

---

(١) الغرف : الشجر الكثيف الملتف ، أى شجر كان .

« نَزالِ » قال : « وذاك » . فنزلا جميعا عن فرسيهما ، ونظر علىّ إليهما ، فحرك فرسه حتى دنا من محمد ، ثم نزل ، وقال لمحمد : « امسكْ علىّ فرسى » ففعل . ومشى إلى عُبَيْد الله ، فولّى عنه عُبَيْد الله ، وقال : « مالى فى مبارزتك من حاجة ، إنما أردتُ ابنك » فقال محمد : « يا أبَتِ[1] ، لو تركتنى أبارزه لرجوت أن أقتله » قال : « لو بارزتَه لرجوتُ ذلك ، وما كنت آمنا أن يقتلك » . واقتتلت خيلاهما إلى أنصاف النهار ، ثم انصرفت ، وكلٌّ غير غالب .

وخرج فى يوم آخر عبد الله بن عباس فى خيل من أهل العراق ، فخرج إليه الوليد بن عُتْبَة فى مثلها من أهل الشام ، فقال الوليد : « يا ابن عباس ، قطعتم أرحامكم ، وقتلتم إمامكم ، ولم تُدْرِكُوا ما أمّلتم » ، فقال له ابن عباس : « دَعْ عنك الأساطير ، وابْرُزْ إلىّ » ، فأبَى الوليد ، وقاتل ابن عباس يومئذ بنفسه قتالاً شديدا ، ثم انصرفا مُنْتَصِفَيْن .

وخرج فى يوم آخر عمرو بن العاص فى خيل من أهل الشام ، فخرج إليه سعد بن قَيْس الهمدانىّ فى مثل ذلك من أهل العراق ، وعمرو يرتجز :

لَا تَأْمَنَنَّ بَعْدَهَا أَبَا حَسَنْ ... طَاحِنَةً تَدُقُّكُمْ دَقَّ الطَّحَنْ
إِنَّا نُمِرُّ الْحَرْبَ إِمْرَارَ الرَّسَنْ[2]

فبدر ممن كان مع عمرو فتًى من أهل الشام ، يسمى حُجْر الشَّرّ ، فدعا للبراز ، فبرز إليه حُجْر بن عَدِىّ ، فاطّعنا ، فطعنه حُجْر الشَّرّ طعنة أذراه عن فرسه ، وحماه أصحابه ، فانصرفا وقد جرحه السنان ، فخرج إليه الحكَم بن أزهر ، وكان من أشراف الكوفة ، فاختلفا ضربتين ، فضربه حُجْر الشَّرّ فقتله ؛ ثم نادى « هل من مبارز ؟ » ، فبرز إليه ابن عم للحكم يسمى رفاعة بن ظَليق ، فضربه حُجْر الشَّرّ فقتله ، فقال علىّ : « الحمد لله الذى قتل هذا مقتل عبد الله بن بديل » .

وخرج فى يوم آخر عبد الله بن بديل الخُزَاعِىّ ، وكان من أفاضل أصحاب علىّ

---

(١) فى الأصل يا أبة . (٢) الرسن : محركة الحبل وما كان من زمام على أنف .

فى خيل من أهل العراق ، فخرج إليه أبو الأعور السُّلَمِى فى مثل ذلك من أهل الشام فاقتتلوا هُوِيًّا [١] من النهار ، فترك عبد الله أصحابه يعتركون فى مجالهم ، وضرب فرسه حتى أحماه ، ثم أرسله على أهل الشام ، فشق جموعهم ، لا يدنو منه أحد إلا ضربه بالسيف حتى انتهى إلى الراية التى كان معاوية عليها ، فقام أصحاب معاوية دونه ، فقال معاوية : « ويحكم ، إن الحديد لم يُؤذَن له فى هذا ، فعليكم بالحجارة » فرُثّ بالصخر حتى مات ، فأقبل معاوية حتى وقف عليه ، فقال : « هذا كبش القوم » هذا كما قال الشاعر :

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضَّهَا ... وَإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرَا
كَلَيْثٍ عَرِينٍ بَاتَ يَحْمِى عَرِينَهُ ... رَمَتْهُ الْمَنَايَا قَصْدَهَا فَتَقَطَّرَا

قالوا : وكان فارسَ معاوية الذى يتقى به حُرَيْثٌ مولاه ، وكان يلبس بِزَّةَ معاوية ، ويستلئم سلاحه ، ويركب فرسه ، ويحمل متشبها بمعاوية ، فإذا حمل قال الناس : « هذا معاوية » وقد كان معاوية نهاه عن علىّ ، وقال « اجْتَنِبْه ، وضَعْ رُمحك حيث شئتَ » . فخَلَا به عمرو ، وقال : « ما يمنعك من مبارزة علىّ ، وأنت له كُفْءٌ ؟ » ، قال : « نهانى مولاى عنه » ، قال : « وإنى والله لأَرْجُو إن بارزته أن تقتله ، فتذهب بشرف ذلك » . فلم يزل يُزَيِّنَ له ذلك حتى وقع فى قلب حُرَيْث .

فلما أصبحوا خرج حُرَيْث حتى قام بين الصفين ، وقال : « يا أبا الحسن ، ابْرُزْ إلىّ ، أنا حُرَيْث » ، فخرج إليه علىّ ، فضربه ، فقتله .

وبعث علىّ يوماً من تلك الأيام إلى معاوية : « لِمَ نقتل الناس بينى وبينك ؟ ابْرُزْ إلىّ ، فأَيُّنا قَتَلَ صاحبه تَوَلَّى الأمر » . فقال معاوية لعمرو : « ما ترى ؟ » قال : « قد أنصَفَكَ الرجل ، فابْرُزْ إليه » ، فقال معاوية : « أتخدعنى عن نفسى ، ولِمَ أبرز إليه ، ودونى عَكٌّ والأشعرون » . ثم قال :

---

(١) هوى بالضم وكغنى ساعة من النهار أو من الليل.

مَا لِلْمُلُوكِ وَلِلْبِرَازِ وَإِنَّمَا حَظُّ الْمُبَارِزِ خَطْفَةٌ مِنْ بَازِ

ووجد من ذلك على عمرو ، فهجره أياما ، فقال عمرو لمعاوية : « أنا خارج إلى علىّ غدا » .

فلما أصبحوا بدَرَ عمرو حتى وقف بين الصفين ، وهو يرتجز :

شُدُّا عَلَىَّ شِكَّتِي لَا تَنْكَشِفْ يَوْمٌ لِهَمْدَانَ وَيَوْمٌ لِلصَّدِفْ
وَلِتَمِيمٍ مِثْلُهُ أَوْ تَنْحَرِفْ وَالرَّبَعِيُّونَ لَهُمْ يَوْمٌ عَصِفْ
إِذَا مَشَيْتُ مِشْيَةَ الْعَوْدِ النَّطِفْ أَطْعَنُهُمْ بِكُلِّ خَطِّيٍّ ثَقِفْ(١)

ثم نادى : « يا أبا الحسن ، اخرج إلىّ ، أنا عمرو بن العاص » . فخرج إليه علىّ ، فتطاعنا ، فلم يصنعا شيئا ، فانتضى علىّ سيفه ، فحمل عليه ، فلما أراد أن يجلله رمى بنفسه عن فرسه ، ورفع إحدى رجليه ، فبدت عورته ، فصرف علىّ وجهه ، وتركه . وانصرف عمرو إلى معاوية ، فقال له معاوية : « احمد الله وسوداء إستك يا عمرو » .

قالوا : وخرج عُبَيْد الله بن عمر بن الخطاب يوماً من تلك الأيام ، وكان من فرسان العرب وأبطالها فى خيل من أهل الشام ، وخرج الأشتر فى مثلها ، فاشتدت بينهما الحرب ، فالتقى عُبَيد الله والأشتر ، فحمل عُبَيد الله على الأشتر ، وبدره الأشتر يطعنه ، فأخطأه ، وأسرع الأشتر فى أصحاب عُبَيد الله ، فانصرف الفريقان ، وللأشتر الفضل .

وخرج يوماً آخر عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان من معدودى رجال معاوية ، فخرج إليه عَدِىّ بن حاتم فى مثلها ، فاقتتلوا يومهم كله ، ثم انصرفوا ، وكل غير غالب .

---

(١) الخطى الثقف : الرمح المعتدل .

وخرج يوماً ذو الـكلاع فى أربعـة آلاف فارس من أهل الشام قد تبَايَعُوا على الموت ، فحملوا على ربيعة ، وكانوا فى ميسرة علىّ ، وعليهم عبد الله بن عباس ، فتَصَدَّعَتْ جموع ربيعة ، فناداهم خالد بن المُعَمَّر : « يا معشر ربيعة أسْخطتم الله » فثابوا إليه ، فاشتد القتال حتى كَثُرَت القتلَى ، ونادَى عُبَيْد الله بن عمر : « أنا الطَّيِّبُ ابن الطَّيِّب » ، فسمعه عمّار ، فناداه : « بل أنت الخبيثُ ابن الطَّيِّبُ » . ثم حمل عُبَيْد الله ، وهو يرتجز :

أَنَا عُبَيْدُ اللهِ يَنْمِينِي عُمَـــرْ   خَيْرُ قُرَيْشٍ مَنْ مَضَى وَمَنْ غَبَرْ
غَيْرَ رَسُولِ اللهِ وَالشَّيْخِ الْأَغَرّ   أَبْطَأَ عَنْ نَصْرِ ابْنِ عَفَّانَ مُضَرْ
وَالرَّبَعِيُّونَ ، فَلَا أُسْقُوا الْمَطَرْ

فضرب شَجَرَ بن الرَّيَّان العجلىّ ، فقتله ، وكان من فرسان ربيعة .

[مقتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب]

فلما أصبحوا خرج عُبَيْد الله فيمن كان معه بالأمس ، وخرجت إليهم ربيعة ، فاقتتلوا بين الصفّين ، وعبيد الله أمامهم يضرب بسيفه ، فحمل عليه حُرَيْث بن جابر الحَنَفِىّ ، فطعنه فى لبّته(١) ، فقتله ؛ وقد اختلفوا فى قتـله ، فقالت(٢) همدان : قتله هانى، بن الخطاب ، وقالا[ت] حضرموت : قتله مالك بن عمرو الحضرمىّ ، وقالت ربيعة : حُرَيْث بن جابر الحَنَفِىّ ، وهو المُجْمَعُ عليه ، فقال كعب بن جُعَيْل يرثيه :

أَلَا إِنَّمَا تَبْكِى الْعُيُونُ لِفَارِسٍ   بِصِفِّينَ أَجَلَتْ خَيْلُهُ وَهْوَ وَاقِفُ
فَأَضْحَى عُبَيْدُ اللهِ بِالْقَاعِ مُسْلَمًا   تَمُجُّ دَمًا مِنْهُ وَالْعُرُوقُ النَّوَازِفُ
يَنُوءُ وَتَعْلُوهُ سَبَائِبُ مِنْ دَمٍ   كَمَا لَاحَ فِي جَيْبِ الْقَمِيصِ الْكَفَائِفُ(٣)
وَقَدْ ضَرَبَتْ حَوْلَ ابْنِ عَمِّ نَبِيِّنَا   مِنَ الْمَوْتِ شَهْبَاءُ الْمَنَاكِبِ شَارِفُ(٤)

---

(١) المنحر وموضع القلادة من الصدر .   (٢) فى الأصل : فقال .

(٣) السبائب جمع سبيبة وهى الشقة الرقيقة من الثياب ، والـكفائف طرر القميص التى لا أهداب لها .   (٤) يعنى أن الـكتيبة قد صارت مناكبها شهباء لما يعلوها من الحديد .

تَمُوجُ تَرَى الرَّايَاتِ حُمْرًا كَأَنَّهَا ... إِذَا صُوِّبَتْ لِلطَّعْنِ طَيْرٌ عَوَاكِفُ
جَزَى اللهُ قَتْلَانَا بِصِفِّينِ خَيْرَ مَا ... جَــزَى عِبَادًا غَادَرَتْهَا الْمَوَاقِفُ

[مقتل ذى الـكلاع]

قالوا : وخرج ذو الـكلاع فى يوم من تلك الأيام فى كتيبة من أهل الشام من عكّ ولَخْم ، فخرج إليه عبد الله بن عباس فى ربيعة ، فاقتتلوا ، ونادى رجل من مَذْحِج العراق « يا آل مَذْحِج ، خَذِّموا[1] » فاعترضت مَذْحِج عكّاً يضربون سوقهم بالسيوف ، فيبركون . فنادى ذو الـكلاع .. يا آل عَـكّ ، بروكا كبروك الإبل .

وحمل رجل من بكر بن وائل يسمّى خِنْدِفا على ذى الـكلاع ، فضربه بالسيف على عاتقه ، فقدّ الدّرع ، وفرَى عاتقه ، فخرّ ميتا ؛ فلما قُتل ذو الـكلاع تمحّـكت عَكّ ، وصبروا لِمضض السيوف ، فلم يزالوا كذلك حتى أمسوا .

وكان أهل العراق وأهل الشام أيام صِفّين إذا انصرفوا من الحرب يدخل كل فريق منهم فى الفريق الآخر ، فلا يعرض أحد لصاحبه ، وكانوا يطلبون قتلاهم ، فيخرجونهم من المعركة ، ويدفنونهم .

قالوا : وإن عَلِيًّا رضى الله عنه أشاع أنه يخرج إلى أهل الشام بجميع الناس ، فيقاتلهم حتى يحكم الله بينه وبينهم ، ففزع الناس لذلك فزعا شديدا ، وقالوا : « إنما كنا إلى اليوم نخرج الـكتيبة إلى مثلها ، فيقتتلون بين الجمعين ، فإن التقينا بجميع الفَيْلَقَيْنِ فهو فناء العرب » .

وقام [علىّ] فى الناس خطيبا ، فقال : « ألا إنـكم مُلاَقُو القوم غداً بجميع الناس ، فأطيلوا الليلة القيام ، وأكثروا تلاوة القرآن ، وسَلُوا الله الصبر والعفو ، والقَوْهم بالجدّ » .

---

(١) فى الأصل : خدموا والصواب : خذموا أى أسرعوا فى السير .

فقال كعب بن جُعَيْل :

أَصْبَحَتِ الْأُمَّةُ فِي أَمْرٍ عَجَبْ   وَالْمُلْكُ مَجْمُوعٌ غَدًا لِمَنْ غَلَبْ
أَقُولُ قَوْلًا صَادِقًا غَيْرَ الْكَذِبْ   إِنَّ غَدًا تَهْلِكُ أَعْلَامُ الْعَرَبْ

واجتمع أهل الشام إلى معاوية ، فعرضهم ، فنادى مُنادِيه : « أين الجند المقدَّم؟» فخرج أهل حِمْص تحت راياتهم ، وعليهم أبو الأعور السُّلَمِيّ ، ثم نادى : « أين أهل الأُرْدُنّ ؟ » ، فخرجوا تحت راياتهم ، وعليهم زُفَر بن الحارث الكلابيّ ، ثم نادَى : « أين جُنْد الأمير ؟ » فجاء أهل دمشق تحت راياتهم ، وعليهم الضَّحَّاك ابن قَيْس ، فأطافوا بمعاوية ، فعَقَدَ لعمرو بن العاص على جميع الناس ، وساروا حتى وقفوا بإزاء أهل العراق .

وقعد معاوية على منبر ينظر منه فوق رابِيَة إلى الفريقين إذا اقتتلوا ، وأقبلت عكّ الشام ، وقد عَصَبُوا أنفسهم بالعمائم ، وطَرَحُوا بين أيديهم حَجَرًا ، وقالوا : « لا نُوَلّي الدُّبُر أو يُوَلّي معنا هذا الحجر » ، فصَفَّهم عمرو خمسة صفوف ، ووقف أمامهم يرتجز :

يَا أَيُّهَا الْجَيْشُ الصَّلِيبُ الْإِيمَانْ   قُومُوا قِيَامًا ، فَاسْتَعِينُوا الرَّحْمَنْ (١)
إِنِّي أَتَانِي خَبَرٌ فَأَبْكَانْ   أَنَّ عَلِيًّا قَتَلَ ابْنَ عَفَّانْ
رُدُّوا عَلَيْنَا شَيْخَنَا كَمَا كَانْ

وأنشأ رجل من أهل الشام يقول :

تَبْكِي الْكَتِيبَةُ يَوْمَ جَرَّ حَدِيدَهَا   يَوْمَ الْوَغَى جَزَعًا عَلَى عُثْمَانَا
يَسَلُونَ حَقَّ اللهِ لَا يَعْدُونَهُ   وَسَأَلْتُمُ لِعَلِيِّ السُّلْطَانَا
فَأْتُوا بِبَيِّنَةٍ بِمَا تَسَلُونَهُ   هٰذَا الْبَيَانُ ، فَأَحْضِرُوا الْبُرْهَانَا

ولما أصبح عليّ رضي الله عنه غَلَّسَ (٢) بصلاة الفجر ، ثم أمر أصحابه ، فخرجوا

---

(١) في الأصل : الرحان .   (٢) صلى الفجر في أول وقته .

تحت راياتهم ، ثم جعل يدور على رايات أهل الشام ، فيقول : « مَنْ هؤلاء ؟ » فَيُسَمَّوْنَ له ، حتى إذا عرفهم ، وعرف مراكزهم ، قال لأَزْد الكوفة : « اكفونى أَزْد الشام » ، وقال لخَثْعَم : « اكفونى خَثْعَم » ، فأمر كل قبيلة من أهل العراق أن تكفيه أختها من أهل الشام ؛ ثم أمرهم أن يحملوا من كل ناحية حملة رجل واحد ؛ فحملوا ، وحمل علىّ رضى الله عنه على الجَمْع الذى كان فيه معاوية فى أهل الحجاز من قريش والأنصار وغيرهم ، وكانوا زُهاء اثنى عشر ألف فارس ، وعلىّ أمامهم ، وكَبَّرُوا وكَبَّرَ الناس تكبيرة ارتجّتْ لها الأرض ، فانتقضت صفوف أهل الشام ، واختلفت راياتهم ، وانتهوا إلى معاوية ، وهو جالس على منبره ، معه عمرو بن العاص ، ينظران إلى الناس ، فدعا بفرس ليركبه .

ثم إنّ أهل الشام تَدَاعَوْا بعد جَوْلتهم ، وثابوا ، ورجعوا على أهل العراق ، وصَبَرَ القوم بعضهم لبعض إلى أن حَجَزَ بينهم الليل ، فقُتِلَ فى ذلك اليوم أناس كثير من أعلام العرب وأشرافهم ؛ فلما أصبحوا دخل الناس بعضهم فى بعض ، يستخرجون قَتْلاهم ، فيدفنونهم يومهم ذلك كله .

ثم إن عَلِيًّا قام فى عَشِيَّة ذلك اليوم فى أصحابه ، فقال : « أيها الناس ، اغدُوا على مصافّكم ، وازحفوا إلى عدوّكم ، وغضّوا الأبصار ، واخْفِضُوا الأصوات ، وأقِلُّوا الكلام ، واثبتوا ، واذكروا الله كثيراً ، ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ، إن الله مع الصابرين » .

وقام معاوية فى أهل الشام ، فقال : « أيها الناس ، اصْبِرُوا وصابِرُوا ، ولا تَتَخَاذَلُوا ولا تَتَوَاكَلُوا ، فإنكم على حَقّ ، ولكم حُجَّة ، وإنما تقاتلون مَنْ سَفَكَ الدَّمَ الحَرَامَ ، فليس له فى السماء عاذر » .

وقام عمرو ، فقال : « أيها الناس ، قَدِّمُوا المُسْتَلْئِمَة وأخِّرُوا الحُسَّر (١) ، وأعيرونا جماجمكم اليوم ، فقد بلغ الحق مقطعه ، وإنما هو ظالم أو مظلوم » .

(١) الحاسر خلاف الدارع ، ويقال للرجالة فى الحرب الحسر لأنه لا درع عليهم ولا بيض على رءوسهم .

فباتَ الفريقان طول تلك الليلة يتعبُّون للحرب ، ثم غدَوْا على مصافّهم ، وحمل الفريقان بعضهم على بعض ، وحمل حبيب بن مَسْلَمَة ، وكان على ميسرة معاوية ، على ميمنة علىّ رضى الله عنه ، فانكشفوا وجالوا جَوْلَة ، ونظر علىّ إلى ذلك ، فقال لسَهْل بن حُنَيْف : « انهض فيمن معك من أهل الحجاز حتى تُعِينَ أهل الميمنة » ؛ فمضى سَهْل فيمن كان معه من أهل الحجاز نحو الميمنة ، فاستقبلهم جموع أهل الشام ، فكشفوه ومَنْ معه حتى انتهوا إلى علىّ ، وهو فى القلب ، فجالَ القلب وفيه علىّ جَوْلَةً ، فلم يبق مع علىّ إلا أهل الحِفَاظ والنَّجْدَة ، فَحَثّ علىّ فرسه نحو ميسرته ، وهم وقوف يُقاتلون مَنْ بإزائهم من أهل الشام ، وكانوا ربيعة .

قال زيد بن وهب : « فإنى لأنظر إلى علىّ ، وهو يمر نحو ربيعة ، ومعه بنوه : الحسن والحسين ومحمد ، وإن النَّبل ليمرّ بين أذنيه وعاتقه ، وبَنُوهُ يَقُونَهُ بأنفسهم ، فلما دَنا علىّ من الميسرة ، وفيهـا الأشتر ، وقد وقفوا فى وجوه أهل الشام يُجالِدُونَهُم ، فناداه علىّ ، وقال : « إيت هؤلاء المنهزمين ، فَقُلْ : أين فراركم من الموت الذى لم تُعْجِزُوهُ إلى الحياة التى لا تبقى لكم » .

فدفع الأشتر فرسه ، فعارض المنهزمين ، فناداهم : « أيها الناس ، إلىّ إلىّ ، أنا مالك بن الحارث » فلم يلتفتوا إليه ، فظن أنه بالاستمراف ، فقال : « أيها الناس أنا الأشتر » فثابوا إليه ، فزحف بهم نحو ميسرة أهل الشام . فقاتل بهم قتالا شديدا حتى انكشف أهل الشام ، وعادوا إلى مواقفهم الأولى .

ورتّب الأشتر ميمنة علىّ رضى الله عنه والقلب مراتبهما قبل الجولة ، فلما عادوا إلى مواقفهم جعل علىّ يسير فى الصفوف ويُؤنِّبهم على ما كان من جولتهم ، وذلك ما بين صلاة العصر والمغرب .

قال : ثم إن أهل الشام حملوا على تميم ، وكانوا فى الميمنة ، فكشفوهم ، فناداهم زَحْر [1] بن نَهْشَل : يا بنى تميم ، إلى أين ؟ قالوا : « ألا ترى إلى ما قـد غشينا؟! »

---

(١) فى الأصل : زجر .

فقال : « وَيْحَكُم ، أفِرَاراً واعتذارا ؟! إن لم تقاتلوا على الدِّين ، فقاتلوا على الأحساب ، احملوا معى » . فحمل وحملوا ، فقاتل حتى قُتِلَ ، وهو أمامهم ، وحمل الناس جميعا بعضهم على بعض ، واقتتلوا حتى تكسرت الرماح وتقطعت السيوف ، ثم تكادموا[1] بالأفواه ، وتحاثوا بالتراب ، ثم تنادوا من كل جانب : « يا معشر العرب ، مَنْ للنساء والأولاد ، اللهَ اللهَ فى الحُرُمَات » .

وإن عَلِيًّا رضى الله عنه لينغمس فى القوم ، فيضرب بسيفه حتى ينثنى ، ثم يخرج مُتَخَضِّباً بالدم حتى يُسَوَّى له سيفه ، ثم يرجع ، فينغمس فيهم ، وربيعة لا تترك جهدا فى القتال معه والصبر ، وغابت الشمس ، وقربوا من معاوية ، فقال لعمرو : « ما ترى ؟ » قال : « أن تخلى سُرادِقك » .

فنزل معاوية عن المنبر الذى كان يكون عليه ، وأخلى السُّرَادِق ، وأقبلت ربيعة ، وأمامها علىّ رضى الله عنه حتى غشوا السرادق ، فقطعوه ، ثم انصرفوا ، وبات علىٌّ تلك الليلة فى ربيعة .

[مقتل هاشم بن عتبة بن أبى وقاص المرقال]

فلما أصبح علىّ غادى[2] أهل الشام القتال ، ودفع رايته العظمى إلى هاشم بن عُتْبَة ، فقاتل بها نهاره كله ، فلما كان العَشِىّ انكشف أصحابه انكشافة ، وثبت هاشم فى أهل الحفاظ منهم والنجدة ، فحمل عليهم الحارث بن المنذر التَّنُوخِىّ ، فطعنه طعنة جائفة[3] ، فلم ينته عن القتال ، ووافاه رسول علىّ يأمره أن يقدّم رايته ، فقال للرسول : « انظر إلى ما بى » فنظر إلى بطنه ، فرآه منشقا ، فرجع إلى علىّ ، فأخبره ، ولم يلبث هاشم أن سقط ، وجال أصحابه عنه ، وتركوه بين القتلى ، فلم يلبث أن مات . وحال الليل بين الناس وبين القتال .

---

(١) عض بعضهم بعضا . (٢) باكرهم .

(٣) مائلة ، وجأفه أى صرعه ، لغة فى جعفه .

فلما أصبح علىّ غَلَّسَ (١) بالصلاة، وزحف بجموعه نحو القوم على التَّعْبِيَة الأولى ، ودفع الراية إلى ابنه عبد الله بن هاشم بن عُتبة ، وتزاحف الفريقان فاقتتلوا . فرُوِى عن القَعْقاع الظَفَرِىّ أنه قال : « لقد سمعت فى ذلك اليوم من أصوات السيوف ما الرعد القاصف دونه » وعلى رضى الله عنه واقف ينظر إلى ذلك ، ويقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، والله المُستعان ، ربَّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين » .

ثم حمل علىّ بنفسه على أهل الشام حتى غاب فيهم ، فانصرف مُخَضَّبا بالدماء ، فلم يزالوا كذلك يومهم كله والليل حتى مضى ثلثه ، وجرح علىّ خمس جراحات ، ثلاث فى رأسه واثنتان فى وجهه ، ثم تفرقوا وغَدوا على مصافهم ، وعمرو بن العاص يقدم أهل الشام ، فحمل عبد الله بن جعفر ذو الجناحين فى قريش والأنصار فى وجه عمرو فاقتتلوا ، وحمل غلامان أخوان من الأنصار على جموع أهل الشام حتى انتهيا إلى سرادق معاوية ، فقتلا على باب السرادق ، ودارت رحى الحرب إلى أن ذهب ثلث الليل ، ثم تحاجزوا ؛ ولما أصبح الناس اختلط بعضهم ببعض ، يستخرجون قتلاهم ، فيدفنونهم .

وكتب معاوية إلى علىّ : « أمّا بعد ، فإنى إنما أقاتلك على دم عثمان ، ولم أرَ المُداهَنَة فى أمره وإسلامَ حقّه ، فإن أُدرِك بثأرى فيه فذاك ، وإلّا فالموت على الحق أجمل من الحياة على الضَّيْم ، وإنما مَثَلى ومَثَل عثمان ، كما قال المخارق :

فَمَهْمَا تَسَلْ عَنْ نُصْرَتِى السَّيِّدَ لَا تَجِدْ
لَدَى الْحَرْبِ بَيْتَ السَّيِّدِ عِنْدِى مُذَمَّمَا

فكتب إليه علىّ : « أمّا بعد ، فإنى عارض عليك ما عرض مخارق على بنى فالج ، حيث قال :

---

(١) الغلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح ، والمراد أنه صلى الصبح فى أول وقته .

يَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَا ... بَنِى فَالِجٍ حَيْثُ اسْتَقَرَّ قَرَارُهَا
هَلُمُّوا إِلَيْنَا لَا تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ ... بَلَاقِعُ أَرْضٍ طَارَ عَنْهَا غُبَارُهَا
سُلَيْمُ بْنُ مَنْصُورٍ أُنَاسٌ أَعِزَّةٌ ... وَأَرْضُهُمُ أَرْضٌ كَثِيرٌ وِبَارُهَا(١)

فكتب إليه معاوية : إنّا لم نزل للحرب قادة ، وإنما مَثَلى ومَثَلك ما قال أوس بن حَجَر :

إِذَا الْحَرْبُ حَلَّتْ سَاحَةَ الْحَىِّ أَظْهَرَتْ
عُيُوبَ رِجَالٍ يُعْجِبُونَكَ فِي الْأَمْنِ
وَلِلْحَرْبِ أَقْوَامٌ يُحَامُونَ دُونَهَا
وَكَمْ قَدْ تَرَى مِنْ ذِى رُوَاءٍ وَلَا يُغْنِى

ثم غدَوْا على الحرب ، وراية أهل الشام العُظمى مع عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد ، وكان يحمل بها فلا يلقاه شىء إلّا هَدّه ، وكان من فرسان العرب ؛ وكانت من أهل العراق جوْلَة شديدة ، فنادَى الناس الأشتر ، وقالوا : « أما ترى اللّواء أين قد بلغ؟ » ، فتناول الأشتر لواء أهل العراق ، فتقدَّم به ، وهو يرتجز :

إِنِّى أَنَا الْأَشْتَرُ مَعْرُوفُ الشَّتَرْ ... إِنِّى أَنَا الْأَفْعَى الْعِرَاقِىُّ الذَّكَرْ(٢)

فقاتل أهل الشام حتى ردّ اللواء ، وردّهم على أعقابهم ؛ ففى ذلك يقول النّجاشىّ :

رَأَيْتُ اللِّوَاءَ كَظِلِّ الْعُقَابِ ... يُقَحِّمُهُ الشَّانِئُ الْأَخْزَرُ(٣)
دَعَوْنَا لَهُ الْكَبْشَ كَبْشَ الْعِرَاقِ ... وَقَدْ خَالَطَ الْعَسْكَرَ الْعَسْكَرُ
فَرَدَّ اللِّوَاءَ عَلَى عَقْبِهِ ... وَفَازَ بِحُظْوَتِهَا الْأَشْتَرُ

[مقتل حوشب ذى ظليم]

قالوا : وأخذ الراية جُندب بن زُهير ، فخرج إليه حَوْشَب ذو ظُلَيم ، وكان من عظماء أهل الشام ، وفرسانهم ، فأخذ الراية وجعل يمضى بها قدما ، وينكأ

(١) أى شجرها . (٢) الشتر بالتحريك انقلاب جفن العين من أعلى وأسفل ، أو استرخاء أسفله ، والأشتر لقب اشتهر به إبراهيم بن مالك بن الحارث .

(٣) العقاب طائر عظيم ، والخزر بالتحريك انكسار بصر العين خلقة ، أو ضيقها وصغرها.

فى أهل العراق ، فخرج إليه سليمان بن صُرَد ، وكان من فرسان علىّ ، فاقتتلوا ، فَقُتِلَ حَوْشَب ، وجال أهل العراق جولة انتقضت صفوفُهم ، وانحاز أهل الحفاظ منهم مع علىّ رضى الله عنه إلى ناحية أخرى يقاتلون ؛ وأقبل عَدِىّ بن حاتم يطلب عليًّا فى موضعه الذى خلّفه فيه ، فلم يجده ، فسأل عنه ، فدُل عليه ، فأقبل إليه ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أمّا إذ كنتَ حيا فالأمر أمَم[1] ، واعلم أنى ما مشيتُ إليك إلا على أشلاء القتلَى ، وما أبقى هذا اليوم لنا ولا لهم عميدا » .

وكان أكثر من صبر فى تلك الساعة مع علىّ وقاتل ربيعة ، فقال علىّ رضى الله عنه : « يامعشر ربيعة ، أنتم درعى وسيفى » ثم ركب الفرس[2] الذى كان لرسول الله ﷺ ـ يسمى الربع ـ وجنّب بين يديه بغلة رسول الله ﷺ الشهباء ، وتعمّم بعمامته ﷺ السوداء ، ثم أمر مناديه ، فنادى : « أيها الناس ، مَنْ يشرى نفسه لله؟ » فانتدب له الناس ، وانضموا إليه ، فأقبل بهم على أهل الشام حتى أزال راياتهم ؛ وجالوا جولة قبيحة حتى دعا معاوية بفرسه ليركبها ، ثم نادى مناديه فى أهل الشام : « إلى أين أيها الناس ؟ أثيبوا ، فإن الحرب سجال » فثاب إليه الناس ، وكرّوا على أهل العراق .

وقال معاوية لعمرو : قدّم عكّ والأشعَرِين ، فإنهم كانوا أول من انهزم فى هذه الجولة . فأتاهم عمرو ، فبلّغهم قول معاوية ، فقال رئيسهم مسروق المكّى : « انتظرونى حتى آتى معاوية » فأتاه ، فقال : « افرض لقومى فى ألفين ألفين ، ومن هلك منهم فابن عمه مكانه » ، قال : « ذلك لك » ؛ فانصرف إلى قومه ، فأعلمهم ذلك ، فتقدّموا ، فاضطربوا هم وهمدان بالسيوف اضطرابا شديداً ، فأقسمت عكّ لا ترجع حتى ترجع همدان ، وأقسمت همدان على مثل ذلك .

فقال عمرو لمعاوية : « لَقِيَتْ أسدٌ أسدًا ، لم أرَ كاليوم قط » .

فقال معاوية : « لو أن معك حيًّا آخر كعكّ ، ومع علىّ كهمدان لكان الفناء » .

---

(١) أى يسير وهين . (٢) الفرس للذكر والأنثى من الخيل .

وكتب معاوية إلى عليّ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب ، أما بعد، فإني أحسبك أن لو علمت وعلمنا ، أن الحرب تبلغ بك وبنا ما بلغت لم تَجْنِها على أنفسنا ، فإنا وإن كنا قد غُلِبْنا على عقولنا ، فقد بقى لنا منها ما ينبغى أن نندم على ما مضى ونصلح ما بقى ، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو ، ولا أخاف من القتل إلا ما تخاف ، وقد والله رقّت الأجْناد ، وتفانى الرجال ، ونحن بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل إلا ما يُسْتَذَلّ به العزيز ، ولا يُسْتَرَقّ به الحرّ ، والسلام » .

فكتب إليه على رضى الله عنه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فقد أتانى كتابك ، تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بك وبنا ما بلغت لم تجنها على أنفسنا ، فاعلم أنك وإيانا منها إلى غاية لم نبلغها بعد ، وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء ، فإنك لست أمضى على الشك منى على اليقين ، وليس أهلُ الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة ، وأما قولك إنا بنو عبد مناف ، وليس لبعضنا على بعض فضل ، فليس كذلك، لأن أُميّة ليس كهاشم ، ولا حَرْبا كعبد المطلب ، ولا أبا سفيان كأبى طالب، ولا المُهاجر كالطليق ، وفى أيدينا فضل النُّبُوَّة التى بها قتلنا العزيز ، ودان لنا بها الذليل » .

ثم إن عَلِيًّا رضى الله عنه غَلَّسَ بالصلاة صلاة الفجر ، وزحف بجموعه نحو أهل الشام ، فوقف الفريقان تحت راياتهم، وخرج الأشتر على فرس كُمَيت ذَنُوب[1] مقنعا بالحديد ، وبيده الرمح ، فحمل على أهل الشام ، فاتبعه الناس ، وكسر فيهم ثلاثة أرماح ، واضطرب الناس بالسيوف وعُمُد الحديد ؛ وبرز رجل من أهل الشام مُقَنَّعًا بالحديد ، ونادى : « يا أبا الحسن ، اذنُ منى ، أكلمك » فدنا منه علىّ

(١) طويل الذنب .

حتى اختلفت أعناق فرسيهما بين الصفّين ، فقال : « إن لك قَدَماً فى الإسلام ليس لأحد ، وهِجْرَةً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجِهَادًا ، فهل لك أن تحقن هذه الدّماء ، وتؤخّر هذه الحرب برجوعك إلى عراقك ، ونرجع إلى شامنا إلى أن تنظر وننظر فى أمرنا ؟ » .

فقال علىّ : « يا هذا ، إنى قد ضربت أنف هذا الأمر وعينيه ، فلم أجده يسعنى إلا القتال أو الكُفْر بما أنْزَلَ الله على محمد ، إنّ الله لا يَرْضَى من أوليائه أن يُعصَى فى الأرض ، وهم سُكُوتٌ ، لا يأمرون بمعروفٍ ولا يَنْهَوْنَ عن منكر ، فوَجَدْتُ القتال أهْوَنَ من معالجة الأغلال فى جهنم » .

قال : فانصرف الشامىّ ، وهو يسترجع ؛ ثم اقتتلوا حتى تكسّرت الرّماح ، وتقطّعت السيوف ، وأظلمت الأرض من القَتام[١] ، وأصابهم البُهْر[٢] ، وبقى بعضهم ينظر إلى بعض بَهيرًا . فتحاجزوا بالليل ، وهو ليلة الهَرِير . ثم أصبحوا غَدَاةَ هذه الليلة ، واختلط بعضهم ببعض يستخرجون قَتْلاهم ويدفنونهم .

ثم إنّ عَلِيًّا قام من صبيحة ليلة الهرير فى الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، إنه قد بلغ بكم وبعدوّكم الأمر إلى ما ترون ، ولم يبق من القوم إلا آخر نَفَس ، فتأهّبوا رحمكم الله لمناجزة عدوّكم غدًا ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، وهو خير الحاكمين » .

وبلغ ذلك معاوية ، فقال لعمرو: «ماترى، فإنما هو يومنا هذا وليلتنا هذه؟» ، فقال عمرو : « إنى قد أعددت بحيلتى أمرا أخّرتُه إلى هذا اليوم ، فإن قبلوه اختلفوا ، وإن ردّوه تفرقوا ، قال معاوية: « وماهو؟ » قال عمرو: «تدعوهم إلى كتاب الله حكما بينك وبينهم، فإنك بالغ به حاجتك » . فعلم معاوية أن الأمر كما قال .

قالوا : وإن الأشعث بن قيس قال لقومه ، وقد اجتمعوا إليه : « قد رأيتم ما كان فى اليوم الماضى من الحرب المُبِيرة[٣] وإنا والله إن التقينا غدا ، إنه لبوار العرب وضيعة الحرمات » .

---

(١) الغبار . (٢) البهر : انقطاع النفس أو تتابعه من الإعياء ، وهو مبهور وبهير .
(٣) المسرفة فى إهلاك الناس .

قالوا : « فانطلقت العيون إلى معاوية بكلام الأشعث ، فقال : صدق الأشعث ، لئن التقينا غدا ليميلنّ الروم على ذَرَارِيّ أهـل الشام ، وليميلن دهاقين فارس على ذراريّ أهل العراق ، ومايبصر هذا الأمر إلا ذوو الأحلام ، اربطوا المصاحف على أطراف القنا[1] » .

قالوا : فرُبِطَتِ المصاحف ، فأول مارُبِطَ مصحف دمشق الأعظم ، ربط على خمسة أرماح ، يحملها خمسة رجال ، ثم ربطوا سائر المصاحف ، جميع ما كان معهم ، وأقبـلوا فى الغَلَس ، ونظر أهل العراق إلى أهل الشام قد أقبلوا ، وأمامهم شبيهٌ بالرايات، فلم يدروا ما هو ، حتى أضاء الصبح ، فنظروا ، فإذا هى المصاحف .

ثم قام الفضل بن أدهم أمام القلب ، وشُرَيْح الجُـذامىّ أمام الميمنة ، ووَرْقاء ابن المعمّر أمام الميسرة ، فنادوا : « يامعشر العرب ، اللهَ . اللهَ فى نسائكم وأولادكم من فارس والروم غدا ، فقد فنيتم ، هذا كتاب الله بيننا وبينكم » . فقال علىّ رضى الله عنه : « ما الكتاب تريدون ، ولكن المكر تحاولون » .

ثم أقبل أبو الأعور السُّلَمِىّ على برذون أشهب ، وعلى رأسه مصحف ، وهو ينادى : « يا أهل العراق ، هذا كتاب الله حكمًا فيما بيننا وبينكم » .

فلما سمع أهل العراق ذلك قام كُرْدوس بن هانئ البكرى ، فقال : « يا أهل العراق ، لا يُهدنكم ما ترون من رفع هذه المصاحف ، فإنها مكيدة » . ثم تكلم سفيان بن ثور الشُّكرى[2] ، فقال : « أيها الناس ، إنا قد كنا بدأنا بدعاء أهل الشام إلى كتاب الله ، فردوا علينا ، فاستحللنا قتالهم ، فإن رددناه عليهم حل لهم قتالنا ، ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ولا رسوله » .

ثم قام خالد بن المعمّر ، فقال لعلىّ : « يا أمير المؤمنين ، ما البقاء إلا فيما دعا القوم إليه إن رأيته ، وإن لم تره فرأيك أفضل » . ثم تكلم الحُضَيْن بن المنذر ، فقال : « أيها الناس ، إن لنا داعيا قد حمدنا ورْدَه وصَدَرَه ، وهو المأمون على مافعل ، فإن قال : لا ، قلنا : لا ؛ وإن قال : نعم ، قلنا : نعم » .

(١) جمع قناة وهى الرمح .   (٢) فى الأصل : البكرى .

فتكلم عليّ ، وقال : « عباد الله ، إنا أحرى من أجاب إلى كتاب الله ، وكذلك أنتم ؛ غير أن القوم ليس يريدون بذلك إلا المكر ، وقد عضّتهم الحرب ؛ والله ، لقد رفعوها وما رأيهم العمل بها ، وليس يسعني مع ذلك أن أُدْعَى إلى كتاب الله فآبى ، وكيف وإنما قاتلناهم ليدينوا بحكمه ».

فقال الأشعث : « يا أمير المؤمنين نحن لك اليوم على ما كنا عليه لك أمس ، غير أن الرأى ما رأيت من إجابة القوم إلى كتاب الله حكما ». فأما عَدِيّ بن حاتم وعمرو ابن الحَمِق فلم يهويا ذلك ، ولم يشيروا على عليّ به .

ولما أجاب عليّ رضى الله عنه ، قالوا له : « فابعث إلى الأشتر ليمسك عن الحرب ويأتيك ». وكان يقاتل فى ناحية الميمنة ؛ فقال على ليزيد بن هانئ : « انطلق إلى الأشتر ، فمره أن يدع ماهو فيه ، ويقبل » ، فأتاه ، فأبلغه ، فقال : « ارجع إلى أمير المؤمنين، فقل له إن الحرب قد اشتجرت بينى وبين أهل الناحية ، فليس يجوز أن أنصرف » .

فانصرف يزيد إلى عليّ ، فأخبره بذلك ، وعَلَت الأصوات من ناحية الأشتر ، وثار النَّقْع[1] ، فقال القوم لعليّ ، « والله مانحسبك أمرته إلا بالقتال » .

فقال : « كيف أمرته بذلك ، ولم أُسارّه سرّا ؟ ! » ثم قال ليزيد : « عُد إلى الأشتر ، فقل له . أَقبِل ، فإن الفتنة قد وقعت » . فأتاه ، فأخبره بذلك .

فقال الأشتر : « أَلِرَفْع هذه المصاحف ؟ » ، قال : « نعم » . قال : « أما والله لقد ظننتُ بها حين ، رُفِعَتْ ، أنها ستوقع اختلافا وفُرْقَة ».

فأقبل الأشتر حتى انتهى إليهم ، فقال : « يا أهل الوَهَن والذُّلّ ، أحين علوتم القوم تنكلون لرفع هذه المصاحف ؟ أمهلونى فُوَاقًا[2] » ، قالوا : « لا ندخل معك فى خطيئتك » ، قال : « ويحكم ، كيف بكم وقد قتل خياركم وبقى أراذلكم ، فمتى كنتم مُحقّين ؟ أحين كنتم تقاتلون أم الآن حين أمسكتم ؟ فما حال قتلاكم الذين

---

(١) الغبار الساطع .

(٢) الفواق بضم الفاء وبفتحها ما بين الحلبتين من الوقت، فالناقة تحلب ثم تترك سُويعة يرضعها الفصيل لتدر ، ثم تحلب .

لا تُنْكِرُونَ فضلهم ، أفى الجنة أم فى النار ؟ » . قالوا : « قاتلناهم فى الله ، وندع قتالهم فى الله » . فقال : « يا أصحاب الجباه السّود ، كنا نظن أن صلاتكم عبادة وشوق إلى الجنة ، فنراكم قد فررتم إلى الدنيا ، فَقُبْحاً لكم » . فسبّوه ، وسبّهم ، وضربوا وجه دابته بسياطهم ، وضرب هو وجوه دوابهم بسوطه . وكان مِسْعَرُ بن فَدَكِيّ وابن الكَوّاء وطبقتهم من القُرّاء الذين صاروا بعدُ خوارجَ كانوا من أشد الناس فى الإجابة إلى حكم المصحف .

وإن معاوية قام فى أهل الشام ، فقال : « أيها الناس ، إن الحرب قد طالت بيننا وبين هؤلاء القوم ، وإن كل واحد منا يظن أنه على الحق وصاحبه على الباطل ، وإنا قد دعوناهم إلى كتاب الله والحُكْم به ، فإن قَبِلوهُ ، وإلا كنا قد أعذرنا إليهم » .

ثم كتب إلى على : « إن أول من يُحاسَبُ على هذا القتال أنا وأنت ، وأنا أدعوك إلى حَقْن هذه الدّماء ، وألفة الدّين واطّراح الضّغائن ، وأن يحكم بيني وبينك حَكَمان ، أحدهما من قِبَلِى والآخر من قِبَلِك ، ما يجدانه مكتوباً مبيّناً فى القرآن يحْكُمان به ، فارْضَ بحكم القرآن إن كنتَ من أهله » .

فكتب إليه علىّ : « دَعَوْتَ إلى حكم القرآن ، وإنى لأعلم أنك ليس حكمه تحاول ، وقد أجَبْنا القرآن إلى حكمه لا إيّاكَ ، ومَنْ لم يَرْضَ بحكم القرآن فقد ضَلّ ضلالاً بعيداً » .

وكتب إلى عمرو بن العاص : « أمّا بعد ، فإنّ الدُّنيا مَشْغلة عن غيرها ، ولم يُصِبْ صاحبُها منها شيئاً إلا انفتح له بذلك حِرْصٌ يَزيده فيها رَغْبَة ، ولن يستغنى صاحبها بما نال منها عما لم ينله ، ومِن وراء ذلك فِراق ما جَمَعَ ، فلا تُحْبِط عملك بمجاراة معاوية على باطله ، وإن لم تَنْتَهِ لم تَضُرّ بذلك إلا نفسك ، والسلام » .

فأجابه عمرو : « أما بعد ، فإنّ الذى فيه صَلاحُنا وأُلْفَةَ ما بيننا الإنابة إلى الحق ، وقد جعلنا القرآن حَكَماً بيننا وبينك لنرضى بحكمه ، ويَعْذرنا الناس عند المناجزة ، والسلام » .

فكتب إليه علىّ : « أما بعد ، فإنّ الذى أعجبك مما نازَعَتْكَ نفسك إليه من طَلَبِ الدُّنيا مُنْقَلِبٌ عنك ، فلا تطمئنّ إليها ، فإنها غَرّارَة ، ولو اعتبرتَ بما مضى انتفعتَ بما بقى ، والسلام » .

فكتب إليه عمرو : « أمّا بعد ، فقد أنصَفَ مَنْ جعل القرآن حَكَمًا ، فاصبر يا أبا الحسن ، فإنا غير مُنِيلِيكَ إلا ما أنالَكَ القرآن ، والسلام » .

فاجتمع قُرّاء أهل العراق وقراء أهل الشام ، فقعدوا بين الصفين ، ومعهم المصحف يتدارَسُونَهُ ، فاجتمعوا على أن يُحَكِّمُوا حَكَمَيْن ، وانصرفوا .

فقال أهل الشام : « قد رَضِينا بعمرو » .

وقال الأشعث ومَنْ كان معه من قُرّاء أهل العراق : « قد رَضِينا نحن بأبى موسى » .

فقال لهم علىّ : « لست أثِق برأى أبى موسى ، ولا بحَزْمِه ، ولكن أجعل ذلك لعبد الله بن عباس » .

قالوا : « والله ما نفرّق بينك وبين ابن عباس ، وكأنك تريد أن تكون أنتَ الحاكم ، بل اجعله رجلًا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى أحد منكما بأدنى منه إلى الآخر » .

قال علىّ رضى الله عنه : « فَلِمَ تَرْضَوْنَ لأهل الشام بابن العاص ، وليس كذلك ؟ » .

قالوا : « أولئك أعلم ، إنما علينا أنفسنا » .

قال : « فإنى أجعل ذلك إلى الأشتر » .

قال الأشعث : « وهل سَعَّرَ هذه الحرب إلا الأشتر ، وهل نحن إلا فى حُكْم الأشتر ؟ » .

قال علىّ : « وما حكمه ؟ » .

قال : « يضرب بعضُنا وجوه بعض حتى يكون ما يريد الله » .

قال : « فقد أبيتم إلّا أن تجعلوا أبا موسى » .

قالوا : « نعم » .

قال : « فاصنعوا ما أحببتم » .

قالوا : فأرسلوا رَسُولاً إلى أبي موسى ، وقد كان اعتزَلَ الحرب ، وأقام بِعُرْضٍ[1] من أعراض الشام ؛ فدخل عليه مَوْلًى له ، فقال : « قد اصْطَلَحَ الناس » ، قال : « الحمدُ لله رب العالمين » . قال : « وقد جعلوك حَكَماً » .

قال : « إنّا لله وإنّا إليه راجعون » .

فأقبل أبو موسى حتى دخل عسكر عليّ ، فولّوه الأمر ، ورَضوا به ، فَقبِلَه .

فقال الأحْنَف بن قَيْس لعليّ : « إنّكَ قد مُنِيتَ بحَجَر الأرض ، وداهِية العرب ؛ وقد عجمت أبا موسى ، فوجدته كليل الشَّفْرَة ، قريب القَعْر ، وأنه لا يَصْلُح لهذا الأمر إلا رجل يَدْنُو من صاحبه حتى يكون في كَفّه ، ويَبْعُد منه حتى يكون مكان النَّجْم ، فإن شئتَ أن تجعلني حَكَماً فافعل ، وإلا فثانيا أو ثالثا ، فإنْ قلتَ : إني لست من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابعث رجلا من صحابته ، واجعلني وزيرًا له ومُشِيرًا » .

فقال عليّ : « إنّ القوم قد أبَوْا أن يرضوا بغير أبي موسى ، والله بالِغُ أمره » .

قالوا : فقال أَيْمَن بن خُرَيْم الأسَديّ من أهل الشام ، وكان مُعْتَزِلًا للقوم :

لَوْ كَانَ لِلْقَوْمِ رَأْيٌ يَهْتَدُونَ بِهِ ... بَعْدَ الْقَضَاءِ رَمَوْكُمْ بِابْنِ عَبّاسِ

لَكِنْ رَمَوْكُمْ بِشَيْخٍ مِنْ ذَوِي يَمَنٍ ... لَمْ يَدْرِ مَاضَرْبُ أَخْمَاسٍ لِأَسْدَاسِ[2]

(١) العرض : الجانب من كل شيء .

(٢) تقول العرب لمن خاتل ، ضرب أخماسا لأسداس ، وهو مثل ، أصله أن شيخا كان في إبله ومعه أولاده رجالا يرعونها ، قد طالت غربتهم عن أهلهم ، فقال لهم ذات يوم : ارعوا إبلكم ربعا ، فرعوا ربعا نحو طريق أهلهم ، فقالوا له : لو رعيناها خمسا ، فزادوا يوما قبل أهلهم ، فقالوا : لو رعيناها سدسا ، ففطن الشيخ لما يريدون ، فقال : ما أنتم إلا ضرب أخماس لأسداس ، ما همتكم رعيها ، إنما همتكم أهلكم .

قالوا : وقد كان معاوية جعل لأَيْمَنَ بن خريم ناحية من فلسطين على أن يُبايعه ، فأَبَى ، وقال :

لَسْتُ بِقَاتِلٍ رَجُلاً يُصَلِّي عَلَى سُلْطَانِ آخَرَ مِنْ قُرَيْشٍ
لَهُ سُلْطَانُهُ وَعَلَيَّ إِثْمِي مَعَاذَ اللهِ مِنْ سَفَهٍ وَطَيْشٍ
أَأَقْتُلُ مُسْلِماً فِي غَيْرِ حَقٍّ فَلَيْسَ بِنَافِعِي مَا عِشْتُ عَيْشِي

[وثيقة التحكيم]

قالوا : فاجتمع أهل العراق وأهل الشام وأتوا بكاتب ، وقالوا : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، هـذا ماتقاضى عليه أمير المؤمنين » . فقال معاوية « بئس الرجل أنا إن أقررت بأنه أمير المؤمنين ثم أقاتله » . قال عمرو « بل اكتب اسمه واسم أبيه » . فقال الأحنف بن قيس : « يا أمير المؤمنين ، لا تمحُ اسم إمْرة المؤمنين ، فإنى أخاف إن محوتها لم ترجع إليك أبدا ، ولا تجبهم إلى ذلك » .

فقال على : الله أكبر ، سُنّةٌ بسنة ، أما والله لقد جرى على يدى نظير هذا — يعنى القضية — يوم الحُدَيْبِيَة[1] ، وامتناع قريش أن يُكتَب محمد رسول الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للـكاتب ، اكتب محمد بن عبد الله ، فـكتبوا .

«هذا ماتقاضى عليه علىّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وشيعتهما فيما تَرَاضَيَا به من الحُـكْم بكتاب الله وسُنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم ، قضية علىّ على أهل العراق شاهدهم وغائبهم ، وقضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم ، إنّا تَرَاضَيْنا أن نقف عند حكم القرآن فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته ، نُحْيِي ما أحيا ، ونميت ما أمات ، على ذلك تقاضيا وبه تراضيا ، وإن عَلِيًّا وشيعته رضوا بعبـد الله بن قَيْس ناظرا وحاكما ، ورضى معاوية وشيعته بعمرو بن العاص ناظراً وحاكما ؛ على أنّ عَلِيًّا ومعاوية أخذا على عبد الله بن قَيْس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ، وذِمّته وذِمّة

---

(١) قرية قريبة من مكة ، سميت ببئر فيها ، وقد ورد ذكرها فى الحديث كثيرا .

رسوله أن يتخذا القرآن إماما ، ولا يعدُوَا به إلى غيره فى الحكم بما وجداه فيه مسطورا ، وما لم يجدا فى الكتاب ردّاهُ إلى سُنّة رسول الله الجامعة ، لايتعمدان لها خلافا ، ولا يبغيان فيها بشبهة » .

« وأخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على علىّ ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرِّضَى بما حَكَمَا به مما فى كتاب الله وسُنّة نبيّه ، وليس لهما أن ينقضا ذلك ، ولا يخالفاه إلى غيره ، وهما آمِنانِ فى حكومتهما على دمائهما وأموالهما وأشعارهما وأبشارهما وأهاليهما وأولادهما مالم يعدوَا الحق ، رضى به راض أو سخطه ساخط ، وأن الأمة أنصارهما على ماقضيا به من الحق مماهو فى كتاب الله ؛ فإن توفى أحد الحَكَمَيْن قبل انقضاء الحكومة ، فلشيعته وأصحابه أن يختاروا مكانه رجلا من أهل المعدلة والصلاح على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق ، وإن مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحدد فى هذه القضية فلشيعته أن يولوا مكانه رجلا يرضون عدله ، وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ، ورفع السلاح ، وقد وجبت القضية على ماسمينا فى هذا الكتاب من موقع الشرط على الأميرين والحَكَمَيْن والفريقين ، والله أقرب شهيد ، وكفى به شهيدا ؛ فإن خالفا وتعدّيا فالأُمّةُ بريئة من حكمهما ولا عهد لهما ولا ذِمّة ، والناس آمِنُونَ على أنفسهم وأهاليهم وأولادهم إلى انقضاء الأَجَل ، والسِّلاح مَوْضُوعَة والسُّبُل آمِنة ، والغائب من الفريقين مثل الشاهد فى الأمر ، وللحكمين أن ينزلا منزلا متوسطا عدلا بين أهل العراق وأهل الشام ، ولا يحضرهما فيه إلا مَنْ أَحَبَّا عن تَرَاضٍ منهما ، والأجل إلى انقضاء شهر رمضان ، فإن رأى الحَكَمان تعجيل الحكومة عَجَّلاها ، وإن رأيا تأخيرها إلى آخر الأَجَل أخَّراها ، فإن هما لم يحكما بما فى كتاب الله وسُنّة نبيّه إلى انقضاء الأَجَل ، فالفريقان على أمرهمْ الأول فى الحرب ، وعلى الأُمّة عهد الله وميثاقه فى هذا الأمر ، وهم جميعا يَدٌ واحدة على من أراد فى هذا الأمر إلحاداً أوظُلْمًا أوخلافًا » .

« شهد على مافى هذا الكتاب الحسن والحسين ابنا علىّ بن أبى طالب ، وعبد الله ابن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، والأشعث بن قيس ، والأشتر

ابن الحارث ، وسعيد بن قيس ، والحُصَيْن والطُّفَيْل ابنا الحارث بن عبد المطلب ، وأبو سعيد بن ربيعة الأنصاريّ ، وعبدالله بن خَبّاب بن الأرتّ ، وسهل بن حُنَيْف ، وأبو بِشْر بن عمر الأنصاريّ ، وعَوْف بن الحارث بن عبد المطلب ، ويزيد بن عبد الله الأسْلَمِيّ ، وعُقْبَة بن عامر الجُهَنِيّ ، ورافع بن خَدِيج الأنصاريّ ، وعمرو بن الحَمِق الخُزاعيّ ، والنعمان بن العَجْلان الأنصاريّ ، وحُجر بن عَدِيّ الكِنديّ ، ويزيد بن حُجَيَّة النُّكريّ ، ومالك بن كعب الهمدانيّ ، وربيعة بن شُرَحْبيل ، والحارث بن مالك ، وحُجر بن يزيد ، وعُلْبة بن حُجَيَّة .

ومن أهل الشام : حبيب بن مَسْلَمَة الفِهْرِيّ ، وأبو الأعور السُّلَمِيّ ، وبُسْر ابن أرْطاة القُرَشِيّ ، ومعاوية بن خُدَيج الكِنديّ ، والمُخارق بن الحارث ، ومسلم ابن عمرو السَّكْسَكِيّ ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وحمزة بن مالك ، وسُبَيْع ابن يزيد الحَضْرَمِيّ ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعَلْقَمة بن يزيد الكلبيّ ، وخالد بن الحُصَيْن السَّكْسَكِيّ ، وعَلْقَمة بن يزيد الحَضْرَمِيّ ، ويزيد بن أبْجَر العَبْسِيّ ، ومَسْرُوق بن جَبَلة العَكّيّ ، وبُسْر بن يزيد الحِمْيَرِيّ ، وعبد الله بن عامر القُرَشِيّ ، وعُتْبَة بن أبي سفيان ، ومحمد بن أبي سفيان ، ومحمد بن عمرو بن العاص ، وعمّار بن الأحْوَص الكلبيّ ، ومَسْعَدَة بن عمرو العُتْبيّ ، والصَّبّاح ابن جُلْهُمَة الحِمْيَرِيّ ، وعبد الرحمن بن ذي الكَلاع ، وثُمامَة بن حَوْشَب ، وعَلْقَمة بن حَكَم» .

«وكُتِبَ يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين» .

[الخلاف بعد التحكيم]

وإن الأشعث أخذ الكتاب فقرأه على الفريقين ، يمر به على كلّ راية راية ، وقبيلة قبيلة ، فيقرؤه عليهم ، فمرّ برايات عَنَزَة ، وكان مع عليّ منهم أربعة آلاف رجل ، فلما قرأه عليهم قال أخَوان منهم ، اسمهما جَعْد ومَعْدان : «لا حُكْمَ إلا لله» ثم شدّا على أهل الشام ، فقاتلا حتى قُتِلا ، وهما أول من حَكّم .

ثم مرّ على رايات مراد ، فقرأه عليهم ، فقال صالح بن شَقِيق ، وكان من أفاضلهم « لا حُكْمَ إلا لله ، وإن كَرِهَ المشركون » ، ثم مر به على رايات بنى راسب ، فتنادوا « لا يحكم الرجال فى دين الله » ، ثم مر به على رايات بنى تميم ، فقالوا مثل ذلك ، فقال عُرْوَة بن أُدَيَّة : « أتحكّمُونَ فى دين الله الرجال ، فأين قتلانا يا أشعث ؟ » ثم حمل بسيفه على الأشعث ، فأخطأه ، وأصاب السيف عجز دابته ، فانصرف الأشعث إلى قومه ، فمشى إليه سادات تميم ، فاعتذروا إليه ، فقبل وصفح .

وأقبل سليمان بن صُرَد إلى علىّ مضروبا فى وجهه بالسيف ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، أما لو وجدت أعوانا ما كتبت هذه الصحيفة » . وقام مُحرِز بن خُنَيْس بن ضَليع إلى علىّ ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ، فوالله إنى لخائف أن يُورِّثك ذُلًّا ؟ » . قال علىّ : « أبعد أن كتبناه ننقضه ؟ هذا لا يجوز » .

ثم إن عليا ومعاوية اتّفقا على أن يكون مجتمع الحكمين بدَوْمة الجَندل ، وهو المنصف بين العراق والشام . ووجه علىّ مع أبى موسى شُرَيح بن هانئ فى أربعة آلاف من خاصّته ، وصيّر عبد الله بن عباس على صلاتهم ؛ وبعث معاوية مع عمرو بن العاص أبا الأعور السُّلمى فى مثل ذلك من أهل الشام .

فساروا من صفين حتى وافَوْا دَوْمَة الجَنْدَل ، وانصرف علىّ بأصحابه حتى وافى الكوفة ، وانصرف معاوية بأصحابه حتى وافى دِمَشْق ، ينتظران ما يكونُ من أمر الحَكَمَيْن .

وكان علىّ إذا كتب إلى ابن عباس فى أمرٍ اجتمع إليه أصحابه ، فقالوا : « ما كَتَبَ إليك أمير المؤمنين ؟ » فيَكْتُمُهُم ، فيقولون : « لِمَ كتمتنا ؟ وإنما كَتَب إليك فى كذا وكذا » ، فلا يزالون يزكنون[1] حتى يَقِفُوا على ما كَتَب .

---

(١) زكن الخبر زكنا بالتحريك علمه ، وقيل الزكن : التفرس والظن الذى هو كاليقين .

وتأتى كُتب معاوية إلى عمرو بن العاص ، فلا يأتيه أحد من أصحابه ، يسأله عن شىء من أمره .

ق٣٠ : وكتب معاوية إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وإلى عبد الله بن الزُّبَيْر ، وإلى أبى الجَهْم بن حُذَيْفَة ، وإلى عبد الرحمن بن عبد يَغُوثَ : « أمّا بعد ، فإنّ الحربَ قد وَضَعَتْ أوزارها ، وصار هذان الرجلان إلى دَوْمَة الجَنْدَل ، فاقْدِمُوا عليهما إن كنتم قد اعتزلتم الحرب ، فلم تدخلوا فيما دخل فيه الناس ، لتشهدوا ما يكون منهما ، والسلام » .

فلما أتاهم كتابه ساروا جميعاً إلى دَوْمَة الجَنْدَل ، فأقاموا ينتظرون ما يكون من الرجلين ، وحضر معهم سعد بن أبى وقّاص ؛ وسار المغيرة بن شُعْبَة ، وكان مُقيما بالطائف لم يشهد شيئاً من تلك الحروب حتى أتى دَوْمَة الجَنْدَل ، فأقام ينتظر ما يكون منهما ؛ فلما طال مقامه سار من هناك حتى أتى معاوية بدمشق ، فقال له معاوية : « أشِرْ علىّ بما ترَى » ، فقال له المغيرة : « لو أشَرْتُ عليك لقاتَلْتُ معك ، ولكنى قد أتيْتُكَ بخبر الرجلين » .

قال : « وما خَبَرهُما ؟ » .

قال : « إنى خَلَوْت بأبى موسى لِأَبْلُوَ ما عنده ، فقلت : « ما تقول فيمن اعتزل عن هذا الأمر ، وجلس فى بيته كَرَاهِيَةً للدّماء ؟ » ، فقال : « أولئك خِيار الناس ، خَفَّت ظهورهم من دماء إخوانهم ، وبطونهم من أموالهم » .

قال : « فخرجت من عنده ، وأتيت عمرو بن العاص ، فقلت : « يا أبا عبد الله ، ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟ » ، فقال : « أولئك شِرَار الناس ، لم يعرفوا حقّا ، ولم ينكروا باطلا » . « وأنا أحسب أبا موسى خالِعاً صاحبه ، وجاعِلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هَوَاهُ فى عبد الله بن عمر بن الخطاب . وأمّا عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى عرفته ، وأحسب سيطلبها لنفسه أو لابنه عبد الله ، ولا أراه يظن أنكَ أحَقّ بهذا الأمر منه » . فأقلق ذلك معاوية .

[مداولة الحكمين]

قالوا : ثم إنّ عمرو بن العاص جعل يُظهِر تبجيل أبى موسى وإجلاله ، وتقديمه فى الكلام وتوقيره ، ويقول : « صحبتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلى ، وأنتَ أكبرُ سِناً منى » . ثم اجتمعا لِيَتَنَاظَرَا فى الحكومة ، فقال أبو موسى : « يا عمرو ، هل لك فيما فيه صَلاح الأمّة ورِضَى الله ؟ » .

قال : « وما هو ؟ » .

قال : « نُوَلِّى عبد الله بن عمر ، فإنه لم يدخل نفسه فى شىء من هذه الحروب » .

قال له عمرو : « أين أنتَ من معاوية ؟ » .

قال أبو موسى : « ما معاوية موضعاً لها ، ولا يستحقّها بشىء من الأمور » .

قال عمرو : « ألستَ تعلم أن عثمان قُتِلَ مظلوما ؟ » .

قال : « بلى » .

قال : « فإنّ معاوية وَلِىّ عثمان ، وبيته بعدُ فى قريش ما قد عَلِمْتَ ، فإنْ قال الناس : لِمَ وُلِّىَ الأمر وليست له سابِقَة ؟ فإنّ لك فى ذلك عُذْرا ؛ تقول : إنى وجدته وَلِىّ عثمان ، والله تعالى يقول : « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا » وهو مع هذا أخو أمّ حَبِيبَة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وهو أحد أصحابه » .

قال أبو موسى : « اتّقِ الله يا عمرو ، أمّا ما ذَكَرْتَ من شَرَف معاوية ، فلو كان يُسْتَوْجَب بالشَّرَف الخلافة ، لكان أحَقّ الناس بها أبْرَهَة بن الصَّبّاح ، فإنه من أبناء ملوك اليمن التَّبَابِعَة الذين مَلَكُوا شرق الأرض وغربها ، ثم أىّ شَرَف لمعاوية مع علىّ بن أبى طالب ؟ ، وأمّا قولك إنّ معاوية وَلِىّ عثمان ، فأَوْلَى منه ابنه عمرو بن عثمان ، ولكن إنْ طاوَعْتَنى أحْيَيْنا سنّة عمر بن الخطاب وذِكْرَه بتَوْلِيَتنا ابنه عبد الله الحَبْر[1] » .

---

(١) الرجل العالم الصالح، وجمعه أحبار .

قال عمرو : « فما يمنعك من ابنى عبد الله مع فَضْله وصَلاحه وقديم هِجْرته وصُحْبته ؟ » .

فقال أبو موسى : « إنّ ابنك رجل صِدْقٍ ، ولكنك قد غمسته فى هذه الحروب غمسا ، ولكن هَلُمَّ نجعلها للطَّيِّب ابن الطَّيِّب عبد الله بن عمر » .

قال عمرو : « يا أبا موسى ، إنه لا يصلُح لهذا الأمر إلّا رجل له ضرسان ، يأكل بأحدهما ، ويُطعم بالآخر » .

قال أبو موسى : « وَيْحَكَ يا عمرو ، إنّ المسلمين قد أسْنَدُوا إلينا أمراً بعد أن تَقَارَعُوا بالسّيوف وتَشَاكُوا بالرِّماح ، فلا نَرُدُّهم فى فِتْنَة » .

قال : « فما تَرَى ؟ » .

قال : « أرَى أن نَخْلَعَ هذين الرجلين ، عَلِيّاً ومعاوية ، ثم نجعلها شُورَى بين المسلمين ، يختارون لأنفسهم مَنْ أحَبُّوا » .

قال عمرو : « فقد رضيت بذلك ، وهو الرّأيُ الذى فيه صلاح الناس » .

* * *

قال : فافترقا على ذلك ، وأقبل ابن عباس إلى أبى موسى ، فَخَلَا به ، وقال : « وَيْحَكَ يا أبا موسى ، أحسب والله عَمْراً قد اخْتَدَعَكَ ، فإن كنتما قد اتفقتما على شىء فقدمه قبلك ليتكلم ، ثم تكلم بعده ، فإن عَمْراً رجل غدّار ، ولست آمن أن يكون قد أعطاك الرِّضَى فيما بينك وبينه ، فإذا قمت به فى الناس خالفك » ،

قال أبو موسى : « قد اتفقنا على أمر لا يكون لأحدنا على صاحبه فيه خلاف إن شاء الله »

[إعلان الحكم]

فلما أصبحوا من غد خرجوا إلى الناس ، وهم مجتمعون فى المسجد الجامع ، فقال أبو موسى لعمرو :

« اصعد المنبر ، فتكلم » .

فقال عمرو : « ما كنت أتقدّمك وأنت أفضل منى فَضْلًا ، وأقدم هِجْرَةً وسِنًّا » .

فبدأ أبو موسى ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد نظرنا فيما يجمع الله به أُلْفَةَ هذه الأمّة ويصلح أمرها ، فلم نَرَ شيئا هو أبلغ فى ذلك من خلع هذين الرجلين ، علىّ ومعاوية ، وتصييرها شُورَى ليختار الناس لأنفسهم من رَأَوْهُ لها أهْلاً ، وإنى قد خلعت عَلِيًّا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولّوا عليكم من أحببتم » ثم نزل .

وصعد عمرو ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن هذا قد قال ما سمعتم ، وخَلَعَ صاحبه ، ألا وإنى قد خلعت صاحبه كما خَلَعَه ، وأُثْبِتُ صاحبي معاوية ، فإنه وَلِيّ أمير المؤمنين عثمان ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه » .

فقال له أبو موسى : « مالك ، لا وَفّقَكَ الله ، غَدَرْتَ وفَجَرْتَ ، وإنما مَثَلُكَ مَثَلُ الْكَلْبِ ، إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ » . فقال له عمرو : « وَمَثَلُكَ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا » .

* * *

وحمل شُرَيْح بن هانىء على عمرو فقنّعه[1] بالسَّوْط ، وحَجَزَ الناس بينهما ، وكان شُرَيْح يقول : « ما نَدِمْتُ على شىء قط كَندَامَتِى ألا أكون ضربته مكان السَّوْط بالسيف ، أتى الدَّهرُ فى ذلك بما أتى » .

وانسلّ أبو موسى ، فركب رَاحِلَته ، وهرب ، حتى لحق بمكة ، فكان ابن عباس يقول : « قبّح الله أبا موسى ، لقد نبهته فما انتبه ، وحَذّرته بما صار إليه فما انحاش[2] » . وكان أبو موسى يقول : « لقد حَذّرنى ابن عباس غَدْرَ عمرو ، فاطمأننت إليه ، ولم أظن أنه يُؤْثِر شيئا على نصيحة المسلمين » .

(١) علاه به . (٢) ما ينحاش لشىء أى ما يكترث له .

[مبايعة معاوية]

ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية ، فسلموا عليه بالخلافة .

وأقبل ابن عباس وشُرَيْح بن هانئ، ومَنْ كان معهما من أهل العراق إلى علىّ ، فأخبروه الخبر ، فقام سعيد بن قَيْس الهمدانى ، فقال : « والله لو اجتمعنا على الهُدَى ما زادنا على ما نحن عليه بصيرة » . ثم تكلم عامة الناس بنحو من هذا .

[فتنة الخوارج]

قالوا : « ولما بلغ أهل العراق ما كان من أمر الحَكَمَيْن لقيت الخوارج بعضها بعضا ، واتَّعَدُوا أن يجتمعوا عند عبد الله بن وَهْب الراسِبىّ ؛ فاجتمع عنده عظاؤهم وعُبّادهم ، فكان أول من تكلم منهم عبد الله بن وهب ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « معاشر إخوانى ، إن متاع الدنيا قليل ، وإن فراقها وَشِيك ، فاخرجوا بنا مُنكرين لهذه الحكومة ، فإنه لا حكم إلا لله ، وإن الله مع الذين اتّقَوْا والذين هم محسنون » .

ثم تكلم حمزة بن سَيّار ، فقال : « الرأى ما رأيتم ، ومنهج الحق فيما قلتم ، فولّوا أمركم رجلا منكم ، فإنه لا بد لكم من قائد وسائس وراية تحفّون بها ، وترجعون إليها » .

فعرضوا الأمر على زيد بن الحُصَيْن ، وكان من عُبّادهم ، فأبى أن يقبلها ، ثم عرضوها على ابن أبى أَوْفَى العَبسىّ ، فأبى أن يقبلها ، ثم عرضوها على عبد الله ابن وهب الراسبىّ ، فقال : « هاتوها ، فوالله ما أقبلها رَغْبَة فى الدُّنيا ، ولا فِرَارًا من الموت ، ولكن أقبلها لما أرجو فيها من عظيم الأجْر » . ثم مَدَّ يده ، فقاموا إليه ، فبايَعوه ، فقام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصَلّى على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « أمّا بعد ، فإنّ الله أخذ عهودنا ومواثيقنا على الأمر بالمعروف والنَّهْى عن المُنْكَر والقول بالحق والجهاد فى سبيله « إنّ الَّذِينَ

يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » ، وقال الله عز وجل : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » ، وأشهد على أنّ أهل دعوتنا من أهل دِيننا أن قد اتَّبَعُوا الهَوَى ونَبَذُوا حُكْمَ الكتاب وجاروا فى الحُكْم ، وإنّ جِهادَهم لَحَقّ ، فأُقْسِم بِمن تَعْنُو له الوُجوه وتَخشع له الأبصار ، لو لم أجِدْ على قتالهم مُساعِدًا لقاتلتهم وحدى حتى ألْقَى ربى شهيدا » .

فلما سمع ذلك عبد الله بن الشَّخْبَر ، وكان من أصحاب البَرَانِس [1] استعبر باكيا ، ثم قال : « لحى الله امرءا لا يكون تشريع ما بين عظمه ولحمه وعَصَبه أيسر عنده من سَخَط الله عليه فى لحظة يسمى بها على مقته ، فكيف وإنما تريدون بذلك وجه الله ، يا إخوتى ، تقرّبوا إلى الله بِبُغْض مَنْ عَصَاهُ ، واخرجوا إليهم ، فاضربوا وجوههم بالسيوف حتى يُطَاعَ الله يُثِبْكُمْ ثواب المطيعين العاملين عَرْضاته ، القائمين بحقوقه ، فإن تظفروا فالغنيمة والفتح ، وإن تُغْلَبُوا فأىّ شىء أفضل من المصير إلى رِضْوَان الله وجَنّته » ثم افترقوا يومهم ذلك .

فلما كان من الغد أقبل عبد الله بن وهب الراسبىّ فى نفر من أصحابه حتى دخل على شُرَيْح بن أبى أَوْفَى العَبْسِىّ ، وكان من عظمائهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أمّا بعد ، فإنّ هذين الحَكَمَيْن قد حَكَمَا بغير ما أنزل الله ، وقد كَفَرَ إخواننا حين رَضُوا بهما ، وحَكَّمُوا الرجال فى دينهم ، ونحن على الشُّخوص من بين أظهرهم ، وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخَلْق » .

فقال شُرَيْح : « أَنْذِرْ أصحابك ، وأعْلِمهم خروجك، ثم اخرج بنا على بركة الله حتى نأتى المدائن ، فننزلها ، ونرسل إلى إخواننا الذين بالبصرة ، فيقدموا علينا ، فتكون أيديهم مع أيدينا » .

---

(١) البرنس كل ثوب رأسه منه ملزق به ، درّاعة كان أو ممطرا أو جبة ، وقال الجوهرى ، البرنس : قلنسوة كبيرة ، وكان النساك يلبسونها فى صدر الإسلام .

فقال زيد بن حُصَين الطائيّ : « إنكم إن خرجتم بجماعتكم طُلبتم ، ولكن اخرجوا فُرادى مستخفين ؛ فأما المدائن فإن بها من يمنع منها ، ولكن توعدوا أن تُوافوا جسر النهروان ، فتقيموا هناك ، وتكتبوا إلى إخوانكم من أهل البصرة أن يوافوكم بها » . قالوا : « هـــذا الرأيُ » . فاتفقوا على ذلك ، وأنذروا جميعا أصحابهم ، فاستعدّوا للخروج فرادى ، وكتبوا إلى من كان منهم بالبصرة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله بن وهب ، وزيد بن الحُصَين ، وحُرْقوص بن زهير ، وشُرَيح ابن أبي أَوْفَى إلى مَنْ بلغه كتابنا بالبصرة من المؤمنين المسلمين ، سلامٌ عليكم ، فإنا نحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو ، الذى جعل أحبّ عباده إليه أعلمهم بكتابه ، وأقومَهم بالحق فى طاعته ، وأشدهم اجتهادا فى مَرْضَاته ، وإن أهل دعوتنا حَكّمُوا الرجال فى أمر الله ، فحكموا بغير ما فى كتاب الله ولا فى سُنّة نبيّ الله ، فكفروا لذلك ، وصدّوا عن سواء السبيل ، وقد نابذناهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين ، أما بعد ، فقد اجتمعنا بجسر النهروان ، فسيروا إلينا رحمكم الله لتأخذوا نصيبكم من الأجر والثواب ، وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ، وكتابنا هذا إليكم مع رجل من إخوانكم ذى أمانة ودين ، فَسَلُوهُ عما أحببتم ، واكتبوا إلينا بما رأيتم ، والسلام » . ثم وَجّهوا كتابهم مع عبد الله بن سعد العَبْسِيّ ، فسار حتى البصرة ، وأوصل الكتاب إلى أصحابه ، فاجتمعوا فقرأوه ، ثم كتبوا إليهم بوشك موافاتهم .

ثم إن القوم خرجوا من الكوفة عَبَاديد ، الرجل والرجلين والثلاثة ، وخرج زيد بن الحُصَين على بغلة يقود فرسا ، وهو يتلو هذه الآية[1] : « فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ، قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ » . وسار حتى انتهى إلى السَّيْب[2] ، فاجتمع

---

(١) سورة القصص الآية العشرون .

(٢) السيب : مجرى الماء ويطلق لفظ السيبة الآن على ناحية فى العراق على الضفة اليسرى من شط العرب قبالة مدينة عبادان الإيرانية .

إليه جمع كثير من أصحابه ، وفيهم زيد بن عَدِيّ بن حاتم ، فخرج عديّ فى طلب ابنه حتى انتهى إلى المدائن ، فلم يلحقه ، فأتى سعد بن مسعود الثقفىّ ، وكان سعد عامل علىّ على المدائن ، فأخذ حذره ، وتحاماه القوم .

وخرج عبد الله بن وهب الراسبىّ فى جوف الليل ، والتأم إليه جميع أصحابه ، فصاروا جمعا كبيرا منهم ، فأخذوا على الأنبار ، وتبطنوا شط الفرات حتى عبَرُوا من قبل « دَيْر العاقول » فاستقبله عدىّ بن حاتم ، وهو منصرف إلى الكوفة ، فأراد عبد الله أخذه ، فمنعه منه عمرو بن مالك النَّبْهانىّ وبشير بن يزيد البَوْلانىّ ، وكانا من رؤساء الخوارج ، فاستَخْلَفَ سعدُ بن مسعود على المدائن ابنَ أخيه ، المختار ابن أبى عُبَيْد ، وخرج فى طلب عبد الله بن وهب وأصحابه ، فلقيهم بكَرْخ بغداد مع مغيب الشمس ، وسعد فى خمسمائة فارس ، والخوارج ثلاثون رجلا ، فتناوشوا ساعة ، فقال أصحاب سعد لسعد : « أيها الأمير ، ماتريد إلى قتال هؤلاء ، ولم يأتك فيهم أمر ؟ خَلِّ سبيلهم ، واكْتُبْ إلى أمير المؤمنين تُعْلِمْه أمرهم » ، فمضى وتركهم .

وسار عبد الله بن وهب ، فمر ببغداد ، وأخذ دهاقينها بالمعابر ، وذلك قبل أن تبنى بغداد ، فأتاه الدهقان بها ، فعبر إلى أرض « جوخى » ثم مضى من هناك حتى انضم إلى أصحابه ، وهم بنَهْروان[1] ، ووافاهم من كان على رأيهم من أهل البصرة ، وكانوا خمسمائة رجل .

[قتال الخوارج[2]]

وكان على البصرة يومئذ عبد الله بن العباس ، فلما بلغه خروجهم وجّه فى طلبهم أبا الأسود الدؤلىّ فى ألف فارس ، فلحقهم بجسر تُسْتَر ، وحال بينهم الليل ، ففاتوه

(١) بلد فى العراق واقعة بين بغداد وواسط ، وقد حدثت فيها الوقعة بين على بن أبى طالب والخوارج سنة ٦٥٨م .

(٢) كان فى سنة ٣٩هـ (٦٥٩) .

وكانوا فى جميع مسيرهم لا يلقون أحدا إلا قالوا له : « ما تقول فى الحَكَمَيْن ؟ » فإن تبرّأ منهما تركوه ، وإن أبى قتلوه

ثم أقبلوا حتى انتهوا إلى دَجْلة ، فعبروها من ناحية صَرِيفين[1] حتى وافوا نهروان، فكتب إليهم علىّ رضى الله عنه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن وهب الراسبىّ وزيد بن الحُصَيْن ومَنْ قبلهما ، سَلَامٌ عليكم ، فإن الرجلين اللذين ارتضيناهما للحكومة خالفا كتاب الله ، واتبعا هواهما بغير هُدًى من الله ، فلما لم يعملا بالسنة ولم يحكما بالقرآن تبرّأنا من حكمهما ، ونحن على أمرنا الأول ، فأقبلوا إلىّ رحمكم الله ، فإنا سائرون إلى عدوّنا وعدوّكم، لنعود لمحاربتهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، وهو خير الحاكمين » .

فلما وصل إليهم كتابه ، كتبوا إليه : « أمّا بعد ، فإنك لم تغضب لربك ، ولكن غضبت لنفسك ، فإن شهدت على نفسك أنك كفرت فيما كان من تحكيمك الحكمين ، واستأنفت التوبة والإيمان نظرنا فيما سألتنا من الرجوع إليك ، وإن تكن الأخرى ، فإننا نابذوك على سواء ، إن الله لا يهدى كيد الخائنين » .

فلما قرأ علىّ كتابهم ، يئس منهم ، ورأى أن يدعهم على حالهم ، ويسير إلى الشام ، ليعاود معاوية الحرب ، فسار بالناس حتى عسكر بالنُّخَيْلة ، وقال لأصحابه : « تأهّبوا للمسير إلى أهل الشام ، فإنى كاتب إلى جميع إخوانكم ليقدموا عليكم ، فإذا وافوا شخصْنا إن شاء الله » .

ثم كتب كتابه إلى جميع عُمّاله أن يخلّفوا خلفاءهم على أعمالهم ، ويقدموا عليه ، وكتب إلى عبد الله بن عباس ، وكان على البصرة : « أما بعد ، فإنا قد عسكرنا بالنُّخَيْلة، وقد أزمعنا على المسير إلى عدوّنا ، إلى أهل الشام ، فاشخص إلىّ فيمن قبلك حين يأتيك كتابى والسلام » .

فقدم عليه عبد الله بن عباس فى فُرسان البصرة ، وكانوا زهاء سبعة آلاف رجل

(١) قرية من قرى الكوفة .

فلما تهيأ للمسير أتاه عن الخوارج أخبار فظيعة، من قتلهم عبد الله بن خَبّاب وامرأته . وذلك أنهم لقوهما، فقالوا لهما : « أرضيتما بالحكمين ؟ » قالا : « نعم » . فقتلوهما، وقتلوا أمّ سِنان الصَّيداوية ، واعتراضهم الناس يقتلونهم . فلما بلغه ذلك بعث إليهم الحارث بن مرة الفَقْعَسِي ليأتيه بخبرهم ، فأخذوه ، فقتلوه .

فلما بلغ الناس ذلك اجتمعوا إلى علىّ ، فقالوا : « يا أمير المؤمنين ، أتدع هؤلاء على ضلالهم وتسير ، فيفسدوا فى الأرض ، ويعترضوا الناس بالسيف ؟ سِرْ إليهم بالناس ، وادعهم إلى الرجوع إلى الطاعة والجماعة ، فإن تابوا وقبلوا فإن الله يحب التوّابين ، وإن أبَوْا فآذنهم بالحرب ، فإذا أرحْتَ الأمة منهم سرت إلى الشام » .

فنادى فى الناس بالرحيل ، وسار حتى ورد عليهم نَهروان ، فعسكر على فرسخ منهم ، وأرسل إليهم قَيْس بن سعد بن عُبادة ، وأبا أيوب الأنصارىّ ، فأتياهم ، فقالا : « عباد الله ، إنكم قد ارتكبتم أمرا عظيما باستعراضكم الناس تقتلونهم ، وشهادتكم علينا بالشرك ، والشرك ظلم عظيم » .

فأجابهما عبدالله بن الشَّخِيرِ، فقال: «إليكما عنّا ، فإن الحق قد أضاء لنا كالصبح، ولسنا بمتابعيكم ولا راجعين إليكم ، أو تأتوا بمثل عمر بن الخطاب » . فقال قَيس بن سعد « مانعرفه فينا إلا علىّ بن أبى طالب فهل تعرفونه فيكم»؟. قالا : «لا» . قال : « فأنشدكم الله فى أنفسكم أن تُهلكوها ، فإنى أرى الفتنة قد دخلت قلوبكم » .

ثم تكلّم أبو أيوب بنحو هـذا ، فقالوا : « يا أبا أيوب ، إنّا إن بايعناكم اليوم حكّمتم غداً آخر » .

قال : « فإنّا ننشدكم الله أن تُعجّلوا فتنة العام مخافةَ ما تأتى به فى قابل » .

قالوا : « إليكما عنا ، فقد نابذْناكم على سواء » .

فانصرفا إلى علىّ ، فأخبراه حتى وقف عليهم بحيث يسمعون كلامه ، فنادى : « أيتها العصابة التى أخرجتها اللّجاجة ، وصدّها عن الحق الهوَى ، فأصبحت

فى لَبْس وخَطأ ، إنى نذيرٌ لكم أن تتمادَوا فى ضلالتكم فتُلفَوا مصرَّعين من غير بَيِّنَة من ربكم ولا بُرْهان ، ألم تعلموا أنى شَرَطْتُ على الحَكَمَيْن أن يحكما بما فى كتاب الله؟ وأخبرتكم أنَّ طَلَبَ القوم الحكومة مَكِيدَة ، فلما أبيتم إلا الحكومة شَرَطْتُ عليهم أن يُحييا ما أحيا القرآن ، ويُميتا ما أمات القرآن ، فخالفا الكتاب والسُّنَّة ، وعملا بالهوَى ، فنَبَذْنا أمرهما ، ونحن على أمرنا الأول ، فأين يُتاهُ بكم ، ومن أين أُتيتم ؟ » .

فقالوا : « إنا كَفَرْنا حين رَضِينا بالحَكَمَيْن ، وقد تُبْنا إلى الله من ذلك ، فإن تُبْتَ كما تُبْنا فنحن معك ، وإلا فائذن بحرب ، فإنا مُنابذوك على سَوَاء » .

فقال لهم علىّ : « أشهدُ على نفسى بالكُفر .. ؟ ! لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذَنْ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ » . ثم قال : « ليخرج إلىّ رجل منكم تَرْضَوْنَ به حتى أقول ويقول ، فإنْ وَجَبَتْ علىّ الحُجَّة أقررتُ لكم وتُبْتُ إلى الله ، وإن وجبتْ عليكم فاتقوا الذى مَرَدُّكم إليه » .

فقالوا لعبد الله بن الكَوّاء ، وكان من كبرائهم : « اخرج إليه حتى تحاجه » ، فخرج إليه .

فقال علىّ : « هل رضيتم ؟ » .

قالوا : « نعم » .

قال : « اللهمّ اشهد ، فكفى بك شهيدًا » .

فقال علىّ رضى الله عنه : « يا ابن الكواء ، ما الذى نقمتم علىّ بعد رضاكم بولايتى وجهادكم معى وطاعتكم لى ؟ فهلّا برئتم منى يوم الجمل ؟ » .

قال ابن الكواء : « لم يكن هناك تحكيم » .

فقال علىّ : « يا ابن الكواء ، أنا أهدَى أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » .

قال ابن الكواء : « بل رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

قال : « فما سمعتَ قول الله عز وجل: «فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ، وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ ، وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ» . أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون »؟.

قال : « إن ذلك احتجاج عليهم ، وأنتَ شككت فى نفسك حين رضيتَ بالحَكَمَيْن ، فنحن أحرى أن نَشُكَّ فيك » .

قال : « وإنّ الله تعالى يقول : فأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ، هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا ، أَتَّبِعْهُ » .

قال ابن الكوّاء : « ذلك أيضاً احتجاج منه عليهم » .

فلم يزل علىّ عليه السلام يُحاجّ ابن الكواء بهذا وشبهه ؛ فقال ابن الكواء : « أنتَ صادق فى جميع ما تقول ، غير أنّكَ كَفَرْتَ حين حكّمتَ الحَكَمَيْن » .

قال علىّ : « ويحك يا ابن الكواء ، إنى إنما حكّمتُ أبا موسى وحده وحَكّمَ معاوية عمْراً » .

قال ابن الكوّاء : « فإنّ أبا موسى كان كافراً » .

فقال علىّ : « ويحك ، متى كَفَرَ ، أحين بَعَثْتُهُ أم حين حَكَمَ؟ » .

قال : « لا ، بل حين حَكَمَ » .

قال : « أفلا تَرَى أنى إنما بعثتُهُ مُسْلِماً ، فكَفَرَ فى قولك بعد أن بعثته ؟ أرأيت لو أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا من المسلمين إلى أُناس من الكافرين ، لِيَدْعُوَهم إلى الله ، فدعاهم إلى غيره ، هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شىء؟ » .

قال : « لا » .

قال : « ويحك ، فما كان عَلَىّ إن ضَلَّ أبو موسى ؟ أفيَحِلّ لكم بضَلالة أبى موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس؟ » .

فلما سمع عظماء الخوارج ذلك قالوا لابن الكوّاء : « انصرف ودَعْ مُخاطبة الرَّجُل » .

فانصرف إلى أصحابه ، وأبَى القوم إلا التَّمادى فى الغىّ .

وأمر عليّ بالنداء فى الناس أن يأخذوا أُهْبَةَ الحرب ، ثم عبّى جنوده ، فولّى الميمنة حُجْر بن عَدِيّ ، وولّى الميسرة شَبَث بن رِبْعِيّ ، وولّى الخيــل أبا أيوب الأنصاريّ ، وولّى الرَّجّالة أبا قتادة .

واستعدّ الخوارج فجعلوا على ميمنتهم يزيد بن حُصَيْن ، وعلى ميسرتهم شُرَيْح ابن أبي أَوْفَى العَبْسِيّ ـ وكان من نُسّاكهم ـ وعلى الرَّجّالة حرقوص بن زهير ، وعلى الخيل كلها عبد الله بن وهب .

ورفع عليّ راية ، وضمّ إليها ألفى رجل ، ونادَى : « مَن التجأ إلى هذه الرّاية فهو آمِن » .

ثم تواقف الفريقان ، فقال فَرْوَة بن نَوْفَل الأشجعيّ ـ وكان من رؤساء الخوارج ـ لأصحابه : « يا قوم ، والله ما ندرى ، عَلَامَ نُقَاتِل عَلِيًّا ، وليست لنا فى قتله حُجَّة ولا بَيَان ، يا قوم ، انصرفوا بنا حتى تنفذ لنا البصيرة فى قتاله أو اتّباعه » .

فترك أصحابه فى مواقفهم ، ومضى فى خمسمائة رجل حتى أتى إلى البَنْدَنِيجَيْن[1] ، وخرجت طائفة أخرى حتى لحقوا بالكوفة ، واستأمَنَ إلى الرّاية منهم ألف رجل ، فلم يبق مع عبد الله بن وهب إلا أقلُّ من أربعة آلاف رجل .

فقال عليّ لأصحابه : « لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم » ؛ فتنادَت الخوارج : « لا حُكْمَ إلا لله ، وإن كَرِهَ المشركون » . ثم شدّوا على أصحاب عليّ شدة رجل واحد ، فلم تثبُتْ خيل عليّ لشدّتهم ، وافترقت الخوارج فرقتين ، فرقة أخذت نحو الميمنة ، وفرقة أخرى نحو الميسرة .

وعطف عليهم أصحاب عليّ ، وحَمَلَ قَيْس بن معاوية البُرْجُميّ من أصحاب عليّ على شُرَيْح بن أبي أَوْفَى ، فضربه بالسيف على ساقه ، فأبانها ، فجعل يُقاتِل برِجْلٍ واحدة وهو يقول : « الفَحْل يحمى شَوْلَهُ مَعْقُولا »[2] ، فحَمَلَ عليه قيس ابن سعد فقتله ، وقُتِلَت الخوارج كلها رِبْضَةً[3] واحدة .

---

(١) بلدة مشهورة فى طرف النهروان من ناحية الجبل ، وهى من أعمال بغداد .

(٢) عقل الفحل : ثنى وظيفه مع ذراعه وشدهما فى وسط الذراع والشول : جمع شائل وهو الناقة اللاقح التى تشول بذنبها آية لقاحها .

(٣) مقتل كل قوم قتلوا فى بقعة واحدة .

قال : وأمر علىّ بمن كان منهم ذا رَمَقٍ أن يُدْفَعُوا إلى عشائرهم ، وأمر بأخذ ما كان فى معسكرهم من سلاح ودوابّ ، فقسمه فى أصحابه ، وأمر بما سِوَى ذلك ، فَدُفِعَ إلى وَرَثَتِهم .

فلما أراد علىّ الانصراف من النهروان قام فى أصحابه ، فقال : « أيها الناس ، إن الله قد نصركم على المارِقِينَ ، فتوجّهوا من فَوْرِكم هذا إلى القاسِطِينَ » يعنى أهل الشام ، فقام إليه رجالٌ من أصحابه ، فيهم الأشعث بن قيس ، فقالوا : « يا أمير المؤمنين ، نَفِدَت نبالُنا ، وكَلّت سيوفنا ، ونَصَلَتْ أسِنّة رماحنا ، فارجع بنا إلى مصرنا ، لنستعدّ بأحسن عُدّتنا » .

فرحَلَ بالناس حتى نزل النُّخَيْلَة ، فعسكر بها ، فأقاموا أياماً ، فجعلوا يتسلّلُون إلى الكوفة ، فلم يبق معه فى المعسكر إلا زُهاء ألف رجل من الوُجُوه .

فلما رأى ذلك دخل الكوفة ، فأقام بها ، وسار فَرْوَة بن نَوْفَل بمن كان معه إلى حُلوان ، فجعل يَجْبِي خَرَاجَها ويقسمه فى أصحابه .

[نهاية على بن أبى طالب]

قالوا ولما رأى علىّ رضى الله عنه تثاقل أصحابه أهلِ الكوفة عن المسير معه إلى قتال أهل الشام ، وانتهى إليه ورود خيل معاوية الأنبار ، وقتلهم مَسْلحة علىّ بها والغارة عليها ، كتب كتابا ، ودفعه إلى رجل ، وأمره أن يقرأه على الناس يوم الجمعة إذا فرغوا من الصلاة ، وكانت نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله علىّ أمير المؤمنين إلى شيعته من أهل الكوفة، سلامٌ عليكم ، أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، من تركه ألبسه الله الذلّة وشمله بالصغار ، وسِيمَ الخَسْف وسيل[1] الضيم ، وإنى قد دعوتكم إلى جهاد هؤلاء القوم ليلا ونهارا وسِرًّا وجهارا ، وقلت لكم ، اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فما غُزِى قوم فى عُقر دارهم إلا ذلّوا واجترأ عليهم عدوّهم ، هذا أخو بنى عامر قد ورد الأنبار ، وقتل

(١) كذا فى الأصل ، وفى روايات أخرى « ومنع النَّصَف » .

ابنَ حسّان البكرى ، وأزال مسالحكم عن مواضعها ، وقتل منكم رجالا صالحين، وقد بلغنى أنهم كانوا يدخلون بيت المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة[1] ، فينزع حِجْلها[2] من رجلها ، وقلائدُها من عنقها ، وقد انصرفوا موفورين ، ما كُلِم رجل منهم كَلْما ، فلو أن أحدا مات من هذا أسفا ما كان عندى مَلُوماً ، بل كان جديراً ؛ يا عجباً من أمر يميت القلوب، ويجتلب الهمّ ويسعّر الأحزان من اجتماع القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم، فبُعْدًا لكم وسُحْقاً ، قد صرتم غرَضاً ، تُرْمَوْنَ ولا تَرْمُوْنَ ، ويُغار عليكم ولا تُغيرون ، ويُعصَى الله فترضَوْن ، إذا قلت لكم سيروا فى الشتاء قلتم كيف نغزو فى هذا القرّ والصرّ[3]. وإن قلت لكم سيروا فى الصَّيْف قلتم حتى ينصرم عنا حمارّة القيظ ، وكل هذا فرار من الموت ، فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تفرّون فأنتم والله من السيف أفرّ ، والذى نفسى بيده ، ما من ذلك تهربون ، ولكن من السيف تحيدون ، ياأشباه الرجال ولا رجال ، ويا أحلام الأطفال وعقول ربّات الحجال، أما والله لوددت أن الله أخرجنى من بين أظهركم وقبضنى إلى رحمته من بينكم ، ووددت أن لم أركم ولم أعرفكم ، فقد والله ملأتم صدرى غيظاً ، وجرّعتمونى الأمرّين أنفاسا ، وأفسدتم علىّ رأيى بالعصيان والخذلان ، حتى قالت قريش : إن ابن أبى طالب رجل شجاع ، ولكن لا علمَ له بالحرب . لله أبوهم ، هل كان فيهم رجل أشدّ لها مِراسا وأطولَ مُقاساة منى ؟ ولقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، وها أنا [ذا] اليوم قد جنفتُ الستّين . لا ، ولكن لا رأْيَ لمن لا يُطاع » .

فقام إليه الناس من كل ناحية، فقالوا: «سِرْ بنا ، فوالله لا يتخلّف عنك إلا ظَنِين».

فأمر الحارث الهمدانىّ بالنداء فى الناس أن يُصْبِحُوا غداً فى الرّحْبة[4] ، ولا يأتينا إلا صادق النية .

فلما أصبح صلّى الغداة ، وأقبل إلى الرّحْبة ، فلم يرَ فيها إلا نحو من ثلاثمائة

---

(١) هى التى لها عهد من أهل الذمة . (٢) الحجل بالكسر الخلخال .

(٣) القر والصر شدة البرد . (٤) الرحبة : مدينة موقعها على الفرات الأوسط .

رجل ، فقال : « لو كانوا ألوفاً لكان لى فيهم رَأْىٌ » .

فمكث بعد ذلك يومين ، بادِ حزنه ، شديد كآبتُه .

فقام إليه حُجْر بن عَدِىّ ، وسعيد بن قيس الهمدانىّ ، فقالا : « اجبر الناس على المسير ، ونادِ فيهم ، فَمَنْ تخلّف ، فَمُرْ بمُعاقبته » . فأمر منادِيا ، فنادَى فى الناس : « لا يتخلّفَنّ أحد » ، وأمر معقل بن قيس أن يسير فى الرّساتيق(١) فلا يَدع أحداً من جنوده فيها إلا حشره . فلم ينصرف معقل بن قَيْس إلا بعد ما قُتِلَ علىّ رضى الله عنه .

[مقتل على بن أبى طالب]

قالوا : واجتمع فى العام(٢) الذى قُتِلَ فيه علىّ رضى الله عنه بالموسم عبد الرحمن ابن مُلْجَم المرادىّ ، والنّزّال بن عامر ، وعبد الله بن مالك الصَّيْداوِىّ ، وذلك بعد وقعة النهر بأشهر ، فتذكروا ما فيه الناس من تلك الحروب ، فقال بعضهم لبعض : « ما الراحة إلا فى قتل هؤلاء النفر الثلاثة : علىّ بن أبى طالب ، ومعاوية ابن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص » .

فقال ابن مُلْجَم : « علىّ قتلُ علىّ » .

وقال النزّال : « وعلىّ قتلُ معاوية » .

وقال عبد الله : « وعلىّ قتلُ عمرو » .

فاتّعَدُوا لليلة واحدة ، يقتلونهم فيها .

وأقبل عبد الرحمن حتى قدم الكوفة ، فخطب إلى قَطام ابنتها الرّبَاب ، وكانت قطام تَرى رأى الخوارج ، وقد كان علىّ قتل أباها وأخاها وعمها يوم النهر ، فقالت لابن مُلْجَم :

« لا أزَوّجك إلا على ثلاثة آلاف درهم ، وعبد ، وقَيْنة ، وقتل علىّ ابن أبى طالب » .

فأعطاها ذلك وأملكها .

---

(١) كلمة فارسية معربة جمع رستاق وهو السواد من الأرض .

(٢) سنة ٤٠ هـ (٦٦٠ م) .

وكان ابن مُلْجَم يجلس فى مجلس تَيْم الرباب من صلاة الغداة إلى ارتفاع النهار ، والقوم يفيضون فى الكلام ، وهو ساكت ، لايتكلم بكلمة ، لِلَّذِى أَجْمَعَ عليه من قتل علىّ .

فخرج ذات يوم إلى السوق متقلّدًا سيفه ، فمرت به جنازة يشيعها أشراف العرب ، ومعها القسيسون يقرءون الإنجيل ، فقال : « ويحكم ، ماهذا ؟ » فقالوا : « هذا أبجر بن جابر العجلىّ مات نصرانيا ، وابنه حَجّار بن أبجر سيّد بكر ابن وائل ، فاتبعها أشراف الناس لسؤدد ابنه ، واتبعها النصارى لدينه » .

فقال: « والله لولا أنى أبقى نفسى لأمر هو أعظم عند الله من هذا لاستعرضتهم بسيفى » .

فلما كانت تلك الليلة تقلد سيفه ، وقد كان سمّه ، وقعد مُغَلِّسا ينتظر أن يمرّ به علىّ رضى الله عنه مقبلا إلى المسجد لصلاة الغداة .

فبينا هو فى ذلك إذ أقبل علىّ ، وهو ينادى : « الصلاة أيها الناس » فقام إليه ابن مُلْجَم ، فضربه بالسيف على رأسه ، وأصاب طرفُ السيف الحائط ، فثَلَمَ فيه ، ودُهِشَ ابن مُلْجَم ، فانكبّ لوجهه ، وبدر السيف من يده ، فاجتمع الناس ، فأخذوه ، فقال الشاعر فى ذلك :

وَلَمْ أَرَ مَهْرًا سَاقَهُ ذُو سَمَاحَةٍ   كَمَهْرِ قَطَامٍ مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ
ثَلَاثَةَ آلافٍ وَعَبْدًا وَقَيْنَةً   وَضَرْبَ عَلِىٍّ بِالْحُسَامِ الْمُصَمِّمِ
فَلَا مَهْرَ أَغْلَى مِنْ عَلِىٍّ وَإِنْ غَلَا   وَلَا فَتْكَ إِلَّا دُونَ فَتْكِ ابْنِ مُلْجَمِ

وحُمِل علىّ رضى الله عنه إلى منزله ، وأُدخل عليه ابن مُلْجَم .

فقالت له أم كلثوم ابنة علىّ : « يا عدوّ الله ، أقتلت أمير المؤمنين ؟ » .

قال : « لم أقتل أمير المؤمنين ، ولكنى قتلت أباك » .

قالت : « أما والله إنى لأرجو ألا يكون عليه بأس » .

قال : « فعلام تبكين إذن ؟ أما والله لقد سممتُ السيف شهرا ، فإن أخلفنى أبعده الله » .

فلم يُمسِ علىّ رضى الله عنه يومه ذلك حتى مات رحمه الله ورضى عنه .

[القِصَاص]

فدعا عبد الله بن جعفر بابن مُلْجَم ، فقطع يديه ورجليه وسمل عينيه ، فجعل يقول :

« إنك يا ابن جعفر لتكحل عينى بِمُلْمُولٍ مَضٍ(١) » .

ثم أمر بلسانه أن يُخرَج ليُقطع ، فجزع من ذلك .

فقال له ابن جعفر :

« قطعنا يديك ورجليك ، وسملنا عينيك ، فلم تجزع ، فكيف تجزع من قطع لسانك ؟ » .

قال : « إنى ما جزعت من ذلك خوفا من الموت ، ولكنى جزعت أن أكون حَيًّا فى الدنيا ساعة لا أذكر الله فيها » ، ثم قُطِعَ لسانه ، فمات .

[محاولة قتل معاوية]

وأقبل النَّزَّال بن عامر فى تلك الليلة حتى قام خلف معاوية وهو يُصَلِّى بالناس الغداة ، ومعه خنجر ، فوَجَأَه(٢) به فى إلْيَته ، وكان معاوية عظيم الإليتين ، فأُخِذَ ، فقال لمعاوية : « أَهَلْ قتلتك يا عدوّ الله ؟ » .

فقال معاوية : « كلا ، يا ابن أخى » .

فأمر به معاوية ، فقُطِعَتْ يداه ورِجْلَاهُ ، ونُزِعَ لسانه ، فمات .

ودعا بطبيب فأمره أن يقطع ما حَوْلَ الوَجْأة من اللحم ، خوفا من أن يكون الخنجر مسموما .

فَمِنْ يومئذ اتُّخِذَت المقاصير فى الجوامع ، فكان لا يدخلها إلا ثقاته وأحراسه ، واتُّخِذَ أيضا من يومئذ حُرَّاس الليل ، وكان إذا سجد بالناس جعل على رأسه عشرة من ثقات أحراسه ، يقومون من خلفه بالسيوف والعمد .

[محاولة قتل عمرو بن العاص]

وأما عبد الله بن مالك الصَّيْدَاوِىّ فإنه أتى مصر ، فلما كان فى تلك الليلة قام

---

(١) أى بمكحال حار محرق .   (٢) ضربه .

حيال المحراب ، ومعه مِشْمَل[١] قد اشتمل عليه بثيابه ، فأصاب عمراً فى تلك الليلة مَغْس[٢] فى بطنه ، فأمر رجلا من بنى عامر بن لُؤَىّ أن يخرج فيصلى بالناس . فتقدّمَ مغلسا ، فلم يَشُكّ عبد الله أنه عمرو ، فلما سجد ضربه بالسيف من ورائه فقتله ، فقيل له : « إنك لم تقتل الأمير » ، قال : « فما ذنبى ، والله ما أردت غيره » . فأمر به عمرو فَقُتِلَ .

[مبايعة الحسن بن على]

قال : ودُفِنَ علىّ رضى الله عنه ، وصلّى عليه الحسن ، وكبّرَ خمسا ، فلا يعلم أحد أين دُفِنَ .

قالوا : ولما توفى علىّ رضى الله عنه خرج الحسن إلى المسجد الأعظم ، فاجتمع الناس إليه ، فبايعوه ؛ ثم خطب الناس ، فقال : « أَفَعَلْتُمُوها ؟ قتلتم أمير المؤمنين ، أما والله لقد قُتِلَ فى الليلة التى نزل فيها القرآن ، ورُفِعَ فيها الكتاب ، وجَفَّ القلم ، وفى الليلة التى قُبِضَ فيها موسى بن عمران ، وعُرِجَ فيها بعيسى » .

[زحف جيوش معاوية]

قالوا : ولما بلغ معاوية قتل علىّ تجهز ، وقَدّمَ أمامه عبد الله بن عامر بن كُرَيْز ، فأخذ على عَيْن التّمر[٣] ، ونزل الأنبار يريد المدائن ، وبلغ ذلك الحسن بن علىّ ، وهو بالكوفة ، فسار نحو المدائن لمحاربة عبد الله بن عامر بن كُرَيْز ، فلما انتهى إلى ساباط رأى من أصحابه فشلا وتواكُلا عن الحرب ، فنزل ساباط ، وقام فيهم خطيبا ، ثم قال : « أيها الناس ، إنى قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضَغِينَة ،

---

(١) المشمل : السيف القصير ، يشتمل عليه الرجل فيغطيه بثوبه .
(٢) المغس : لغة فى المغص ، وهو وجع وتقطيع يأخذ فى البطن .
(٣) ناحية فى العراق من أعمال قضاء كربلاء .

وإنى ناظرٌ لكم كنظرى لنفسى ، وأرى رأياً فلا تَرُدُّوا عَلَيّ رأيى ، إن الذى تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفُرْقة ، وأرى أكثركم قد نكل عن الحرب ، وفشل عن القتال ، ولست أرى أن أحملكم على ما تكرهون » .

فلما سمع أصحابه ذلك نظر بعضهم إلى بعض ، فقال من كان معه ممن يرى رأى الخوارج : « كَفَرَ الحسن كما كفر أبوه من قبله » ، فَشَدّ عليه نفر منهم ، فانتزعوا مُصلّاه من تحته ، وانتهبوا ثيابه حتى انتزعوا مِطرفه[1] عن عاتقه ، فدعا بفرسه ، فركبها ، ونادَى : « أين ربيعة وهمدان ؟ » فتبادروا إليه ، ودفعوا عنه القوم .

ثم ارتحل يريد المدائن ، فكمن له رجل ممن يرى رأى الخوارج ، يسمّى الجرّاح بن قبيصة من بنى أسد بمظلم ساباط ، فلما حاذاه الحسن قام إليه بِمِغْوَلٍ[2] فطعنه فى فخذه . وحمل على الأسدى عبد الله بن خَطَل وعبد الله بن ظَبيان ، فقتلاه .

ومضى الحسن رضى الله عنه مُثْخَنا حتى دخل المدائن ، ونزل القصر الأبيض ، وعُولِجَ حتى برأ ، واستعد للقاء ابن عامر .

وأقبل معاوية حتى وَافَى الأنبار ، وبها قَيس بن سعد بن عُبَادَة من قِبَل الحسن ، فحاصره معاوية ، وخرج الحسن فواقف عبد الله بن عامر ، فنادَى عبد الله بن عامر : « يا أهل العراق ، إنى لم أرَ القتال ، وإنما أنا مقدّمة معاوية ، وقد وَافَى الأنبار فى جموع أهل الشام فأقرئوا أبا محمد — يعنى الحسن — منى السلام ، وقولوا له : أنشدك الله فى نفسك وأنفُس هذه الجماعة التى معك » .

فلما سمع ذلك الناس انخذلوا وكرهوا القتال ، وترك الحسن الحرب ، وانصرف إلى المدائن ، وحاصره عبد الله بن عامر بها .

---

(١) المطرف واحد المطارف وهى أردية من خز مربعة لها أعلام .

(٢) المغول : سوط فى جوفه سيف دقيق يشده الفاتك على وسطه ليغتال به الناس .

[مبايعة معاوية بالخلافة]

ولما رأى الحسن من أصحابه الفشل أرسل إلى عبد الله بن عامر بشرائط اشترطها على معاوية على أن يسلم له الخلافة ، وكانت الشرائط : ألا يأخذ أحدًا من أهل العراق بإحْنَة، وأن يؤمّن الأسود والأحمر، ويحتمل ما يكون من هفواتهم ، ويجعل له خَرَاج الأهواز مسلّمًا فى كل عام ، ويحمل إلى أخيه الحسين بن علىّ فى كل عام ألفى ألف ، ويفضل بنى هاشم فى العطاء والصّلات على بنى عبد شمس .

فكتب عبد الله بن عامر بذلك إلى معاوية ، فكتب معاوية جميع ذلك بخطّه ، وخَتَمَه بخاتمه ، وبذل عليه له العهود المؤكدة والأيمان المغلظة ، وأشهد على ذلك جميع رؤساء الشام ، ووجّه به إلى عبد الله بن عامر ، فأوْصَلَه إلى الحسن رضى الله عنه ، فَرَضِيَ به ؛ وكَتَبَ إلى قَيْس بن سعد بالصُّلح، ويأمره بتسليم الأمر إلى معاوية ، والانصراف إلى المدائن .

فلما وصل الكتاب بذلك إلى قَيْس بن سعد قام فى الناس ، فقال : « أيها الناس ، اختاروا أحد الأمرين ، القتال بلا إمام ، أو الدخول فى طاعة معاوية » . فاختاروا الدخول فى طاعة معاوية .

فسار حتى وَافَى المدائن ، وسار الحسن بالناس من المدائن حتى وَافَى الكوفة ، ووافاه معاوية بها ، فالتقيا ، فوَكّدَ عليه الحسن رضى الله عنه تلك الشروط والأيمان . ثم سار الحسن بأهل بيته حتى وَافَى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأخذ معاوية أهل الكوفة بالبَيْعة ، فبايعوا ، واستعمل عليهم المُغيرة بن شُعْبَة، وسار منصرفًا فى جموعه إلى الشام ، فمكث المغيرة بن شعبة على الكوفة من قِبَل معاوية تسع سنين حتى مات بها .

[زياد بن أبيه]

وكان زياد بن أبيه إنما يعرف بزياد بن عُبَيْد ، وكان عبيد مملوكا لرجل من ثَقِيف ، فتزوّج سُمَيّة ، وكانت أمَة للحارث بن كَلَدَة ، فأعتقها ، فولدت له زيادا ، فصار حُرًّا ، ونشأ غلاما لَقِنا ذهِنا ، عاقلا أديبا ، فأخرجه المغيرة بن شعبة معه إلى البصرة حين وَلِيها من قِبَل عمر بن الخطاب ، فاستكتبه المغيرة .

فلما ولى علىّ بن أبى طالب ولّى زيادا أرض فارس ، فلما توجه إلى صفّين كتب معاوية إلى زياد يتوعّده ، فقام زياد فى الناس ، فقال : « إن ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق كتب إلىّ يتوعدنى ، وبينى وبينه ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تسعين ألف مُدَجَّج من شيعته ، أما والله لئن رامنى ليجدنى ضَرّابا بالسيف » .

فلما قُتِل علىّ ، واستدفّ الأمر لمعاوية تحصَّنَ زياد بقلعة مدينة إصْطَخْر ، وكتب معاوية له أمانا على أن يأتيه ، فإن رضى مايُعطيه ، وإلا ردّه إلى مُتَحَصَّنه بتلك القلعة .

فسار إلى معاوية ، وترقّت به الأمور إلى أن ادّعاه معاوية ، وزعم للناس أنه ابن أبى سفيان ، وشهد له أبو مريم السَّلُولىّ ـ وكان فى الجاهلية خمّارا بالطائف ـ أن أبا سفيان وقع على سُمَيّة بعد ما كان الحارث أعتقها ، وشهد رجل من بنى المُصْطَلِق ، اسمه يزيد ، أنه سمع أبا سفيان يقول : « إن زياداً من نُطْفَة أقرّها فى رحم أمّه سُمَيّة ، فتم ادعاؤه إياه . وكان فى ذلك ما كان .

وأمر معاوية زيادا أن يسير إلى الكوفة إلى أن يرد عليه أمره ، فسار زياد حتى قدم الكوفة ، وعليها المغيرة بن شعبة ، فنزل دار سلمان بن ربيعة الباهلىّ ، ووافاه كتاب معاوية بولاية البصرة ، فسار إليها .

فلما وافاها قصد المسجد الجامع ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « إنه قد كانت بينى وبين قوم أحقاد ، وقد جعلتها تحت قدمى ، ولست أؤاخذ أحدا

بمداوة ، ولا أهتك له قناعا حتى يبدى لى صفحته ، فإذا أبداها لم أنظره ، فمن كان منكم مُحْسناً فليزدد إحسانا ، ومن كان منكم مُسيئاً فليقلع عن إساءته ، وأعينونا رحمكم الله بالسمع والطاعة » . ثم نزل .

فلبث على البصرة حَوْلَيْن حتى مات المغيرة ، فكتب إليه معاوية بولاية الكوفة مع البصرة ، فسار إليها .

* * *

قالوا : وكان أول من لقى الحسن بن علىّ رضى الله عنه ، فندّمه على ماصنع ، ودعاه إلى رد الحرب حُجْرُ بن عَدِىّ ، فقال له « يابن رسول الله ، لوددت أنى مُتّ قبل مارأيت ، أخرجتنا من العَدْل إلى الجَوْر ، فتركنا الحق الذى كنا عليه ، ودخلنا فى الباطل الذى كنا نهرب منه ، وأعطينا الدَّنِيّة من أنفسنا ، وقبلنا الخَسِيسَةَ التى لم تَلِقْ بنا » .

فاشتد على الحسن رضى الله عنه كلام حُجْر ، فقال له « إنى رأيت هوى عُظْمِ الناس فى الصّلح ، وكرهوا الحرب ، فلم أحبّ أن أحملهم على ما يكرهون، فصالحت بُقْيَاً على شيعتنا خاصّة من القتل ، فرأيت دفع هذه الحروب إلى يومٍ مّا ، فإن الله كل يومٍ هو فى شأن » .

قال : فخرج من عنده ، ودخل على الحسين رضى الله عنه مع عُبَيْدة بن عمرو ، فقالا : « أبا عبد الله ، شريتم الذُّلّ بالعِزّ ، وقبلتم القليل ، وتركتم الكثير ، أطِعْنا اليوم ، واعْصِنا الدَّهْر ، دَعِ الحسن وما رأى من هذا الصلح ، واجمع إليك شيعتك من أهل الكوفة وغيرها ، وولّنى وصاحبى هذه المقدمة ، فلا يشعر ابن هند إلا ونحن نُقارِعه بالسيوف » .

فقال الحسين : « إنّا قد بايعنا وعاهَدْنا، ولا سبيل إلى نقض بَيْعَتنا » .

وروى عن علىّ بن محمد بن بشير الهمدانىّ ، قال : خرجتُ أنا وسفيان ابن ليلى حتى قدمنا على الحسن المدينة ، فدخلنا عليه ، وعنده المسيّب بن نَجَبَة ،

وعبد الله بن الوَدَّاك التَّميمِيّ ، وسراج بن مالك الخَثْعَمِيّ ، فقلت : « السلام عليك يا مُذِلّ المؤمنين » ، قال : « وعليك السلام ، اجلس ، لست مُذِلّ المؤمنين ، ولكنى مُعِزّهم ، ما أردت بمصالحتى معاوية إلا أن أدفع عنكم القتل عند ما رأيت من تباطؤ أصحابى عن الحرب ، ونكولهم عن القتال ، ووالله لئن سِرْنا إليه بالجبال والشجر ما كان بُدٌّ من إفضاء هذا الأمر إليه » .

قال : ثم خرجنا من عنده ، ودخلنا على الحسين ، فأخبرناه بما رَدَّ علينا ، فقال : « صدق أبو محمد ، فليكن كل رجل منكم حِلْسًا[1] من أحلاس بيته ، ما دام هذا الإنسان حَيًّا » .

[موت الحسن بن على]

ثم إن الحسن رضى الله عنه اشتكى بالمدينة ، فَثَقُلَ ، وكان أخوه محمد بن الحَنَفِيّة فى ضَيْعَةٍ له ، فأرسل إليه ، فَوَافَى ، فدخل عليه ، فجلس عن يساره ، والحسين عن يمينه ، ففتح الحسن عينه ، فرآهما ، فقال للحسين : يا أخى ، أوصيكَ بمحمد أخيك خيرًا ، فإنه جلدة ما بين العينين » ثم قال : « يا محمد ، وأنا أوصيكَ بالحسين ، كانِفْهُ ووَازِرْهُ » .

ثم قال « ادفنونى مع جَدّى صلى الله عليه وسلم ، فإن مُنِعتُم فالبَقِيع »[2]

ثم تُوُفّى ، فمنع مروان أن يُدْفَنَ مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فَدُفِنَ فى البقيع .

وبلغ أهل الكوفة وفاة الحسن ، فاجتمع عظماؤهم فكتبوا إلى الحسين رضى الله عنه يعزونه .

وكتب إليه جَعْدَة بن هُبَيْرَة بن أبى وهب ، وكان أمحضهم[3] حُبًّا ومَوَدَّة : « أما بعد ، فإن مَن قِبَلنا من شيعتك مُتَطَلِّعَة أنفسهم إليك ، لا يَعْدِلُونَ بك أحدا ، وقد كانوا عرفوا رأى الحسن أخيك فى دفع الحرب ، وعرفوك باللِّين لأوليائك ، والغِلْظَة على أعدائك ، والشِّدَّة فى أمر الله ، فإن كنت تحب أن تطلب هذا الأمر فاقدم علينا ، فقد وطّنّا أنفسنا على الموت معك »

---

(١) الرجل الحلوس هو المريض الملازم ، ويقال فلان حلس من أحلاس البيت للذى لا يبرح البيت . (٢) موضع فيه أروم شجر من ضروب شتى ، وهو مقبرة بالمدينة .

(٣) فى نسخة محضهم ، وأمحضه الود ومحضه له أخلصه وصدقه .

فكتب إليهم : « أما أخى فأرجو أن يكون الله قد وفّقه ، وسدّده فيما يأتى ؛ وأما أنا فليس رأيى اليوم ذلك ، فالصقوا رحمكم الله بالأرض ، واكمنوا فى البيوت ، واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حيّا ، فلن يُحدث الله به حدثا وأنا حىّ ؛ كتبت إليكم برأيى والسلام » .

وانتهى خبر وفاة الحسن إلى معاوية — كتب به إليه عامله على المدينة مروان — فأرسل إلى ابن عباس ، وكان عنده بالشام — قدم عليه وافدا — فدخل عليه ، فعزّاه ، وأظهر الشماتة بموته ، فقال له ابن عباس : « لا تَشْمَتَنّ بموته ، فوالله لا تلبث بعده إلا قليلا » .

[بين معاوية وعمرو بن العاص]

قالوا : وكتب معاوية إلى عمرو بن العاص ، وهو على مصر ، قد قبضها بالشَّرْط الذى اشترَطَه على معاوية : « أما بعد ، فإن سُؤَّال أهل الحجاز ، وزُوَّارَ أهل العراق قد كثروا علىّ ، وليس عندى فضل من أعطيات الجنود ، فأعِنّى بخَرَاجَ مصر هذه السنة » .

فكتب إليه عمرو :

مُعَاوِىَ إِنْ تُدْرِكْكَ نَفْسٌ شَحِيحَةٌ   فَمَا وَرَّثَتْنِى مِصْرَ أُمِّى وَلَا أَبِى
وَمَا نِلْتُهَا عَفْوًا وَلَكِنْ شَرَطْتُهَا   وَقَدْ دَارَتِ الْحَرْبُ الْعَوَانُ عَلَى قُطْبِ
وَلَوْلَا دِفَاعِى الْأَشْعَرِىَّ وَصَحْبَهُ   لَأُلْفِيتُهَا تَرْغُو كَرَاغِيَةِ السَّقْبِ(١)

فلما رجع الجواب إلى معاوية تَذَمَّمَ ، فلم يُعَاوِده فى شىء من أمرها .

* * *

(١) السقب : ولد الناقة الذكر ساعة تضعه أمه .

قالوا : وقد كان معاوية خلَّفَ على الكوفة حين شخص منها المغيرة بن شعبة ، فصعد المنبر يوم الجمعة ليخطب فحَصَبَه حُجْر بن عَدِيّ ، وكان من شيعة عليّ ، فى نفر من أصحابه ، فنزل مُسْرِعاً من المنبر ، ودخل قصر الإمارة ، وبعث إلى حُجْر بخمسة آلاف درهم تَرَضَّاهُ بها . فقيل للمغيرة : « لِمَ فعلت هذا ، وفيه عليك وَهْنٌ وغَضَاضَة ؟ » فقال : « قد قتلته بها » .

فلما مات المغيرة وجمع معاوية لزياد الكوفة إلى البصرة ، كان يقيم بالبصرة ستة أشهر ، وبالكوفة مثل ذلك ، فخرج فى بعض خَرْجاته إلى البصرة ، وخلّف على الكوفة عمرو بن حُرَيْث العَدَوِى ، فصعد عمرو بن حُرَيْث ذات جمعة المنبر ليخطب ، وقعد له حُجْر بن عَدِيّ وأصحابه فَحَصَبُوه[1] ، فنزل من المنبر ، فدخل القصر ، وأغلق بابه .

وكتب إلى زياد يخبره بما صنع حُجْر وأصحابه ، فركب زياد البريد حتى وافى الكوفة ، ودخل المسجد ، وأخرج له سريره من القصر ، فجلس عليه ، فكان أوّل من دخل عليه من أشراف الكوفة محمد بن الأشْعَث بن قَيْس ، فسلّم عليه بالإمرة .

فقال زياد : « لاسلّم الله عليك ، انطلق فأْتِنى بابن عمك الساعة » .

قال محمد بن الأشعث : « مالى ولِحُجْر ، إنك لتعلم التَّبَاعُدَ بيننا » .

فقال له جرير بن عبدالله : « أنا آتيك بحُجْر أيها الأمير ، على أن تجعل له الأمان ، وألا تعرض له حتى يلقى معاوية ، فيرى فيه رأيه » . قال : « قد فعلت » .

فأقبل به إلى زياد ، فأمر بحبسه ، وأمر بطلب أصحابه الذين كانوا معه ، فأُتِىَ بهم ، فوجّههم جميعا إلى معاوية مع مائة رجل من الجند ، فأنشأت أم[2] حُجْر تقول :

تَرَفَّعْ أيُّهَا القَمَرُ المُنِيرُ ‏ ‏ ‏ تَرَفَّعْ هَلْ تَرَى حُجْراً يَسِيرُ
أَلَا يَاحُجْرُ حجرُ بنى عَدِيٍّ ‏ ‏ ‏ تَلَقَّتْكَ البِشَارَةُ وَالسُّرُورُ
وَإِنْ تَهْلَكْ فَكُلُّ عَمِيدِ قَوْمٍ ‏ ‏ ‏ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى هُلْكٍ يَصِيرُ

---

(١) رموه بالحصباء ، الحجارة والحصى .

(٢) وقيل : ابنته هى التى قالت الأبيات (فى نسخة أخرى).

وبعث زياد بثلاثة نفر من الشهود ، ليشهدوا عنده بما فعل حُجْر وأصحابه ، منهم أبو بُرْدَة بن أبى موسى ، وشُرَيْح بن هانىء الحارثى ، وأبو هُنَيْدَة[1] القينى .

فأتوا معاوية ، وشهدوا عليهم بحضبهم عمرو بن حُرَيْث ، فأمر معاوية بهم ، فَقُتِلُوا ، فدخل مالك بن هُبَيْرَة على معاوية فقال : « يا أمير المؤمنين ، أسأت فى قتلك هؤلاء النفر ، ولم يكونوا أحْدَثُوا ما استوجبوا به القتل ». فقال معاوية : « قد كنت هممت بالعفو عنهم إلا أن كتاب زياد ورد علىّ يعلمنى أنهم رؤساء الفِتْنَة ، وأنى متى قتلتهم اجتثثت الفِتْنَة من أصلها »

ولما قتل حُجْر بن عَدِىّ وأصحابه استفظع أهل الكوفة ذلك اسْتِفْظَاعاً شديدا ، وكان حُجْر من عظماء أصحاب علىّ ، وقد كان علىّ أراد أن يُوَلِّيه رياسة كندة ، ويعزل الأشعث بن قيس ، وكلاهما من ولد الحارث بن عمرو آكل المُرَار[2] ، فأبى حُجْر بن عَدِىّ أن يتولى الأمر والأشعث حىّ .

فخرج نفر من أشراف أهل الكوفة إلى الحسين بن علىّ ، فأخبروه الخبر ، فاسترجع وشق عليه ، فأقام أولئك النفر يختلفون إلى الحسين بن علىّ ، وعلى المدينة يومئذ مروان بن الحكم ، فترقى الخبر إليه ، فكتب إلى معاوية يعلمه أن رجالا من أهل العراق قدموا على الحسين بن علىّ رضى الله عنهما ، وهم مُقِيمُونَ عنده يختلفون إليه ، فاكتب إلى بالذى ترى .

فكتب إليه معاوية : « لا تعرض للحسين فى شىء ، فقد بايعنا ، وليس بناقض بيعتنا ولا مُخفر ذمّتنا ».

وكتب إلى الحسين : « أما بعد ، فقد انتهت إلىّ أمور عنك لست بها حَرِيّا ،

---

(١) فى نسخة : هبيدة .

(٢) المرار : شجر مر ، وآكل المرار كان فى نفر من أصحابه فى سفر ، فأصابهم الجوع ، فأما هو فأكل من المرار حتى شبع ونجا ، وأما أصحابه فلم يطيقوا ذلك حتى هلك أكثرهم .

لأنَّ مَنْ أعطى صَفْقة يمينه جدير بالوَفاء ؛ فاعلم رحمك الله أنى متى أنكرك تستنكرنى ، ومتى تَكِدْنِى أكِدْكَ ، فلا يَسْتَفِزَّنَّكَ السُّفهاء الذين يحبون الفتنة والسلام » .

فكتب إليه الحسين رضى الله عنه : « ما أريد حربك ، ولا الخلاف عليك » .

قالوا : ولم ير الحسن ولا الحسين طول حياة معاوية منه سوءا فى أنفسهما ولا مكروها ، ولا قَطَعَ عنهما شيئاً مما كان شَرَطَ لهما ، ولا تَغَيَّرَ لهما عن بِرّ .

قالوا : ومكث زياد على المِصْرَين أربع سنين ، فحَضَرَتْه الوَفاة عند ما مضى من خلافة معاوية ثلاث عشرة سنة ، وذلك سنة ثلاث وخمسين .

فكتب إلى معاوية : « أمّا بعد ، فإنى كتبتُ إليك وأنا فى آخر يوم من الدُّنيا وأوّل يوم من الآخرة ، وقد ولّيْتُ الكوفة عبد الله بن خالد بن أُسيد ، وولّيتُ البصرة سَمُرَةَ بن جُنْدب الفزارىّ ، والسلام »

فقيل له : « لِمَ لا تُوَلّى ابنك عُبَيْد الله أحد المصرين ؟ وليس بدون واحد من هذين » .

فقال : « إن يَكُ فيه خير فسيسبق إلى ذلك عمه معاوية » ، ثم مات ، وصَلّى عليه ابنه عُبَيْد الله بن زياد ، ودُفِنَ فى مقابر قريش .

فتولّى عبد الله بن خالد بن أسيد الكوفة ثمانية أشهر ، وكتب معاوية إلى عُبَيْد الله بن زياد بولاية البصرة ، وعَزَلَ عبد الله بن خالد عن الكوفة ، واستعمل عليها النعمان بن بشير الأنصارىّ .

[موت معاوية]

قالوا : ولما دخلت سنة ستين مرض معاوية مرضه الذى مات فيه ، فأرسل إلى ابنه يزيد ، وكان غائباً عن مدينة دمشق ، فلما أبطأ عليه دعا الضَّحّاك بن قيس

الفِهْرِيّ ، وكان على شُرَطه ، ومسلم بن عُقْبَة ، وكان على حرسه ؛ فقال لهما : « أبلغا يزيد وصيّتي ، واعلِماه أني آمره في أهل الحجاز أن يُكرِم مَنْ قَدِمَ عليه منهم ، ويتعهّدَ مَنْ غاب عنه من أشرافهم ، فإنهم أصله ؛ وإني آمره في أهل العراق أن يَرْفُقَ بهم ويُدارِيَهم ويتجاوز عن زلاّتهم ؛ وإني آمره في أهل الشام أن يجعلهم عيبته وبطانَته ، وألاّ يُطيلَ حبسهم في غير شامهم ، لئلا يجروا(١) على أخلاق غيرهم.

واعلِماهُ أني لست أخاف عليه إلا أربعة رجال : الحسين بن عليّ ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير . فأما الحسين ابن عليّ فأحسب أهل العراق غير تاركيه حتى يُخرجوه ، فإن فعل ، فظفرت به ، فاصفح عنه ، وأما عبد الله بن عمر فإنه رجل قد وَقَذَتْهُ العبادة ، وليس بطالبٍ للخلافة إلا أن تأتيه عفواً ؛ وأما عبد الرحمن بن أبي بكر فإنه ليس له في نفسه من النَّباهَة والذِّكْر عند الناس ما يمكّنه طلبها ، ويحاول التماسها إلا أن تأتيه عفواً ؛ وأما الذي يجثم لك جُثُومَ الأسد ، ويُراوِغك رَوَغان الثعلب ، فإنْ أمكَنَتْهُ فرصة وثب فذاك عبد الله بن الزبير ، فإن فعل وظفرت به ، فقطّعه إرْباً إرْباً إلا أن يلتمس منك صُلْحا ، فإن فعل فاقبل منه ، واحقن دماء قومك بجُهْدِك ، وكُفَّ عاديتهم بنَوالك ، وتَغَمَّدْهم بحِلْمك » .

ثم قدم عليه يزيد ، فأعاد عليه هذه الوَصيّة ؛ ثم قضى .

فأقبل الضَّحّاك بن قَيْس حتى أتى المسجد الأعظم ، فصعد المنبر ، ومعه أكفان معاوية ، فقال : « أيها الناس ، إنّ معاوية بن أبي سفيان كان عَبْدًا من عِبادِ الله ، مَلّكه على عِباده ، فعاش بقَدَرٍ ومات بأجَلٍ ، وهذه أكفانه كما ترون ، نحن مُدْرِجُوهُ فيها ومُدْخِلوهُ قبره ، ومُخَلّونَ بينه وبين ربّه ، فمَنْ أحَبَّ منكم أن يشهد جنازته فلْيَحْضر بعد صلاة الظهر » . ثم نزل .

وتفرّقَ الناس حتى إذا صلوا الظهر اجتمعوا وأصلحوا جهازه ، وحملوه حتى واروه .

(١) في الأصل : يجسروا .

[مبايعة يزيد]

وانصرف يزيد فدخل الجامع ، ودعا الناس إلى البَيْعَة ، فبايعوه ، ثم انصرف إلى منزله .

ومات معاوية وعلى المدينة الوليد بن عُتْبَة بن أبي سفيان ، وعلى مكة يحيى بن حكيم بن صَفْوَان بن أميّة ، وعلى الكوفة النعمان بن بشير الأنصارىّ ، وعلى البصرة عُبَيْد الله بن زياد .

فلم تكن ليزيد همّة إلا بَيْعَة هؤلاء الأربعة نَفَر ، فكتب إلى الوليد بن عُتْبَة يأمره أن يأخذهم بالبَيْعَة أخْذاً شديداً لا رُخْصَةَ فيه ؛ فلما وَرَدَ ذلك على الوليد قطع به وخاف الفِتْنَة ، فبعث إلى مروان ، وكان الذى بينهما مُتباعدا ، فأتاه ، فأقرأه الوليد الكتاب واستشاره .

فقال له مروان: « أمّا عبدالله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر فلا تخافَنَّ ناحيتهما ، فليسا بِطالِبَيْنِ شيئاً من هذا الأمر ، ولكن عليك بالحسين بن علىّ وعبد الله بن الزبير ، فابعث إليهما السّاعة ، فإنْ بَايَعَا وإلّا فاضرب أعناقهما قبل أن يُعْلَنَ الخبر ، فَيَثِب كل واحد منهما ناحية ، ويظهر الخلاف » .

فقال الوليد لعبد الله بن عمرو بن عثمان ، وكان حاضرا — وهو حينئذ غلام حين رَاهَقَ — : « انطلق يا بُنَىّ إلى الحسين بن علىّ وعبد الله بن الزبير ، فادْعُهما » .

فانطلق الغلام حتى أتى المسجد ، فإذا هو بهما جالِسَيْن ، فقال : « أجيبا الأمير » .

فقالا للغلام : « انطلق ، فإنّا صائران إليه على إثْرك » . فانطلق الغلام .

فقال ابن الزبير للحسين رضى الله عنه : « فِيمَ تَرَاهُ بعث إلينا فى هذه الساعة؟ » .

فقال الحسين: « أحسب معاوية قد مات ، فبعث إلينا للبَيْعَة » . قال ابن الزبير: « ما أظن غيره » . وانصرفا إلى منازلهما .

* * *

فأمّا الحسين فجمع نفراً من مَوَالِيه وغلمانه ، ثم مشى نحو دار الإمارة ، وأمر فتيانه أن يجلسوا بالباب ، فإن سمعوا صوته اقتحموا الدار .

ودخل الحسين على الوليد ، وعنده مروان ، فجلس إلى جانب الوليد ، فأقرأه الوليد الكتاب ، فقال الحسين : « إنّ مِثْلى لا يعطى بيْعته سِرًّا ، وأنا طَوْع يديك ، فإذا جمعت الناس لذلك حضرتُ، وكنتُ واحداً منهم » .

وكان الوليد رجلا يُحبّ العافيَة ، فقال للحسين : « فانصرف إذن حتى تأتينا مع الناس » ، فانصرف .

فقال مروان للوليد : « عَصَيْتَنى ، ووالله لا يمكّنك من مثله أبداً » .

قال الوليد : « ويحك ، أتشير علىّ بقتل الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليهما السلام ؟ والله إنّ الذى يُحاسَبُ بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله » .

وتحرّزَ ابن الزبير فى منزله ، وراوَغَ الوليد حتى إذا جَنّ عليه الليل سار نحو مكة ، وتنكّبَ الطريق الأعظم فأخذ على طريق الفُرْع .

ولما أصبح الوليد بلغه خبره ، فوجّه فى إثره حبيب بن كُوَيْن فى ثلاثين فارسا ، فلم يقَعُوا له على أثر ، وشغلوا يومهم ذلك كله بطلب ابن الزُّبَيْر .

فلما أمسوا ، وأظلم الليل مضى الحسين رضى الله عنه أيضا نحو مكة ، ومعه أخواته : أم كلثوم ، وزينب وولد أخيه ، وإخوته أبو بكر ، وجعفر ، والعباس ، وعامّة من كان بالمدينة من أهل بيته إلا أخاه محمد بن الحَنَفِيّة ، فإنه أقام .

وأما عبد الله بن عباس فقد كان خرج قبل ذلك بأيام إلى مكة .

وجعل الحسين رضى الله عنه يطوى المنازل، فاستقبله عبد الله بن مُطيع ، وهو منصرف من مكة يريد المدينة ، فقال له : « أين تريد ؟ » .

قال الحسين : « أما الآن فمكة » .

قال « خار(١) الله لك ، غير أنى أحب أن أشير عليك برأى » .

قال الحسين « وما هو ؟ » .

قال : إذا أتيت مكة فأردت الخروج منها إلى بلد من البلدان ، فإياك والكوفة ، فإنها بلدة مشئومة ، بها قُتِلَ أبوك ، وبها خُذِلَ أخوك ، واغتِيلَ بطعنة كادت

---

(١) جعل لك الخير .

تأنى على نفسه ؛ بل الزم الحَرَم ، فإن أهل الحجاز لا يعدلون بك أحدا ، ثم ادعُ إليك شيعتك من كل أرض ، فسيأتونك جميعا .

قال له الحسين : « يقضى الله ما أحب » .

ثم أطلق عنانه ، ومضى حتى وافى مكة ، فنزل شعب علىّ ، واختلف الناس إليه ، فكانوا يجتمعون عنده حَلَقًا حَلَقًا ، وتركوا عبد الله بن الزُّبَيْر ، وكانوا قبل ذلك يتحفّلون إليه ؛ فساء ذلك ابن الزُّبَيْر ، وعلم أن الناس لا يحفلون به والحسين مقيم بالبلد ، فكان يختلف إلى الحسين رضى الله عنه صباحا ومساء .

ثم إن يزيد عزل يحيى بن حكيم بن صَفْوان بن أميّة .

[أهل الكوفة والحسين]

قالوا : ولما بلغ أهل الكوفه وفاة معاوية وخروج الحسين بن علىّ إلى مكة اجتمع جماعة من الشيعة فى منزل سليمان بن صُرَد ، واتفقوا على أن يكتبوا إلى الحسين يسألونه القدوم عليهم ، ليسلموا الأمر إليه ، ويطردوا النعمان بن بشير ، فكتبوا إليه بذلك ؛ ثم وجّهوا بالكتاب مع عُبَيْد الله بن سُبَيْع الهَمْدانىّ وعبد الله بن وَدّاك السُّلَمِىّ ، فوافوا الحسين رضى الله عنه بمكة لعشر خلون من شهر رمضان ، فأوصلوا الكتاب إليه .

ثم لم يُمْسِ الحسين يومه ذلك حتى ورد عليه بِشر بن مُسْهِر الصَّيْدَاوِىّ ، وعبد الرحمن بن عُبَيْد الأَرْحَبِىّ ، ومعهما خمسون كتابا من أشراف أهل الكوفة ورؤسائها ؛ كل كتاب منها من الرجلين والثلاثة والأربعة بمثل ذلك .

فلما أصبح وافاه هانئ بن هانئ السُّبَيْعِىّ وسعيد بن عبد الله الخَثْعَمِىّ ، ومعهما أيضا نحو من خمسين كتابا .

فلما أمسى أيضا ذلك اليوم ورد عليه سعيد بن عبدالله الثقفىّ ومعه كتاب واحد من شَبَث بن رِبْعِىّ ، وحَجّار بن أَبْجَر ، ويزيد بن الحارث ، وعَزْرَة بن قَيْس ، وعمرو ابن الحجّاج ، ومحمد بن عُمَيْر بن عُطارد — وكان[1] هؤلاء الرؤساء من أهل الكوفة — فتتابعت عليه فى أيام رُسُل أهل الكوفة [و] من الكتب ما ملأ منه خُرْجَيْن[2] .

---

(١) فى الأصل : وكانوا .
(٢) الخرج بالضم وعاء ذو شقين ، يوضع على ظهر الدابة ، ويتخذه المسافر ليضع فيه أحماله ؛ والجمع أخراج .

فكتب الحسين إليهم جميعا كتابا واحدا ، ودفعه إلى هانئ بن هانئ ، وسعيد ابن عبد الله ، نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن علىّ إلى مَنْ بلغه كتابى هذا، من أوليائه وشيعته بالكوفة ، سَلَامٌ عليكم ، أما بعد ؛ فقد أتتنى كتبكم ، وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومى عليكم ، وإنى بَاعِثٌ إليكم بأخى وابن عمى وثقتى من أهلى « مُسلم بن عَقِيل » ليعلم لى كُنْه أمركم، ويكتب إلىّ بما يتبين له من اجتماعكم ، فإن كان أمركم على ما أتتنى به كتبكم ، وأخبرتنى به رسلكم أسرعت القدوم عليكم إن شاء الله ، والسلام » .

وقد كان مسلم بن عَقِيل خرج معه من المدينة إلى مكة ، فقال له الحسين عليه السلام : « يا ابن عمّ ، قد رأيت أن تسير إلى الكوفة ، فتنظر ما اجتمع عليه رأى أهلها ، فإن كانوا على ما أتتنى به كتبهم ، فَعَجِّلْ علىّ بكتابك لأسرع القدوم عليك ، وإن تكن الأخرى ، فَعَجِّل الانصراف » .

فخرج مسلم على طريق المدينة لِيُلِمّ بأهله ، ثم استأجر دَلِيلَيْن من قَيْس ، وسار، فضَلّا ذات ليلة ، فأصبحا ، وقدْ تاها ، واشتد عليهما العطش والحرّ ، فانقطعا ، فلم يستطيعا المشى ، فقالا لمسلم : « عليك بهذا السَّمْت ، فالزمه لعلك أن تنجو » .

فتركهما مسلم ومن معه من خدمه بحُشاشة الأنفس حتى أفضوا إلى طريق فلزموه، حتى وردوا الماء ، فأقام مسلم بذلك الماء .

وكتب إلى الحسين مع رسول استأجره من أهل ذلك الماء ، يخبره خبره ، وخبر الدَّلِيلَيْن، وما من الجَهْد، ويُعْلِمه أنه قد تطَيّرَ من الوجه الذى توجّه له ، ويسأله أن يُعْفِيَه ويوجّه غيره ، ويخبره أنه مقيم بمنزله ذلك من بطن الخُرْبُث[1] .

فسار الرسول حتى وَافَى مكة ، وأوصل الكتاب إلى الحسين ، فقرأه وكتب فى جوابه: « أما بعد ، فقد ظننت أن الجُبْنَ قد قصّر بك عما وجّهْتُك به ، فامْضِ لما أمرتُك فإنى غير مُعْفِيك ، والسلام » .

(١) البطن : الموضع الغامض من الوادى ، والبطون كثيرة ؛ والخربث نبت أسود وزهرته بيضاء ، وهو من أطيب المراعى .

[مسلم فى الكوفة]

فسار مسلم حتى وَافَى الكوفة ، ونزل فى الدار التى تُعْرَف بدار المختار بن أبى عُبَيْدَة ، ثم عرفت اليوم بدار المُسَيِّب .

فكانت الشيعة تختلف إليه ، فيقرأ عليهم كتاب الحسين ؛ فَفَشَا أمره بالكوفة حتى بلغ ذلك النعمان بن بشير أميرها ، فقال : « لا أقاتل إلا مَنْ قاتلنى ، ولا أثب إلا على من وَثَبَ علىّ ، ولا آخذ بالقِرْفة[1] والظِّنَّة ، فَمَنْ أبدى صفحته ونكث بيعته ضربته بسيفى ما ثبت قائمه فى يدى ، ولو لم أكن إلا وحدى » . وكان يحب العافية ويغتنم السلامة .

فكتب مسلم بن سعيد الحَضْرَمى وعُمارة بن عُقْبَة ـ وكانا عَيْنَى يزيد بن معاوية ـ إلى يزيد يُعْلِمانه قدوم مسلم بن عَقِيل الكوفة داعِيًا للحسين بن علىّ ، وأنه قد أفسد قلوب أهلها عليه ، فإن يكن لك فى سلطانك حاجة فبادِرْ إليه من يقوم بأمرك ، ويعمل مثل عملك فى عدوّك ؛ فإن النعمان رجل ضعيف أو مُتضاعف ، والسلام .

فلما ورد الكتاب على يزيد أمر بعهد ، فكُتب لِعُبَيْد الله بن زياد على الكوفة ، وأمره أن يبادر إلى الكوفة ، فيطلب مسلم بن عَقِيل طَلَبَ الخَرَزَة حتى يظفر به ، فيقتله ، أو ينفيه عنهما ؛ ودفع الكتاب إلى مسلم بن عمرو الباهلىّ أبى قُتَيْبَة بن مسلم ، وأمره بإغْذَاذِ السَّيْر . فسار مسلم حتى وَافَى البصرة ، وأوْصَلَ الكتاب إلى عُبَيْد الله بن زياد .

وقد كان الحسين بن علىّ رضى الله عنه كتب كتابا إلى شيعته من أهل البصرة مع مَوْلى له يسمى « سَلْمان » نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن علىّ إلى مالك بن مِسْمَع ، والأحْنَف ابن قَيْس ، والمنذر بن الجارود ، ومسعود بن عمرو ، وقيس بن الهَيْثَم ، سلامٌ عليكم ؛ أما بعد ، فإنى أدعوكم إلى إحياء معالم الحق وإماتة البِدَع ، فإن تجيبوا تهتدوا سُبُل الرَّشاد ، والسلام » .

فلما أتاهم هذا الكتاب كَتَمُوه جميعا إلا المنذر بن الجارود ، فإنه أفشاه ، لتزويجه ابنته هندا من عُبَيْد الله بن زياد ، فأقبل حتى دخل عليه ، فأخبره

---

(١) التهمة.

بالكتاب ، وحكى له ما فيه ، فأمر عُبَيد الله بن زياد بطلب الرسول ، فطلبوه ، فأتوه به ، فضربت عنقه .

ثم أقبل حتى دخل المسجد الأعظم ، فاجتمع له الناس ، فقام ، فقال : « أنصَفَ القَارَةَ [1] مَنْ رَامَاهَا ، يا أهل البصرة إن أمير المؤمنين قد وَلّانى مع البصرة الكوفة ، وأنا سائر إليها ، وقد خلّفت عليكم أخى عثمان بن زياد ، فإيّاكم والخلاف والإرْجاف ، فوالله الذى لا إله غيره ، لئن بلغنى عن رجل منكم خالَفَ أو أرْجَفَ لأقتلنه ووليّه ، ولآخذنّ الأدنى بالأقصى ، والبرىء بالسقيم حتى تستقيموا ، وقد أعذر من أنذر » . ثم نزل ، وسار .

وخرج معه من أشراف أهل البصرة شَرِيك بن الأعْوَر والمنذر بن الجارود ، فسار حتى وافَى الكوفة ، فدخلها ، وهو مُتَلَثِّم .

وقد كان الناس بالكوفة يتوقّعون الحسين بن علىّ عليهما السلام ، وقدومه ، فكان لا يمرّ ابن زياد بجماعة إلا ظنوا أنه الحسين فيقومون له ، ويدعون ويقولون : « مَرْحَبًا بابن رسول الله ، قدمت خير مَقْدم » .

فنظر ابن زياد من تباشيرهم بالحسين إلى ما ساءه ، وأقبل حتى دخل المسجد الأعظم ، ونُودِىَ فى الناس ، فاجتمعوا ، وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل الكوفة ، إنّ أمير المؤمنين قد وَلّانى مصركم ، وقسم فيئكم فيكم ، وأمرنى بإنصاف مظلومكم ، والإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، والشِّدّة على

---

(١) القارة : قوم رُماة من العرب ، وفى المثل : قد أنصف القارة من راماها ، وقد زعموا أن رجلين التقيا ، أحدهما قارىّ والآخر أسدى ، فقال القارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتنى وأنشد :

قد أنصف القارة من راماها   إنا إذا ما فئة نلقاها

نرد أولاها على أخراها

ثم انتزع له سهما فشك فؤاده .

عاصيكم ومُريبكم ، وأنا مُنتَهٍ فى ذلك إلى أمره ، وأنا لمُطيعكم كالوالد الشَّفيق ، ولمخالفكم كالسُّمّ النَّقيع ، فلا يبقين أحد منكم إلا على نفسه » .

ثم نزل ، فأتى القصر ، فنزله ، وارتحل النعمان بن بشير نحو وطنه بالشام .

وبلغ مسلم بن عَقِيل قدوم عُبَيد الله بن زياد وانصراف النعمان ، وما كان من خطبة ابن زياد ووعيده ، فخاف على نفسه .

فخرج من الدار التى كان فيها بعد عتمة حتى أتى دار هانىء بن عُرْوَة المَذْحِجِىّ ، وكان من أشراف أهل الكوفة ، فدخل داره الخارجة ، فأرسل إليه وكان فى دار نسائه ، يسأله الخروج إليه ، فخرج إليه .

وقام مسلم ، فسلّم عليه ، وقال :

« إنى أتيتك لتجيرنى وتضيفنى » .

فقال له هانىء :

« لقد كلّفتنى شَطَطا بهذا الأمر ، ولولا دخولك منزلى لأحببت أن تنصرف عنى ، غير أنه قد لزمنى ذمامٌ لذلك » .

فأدخله دار نسائه ، وأفرد له ناحية منها .

وجعلت الشيعة تختلف إليه فى دار هانىء .

وكان هانىء بن عُرْوَة مواصلا لشريك بن الأعْوَر البصرىّ الذى قدم مع ابن زياد ، وكان ذا شَرَفٍ بالبصرة وخطر ، فانطلق هانىء إليه حتى أتى به منزله ، وأنزله مع مسلم بن عَقِيل فى الحُجْرة التى كان فيها .

وكان شريك من كبار الشيعة بالبصرة ، فكان يحثّ هانئاً على القيام بأمر مسلم ، وجعل مسلم يبايع من أتاه من أهل الكوفة ، ويأخذ عليهم العهود والمواثيق المؤكَّدة بالوفاء .

* * *

ومرض شريك بن الأعْوَر فى منزل هانىء بن عُرْوَة مرضاً شديداً ، وبلغ ذلك عُبَيد الله بن زياد ، فأرسل إليه يُعْلمه أنه يأتيه عائداً .

فقال شَرِيك لمسلم بن عَقِيل : « إنما غايتك وغاية شيعتك هَلاك هذا الطَّاغِيَة ، وقد أمْكَنَكَ الله منه ، هو صائرٌ إلىّ لِيَعُودَنى ، فقُم ، فادخل الخزانة حتى إذا اطمأنّ عندى ، فاخرج إليه ، فاقتله ، ثم صِرْ إلى قصر الإمارة ، فاجلس فيه ، فإنه لا ينازعك فيه أحد من الناس ، وإن رزقنى الله العافِيَة صِرْتُ إلى البصرة ، فكَفَيْتُكَ أمرها ، وبايع لك أهلها » .

فقال هانىء بن عُرْوَة : « ما أُحِبّ أن يُقْتَل فى دارى ابن زياد » .

فقال له شَرِيك : « ولِمَ ؟ فوالله إنّ قتله لَقُرْبانٌ إلى الله » .

ثم قال شريك لمسلم : « لا تُقَصِّرْ فى ذلك » .

فبينما هم على ذلك إذ قيل لهم : « الأمير بالباب » .

فدخل مسلم بن عَقِيل الخزانة ، ودخل عُبَيد الله بن زياد على شَرِيك ، فسلّم عليه ، وقال :

« ما الذى تَجِد وتَشْكُو ؟ » .

فلما طال سؤاله إيّاه استبطأ شريك خروج مسلم ، وجعل يقول ، ويُسْمِع مُسْلما :

مَا تَنظُرُونَ بِسَلْمَى عِنْدَ فُرْصَتِها   فَقَدْ وَفَى وُدُّها ، وَاسْتَوْسَقَ الصِّرَمُ(١)

وجعل يردّدُ ذلك .

فقال ابن زياد لهانىء : « أيَهْجُرُ ؟ » ـ يعنى يَهْذِى ـ .

قال هانىء : « نعم ، أصْلَحَ الله الأمير ، لم يزل هكذا منذ أصبح » .

ثم قام عُبَيد الله وخرج ، فخرج مسلم بن عَقِيل من الخزانة ، فقال شريك :

« ما الذى منعك منه إلا الجبن والفشل ؟ » .

---

(١) استوسق الأمر إذا أمكن ، والصرم : الطائفة المجتمعة من القوم .

قال مسلم : « منعني منه خلتان : إحداهما كراهية هانئ لقتله في منزله ، والأخرى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الإيمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن » .

فقال شريك : « أما والله لو قتلته لاستقام لك أمرك ، واستوسق لك سلطانك » .

ولم يعش شريك بعد ذلك إلا أياما ، حتى توفي ، وشيّع ابن زياد جنازته ، وتقدم فصلّى عليه .

ولم يزل مسلم بن عقيل يأخذ البيعة من أهل الكوفة حتى بايعه منهم ثمانية عشر ألف رجل في ستر ورفق .

* * *

وخفي على عبيد الله بن زياد موضع مسلم بن عقيل ، فقال لمولى له من أهل الشام يسمى معقلا ، وناوله ثلاثة آلاف درهم في كيس ، وقال : « خذ هذا المال ، وانطلق، فالتمس مسلم بن عقيل ، وتأتّ له بغاية التأتّي » .

فانطلق الرجل حتى دخل المسجد الأعظم ، وجعل لا يدري كيف يتأتى الأمر .

ثم إنه نظر إلى رجل يكثر الصلاة إلى سارية من سواري المسجد ، فقال في نفسه : « إن هؤلاء الشيعة يكثرون الصلاة ، وأحسب هذا منهم » .

فجلس الرجل حتى إذا انفتل من صلاته قام ، فدنا منه ، وجلس ، فقال :

« جعلت فداك ، إني رجل من أهل الشام ، مولى لذي الكلاع ، وقد أنعم الله علي بحبّ أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحبّ من أحبهم ، ومعي هذه الثلاثة الآلاف[1] درهم ، أحبّ إيصالها إلى رجل منهم ، بلغني أنه قدم هذا المصر داعيةً للحسين بن عليّ عليه السلام ، فهل تدلني عليه لأوصّل هذا المال إليه ؟ ليستعين به على بعض أموره ، ويضعه حيث أحبّ من شيعته » .

قال له الرجل : « وكيف قصدتني بالسؤال عن ذلك دون غيري ممن هو في المسجد ؟ » .

(١) في الأصل : آلاف .

قال : « لأنى رأيت عليك سيما الخير ، فرَجَوْت أن تكون ممن يتَوَلّى أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

قال له الرجل : « ويحك ، قد وقعت علىّ بعينك ، أنا رجل من إخوانك ، واسمى مُسْلِم بن عَوْسَجَة ، وقد سُرِرْتُ بك ، وساءنى ما كان من حسّى قِبَلك ، فإنى رجل من شيعة أهل هذا البيت ، خَوْفاً من هذا الطاغِيَة ابن زياد ، فأعْطِنى ذِمّة الله وعهده أن تَكْتُمَ هذا عن جميع الناس » .

فأعطاه من ذلك ما أراد .

فقال له مُسْلِم بن عَوْسَجَة : « انصرف يومك هذا ، فإن كان غد فائتنى فى منزلى حتى أنطلق معك إلى صاحبنا ـ يعنى مُسْلِم بن عَقِيل ـ فأوصلك إليه » .

فمضى الشامىّ ، فباتَ ليلته ، فلما أصبح غَدَا إلى مُسْلِم بن عَوْسَجَة فى منزله ، فانطلق به حتى أدخله إلى مُسْلِم بن عَقِيل ، فأخبره بأمره ، ودفع إليه الشامىّ ذلك المال ، وبايعه .

فكان الشامىّ يَغْدُو إلى مُسْلِم بن عَقِيل ، فلا يُحْجَب عنه ، فيكون نهاره كله عنده ، فيَتَعَرَّفَ جميع أخبارهم ، فإذا أمْسَى وأظلم عليه الليل دخل على عُبَيْد الله ابن زياد ، فأخبره بجميع قصصهم ، وما قالوا وفعلوا فى ذلك ، وأعْلَمَه نزول مُسْلِم فى دار هانىء بن عُرْوَة .

* * *

ثم إنّ محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة دخلا على ابن زياد مُسَلِّمين ، فقال لهما :

« ما فعل هانىء بن عُرْوَة ؟ » .

فقالا : « أيها الأمير ، إنه عَلِيلٌ منذ أيّام » .

فقال ابن زياد : « وكيف ؟ وقد بلغنى أنه يجلس على باب داره عامّة نهاره ، فما يمنعه من إتياننا ، وما يجب عليه من حق التسليم ؟ » .

قالا : « سنعلمه ذلك ، ونخبره باستبطائك إياه » .

فخرجا من عنده ، وأقبلا حتى دخلا على هانئ بن عُرْوَة ، فأخبراه بما قال لهما ابن زياد ، وما قالا له ، ثم قالا له :

« أقسمنا عليك إلا قمت معنا إليه الساعة لتَسُلّ سخيمة[1] قلبه » .

فدعا ببغلته ، فركبها ، ومضى معهما ، حتى إذا دنا من قصر الإمارة خَبُثَتْ نفسه .

فقال لهما :

« إن قلبي قد أوجس من هذا الرجل خِيفة » .

قالا : « ولِمَ تُحدّث نفسك بالخوف وأنت برىء الساحة ؟ » .

فمضى معهما حتى دخلوا على ابن زياد ، فأنشأ ابن زياد يقول متمثّلا :

أُرِيدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي عَذِيرَكَ مِنْ خَلِيلِكَ مِنْ مُرَادِ

قال هانئ : « وما ذاك أيها الأمير ؟ » .

قال ابن زياد : « وما يكون أعظم من مجيئك بمسلم بن عقيل ، وإدخالك إياه منزلك ، وجمعك له الرجال ليبايعوه ؟ » .

فقال هانئ : « ما فعلت ، وما أعرف من هذا شيئا » .

فدعا ابن زياد بالشامىّ ، وقال : « يا غلام، ادع لى معقلا » .

فدخل عليهم .

فقال ابن زياد لهانئ بن عروة : « أتعرف هذا ؟ » .

فلما رآه علم أنه إنما كان عَيْناً عليهم .

فقال هانئ : « أَصْدُقُك والله أيها الأمير ، إنى والله ما دَعَوْت مسلم بن عَقِيل ، وما شعرت به » . ثم قصّ عليه قصّته على وَجْهِها .

ثم قال : « فأمّا الآن فأنا مُخرِجه من دارى لينطلق حيث يشاء ، وأعطيك عهداً وثيقاً أن أرجع إليك » .

---

(١) السخيمة : الحقد والضغينة والموجدة فى النفس .

قال ابن زياد : « لا والله ، لا تفارقنى حتى تأتينى به » .

فقال هانىء : « أوَ يَجْمُلُ بى أن أسلم ضيفى وجارى للقتل ؟ والله لا أفعل ذلك أبداً » .

فاعترضه ابن زياد بالخيزرانة ، فضرب وجهه ، وهشم أنفه ، وكسر حاجبه ، وأمَرَ به ، فأُدْخِلَ بيتاً .

وبلغ مَذْحجا أنّ ابن زياد قد قَتَلَ هانئا ، فاجتمعوا بباب القصر ، وصاحوا . فقال ابن زياد لشُرَيْحٍ القاضى — وكان عنده — : « ادخل إلى صاحبهم ، فانظر إليه ، ثم اخرج إليهم ، فأَعْلِمهم أنه حىّ » . ففعل .

فقال لهم سيّدهم عمرو بن الحجّاج : « أما إذ كان صاحبكم حَيًّا فما يُعجِلكم الفتنة ؟ انصرفوا » . فانصرفوا .

فلما علم ابن زياد أنهم قد انصرفوا أمَرَ بهانىء ، فأُتى به السوق ، فضُرِبَتْ عنقه هناك .

* * *

ولما بلغ مسلم بن عَقِيل قتل هانىء بن عُرْوَة نادَى فيمن كان بايعه ، فاجتمعوا ؛ فعقد لعبد الرحمن بن كُرَيْز الكِنْدِىّ على كِنْدَة وربيعة ، وعَقَدَ لمسلم بن عَوْسَجَة على مَذحِج وأسد ، وعقد لأبى ثُمامة الصَّيْداوِىّ على تميم وهمدان ، وعقد للعباس بن جَعْدَة بن هُبيرة على قريش والأنصار ؛ فتقدّموا جميعاً حتى أحاطوا بالقصر ، واتّبعهم هو فى بقيّة الناس .

وتحصَّنَ عُبَيْد الله بن زياد فى القصر مع مَنْ حضر مجلسه فى ذلك اليوم من أشراف أهل الكوفة والأعوان والشُّرَط ، وكانوا مقدار مائتى رجل ، فقاموا على سور القصر يرمون القوم بالمَدَر[1] والنُّشّاب ، ويمنعونهم من الدنوّ من القصر ، فلم يزالوا بذلك حتى أمْسَوْا .

---

(١) رماح كانت تركب فيها القرون المحددة مكان الأسنة .

وقال عُبَيْد الله بن زياد لمن كان عنده من أشراف أهل الكوفة : ليُشرف كل رجل منكم فى ناحية من السور ، فخوّفوا القوم .

فأشرف كَثير بن شهاب ، ومحمد بن الأشعث ، والقَعْقاع بن شَوْر ، وشَبَث ابن رَبْعِىّ ، وحَجّار بن أَبْجَرْ ، وشِمْر بن ذى الجَوْشَن ، فتنادوا : « يا أهل الكوفة ، اتقوا الله ولا تستعجلوا الفتنة ، ولا تشقّوا عصا هذه الأمة ، ولا توردِوا على أنفسكم خيول الشام ، فقد ذقتموهم ، وجرّبتم شَوْكتهم » .

فلما سمع أصحاب مسلم مقالتهم فَتَرُوا بعض الفتور .

وكان الرجل من أهل الكوفة يأتى ابنه ، وأخاه ، وابن عمّه فيقول : انصرف ، فإن الناس يكفونك . وتجىء المرأة إلى ابنها وزوجها وأخيها فتتعلّق به حتى يرجع .

فصلى مسلم العشاء فى المسجد ، وما معه إلا زهاء ثلاثين رجلا .

فلما رأى ذلك مضى منصرفا ماشيا ، ومشوا معه ، فأخذ نحو كِندة ، فلما مضى قليلا التفت فلم يرِ منهم أحدا ، ولم يُصب إنسانا يدلّه على الطريق ، فمضى هائما على وجهه فى ظُلْمة الليل حتى دخل على كِنْدة .

فإذا امرأة قائمة على باب دارها تنتظر ابنها — وكانت ممن خفّ مع مسلم — فآوته وأدخلته بيتها ؛ وجاء ابنها ، فقال : مَنْ هذا فى الدار ؟

فأعلمته ، وأمرته بالكتمان .

* * *

ثم إن ابن زياد لما فقد الأصوات ظن أن القوم دخلوا المسجد ، فقال : انظروا ، هل ترون فى المسجد أحدا ؟ — وكان المسجد مع القصر — .

فنظروا فلم يروا أحدا ، وجعلوا يشعلون [أطْنَابَ] القصب[١] ، ثم يقذفون بها فى رَحبة المسجد ليضىء لهم ، فتبيّنوا ، فلم يروا أحدا .

فقال ابن زياد : إن القوم قد خُذِلوا ، وأسلموا مسلما .

وانصرفوا .

---

(١) أطناب القصب : عروقه التى تتشعب من أرومته . وفى الأصل أطنان ، والصواب ما ذكر .

فخرج فيمن كان معه ، وجلس فى المسجد ، ووضعت الشموع والقناديل ، وأمر مناديا فنادى بالكوفة « ألا برئت الذمّة من رجل من العرفاء، والشُّرَط والحرس لم يحضر المسجد » .

فاجتمع الناس ، ثم قال : « ياحُصَين بن نمير ـ وكان على الشرطة ـ ثكِلَتك أمّك إن ضاع باب سكّة من سِكَك الكوفة ، فإذا أصبحت فاستقرِ الدور ، دارا ، دارا ، حتى تقع عليه .

وصلى ابن زياد العشاء فى المسجد ، ثم دخل القصر .

فلما أصبح جلس للناس ، فدخلوا عليه ، ودخل فى أوائلهم محمد بن الأشعث ، فأقعده معه على سريره .

وأقبل ابن تلك المرأة التى مُسلم فى بيتها إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ـ وهو حينئذ غلام حين راهق ـ فأخبره بمكان مسلم عنده .

فأقبل عبد الرحمن إلى أبيه محمد بن الأشعث ، وهو جالس مع ابن زياد ، فأسرّ إليه الخبر .

فقال ابن زياد : ماسارّ به ابنك ؟

قال : « أخبرنى أن مسلم بن عقيل فى بعض دورنا » .

فقال : « انطلق ، فأتنى به الساعة » .

وقال لعُبيد بن حُريث : « ابعث مائة رجل من قريش »

وكره أن يبعث إليه غير قريش خوفا من العصبية أن تقع .

فأقبلوا حتى أتوا الدار التى فيها مسلم بن عقيل ، ففتحوها ، فقاتلهم ، فرُمى ، فكُسِر فُوه ، وأُخذ ، فأُتى ببغلة فركبها ، وصاروا به إلى ابن زياد .

[قتل مسلم بن عقيل]

فلما أُدخِلَ عليه ، وقد اكتنفه الجَلاوزة قالوا له : « سَلّم على الأمير » .

قال : « إن كان الأمير يريد قتلى ، فما أنتفعُ بسلامٍ عليه ، وإن كان لم يُرِد فسيكثر عليه سلامى » .

قال ابن زياد : كأنّك ترجو البَقاء .

فقال له مسلم : فإن كنت مُزْمِعاً على قتلى ، فدعْنى أُوص إلى بعض مَنْ هاهنا مِن قومى .

قال له : أوص بما شئت .

فنظر إلى عمر بن سعد بن أبى وقّاص ، فقال له : اخْلُ معى فى طرف هذا البيت حتى أوصى إليك ، فليس فى القوم أقرب إلىّ ولا أَوْلَى بى منك .

فتَنَحَّى معه ناحية ، فقال له : أتقبل وَصيّتى ؟

قال : نعم .

قال مسلم : إنّ علىّ هاهنا دَيْناً ، مقدار ألف درهم ، فاقض عنى ، وإذا أنا قُتِلْتُ فاستَوْهِب من ابن زياد جُثّتى لئلا يُمَثَّل بها ، وابعث إلى الحسين بن علىّ رسولاً قاصِداً من قِبَلك ، يُعْلِمه حالى ، وما صِرْت إليه من غَدْر هؤلاء الذين يزعمون أنهم شيعته ، وأخبره بما كان من نَكْثهم بعد أن بايعنى منهم ثمانية عشر ألف رجل ، لينصرف إلى حَرَم الله ، فيُقيم به ، ولا يَغْتَرّ بأهل الكوفة .

وقد كان مسلم كتب إلى الحسين أن يقدم ولا يلبث .

فقال له عمر بن سعد : لك علىّ ذلك كله ، وأنا به زَعِيمٌ .

فانصرف إلى ابن زياد ، فأخبره بكل ما أَوْصَى به إليه مسلم .

فقال له ابن زياد : قد أسأت فى إفشائك ما أسرّه إليك ، وقد قيل « إنه لا يخونك إلّا الأمين ، وربما ائتمنك الخائن » .

وأمر ابن زياد بمسلم فرُقِيَ به إلى ظَهْر القصر ، فأُشْرف به على الناس ، وهم على باب القصر مما يلى الرَّحْبَة ، حتى إذا رأوه ضُرِبَتْ عنقه هناك ، فسقط رأسه إلى الرَّحْبَة ، ثم أُتبع الرأس بالجسد .

وكان الذى تولّى ضرب عنقه أحمر بن بُكَيْر .

وفى ذلك يقول عبد الرحمن بن الزبير الأسدىّ :

فَإِنْ كُنْتِ لَا تَدْرِينَ مَا الْمَوْتُ فَانْظُرِى
إِلَى هَانِئٍ فِى السُّوقِ وَابْنِ عَقِيلِ
إِلَى بَطَلٍ قَدْ هَشَّمَ السَّيْفُ أَنْفَهُ
وَآخَرَ يَهْوِى مِنْ طَمَارَ قَتِيلِ[1]
أَصَابَهُمَا رَيْبُ الزَّمَانِ ، فَأَصْبَحَا
أَحَادِيثَ مَنْ يَسْعَى بِكُلِّ سَبِيلِ
تَرَى جَسَدًا قَدْ غَيَّرَ الْمَوْتُ لَوْنَهُ
وَنَضْحَ دَمٍ قَدْ سَالَ كُلَّ مَسِيلِ

ثم بعث عُبَيد الله برءوسهما إلى يزيد ، وكتب إليه بالنبأ فيهما .

فكتب إليه يزيد : لم تَعْدُ الظَّنَّ بك ، وقد فعلتَ فِعْل الحازم الجليد ، وقد سألتُ رَسُولَيك عن الأمر ، ففرّساهُ لى ، وهما كما ذكرْتَ فى النُّصْح ، وفضل الرَّأى ، فاستَوْصِ بهما .

وقد بلغنى أن الحسين بن علىّ قد فَصَلَ من مكة متوجِّهاً إلى ما قِبلك ، فأذكِ العيونَ عليه ، وضَعِ الأرْصادَ على الطُّرُق ، وقُمْ أفضل القيام ، غير ألَّا تُقاتِل إلَّا مَنْ قاتلك ، واكتب إلىّ بالخبر فى كلّ يوم .

وكان أنفذ الرَّأسَيْن إليه مع هانىء بن أبى حَيَّة الهمدانىّ ، والزبير بن الأروج التميمىّ .

وكان قتل مُسلم بن عَقِيل يوم الثلاثاء لثلاث خَلَوْن من ذى الحجة سنة ستين[2] ، وهى السنة التى مات فيها معاوية .

---

(١) الطمار : المكان العالى . (٢) سبتمبر ٦٧٩ .

[خروج الحسين إلى الكوفة]

وخرج الحسين بن عليّ عليه السلام من مكة فى ذلك اليوم .

ثم إنّ ابن زياد وجّه بالحُصَيْن بن نُمَيْر ـ وكان على شُرَطه ـ فى أربعة آلاف فارس من أهل الكوفة ، وأمره أن يُقيم بالقادِسِيّة[1] إلى القُطْقُطَانَة[2] ، فيمنع مَنْ أراد النفوذ من ناحية الكوفة إلى الحجاز إلّا مَنْ كان حاجًّا أو مُعْتَمِرًا ومَنْ لا يُتَّهَم بمُمالأة الحسين .

قالوا : ولما وَرَدَ كتاب مُسْلِم بن عَقِيل على الحسين عليه السلام : « إنّ الرّائِدَ[3] لا يكذب أهلَه ، وقد بايعنى من أهل الكوفة ثمانية عشر ألف رجل ، فاقْدَم ، فإنّ جميع الناس معك ، ولا رَأْيَ لهم فى آل أبى سفيان » .

فلما عزم على الخروج ، وأخذ فى الجهاز بلغ ذلك عبد الله بن عباس ، فأقبل حتى دخل على الحسين ، رضى الله عنه ، فقال :

يا ابن عمّ ، قد بلغنى أنك تريد السير إلى العراق .

قال الحسين : أنا على ذلك .

قال عبد الله : أعيذك بالله يابن عم من ذلك .

قال الحسين : قد عزمت، ولابد من السير.

قال له عبد الله : أتسير إلى قوم طردوا أميرهم عنهم ، وضبطوا بلادهم ؟ فإن كانوا فعلوا ذلك فسِرْ إليهم ، وإن كانوا إنما يدعونك إليهم ، وأميرهم عليهم ، وعُمّاله يَجْبُونهم ، فإنهم إنما يدعونك إلى الحرب ، ولا آمنهم أن يخذلوك كما خذلوا أباك وأخاك .

قال الحسين : يابن عم ، سأنظر فيما قلت .

---

(١) قرية بين الكوفة وعذيب فى قضاء الديوانية .

(٢) موضع بقرب الكوفة .

(٣) الرائد هو الذى يتقد القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث .

وبلغ عبد الله بن الزبير مايهمّ به الحسين ، فأقبل حتى دخل عليـه ، فقال له : لو أقمتَ بهذا الحرم، وبَثَثْتَ رسلك فى البلدان ، وكتبتَ إلى شيعتك بالعراق أن يقدَموا عليك ، فإذا قوِى أمرك نفيتَ عمّال يزيد عن هذا البلد ، وعلىّ لك المُكانفة والمؤازرة ، وإن عملتَ بمشورتى طلبتَ هذا الأمر بهذا الحرم ، فإنه مَجْمع أهل الآفاق ، ومورد أهل الأقطار لم يُعْدِمك بإذن الله إدراكُ ماتريد ، ورجوتُ أن تناله .

قالوا : ولما كان فى اليوم الثالث عاد عبد الله بن عباس إلى الحسين ، فقال له :

ـ يابن عم لا تقرَبْ أهل الكوفة ؛ فإنهم قوم غَدَرة ، وأقم بهذه البلدة ، فإنك سيد أهلها ، فإن أبيت فَسِرْ إلى أرض اليمن ، فإن بها حصونا وشِعابا ، وهى أرض طويلة عريضة ، ولأبيك فيها شيعة ، فتكون عن الناس فى عزلة ، وتَبُثّ دُعاتك فى الآفاق ، فإنى أرجو إن فعلتَ ذلك أتاك الذى تحب فى عافية .

قال الحسين عليه السلام : يابن عم ، والله إنى لأعلم أنك ناصح مُشفق ، غير أنى قد عزمت على الخروج .

قال ابن عباس : فإن كنت لامحالة سائرا ، فلا تُخرِج النساء والصبيان ، فإنى لا آمن أن تُقتل كما قتل ابن عفان ، وصِبْيته ينظرون إليه .

قال الحسين : عَمّ ، ما أرى إلا الخروج بالأهل والولد .

فخرج ابن عباس من عند الحسين فمرّ بابن الزبير ، وهو جالس ، فقال له : قرّت عينُك يا بن الزبير بخروج الحسين .

ثم تمثّل :

خَلَالَكِ الجوُّ، فَبِيضِي وَاصْفِرِى   وَنَقِّرى ، مَاشِئْتِ أَنْ تُنَقِّرى

قالوا : ولما خرج الحسين من مكة اعترضه صاحب شرطة أميرها ، عمرو بن سعيد ابن العاص فى جماعة من الجند ، فقال : إن الأمير يأمرك بالانصراف ، فانصرف ، وإلا منعناك .

فامتنع عليه الحسين ، وتدافع الفريقان ، واضطربوا بالسياط .

وبلغ ذلك عمرو بن سعيد ، فخاف أن يتفاقم الأمر ، فأرسل إلى صاحب شرطه، يأمره بالانصراف .

***

قالوا : « ولما فصل الحسين بن على من مكة سائرا ، وقد وصل إلى التَّنْعِيم[١] لحق عيراً مقبـلة من اليمن ، عليها ورْس[٢] وحِنّاء ، ينطلق به إلى يزيد بن معاوية ، فأخذها وما عليها .

وقال لأصحاب الإبل : من أحب منكم أن يسير معنا إلى العراق أوْفَيْنَاه كِرَاه ، وأحْسَنّا صحبته ؛ ومن أحب أن يفارقنا من هاهنا أعطيناه من الكِرَى[٣] بقدر ماقطع من الأرض » .

ففارقه قوم ، ومضى معه آخرون .

ثم سار حتى إذا انتهى إلى الصِّفَاح[٤] لقيه هنـاك الفرزدق الشاعر مقبلا من العراق ، يريد مكة ، فسلّم على الحسين .

فقال له الحسين : كيف خلّفت الناس بالعراق ؟

قال : خلّفتهم ، وقلوبهم معك ، وسيوفهم عليك .

ثم ودّعه .

ومضى الحسين عليه السلام حتى إذا صار بِبَطْن الرُّمة[٥] كتب إلى أهل الكوفة .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن على إلى إخوانه من المؤمنين بالكوفة ، سلامٌ عليكم ، أما بعد ، فإن كتاب مسلم بن عقيل ورد علىّ باجتماعكم لى ، وتشوّقكم إلى قدومى ، وما أنتم عليه مُنْطَوُون من نصرنا ، والطلب بحقنا ، فأحسن الله لنا ولكم الصنيع ، وأثابكم على ذلك بأفضل الأجر ، وكتابى إليكم من بطن الرمة ، وأنا قادم عليكم ، وحثيث السير إليكم ، والسلام » .

---

(١) مكان بين مكة والمدينة بالقرب من مكة .

(٢) الورس : نبت أصفر يكون باليمن تتخذ منه الغمرة للوجه . (٣) الأجر .

(٤) موضع بين حنين وأنصاب الحرم بيسرة الداخل إلى مكة ، وصفاح نعمان جبال بين مكة والطائف .

(٥) قاع عظيم بنجد تصب فيه جماعة أودية .

ثم بعث بالكتاب مع قيس بن مُسْهِر ، فسار حتى وافى القَادِسِيّة[١] .

فأخذه حُصَين بن نُمَيْر ، وبعث به إلى ابن زياد ، فلما أدخل عليه أغلظ لعُبَيْد الله ، فأمر به أن يُطْرَح من أعلى سور القصر إلى الرَّحْبَة ، فطُرِح ، فمات .

وسار الحسين عليه السلام من بَطْن الرُّمة[٢] ، فَلَقِيَه عبد الله بن مُطِيع ، وهو منصرف من العراق ، فسلّم على الحسين ، وقال له :

بأبى أنت وأمى يابن رسول الله ، ما أخرجك من حَرَم الله وحرم جدّك ؟

فقال : إن أهل الكوفة كتبوا إلىّ يسألوننى أن أقدم عليهم لما رجوا من إحياء معالم الحق ، وإماتة البِدَع .

قال له ابن مطيع : أنشدك الله أن [لا] تأتى الكوفة ، فوالله لئن أتيتها لتُقْتَلَنّ .

فقال الحسين عليه السلام : « لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا » .

ثم ودّعه ومضى .

ثم سار حتى انتهى إلى زَرُود[٣] ، فنظر إلى فُسْطاطٍ[٤] مضروب ، فسأل عنه ، فقيل له : هو لزُهَيْر بن القَيْن .

وكان حاجًّا أقبل من مكة يريد الكوفة .

فأرسل إليه الحسين ، أن القَنِى أكلمك .

فأبى أن يلْقاهُ .

وكانت مع زهير زوجته ، فقالت له : سبحان الله ، يبعث إليك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تُجيبه .

فقام يمشى إلى الحسين عليه السلام ، فلم يلبث أن انصرف ، وقد أشْرَقَ وجهه ،

---

(١) القادسية ، قرية قرب الكوفة من جهة البرية ، بينها وبين العذيب أربعة أميال ، وعندها كانت الوقعة الكبرى بين المسلمين والفرس ، وقد فتحت بلادهم على المسلمين .
(٢) بطن الرمة : منزل لأهل البصرة إذا أرادوا المدينة ، بها يجتمع أهل البصرة والكوفة.
(٣) موضع بطريق مكة بعد الرمل .   (٤) الفسطاط : بيت من الشَّعر .

فأمر بفسطاطه فقُلِعَ ، وضُرِب إلى لِزْق فسطاط الحسين .

ثم قال لامرأته : أنتِ طالِقٌ ، فتقدَّمي مع أخيكِ حتى تَصِلِي إلى منزلك ، فإنى قد وطَّنت نفسى على الموت مع الحسين عليه السلام .

ثم قال لمن كان معه من أصحابه : مَنْ أحبَّ منكم الشَّهادة فليُقِم ، ومَنْ كَرِهَها فليتقدَّم .

فلم يقم معه منهم أحد ، وخرجوا مع المرأة وأخيها حتى لحقوا بالكوفة ..

* * *

قالوا : ولما رحل الحسين من زَرُود تَلَقَّاهُ رجل من بنى أسد ، فسأله عن الخبر .

فقال : لم أخرج من الكوفة حتى قُتِلَ مُسْلِم بن عَقِيل ، وهانىء بن عُرْوَة ، ورأيت الصِّبيان يجرُّون بأرجلهما .

فقال : إنا لله ، وإنا إليه راجعون ، عند الله نَحْتَسِبُ أنفسنا .

فقال له : أنشدك الله يا بن رسول الله فى نفسك ، وأنفُس أهل بيتك ، هؤلاء الذين نَراهم معك ، انصرف إلى موضعك ، ودَعِ المسير إلى الكوفة ، فوالله مالَكَ بها ناصِرٌ .

فقال بنو عَقِيل ـ وكانوا معه ـ : ما لنا فى العيش بعد أخينا مُسْلِم حاجة ، ولسنا براجعين حتى نموت .

فقال الحسين : « فما خَيْرٌ فى العيش بعد هؤلاء » ، وسار .

فلما وَافَى زُبَالَةَ (١) وافاه بها رسول محمد بن الأشعث ، وعمر بن سعد بما كان سأله مسلم أن يكتب به إليه من أمره ، وخِذْلان أهل الكوفة إياه ، بعد أن بايعوه ؛ وقد كان مُسْلِم سأل محمد بن الأشعث ذلك .

---

(١) موضع بطريق مكة ، وبها بركتان ، قال الشماخ :

وراحَتْ رواحا من زَرُودَ فنازعَتْ   زُبَالَة جلبابا من الليـــل أخضرا

فلما قرأ الكتاب استيْقَنَ بصحة الخبر ، وأفظَعه قتل مسلم بن عَقِيل، وهانئ ابن عُرْوَة .

ثم أخبره الرسول بقتل قَيْس بن مُسْهِر رسوله الذى وجّهه من بطن الرُّمّة .

وقد كان صحبه قوم من منازل الطريق ، فلما سمعوا خبر مسلم ، وقد كانوا ظنوا أنه يقدم على أنصار وعَضُد تفرقوا عنه ، ولم يبق معه إلا خاصّته .

فسار حتى انتهى إلى بطن العَقِيق[1] ، فلقيه رجل من بنى عِكْرِمة ، فسلّم عليه ، وأخبره بتوطيد ابن زياد الخيل ما بين القادِسِيّة إلى العُذَيب[2] رصداً له .

ثم قال له : « انصرفْ بنفسى أنت ، فوالله ما تسير إلا إلى الأسِنّة والسيوف ، ولا تتكلَنَّ على الذين كتبوا لك ، فإن أولئك أول الناس مُبادرة إلى حربك » .

فقال له الحسين : « قد نصحتَ وبالغتَ ، فجُزِيتَ خيرا » .

ثم سلّم عليه ، ومضى حتى نزل بشَرَاف[3] بات بها ، ثم ارتحل وسار .

فلما انتصف النهار ، واشتدت الحرّ ، وكان ذلك فى القَيْظ ، تراءت لهم الخيل .

فقال الحسين لزُهَيْر بن القَيْن :

أما ها هنا مكان يُلجأ إليه ، أو شَرَفٌ ، نجعله خلف ظهورنا ، ونستقبل القوم من وجه واحد ؟ » » .

قال له زهير : بلى ، هذا جبل ذى جُشَم، يَسْرةً عنك ، فمِلْ بنا إليه ، فإن سبقتَ إليه فهو كما تحب .

فسار حتى سبق إليه ، وجعل ذلك الجبل وراء ظهره .

***

(١) موضع بالقرب من ذات عرق قبلها بمرحلة، وذات عرق منزل معروف من منازل الحاج، ويحرم أهل العراق بالحج منه.

(٢) ماء لبنى تميم على مرحلة من الكوفة ، سمى بذلك لأنه طرف أرض العرب .

(٣) مرتفع من الأرض بالقرب من عسفان .

وأقبلت الخيل ، وكانوا ألف فارس مع الحُرّ بن يزيد التميمىّ ، ثم اليَرْبُوعىّ، حتى إذا دَنَوْا أمر الحسين عليه السلام فِتْيانه أن يستقبلوهم بالماء ، فشربوا ، وتغمّرت خيلهم ، ثم جلسوا جميعا فى ظل خيولهم ، وأعِنّتها فى أيديهم حتى إذا حضرت الظهر قال الحسين عليه السلام للحُرّ : أتُصَلّى معنا، أم تصلى بأصحابك وأصلى بأصحابى ؟

قال الحُرّ : «بل نُصَلّى جميعاً بصلاتك» .

فتقدّم الحسين عليه السلام ، فصلّى بهم جميعاً .

فلما انْفَتَلَ من صلاته حَوّلَ وجهه إلى القوم ، ثم قال :

«أيها الناس ، معذرة إلى الله ، ثم إليكم ، إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ، وقدمت علىّ رسلكم ، فإن أعطيتمونى ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم دخلنا معكم مِصْرَكم ، وإن تكن الأخرى انصرفتُ من حيث جئت » .

فأسكت القوم ، فلم يردُّوا عليه ، حتى إذا جاء وقت العصر نادى مؤذّن الحسين ، ثم أقام ، وتقدّم الحسين عليه السلام ، فصلّى بالفريقين ، ثم انفتل إليهم ، فأعاد مثل القول الأول .

فقال الحُرّ بن يزيد : « والله ما نَدْرِى ما هذه الكتب التى تَذْكُر » .

فقال الحسين عليه السلام : « إيتنى بالخُرْجَيْن (١) اللذين فيهما كتبهم » .

فأُتى بخُرْجَيْن مملوءين كتباً ، فَنُثِرَتْ بين يدى الحُرّ وأصحابه ؛ فقال له الحُرّ : « يا هذا ، لسنا ممن كَتَبَ إليك شيئاً من هذه الكتب ، وقد أُمِرْنا ألّا نُفَارِقك إذا لقيناك أو نقدم بك الكوفة على الأمير عُبَيْد الله بن زياد » .

فقال الحسين عليه السلام: «الموت دون ذلك» .

---

(١) وعاء معروف ذو جانبين .

ثم أمر بأثقاله ، فَحُمِلَتْ ، وأمر أصحابه ، فركبوا ، ثم ولى وجهه منصرفا نحو الحجاز ، فحال القوم بينه وبين ذلك .

فقال الحسين للحُرّ : ما الذى تريد ؟

قال : أريد والله أن أنطلق بك إلى الأمير عُبَيْد الله بن زياد .

قال الحسين : إذن والله أنابذك الحرب .

فلما كثر الجدال بينهما قال الحُرّ : « إنى لم أومر بقتالك ، وإنما أمرت ألا أفارقك ، وقد رأيت رأيا فيه السلامة من حربك ، وهو أن تجعل بينى وبينك طريقا ، لاتُدخلك الكوفة، ولا تردك إلى الحجاز ، تكون نَصَفا بينى وبينك حتى يأتينا رأى الأمير » .

قال الحسين : « خُذ هاهنا ، فأخذُ متياسرا من طريق العُذَيب[1] ، ومن ذلك المكان إلى العُذَيب ثمانية وثلاثون ميلا » .

فسارا جميعا حتى انتهوا إلى عُذَيب الحمامات ، فنزلوا جميعا ، وكل فريق منهما على غَلْوة[2] من الآخر .

***

ثم ارتحل الحسين من موضعه ذلك متيامنا عن طريق الكوفة حتى انتهى إلى قصر بنى مقاتل ، فنزلوا جميعا هناك ، فنظر الحسين إلى فسطاط مضروب ، فسأل عنه ، فأخبر أنه لعُبَيْد الله بن الحُرّ الجُعْفِىّ ، وكان من أشراف أهل الكوفة ، وفرسانهم .

فأرسل الحسين إليه بعض مواليه يأمره بالمصير إليه ، فأتاه الرسول ، فقال :

ــ هذا الحسين بن على يسألك أن تصير إليه .

فقال عبيد الله : والله ماخرجت من الكوفة إلا لكثرة من رأيته خرج لمحاربته

---

(١) العذيب : تصغير العذب ، ماء على يمين القادسية ، بينه وبين القادسية أربعة أميال ، منه إلى مغارة القرون فى طريق مكة .

(٢) الغلوة قدر رمية بسهم .

وخذلان شيعته ، فعلمت أنه مقتول ولا أقدر على نصره ، فلست أحب أن يرانى ولا أراه » .

فاشتمل الحسين حتى مشى ، ودخل عليه قُبَّته ، ودعاه إلى نُصْرَته .

فقال عبيد الله : « والله إنى لأعلم أن من شايعك كان السعيد فى الآخرة ، ولكن ما عسى أن أغنى عنك ، ولم أخلّف لك بالكوفة ناصرا ، فأنشدك الله أن تحملنى على هذه الخُطّة ، فإن نفسى لم تسمح بعدُ بالموت ، ولكن فرسى هذه المُلحقة ، والله ما طلبت عليها شيئا قط إلا لحقتهُ ، ولا طلبنى وأنا عليها أحد قط إلا سبقته ، فخذها، فهى لك » .

قال الحسين : « أمّا إذا رغبت بنفسك عنا فلا حاجة لنا إلى فرسك » .

[نهاية الحسين]

وسار الحسين عليه السلام من قصر بنى مقاتل ، ومعه الحرّ بن يزيد ، كلما أراد أن يميل نحو البادية منعه ، حتى انتهى إلى المكان الذى يسمى « كَرْبَلاء » [1] فمال قليلا متيامنا حتى انتهى إلى (نِينَوَى) [2] ، فإذا هو براكب على نَجيب ، مقبل من القوم ، فوقفوا جميعا ينتظرونه .

فلما انتهى إليهم سلّم على الُحرّ ، ولم يسلم على الحسين .

ثم ناول الُحرّ كتابا من عبيد الله بن زياد ، فقرأه ، فإذا فيه :

« أما بعد ، فَجَعْجِعْ [3] بالحسين بن على وأصحابه بالمكان الذى يوافيك كتابى ، ولا تحلّه إلا بالعراء على غير خَمَر [4] ولا ماء ، وقد أمرت حامل كتابى هذا أن يخبرنى بما كان منك فى ذلك ، والسلام » .

---

(١) موضع فى طرف البرية بالقرب من الكوفة .

(٢) قرية قديمة لا تزال آثارها باقية قبالة مدينة الموصل ، ويروى بعض المؤرخين أنها قرية النبى يونس عليه السلام .

(٣) جعجع القوم أى أناخوا بالجعجاع وهو ما غلظ من الأرض .

(٤) أى شجر .

فقرأ الحرّ الكتاب ثم ناوله الحسين ، وقال :

لا بد من إنفاذ أمر الأمير عبيد الله بن زياد ، فانزل بهذا المكان ، ولا تجعل للأمير عليّ علة .

فقال الحسين عليه السلام « تقدم بنا قليلا إلى هذه القرية التي هي منا على غَلْوَة ، وهي الغاضِرِيّة[١] » أو هذه الأخرى التي تسمى « السَّقْبة » فننزل في إحداهما .

قال الحرّ « إن الأمير كتب إليّ أن أحلّك على غير ماء ، ولابد من الانتهاء إلى أمره .

فقال زُهَيْر بن القَيْن للحسين : «بأبي وأمي يا ابن رسول الله ، والله لو لم يأتنا غير هؤلاء لكان لنا فيهم كفاية ، فكيف بمن سيأتينا من غيرهم ؟ فهلُمّ بنا نناجز هؤلاء ، فإن قتال هؤلاء أيسر علينا من قتال مَنْ يأتينا من غيرهم ».

قال الحسين عليه السلام : فإني أكره أن أبدأهم بقتال حتى يبدأوا .

فقال له زُهَيْر : فهاهنا قرية بالقرب منا على شطّ الفرات ، وهي في عاقُول[٢] حصينة ، الفراتُ يحدق بها إلّا من وجه واحد .

قال الحسين : وما اسم تلك القرية ؟

قال : العَقْر[٣] .

قال الحسين : نعوذ بالله من العَقْر .

فقال الحسين للحُرّ : سِرْ بنا قليلًا ، ثم ننزل .

فسار معه حتى أتوا كَرْبَلاء ، فوقف الحُرّ وأصحابه أمام الحسين ومنعوهم من المسير ، وقال :

انزل بهذا المكان ، فالفرات منك قريب .

قال الحسين : وما اسم هذا المكان ؟

---

(١) الغاضرية : قرية من نواحي الكوفة ، قريبة من كربلاء .

(٢) عاقول الوادي ما اعوج منه، والأرض العاقول التي لا يهتدى إليها.

(٣) مكان قرب كربلاء من نواحي الكوفة .

قالوا له : كَرْبَلاء .

قال : ذات كَرْبٍ وَبَلاء ، ولقد مرّ أبي بهذا المكان عند مسيره إلى صفّين ، وأنا معه ، فوقف ، فسأل عنه ، فأُخبر باسمه ، فقال : « هاهنا محط ركابهم ، وهاهنا مهراق دمائهم » ، فسُئل عن ذلك ، فقال : « ثِقَل لآل بيت محمد ، ينزلون هاهنا » .

ثم أمر الحسين بأثقاله ، فَحُطّتْ بذلك المكان يوم الأربعاء غرّة المحرم من سنة إحدى وستين[1] ، وقُتِلَ بعد ذلك بعشرة أيام ، وكان قتله يوم عاشوراء .

فلما كان اليوم الثانى من نزوله كربلاء وافاه عمر بن سعد فى أربعة آلاف فارس .

وكانت قصة خروج عمر بن سعد، أن عبيدالله بن زياد ولّاه الرىّ وثغر دَسْتَبَى[2] والدَّيْلَم ، وكتب له عهدا عليها ، فعسكر للمسير إليها ، فحدث أمر الحسين ، فأمره ابن زياد أن يسير إلى محاربة الحسين ، فإذا فرغ منه سار إلى ولايته .

فتلكأ عمر بن سعد على ابن زياد ، وكره محاربة الحسين .

فقال له ابن زياد: « فارْدُد علينا عهدنا » .

قال : « فأسير إذن » .

فسار فى أصحابه أولئك الذين ندبوا معه إلى الرىّ ودَسْتَبَى ، حتى وافى الحسين ، وانضم إليه الحُرّ بن يزيد فيمن معه .

ثم قال عمر بن سعد لقُرّة بن سفيان الحَنظلى « انطلق إلى الحسين ، فسَلْه ما أقدمك » . فأتاه ، فأبلغه.

فقال الحسين: «أبلغه عنى أن أهل هذا المصر كتبوا إلىّ يذكرون أن لا إمام لهم ، ويسألوننى القدوم عليهم ، فوثقت بهم ، فغدروا بى ، بعد أن بايعنى منهم ثمانية عشر ألف رجل ، فلما دنوت ، فعلمت غرور ما كتبوا به إلىّ أردتُ الانصراف إلى حيث

---

(١) أكتوبر ٦٨٥

(٢) كورة كبيرة ، كانت مشتركة بين الرى وهمذان ، فقسمت كورتين ، وتشتمل على قريب تسعين قرية .

منه أقبلت ، فمنعنى الحُرّ بن يزيد ، وسار حتى جَعجع بى فى هذا المكان ، ولى بك قرابة قريبة ، ورَحِم ماسّة ، فأطلقنى حتى أنصرف .

فرجع قُرّة إلى عمر بن سعد بجواب الحسين بن على .

فقال عمر : « الحمد لله ، والله إنى لأرجو أن أعفى من محاربة الحسين » .

ثم كتب إلى ابن زياد يخبره بذلك .

فلما وصل كتابه إلى ابن زياد كتب إليه فى جوابه :

« قد فهمت كتابك ، فاعرض على الحسين البيعة ليزيد ، فإذا بايع فى جميع من معه ، فأعلِمْنى ذلك ليأتيك رأيى » .

فلما انتهى كتابه إلى عمر بن سعد قال : ما أحسب ابن زياد يريد العافِيَة .

فأرسل عمر بن سعد بكتاب ابن زياد إلى الحسين ، فقال الحسين للرسول : « لا أجيب ابن زياد إلى ذلك أبداً ، فهل هو إلا الموت ، فرحَباً به » .

فكتب عمر بن سعد إلى ابن زياد بذلك ، فغضب ، فخرج بجميع أصحابه إلى النُّخَيْلَة[1] .

ثم وجّه الحُصَيْن بن نمير ، وحَجّار بن أبجَر ، وشَبَث بن رِبْعِىّ ، وشِمْر ابن ذى الجَوْشَن ، ليعاونوا عمر بن سعد على أمره .

فأمّا شِمْر فنفذ لما وجّهه له ؛ وأمّا شَبَث فاعتلّ بمرض .

فقال له ابن زياد : أتتمارَض ؟ إن كنتَ فى طاعتنا فاخرج إلى قتال عدوّنا .

فلما سمع شَبَث ذلك خرج ، ووجّه أيضاً الحارث بن يزيد بن رُوَيم .

قالوا : « وكان ابن زياد إذا وجّه الرجل إلى قتال الحسين فى الجمع الكثير، يصلون إلى كربلاء ، ولم يبق منهم إلا القليل ، كانوا يكرهون قتال الحسين ، فيرتدعون ، ويتخلفون .

فبعث ابن زياد سُوَيد بن عبد الرحمن المِنقرىّ فى خيل إلى الكوفة ، وأمره أن يطوف بها ، فمن وجده قد تخلف أتاه به .

---

(١) موضع قرب الكوفة على سمت الشام .

فبينما هو يطوف فى أحياء الكوفة إذ وجد رجلا من أهل الشام قد كان قدم الكوفة فى طلب ميراث له ، فأرسل به إلى ابن زياد ، فأمر به ، فضربت عنقه .

فلما رأى الناس ذلك خرجوا .

قالوا : وورد كتاب ابن زياد على عمر بن سعد ، أن امنع الحسين وأصحابه الماء ، فلا يذوقوا منه حُسْوَةً[1] كما فعلوا بالتقىّ عثمان بن عفان .

فلما ورد على عمر بن سعد ذلك أمر عمرو بن الحجاج أن يسير فى خمسمائة راكب ، فيُنيخ على الشريعة ، ويحولوا بين الحسين وأصحابه ، وبين الماء ، وذلك قبل مقتله بثلاثة أيام ، فمكث أصحاب الحسين عَطَاشى .

قالوا : ولما اشتد بالحسين وأصحابه العطش أمر أخاه العباس بن على ـ وكانت أمه من بنى عامر بن صَعْصعة ـ أن يمضى فى ثلاثين فارسا وعشرين راجلا ، مع كل رجل قربة حتى يأتوا الماء ، فيحاربوا من حال بينهم وبينه .

فمضى العباس نحو الماء وأمامهم نافع بن هلال حتى دنوا من الشريعة ، فمنعهم عمرو بن الحجاج ، فجالدهم العباس على الشريعة بمن معه حتى أزالوهم عنها ، واقتحم رجّالة الحسين الماء ، فملأوا قِرَبَهم ، ووقف العباس فى أصحابه يذُبّون عنهم حتى أوصلوا الماء إلى عسكر الحسين .

* * *

ثم إن ابن زياد كتب إلى عمر بن سعد :

أما بعد ، فإنى لم أبعثك إلى الحسين لتطاوله الأيام ، ولا لتمنّيه السلامة والبقاء ، ولا لتكون شفيعه إلىّ ، فاعرض عليه ، وعلى أصحابه النزول على حكمى ، فإن أجابوك فابعث به وبأصحابه إلىّ ، وإن أبوا فازحف إليه ، فإنه عاقّ شاقّ ، فإن لم تفعل فاعتزل جندنا ، وخلّ بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر ، فإنا قد أمرناك بأمرنا .

فنادى عمر بن سعد فى أصحابه أن انهَدُوا إلى القوم .

---

(١) الحسوة بالضم الجرعة بقدر ما يحس مرة واحدة .

فنهض إليهم عشية الخميس وليلة الجمعة لتسع ليال خلون من المحرم ، فسألهم الحسين أن تأخير الحرب إلى غد ، فأجابوه .

قالوا : وأمر الحسين أصحابه أن يضموا مضاربهم بعضهم من بعض ، ويكونوا أمام البيوت ، وأن يحفروا من وراء البيوت أُخْدُودًا ، وأن يضرموا فيه حطبا وقصبا كثيرا ، لئلا يؤتوا من أدبار البيوت ، فيدخلوها .

قالوا : ولما صلى عمر بن سعد الغداة نهَد بأصحابه، وعلى ميمنته عمرو بن الحجاج، وعلى ميسرته شمر بن ذى الجوشن — واسم شمر شَرَحْبِيل بن عمرو بن معاوية ، من آل الوحيد ، من بنى عامر بن صَعْصعة — وعلى الخيل عَزْرة بن قيس ، وعلى الرجّالة شبث ابن رِبْعِىّ ، والراية بيد زيد مولى عمر بن سعد .

***

وعبّي الحسين عليه السلام أيضا أصحابه ، وكانوا اثنين وثلاثين فارسا وأربعين راجلا ، فجعل زهير بن القين على ميمنته ، وحبيب بن مُظهر على ميسرته ، ودفع الراية إلى أخيه العباس بن على ، ثم وقف ، ووقفوا معه أمام البيوت .

وانحاز الحرّ بن يزيد الذى كان جعجع بالحسين إلى الحسين ، فقال له : « قد كان منى الذى كان ، وقد أتيتك مُوَاسياً لك بنفسى ، أفترى ذلك لى توبة مما كان منى ؟ » .

قال الحسين : نعم ، إنها لك توبة ، فابْشِرْ، فأنتَ الحُرّ فى الدنيا، وأنت الحُرّ فى الآخرة ، إن شاء الله .

قالوا : ونادَى عمر بن سعد مولاه زيداً أن قدّم الراية ، فتقدّم بها ، وشَبّتِ الحرب .

فلم يزل أصحاب الحسين يُقاتلون ويُقْتَلون ، حتى لم يبق معه غير أهل بيته .

فكان أوّل مَنْ تقدّم منهم ، فقاتل علىّ بن الحسين ، وهو علىّ الأكبر ، فلم يزل يُقاتل حتى قُتِل ، طعنه مُرّة بن مُنقذ العَبْدِىّ ، فصرعه ، وأخذته السيوف فقُتِل .

ثم قُتِل عبد الله بن مُسْلم بن عَقِيل ، رماه عمرو بن صَبَيح الصَّيْدَاوِىّ ، فصرعه .

ثم قُتِل عَدِىّ بن عبد الله بن جعفر الطَّيّار ، قتله عمرو بن نَهْشَل التميمىّ .

ثم قُتِل عبد الرحمن بن عَقِيل بن أبى طالب ، رماه عبد الله بن عُرْوَة الخَثْعَمِىّ بسهم ، فقتله .

ثم قُتِل محمد بن عَقِيل بن أبى طالب ، رماه لَقِيط بن ناشِر الجُهَنىّ بسهم ، فقتله .

ثم قُتِل القاسم بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب ، ضربه عمرو بن سعد بن مقبل الأسَدِىّ .

ثم قُتِل أبو بكر بن الحسن بن علىّ ، رماه عبد الله بن عُقْبة الغَنَوِىّ بسهم ، فقتله .

قالوا : ولما رأى ذلك العبّاس بن علىّ قال لإخوته عبد الله ، وجعفر ، وعثمان ، بنى علىّ ، عليه وعليهم السلام ، وأمّهم جميعاً أمّ البنين العامرية من آل الوحيد : « تقدّموا ، بنفسى أنتم ، فحاموا عن سيّدكم حتى تموتوا دونه » .

فتقدّموا جميعا .

فساروا أمام الحسين عليه السلام ، يَقُونَهُ بوجوههم ونحورهم .

فحمَل هانىء بن ثُوَيْب الحَضْرَمِىّ على عبد الله بن علىّ ، فقتله .

ثم حَمَلَ على أخيه جعفر بن علىّ ، فقتله أيضا .

ورمى يزيد الأَصْبَحِىّ عثمان بن علىّ بسهم ، فقتله ، ثم خرج إليه ، فاحْتَزّ رأسه ، فأتى عمر بن سعد ، فقال له : « أَثِبْنى » .

فقال عمر :

عليك بأميرك ــ يعنى عُبَيْد الله بن زياد ــ فَسَلْهُ أن يُثيبك .

وبقى العباس بن علىّ قائما أمام الحسين يُقاتل دونه ، ويميل معه حيث مال ، حتى قُتِل ، رحمة الله عليه.

وبقى الحسين وحده، فحمَل عليه مالك بن بِشر الكِنْدِيّ ، فضربه بالسيف على رأسه ، وعليه بُرْنُسٌ خَزّ ، فقطعه ، وأفضى السيف إلى رأسه ، فجرحه .

فألقى الحسين البُرْنُس، ودعا بقَلَنْسوة ، فلبسها ، ثم اعتمّ بعمامة ، وجلس ، فدعا بصبيٍّ له صغير ، فأجلسه فى حجره ، فرماه رجل من بنى أسَد ، وهو فى حِجْر الحسين بمِشْقَص(١)، فقتله .

وبقى الحسين عليه السلام مَلِيًّا جالسا ، ولو شاءوا أن يقتلوه قتلوه ، غير أن كل قبيلة كانت تتّكِل على غيرها ، وتكره الإقدام على قتله .

وعطش الحسين، فدعا بقدَحٍ من ماء .

فلما وضعه فى فِيهِ رماه الحُصَيْن بن نُمير بسهم ، فدخل فمه ، وحال بينه وبين شُرْب الماء ، فوضع القدح من يده .

ولما رأى القوم قد أحجموا عنه قام يتمَشّى على المُسنّاة(٢) نحو الفرات ، فحالوا بينه وبين الماء ، فانصرف إلى موضعه الذى كان فيه .

فانتزع له رجل من القوم بسهمٍ ، فأثبته فى عاتقه ، فنزع عليه السلام السهمَ .

وضربه زُرْعَة بن شَرِيك التميمىّ بالسيف ، واتقاه الحسين بيده ، فأسرع السيف فى يده .

وحمَل عليه سِنان بن أوْس النَّخَعِىّ ، فطعنه ، فسقط .

ونزَل إليه خَوْلِيّ بن يزيد الأصْبَحِيّ ليحزّ رأسه ، فأُرْعِدَت يداه .

فنزل أخوه شِبْل بن يزيد ، فاحتزّ رأسه ، فدفعه إلى أخيه خَوْلِيّ .

ثم مال الناس على ذلك الوَرْس الذى كان أخذه من العير ، وإلى ما فى المضارب، فانتهبوه .

***

---

(١) المشقص نصل السهم إذا كان طويلا غير عريض .

(٢) صفيرة تبنى للسيل لترد الماء .

ولم ينج من أصحاب الحسين عليه السلام وولده وولد أخيه إلا ابناه ، علىّ الأصغر ، وكان قد راهَقَ ، وإلا عُمر ، وقد كان بلغ أربع سنين .

ولم يسلم من أصحابه إلا رجلان ، أحدهما المُرَقّع بن ثُمامة الأسدىّ ، بعث به عمر بن سعد إلى ابن زياد فسيّره إلى الرَّبَذة[1] ، فلم يزل بها حتى هلك يزيد ، وهرب عُبَيد الله إلى الشام ، فانصرف المُرقّع إلى الكوفة ؛ والآخر مَوْلًى لرَباب ، أمّ سكينة ، أخذوه بعد قتل الحسين ، فأرادوا ضرب عنقه ، فقال لهم : « إنى عَبْدٌ مملوك » . فخلّوا سبيله .

* * *

وبعث عمر بن سعد برأس الحسين من ساعته إلى عُبَيد الله بن زياد مع خَوْلِىّ ابن يزيد الأصبحىّ .

وأقام عمر بن سعد بكربلاء بعد مقتل الحسين يومين ، ثم آذن فى الناس بالرّحيل ، وحملت الرءوس على أطراف الرماح ، وكانت اثنين وسبعين رأسا ، جاءت هَوازِن منها باثنين وعشرين رأسا ، وجاءت تَميم بسبعة عشر رأسا مع الحصين بن نمير ، وجاءت كِندة بثلاثة عشر رأسا مع قيس بن الأشعث ، وجاءت بنو أسد بستة رءوس مع هلال الأعور، وجاءت الأزد بخمس رءوس مع عَيْهَمة بن زُهير ، وجاءت ثقيف باثنى عشر رأسا مع الوليد بن عمرو.

وأمر عمر بن سعد بحمل نساء الحسين وأخواته وبناته وجواريه وحشمه فى المحامل المستورة على الإبل . وكانت بين وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قتل الحسين خمسون عاما .

قالوا : ولما أُدخل رأس الحسين عليه السلام على ابن زياد فوضع بين يديه جعل ابن زياد ينكُت بالخيزرانة ثنايا[2] الحسين ، وعنده زيد بن أرقم، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له :

---

(١) من قرى المدينة على ثلاثة أميال منها . وهى قريبة من ذات عرق.

(٢) ثنايا الإنسان فى فمه الأربع التى فى مقدم فيه ، ثنتان من فوق وثنتان من أسفل .

« مَهْ ، ارفع قضيبك عن هذه الثنايا ، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلثِمها » .

ثم خنقته العَبْرة ، فبكى .

فقال له ابن زياد : « مِمّ تبكى ؟ أبكى الله عينيك ، والله لولا أنك شيخ قد خَرِفت لضربت عنقك » .

قالوا : وكانت الرءوس قد تقدم بها شمر بن ذى الجوشن أمام عمر بن سعد .

قالوا : واجتمع أهل الغاضِرِيّة فدفنوا أجساد القوم .

وروى عن حُمَيد بن مُسلم قال : كان عمر بن سعد لى صديقا ، فأتيته عند منصرفه من قتال الحسين ، فسألته عن حاله ، فقال : « لا تسأل عن حالى ، فإنه ما رجع غائب إلى منزله بشرّ مما رجعتُ به ، قطعْت القرابة القريبة ، وارتكبتُ الأمر العظيم » .

* * *

قالوا : ثم إن ابن زياد جهز علىّ بن الحسين ومن كان معه من الحُرَم ، ووجّه بهم إلى يزيد بن معاوية مع زخر بن قيس ومحفّن بن ثعلبة ، وشمِر بن ذى الجوشن .

فساروا حتى قدموا الشام ، ودخلوا على يزيد بن معاوية بمدينة دمشق ، وأُدخل معهم رأس الحسين ، فرُمى بين يديه .

ثم تكلم شمر بن ذى الجوشن ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، ورد علينا هذا فى ثمانية عشر رجلا من أهل بيته ، وستين رجلا من شيعته ، فصرنا إليهم ، فسألناهم النزول على حكم أميرنا عبيد الله بن زياد ، أو القتال ، فغَدَوْنا عليهم عند شروق الشمس ، فأحطنا بهم من كل جانب ، فلما أخذت السيوف منهم مأخذها جعلوا يلُوذون إلى غير وَزَر (١) ، لَوَذَان الحمام من الصقُور ، فما كان إلا مقدار جَزْر (٢) جَزُور ، أو نوم قائل (٣) حتى أتينا على آخرهم ، فهاتيك

---

(١) ملجأ . (٢) ذبح ناقة .

(٣) القيلولة : النوم فى الظهيرة والقائلة نصف النهار .

أجسادهم مجرّدة ، وثيابهم مُرَمَّلة ، وخدودهم مُعَفّرة ، تَسْفِى عليهم الرياح ، زُوّارُهم العِقْبان [١] ، ووفودهم الرَّخَم [٢] .

فلما سمع ذلك يزيد دمعت عينه وقال :

« ويحكم ، قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن مرجان ، أما والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه ، رحم الله أبا عبد الله » .

ثم تمثّل :

نُفَلِّقُ هاماً مِنْ رِجَالٍ أَعِزَّةٍ عَلَيْنا ، وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وأَظْلَما

* * *

ثم أمر بالذُّرية فأُدخلوا دار نسائه .

وكان يزيد إذا حضر غداؤه دعا عليّ بن الحسين وأخاه عمر فيأكلان معه ، فقال ذات يوم لعمر بن الحسين :

« هل تصارع ابني هذا ؟ » يعني خالداً ، وكان من أقرانه .

فقال عمر : بل أعطني سيفاً ، وأعطه سيفاً حتى أُقاتله ، فتنظر أيّنا أصْبَرَ .

فضمّه يزيد إليه ، وقال : « شِنْشِنَة أعرفها من أَخْزَم [٣] ، هَلْ تَلِدُ الْحَيَّةُ إلّا حَيَّةً » .

قال : ثم أمر بتجهيزهم بأحسن جهاز ، وقال لعليّ بن الحسين : « انطلق مع نسائك حتى تبلّغهنّ وطنهنّ » .

ووجّه معه رجلا في ثلاثين فارسا ، يسير أمامهم ، وينزل حَجْرَةً عنهم ، حتى انتهى بهم إلى المدينة .

* * *

---

(١) العقبان : عتاق الطير وسباعه التي لا تصيد الخشاش .

(٢) نوع من الطير موصوف بالغدر .

(٣) الشنشنة : الطبيعة والسجية ، وأخزم كان ولدا عاقا لأبيه ، فمات وترك بنين عقّوا جدهم وضربوه وأدموه ، فقال إنما هو شنشنة أعرفها من أخزم ، فصار مثلا .

قالوا : وإن عُبَيد الله بن الحُرّ ندم على تركه إجابة الحسين حين دعاه بقصر بني مقاتل إلى نُصرته ، وقال :

فَيَالَكِ حَسْرَةً مَا دُمْتُ حَيًّا تَرَدَّدُ بَيْنَ حَلْقِي وَالتَّرَاقِي
حُسَيْنٌ حِينَ يَطْلُبُ بَذْلَ نَصْرِي عَلَى أَهْلِ الْعَدَاوَةِ وَالشِّقَاقِ
فَمَا أَنْسَى غَدَاةَ يَقُولُ حُزْنًا أَتَتْرُكُنِي وَتَزْمَعُ لِانْطِلَاقِ ؟
فَلَوْ فَلَقَ التَّلَهُّفُ قَلْبَ حَيٍّ لَهَمَّ الْقَلْبُ مِنِّي بِانْفِلَاقِ

ثم مضى نحو أرض الجبل مُغاضباً لابن زياد ، واتبعه أناس من صعاليك الكوفة .

[عبد الله بن الزبير]

قالوا : وإن ابن الزبير لما سار إلى مكة وخرج الحسين عنها سائرا إلى الكوفة كان يقول : « إنى فى الطاعة ، غير أنى لا أبايع أحدا ، وأنا مستجير بالبيت الحرام » .

فبعث إليه يزيد بن معاوية رجلا فى عشرة نفر من حرسه ، وقال :

« انطلق ، فانظر ما عنده ، فإن كان فى الطاعة فخذه بالبيعة ، وإن أبى فضع فى عنقه جامعة [1] وائتنى به » .

فلما قدم الحرسىّ عليه ، وأخبره بما أتاه فيه تمثل ابن الزبير :

مَا إِنْ أَلِينُ لِغَيْرِ الْحَقِّ أَسْأَلُهُ حَتَّى يَلِينَ لِضِرْسِ الْمَاضِغِ الْحَجَرُ

وقال للحرسىّ : « انصرف إلى صاحبك ، فأعلمه أنى لا أجيبه إلى شىء مما يسألنى » .

قال الحرسىّ : ألست فى الطاعة ؟

قال : بلى ، غير أنى لا أمكنك من نفسى ، ولا أكاد .

فانصرف الحرسىّ إلى يزيد، فأخبره بذلك .

---

(١) الجامعة : الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنق .

فوجّه يزيد بعشرة نفر من أشراف أهل الشام، فيهم النعمان بن بشير، وعبد الله بن عَضَاة الأشعرىّ — وكان له صلاح —، ومسلم بن عقبة — لعنه الله — فقال لهم:

«انطلقوا، فأعيدوه إلى الطاعة والجماعة وأعلموه، أن أحب الأمور إلىّ ما فيه السلامة».

فساروا حتى وافوا مكة، ودخلوا على ابن الزبير فى المسجد، فدعوه إلى الطاعة وسألوه البيعة.

فقال ابن الزبير لابن عَضَاة:

— أتستحل قتالى فى هذا الحرم؟

قال: نعم، إن أنت لم تجب إلى طاعة أمير المؤمنين.

قال ابن الزبير: وتستحلّ قتل هذه الحمامة؟ وأشار إلى حمامة من حمام المسجد.

فأخذ ابن عضاة قوسه، وفوّق فيها سهما، فبوّأه[1] نحو الحمامة، ثم قال: يا حمامة، أتعصين أمير المؤمنين؟

والتفت إلى ابن الزبير، وقال: «أما لو أنها قالت نعم لقتلتها».

وأنّ ابن الزبير خلا بنعمان بن بشير، فقال: أنشدك الله، أنا أفضل عندك أم يزيد؟

فقال: بل أنت.

فقال: فوالدى خير أم والده؟

قال: بل والدك.

قال: فأمى خير أم أمه؟

قال: بل أمك.

قال: فخالتى خير أم خالته؟

قال: بل خالتك.

---

(١) سدده نحو الحمامة.

قال : فعمّتي خيرٌ أم عمّته ؟

قال : بل عمّتك ؛ أبوكَ الزبيْر ، وأمّك أسماء ابنة أبي بكر ، وخالتك عائشة ، وعمّتك خديجة بنت خُوَيْلد .

قال : أفتشير على بمبايعة يزيد ؟

قال النعمان : « أما إذا استشرتني فلا أرى لك ذلك ، ولست بعائد إليك بعد هذا أبدا » .

ثم إن القوم انصرفوا إلى الشام ، فأعلموا يزيد أن ابن الزبير لم يجب إلى شيء .

قال مسلم بن عقبة المُرّى ليزيد : « يا أمير المؤمنين ، إن ابن الزبير خلا بالنعمان ابن بشير ، فكلمه بشيء ، لم ندر ماهو ، وقد انصرف إليك بغير رأيه الذى خرج من عندك » .

ولما انصرف القوم من عند ابن الزبير جمع ابن الزبير إليه وجوه أهل تِهامة والحجاز ، فدعاهم إلى بيعته ، فبايعوه جميعا ، وامتنع عليه عبد الله بن عباس ، ومحمد بن الحنفية .

وأن ابن الزبير أمر بطرد عمّال يزيد من مكة والمدينة ، وارتحل مروان من المدينة بولده وأهل بيته حتى لحق بالشام .

***

ولما انتهى إلى يزيد بن معاوية مبايعة أهل تهامة والحجاز لعبد الله بن الزبير ندب له الحُصين بن نُمير السَّكُونىّ ، وحُبَيْش بن دُلْجَة القَيْنىّ ، ورَوْح بن زِنْباع الجُذامىّ ، وضم إلى كل واحد منهما جيشا ، واستعمل عليهم جميعا مسلم بن عقبة المُرّىّ ، وجعله أمير الأمراء ، وشيّعهم حتى بلغ ماء ، يقال له « وبْرة » ، وهى أقرب مياه الشام إلى الحجاز .

فلما ودعهم قال يامسلم :

« لاتردنّ أهل الشام عن شيء يريدونه بعدوّهم ، واجعل طريقك إلى المدينة ، فإن حاربوك فحاربهم ، فإن ظفرت بهم ، فانهبها ثلاثة أيام » .

ثم أنشأ يقول :

أَبْلِغْ أَبَا بَكْرٍ إِذَا الْخَيْلُ انْبَرَى ... وسارتِ الخيلُ إلى وَادِى القُرَى[1]
أَجْمَعَ سَكْرانٍ من الخَمْرِ تَرَى

وذلك أن ابن الزبير كان يسمّى يزيد « السَّكران » .

ولما بلغ أهل المدينة وصول الجيش تأهّبوا للحرب ، فولّت قريش عليها عبد الله ابن مُطيع العدوِىّ ، وولّت الأنصار عليها عبد الله بن حنظلة الراهب ـ وهو غسيل الملائكة ـ ثم خرجوا إلى الحرّة ، فعسكروا بها .

فنى ذلك يقول شاعرهم :

إِنَّ فِي الخَنْدَقِ المُكَلَّلِ بِالمَجْـ ... ـدِ لَضَرْبًا يَفُورُ بِالسَّنَواتِ
لَسْتَ مِنَّا ، وليس خالُك مِنَّا ... يَامُضِيعَ الصَّلاةِ للشَّهَواتِ

وواقاهم الجيش ، فقاتلوهم حتى كثرت القتلى .

وأقبلت طائفة من أهل الشام ، فدخلوا المدينة من قِبل بَنى حارثة ، وهم الذين قالوا « إِنَّ بيوتَنَا عَوْرَةٌ »[2] ، فلم يشعر القوم ، وهم يقاتلون من يليهم ، إلا وأهل الشام يضربونهم من أدبارهم ، فقُتل عبد الله بن حنظلة أمير الأنصار ، وقُتل عمرو بن حزم الأنصارىّ قاضى المدينة ، واستباح أهل الشام المدينة ثلاثة أيام بلياليها .

فلما كان اليوم الرابع جلس مسلم بن عقبة ، فدعاهم إلى البيعة ، فكان أول من أتاه يزيد بن عبد الله بن ربيعة بن الأسود ، وجدّته أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال له مسلم : « بايعنى » .

قال : « أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم » .

فقال مسلم « بل بايعْ على أنكم فَىْءٌ لأمير المؤمنين ، يفعل فى أموالكم وذراريكم ما يشاء » .

فأبى أن يبايع على ذلك ، فأمر به ، فضربت عنقه .

---

(١) وادى مكة .

(٢) سورة الأحزاب الآية رقم ١٣ .

ثم تقدم محمد بن أبى الجهم بن حُذيفة العَدَوىّ ، فقال له مسلم :

« أنت الذى وفدت على أمير المؤمنين ، فأكرمك وحباك ، فرجعت إلى المدينة تشهد عليه بشرب الخمر ، والله لاتشهد بشهادة زور أبدا ، اضربوا عنقه » .

فضربت عنقه .

ثم تقدم مَعْقِل بن سِنان الأشجعى ، وكان حليفا لبنى هاشم ، فقال له مسلم :

« أتذكر يوما مررت بى بطبريّة[1] ، فقلت لك ، من أين أقبلت؟ فقلتَ ، سرْنا شهراً ، وأنْضَيْنا ظهرًا ، ورجعنا صِفرًا ، وسنأتى المدينة فنخلع الفاسق يزيدبن معاوية ، ونبايع رجلا من أولاد المهاجرين ؟

فاعلم إنى كنت آليتُ ذلك اليوم ألا أقدر عليك فى موطن يمكننى فيه قتلك إلا فعلتك، وقد أمكننى الله منك يا أحمق ، ما أشجعُ والخلافة ؟! فنزل وتولى ؛ أضربوا عنقه » .

ثم تقدم عمرو بن عثمان ، فقال له :

«أنت الخبيث ابن الطيّب ، الذى إذا ظهر أهل الشام قلت أنا ابن عثمان بن عفان، وإذا ظهر أهل الحجاز قلت أنا واحد منكم ، وأنت فى ذلك تبغى أمير المؤمنين الغوائل ؛ انتفوه» .

فنتفت لحيته ، حتى ما تركت فيها شعرة .

فقام إليه عبد الملك بن مروان ، فاستوْهبه ، فوهبه له .

ثم أتاه على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، فأجلسه معه على ثيابه وفراشه ، وقال :

— إن أمير المؤمنين قد أوصانى بك .

فقال على : « إنى كنت لما فعل أهل المدينة كارها » .

قال : « أجل » .

ثم حمله على بغلة ، وصرفه إلى منزله .

---

(١) بلد مطل على البحيرة المعروفة بها ، فى الإقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة، وهى مستطيلة ، تنتهى الى جبل صغير ، عنده آخر العمارة، وفيها عيون ملحة حارة، قد بنيت عليها حامات.

وبعث إلى على بن عبد الله بن عبّاس ليُؤتى به للبيعة ، فأُخرج من منزله ، فأقبلوا به .

فلقيه الحصين بن نمير ، فانتزعه من يد الجلاوزة[١] .

وكان الحصين من أخوال على بن عبد الله .

فقال مسلم : « إنى إنما بعثت إليه للبيعة ، فأتنى به » .

فأرسل إليه الحصين ، فجاء حتى بايع .

وأرسلت بنت الأشعث بن قيس ، وكانت امرأة الحسين بن على ، إلى مسلم ابن عقبة تعلمه أن منزلها انتهب ، فأمر بردّ جميع ما أُخذ لها .

ثم شخص بالجيش إلى مكة ، وكتب إلى يزيد بما صنع بالمدينة ، فتمثّل يزيد .

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا   جَزَعَ الخزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسَلْ

حِينَ حَكَّتْ بِقُبَاءٍ بَرْكَهَا   وَاستَحَرَّ القتلُ فى عَبْدِ الأَشَلْ

فلما بلغ ابن عقبة هَرْشَى[٣] اعتلّ ، واشتدت علته ، ونزل به الموت ، فقال : اسندونى. فأسند ؛ فقال :

«إن أمير المؤمنين أمرنى إن حدث بى فى وجهى هذا حدث أن أستخلف الحصين ابن نمير على الجيش ، ولو كان الأمر إلىّ ما استخلفته ، لأن من شأن اليمانيّة الرّقّة ، غير أنى لا أعصى أمير المؤمنين» .

ثم قال : «ياحصين ، إذا وافيت مكة فناجزْ ابن الزبير الحرب من يومك ، ولا ترد أهل الشام عن شىء يريدونه بعدوهم ، ولا تجعل أُذنك وعاء لقريش فيخدعوك» .

ثم مات ، وكانت به الذُّبَحَة .

فتولى أمر الجيش الحصين بن نمير ، فسار حتى وافى مكة .

وتحصن منه ابن الزبير فى المسجد الحرام فى جميع من كان معه ، ونَصَبَ

---

(١) جمع جلواز بالكسر ، وهم الشرطة .

(٢) الرماح .   (٣) هرشى : ثنية فى طريق مكة قريبة من الجحفة .

الحُصَيْن المجانيق على جبل أبي قُبَيْس[1] ، وكانوا يرمون أهل المسجد .

* * *

فبينا هم كذلك إذ وَرَدَ على الحُصَيْن بن نُمَيْر موتُ يزيد بن معاوية ، فأرسل إلى عبد الله بن الزبير : « أن الذى وجّهنا لمحاربتك قد هلك ، فهل لك فى المُوَادَعَة ؟ وتفتح لنا الأبواب ، فنطوف بالبيت ، ويختلط الناس بعضهم ببعض » .

فقبل ذلك ابن الزبير ، وأمَرَ بأبواب المسجد ، فَفُتِحَتْ ، فجعل الحُصَيْن وأصحابه يطوفون بالبيت .

فبينا الحُصَيْن يطوف بعد العشاء إذ استقبله ابن الزبير ، فأخذ الحُصَيْن بيده ، فقال له سِرًّا :

– هل لك فى الخروج معى إلى الشام ؟ فأدعو الناس إلى بيعتك ، فإنّ أمْرَهم قد مَرِجَ[2] ، ولا أرى أحداً أحَقّ بها اليوم منك ، ولست أُعْصَى هناك .

فاجتذب عبد الله بن الزبير يده من يده ، وقال ، وهو يجهر بقوله : « دون أن أقتُل بكلّ رجل من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام » .

فقال الحُصَيْن : لقد كَذَبَ مَنْ زعم أنك من دُهاة العرب ، أُكلّمك سِرًّا ، وتـكلّمنى عَلَانِيَة ، وأدعوك إلى الخلافة وتدعونى إلى الحرب .

ثم انصرف فى أصحابه إلى الشام ، ومَرّ بالمدينة ، فبلغه أنهم على مُحارَبته ثانيا .

فجمع إليه أهلها ، وقال : « ما هذا الذى بلغنى عنكم ؟ » فاعتذروا إليه ، وقالوا : « ما هَمَمْنا بذلك » .

وذكر أبو هرون العبدىّ ، قال : رأيتُ أبا سعيد الخُدْرِىّ ، ولحيته بيضاء ، وقد خَفّ جانباها ، وبقى وسطها ، فقلت : « يا أبا سعيد ، ما حال لحيتك ؟ »

---

(١) الجبل المشرف على مكة من غربيها ، وكان يسمى فى الجاهلية « الأمين » لأنه استودع فيه الحجر الأسود .

(٢) اختلط وفسد .

فقال : « هـــذا فِعل ظَلَمَة أهل الشام يوم الحَرّة ، دخلوا علىّ بيتى ، فانتهبوا ما فيه حتى أخذوا قَدَحى الذى كنت أشرب فيه الماء ، ثم خرجوا ، ودخل علىّ بعدهم عشرة نفر ، وأنا قائمٌ أصلّى ، فطلبوا البيت ، فلم يجدوا فيـــه شيئاً ، فأسِفوا لذلك ، فاحْتَملونى من مُصَلّاىَ ، وضَرَبُوا بى الأرض ، وأقبل كل رجل منهم على ما يليه من لحيتى ، فنتفه ، فما ترى منها خفيفا فهو موضع النَّتْف ، وما تراه عافياً فهو ما وقع فى التراب ، فلم يَصِلوا إليها ، وسأَدَعُها كما ترى حتى أُوَافى بها ربى » .

[الخوارج]

قالوا : وفى سنة ثمانين تفاقم أمر الأزارقة الخوارج ؛ وإنما سُمُّوا أزارِقة برئيسهم نافع بن الأزرق .

وكان أول خروجهم فى أربعين رجلا ، وفيهم من عظمائهم نافع بن الأزرق ، وعطيّة بن الأسود ، وعبد الله بن صَبّار ، وعبد الله بن إباض ، وحنظلة بن بَيْهَس ، وعُبيد الله بن ماحُوز ، وذلك فى سلطان يزيد .

وعلى البصرة يومئذ عبيد الله بن زياد ، فوجّه إليهم عبيد الله أسْلَم بن ربيعة فى ألفى فارس ، فلحقهم بقرية من الأهواز تدعى « آسَك » (١) مما يلى فارس ، فواقعهم، فقتلت الخوارج من أصحاب ابن ربيعة خمسين رجلا ، فانهزم أسلمُ ؛ فأنشأ رجل من الخوارج يقول :

أأَلفا مُؤْمِنٍ مِنكُمْ زَعَمْتُمْ ... وَيَهزِمُكُمْ بِآسَكَ أَرْبَعُونَا؟
كَذَبْتُمْ ، لَيْسَ ذَاكَ كَما زَعَمْتُمْ ... وَلَكِنَّ الْخَوارِجَ مُؤْمِنُونَا
هُمُ الْفِئَةُ الْقَلِيلَةُ قَدْ عَلِمْتُمْ ... عَلَى الْفِئَةِ الْكَثِيرَةِ يُنْصَرُونَا
أَطَعْتُمْ أَمْرَ جَبّارٍ عَنِيـدٍ ... وَمَا مِنْ طَاعَـةٍ لِلظَّالِمِينَا

---

(٢) بلد من نواحى الأهواز ، قرب أرّجان .

فاغتاظ ابن زياد من ذلك ، فكان لا يدع بالبصرة أحدا ممن يُتّهم برأى الخوارج إلا قتله ، حتى قتل بالتهمة والظِّنّة تسعمائة رجل .

ولم يزل يتفاقم أمر الخوارج ، ويتحلّب إليهم من كان على رأيهم وهواهم من أهل البصرة حتى كثروا بعد موت يزيد ، وهرب عبيد الله بن زياد من العراق .

وخاف أهل البصرة الخوارج على أنفسهم ، ولم يكن يومئذ عليهم سلطان ، فاجتمعوا على مسلم بن عُبَيْس القرشى ، ووجهوا معه خمسة آلاف فارس من أبطال البصرة ، فسار إليهم ، فلحقهم بمكان يسمى « الدُّولاب »[1] فالتقوا واقتتلوا ، وصبر بعضهم لبعض ، حتى تكسرت الرماح وتقطعت السيوف ، وساروا إلى المكادمة ، فقتل مسلم بن عُبيس ، وانهزم أصحابه .

فقال رجل من الأزد :

قَدْ رُمِينَا الْعَدُوَّ إِذْ عَظُمَ الْخَطْـ ـبُ بِذِى النَّجُودِ مُسْلِمِ بْنِ عُبَيْسِ
فَانْظُرُوا غَيْرَ مُسْلِمِ بْنِ عُبَيْسٍ فَاطْلُبُوهُ مِنْ حَيْثُ أَيْنَ وَلَيْسِ[2]
لَوْ رُمُوا بِالْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِى صُفْـ ـرَةَ كَانُوا لَهُ كَأَكْلَةِ حَيْسِ[3]

وكان المهلّب يومئذ بخراسان على ولايتها .

فخاف أهل البصرة حين قُتِلَ مُسْلِم بن عُبيس خوفاً شديداً من الخوارج ، فاختاروا عثمان بن مَعْمَر القُرشىّ ، وانتدب معه زُهاء عشرة آلاف رجل من أبطالهم ، فسار بهم عثمان فى طلب الخوارج ، فلحقهم بفارس ، فاقتتلوا ، فَقُتِلَ عثمان ، وانهزم أصحابه .

* * *

فكتب أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير يُعلمونه أنه لا إمام لهم ، ويسألونه أن يوجّه إليهم رجلا من قِبَله يتولّى الأمر .

---

(١) من قرى الرىّ . (٢) أى من حيث هو ولا هو .
(٣) الحيس تمر يخلط بسمن ومخيض غنم ، فيعجن شديدا ، ثم يندر منه نواه .

فوجّه إليهم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المَخزُوميّ ، فقدم البصرة ، وتولّى الأمر بها ، فدعا وُجُوه أهل البصرة ، فاستشارهم في رجل يولّيه حرب الخوارج ، فكلّهم قالوا : « عليك بالمهلّب بن أبي صُفْرَة » .

وقام رجل من أهل البصرة يُعْرَف بابن عَرَّادة ، فأنشده :

مَضَى ابْنُ عُبَيْسٍ مُسْلِمٌ لِسَبِيلِهِ ... فَقَامَ لَهَا الشَّيْخُ الْحِجَازِيُّ عُثْمَانُ
فَأَرْعَدَ مِنْ قَبْلِ اللِّقَاءِ ابْنُ مَعْمَرٍ ... وَأَبْرَقَ ، وَالْبَرْقُ الْحِجَازِيُّ خَوَّانُ
وَلَمْ يُنْكِ عُثْمَانُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ... وَأَضْحَى عَدُوُّ الدِّينِ مِثْلَ الَّذِي كَانُوا
وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الْمُهَلَّبُ إِنَّهُ ... مَلِيءٌ بِأَمْرِ الْحَرْبِ ، شَيْخٌ لَهُ شَانُ
إِذَا قِيلَ مَنْ يَحْمِي الْعِرَاقَيْنِ أَوْمَأَتْ ... إِلَيْهِ مَعَدٌّ بِالْأَكُفِّ ، وَقَحْطَانُ
فَذَاكَ امْرُؤٌ إِنْ يَلْقَهُمْ يُطْفِ نَارَهُمْ ... وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الْمُهَلَّبُ إِنْسَانُ

[حرب المُهلّب مع الخوارج]

فقال الأحْنَف بن قَيْس للحارث بن عبد الله : أيها الأمير ، اكتب إلى أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير ، وسَلْه أن يكتب إلى المهلّب بأن يخلّف على خراسان رجلا ، ويسير إلى الخوارج ، فيتولّى مُحارَبتهم . فكتب .

فلما انتهى كتابه إلى عبد الله بن الزبير كتب إلى المهلّب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى المهلّب بن أبي صُفْرَة ؛ أمّا بعد ، فإنّ الحارث بن عبد الله كتب إليّ يخبرني أن الأزارِقَة المارِقَة قد سعّرت نارها ، وتفاقم أمرها ، فرأيتُ أن أُولّيك قتالهم لما رَجَوْت من قيامك ، فتكفي أهل مِصرك شرّهم ، وتُؤمّن رَوْعَتهم ، فخلّف بخراسان مَنْ يقوم مقامك من أهل بيتك ، وسِرْ حتى تُوَافي البصرة ، فتستعدّ منها بأفضل عُدّتك ، وتخرج إليهم ، فإني أرجو أن ينصرك الله عليهم ، والسلام » .

فلما وصل كتابه إلى المهلّب خلّف على خراسان .

وأقبل حتى وَافَى البصرة ، فصعد على المنبر ، وكان نَزْرَ الكلام وَجيزَهُ ، فقال :

«أيها الناس ، إنه قد غَشِيَكم عدوّ جاحِد ، يسفك دماءكم ، وينهب أموالكم ، فإن أعطيتمونى خِصالاً أسألكموها قمت لكم بحربهم ، واستَعَنْت بالله عليهم ، وإلا كنت كواحِدٍ منكم لن تجتمعون عليه فى أمركم» .

قالوا : وما الذى تريد ؟

قال : أنتخب منكم أوساطكم ، لا الغَنِىّ المُثْقَل ، ولا السُّبْرُوتَ[1] المُخِفّ ، وعلى أنّ لى ما غَلَبْتُ عليه من الأرض ، وألّا أخالَف فيما أُدبّر من رأيى فى حربهم ، وأتْرَكَ ورأيِى الذى أراه ، وتدبيرى الذى أدبّره .

فناداه الناس : لك ذلك ، وقد رَضِينا به .

فنزل من المنبر ، وأتى منزله ، وأمر بديوان الجُنْد ، فأُحْضِرَ ، فانتخب من أبطال أهل البصرة عشرين ألف رجل ، فيهم من الأزْد ثمانية آلاف رجل ، وبقيّتهم من سائر العرب ؛ وولّى ابنه المغيرة مقدّمته فى ثلاثة آلاف رجل .

وسار حتى أتى الخوارج ، وهم «بنهر تُسْتَر»[2] ، فواقعهم ، فهزمهم ، حتى بلغوا الأهواز ، فقال زياد الأعجم فى ذلك :

جَزَى اللهُ خَيْرًا ، وَالجَزَاءُ بِكَفِّهِ ... أَخَا الأَزْدِ عَنَّا مَا أَذَبَّ وَأَحْرَبَا
وَلَمَّا رَأَيْنَا الأَمْرَ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ ... وَأَلَّا تُوَارِى دُونَنَا الشَّمْسُ كَوْكَبَا
دَعَوْنَا أَبَا غَسَّانَ ، فَاسْتَكَّ سَمْعُهُ ... وَأَحْنَفَ طَأطَا رَأْسَهُ ، وَتَهَيَّبَا
وَكَانَ ابْنُ مَنْجُوفٍ لِكُلِّ عَظِيمَةٍ ... فَقَصَّرَ عَنْهَا حَبْلُهُ وَتَذَبْذَبَا
فَلَمَّا رَأَيْنَا الْقَوْمَ قَدْ كَلَّ حَدُّهُمْ ... لَدَى حَرْبِهِمْ فِيهَا دَعَوْنَا الْمُهَلَّبَا

---

(١) الفقير .

(٢) أعظم أنهار خوزستان ، بنى عليه سابور الملك شاذروان بباب تستر ، حتى ارتفع ماؤه إلى المدينة ، لأن تستر على مكان مرتفع من الأرض ، وهذا الشاذروان كان من عجائب الأبنية ، طوله ميل ، مبنى بالحجارة المحكمة ، والصخر وأعمدة الحديد .

وأقام المهلّب بالجسر بعد أن هَزَمَ الخوارج أربعين يوما ، ثم ارتحل سائراً في آثارهم .

فبلغ ذلك نافع بن الأزرق ، فأقام بالأهواز حتى وافاه المهلّب ، فواقعهم بمكان يسمّى « سِلَّى »(١) ، فقاتلهم يوماً إلى الليل ، وأصابته ضربة في وجهه ، أغمى عليه منها ؛ فقال الناس « قُتِلَ الأمير » ، فازدادوا لذلك حَنَقا وجِدًّا ، وقتلوا من الخوارج بشَرًا كثيراً ، وقُتِلَ رئيسهم نافع بن الأزرق ، وانهزمت الخوارج نحو فارس .

وبلغ أهل البصرة أن المهلّب قُتِل ، فَرَجَّ المِصْرُ بأهله ، وهَمّ أميرهم الحارث ابن أبي ربيعة أن يهرب ، فكتب إليه رجل من بني يَشْكُر :

أيا حارِ ، يا ابْنَ السّادَةِ الصِّيدِ ، هَبْ لَنَا ... مَقامَكَ ، لا تَرْحَلْ وَلَمْ يأْتِكَ الْخَبَرْ
فإنْ كانَ أوْدَى بِالْمُهَلَّبِ يَوْمُهُ ... فَقَدْ كَسَفَتْ فِي أرْضِنَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرْ
وَمَا لَكَ مِنْ بَعْدِ الْمُهَلَّبِ فَرْجَةٌ ... وَمَا لَكَ بِالْمِصْرَيْنِ سَمْعٌ وَلَا بَصَرْ
فَدُونَكَ ، فَالْحَقْ بِالْحِجَازِ ، وَلَا تُقِمْ ... بِبَلْدَتِنَا ، إنَّ الْمُقَامَ بِهَا خَطَرْ
وَإِنْ كَانَ حَيًّا كُنْتَ بِالْمِصْرِ آمِناً ... وَكَانَ بَقَاءُ الْمَرْءِ فِينَا هُوَ الظَّفَرْ

وقال رجل من بني سعد :

ألا كُلُّ مَا يأْتِي مِنَ الأمْرِ هَيِّنٌ ... عَلَيْنَا يَسِيرٌ عِنْدَ فَقْدِ الْمُهَلَّبِ
فإنْ يَكُ قَدْ أوْدَى فَمَا نَحْنُ بَعْدَهُ ... بِأَمْنَعَ مِنْ شَاءٍ عِجَافٍ لِأَذْؤُبِ(٢)
نَعُوذُ بِمَنْ أرْسَى ثَبِيرًا مَكَانَهُ ... وَمُرْسِي حِرَاءٍ وَالْقَدِيدِ وَكَبْكَبِ(٣)
مِنَ الْخَبَرِ الْمُلْقِي عَلَى الْحُورِ خِدْرَهَا ... وَيَشْجَى بِهِ مَا بَيْنَ بُصْرَى وَيَثْرِبِ

---

(١) موضع بالأهواز قرب مناذر .

(٢) جمع ذئب . (٣) الكبكب كجعفر جبل بعرفات خلف ظهر الإمام إذا وقف .

فأقبل البَشِير إلى أهل البصرة بسلامة المهلّب ، فاستبشروا بذلك ، واطمأنّوا ، وأقام أميرها بعد أن همّ بالهرب .

فقال رجل من بني ضَبّة :

إنّ رَبّاً أنجَى الْمُهَلّبَ ذَا الطّوْ ... لِ لَأَهْلٌ أنْ تَحْمَدُوهُ كَثِيرَا
لَا يَزَالُ الْمُهَلّبُ بْنُ أبِي صُفْ ... رَةَ مَا عَاشَ بِالْعِرَاقِ أَمِيرَا
فَإِذَا مَاتَ فَالرِّجَالُ نِسَاءٌ ... مَا يُسَاوِي مِنْ بَعْدِهِ قِطْمِيرَا[1]
قَدْ أَمِنّا بِكَ الْعَدُوّ عَلَى الْمِصْ ... رِ وَوَقَّرْتَ مِنْبَرًا وَسَرِيرَا

وقال رجل من الخوارج في قتل نافع بن الأزرق :

شَمِتَ الْمُهَلّبُ ، وَالْحَوَادِثُ جَمّةٌ ... وَالشّامِتُونَ بِنَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ
إنْ مَاتَ غَيْرَ مُدَاهِنٍ فِي دِينِهِ ... وَمَتَى يَمُرّ بِذِكْرِ نَارٍ يَصْعَقِ
وَالْمَوْتُ أَمْرٌ لَا مَحَالَةَ وَاقِعٌ ... مَنْ لَا يُصَبِّحْهُ نَهَارًا يَطْرُقِ
فَلَئِنْ مُنِينَا بِالْمُهَلّبِ إنّهُ ... لَأَخُو الْحُرُوبِ وَلَيْثُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ
وَلَعَلّهُ يَشْجَى بِنَا وَلَعَلّنَا ... نَشْجَى بِهِ فِي كُلّ مَا قَدْ نَلْتَقِي
بِالسُّمْرِ نَخْتَطِفُ النُّفُوسَ ذَوَابِلًا ... وَبِكُلّ أَبْيَضَ صَارِمٍ ذِي رَوْنَقِ
فَيُذِيقُنَا فِي حَرْبِنَا ، وَنُذِيقُهُ ... كُلٌّ مَقَالَتَهُ لِصَاحِبِهِ ذُقِ

وبلغ عبد الله بن الزبير ما كان من عزم عامله بالبصرة على الهرب ، فعزله ، وولّى أخاه مُصْعبا ؛ فسار مُصْعَب حتى قدمها ، وتولّى أمر جميع العراقين ، وفارس ، والأهواز .

***

(١) القطمير شق النواة أو القشرة التي فيها، أوالقشرة الرقيقة بين النواة والثمرة.

ولما قُتل نافع بن الأزرق اجتمعت الخوارج ، فولوا على أنفسهم عبد الله ابن ماحور[1] ، وكان من نسّاكهم .

وبلغ ذلك المهلّب ، فسار من الأهواز فى طلبهم حتى وافاهم بمدينة « سابور » من أرض فارس ، فالتقوا ، فاقتتلوا ، وانهزمت الخوارج فى آخر النهار حتى انتهوا إلى مكان يدعى « كُرْكان »[2] .

واتّبعهم المهلّب ، فوافاهم ، فالتقوا به فى يوم شديد المطر ، فقاتلهم ، فهزمهم ، فأخذوا نحو كِرمان[3] .

فلم يزل المهلب يسير فى طلبهم من بلد إلى بلد ، ويُواقعهم وقعة بعد وقعة طول مامَلك عبد الله بن الزبير إلى مقتله ، وخلوص الأمر لعبد الملك بن مروان .

فلما استدف الأمر لعبد الملك ، وولّى الحجاج العراقين استبطأ المهلّب فى استئصال الخوارج ، وظن أنه يهوى مطاولتهم ، فبعث إليه عبد الأعْلَى بن عبد الله العامرىّ ، وعبد الرحمن بن سَبْرَة ، وقال لهما « احملاه على مناجزة القوم وترك مطاولتهم » .

فقدما عليه ، فأخبراه بما بعثا له ، فقال لهما :

« أقيما حتى تُعاينا ما نحن فيه ، فإن الحجاج أتاه السّماع فقبله ، وأتاه العيان فردّه ، وقد حملنى على خلاف الرأى ، وزعم أنه الشاهد وأنا الغائب »

ثم سار نحو الخوارج فلحقهم بِأدانى أرض كِرمان ، فواقعهم ، وأمامه ابنه المفضّل ، فقتل رئيسُ الخوارج عبد الله بن ماحور ، وانهزموا حتى توسطوا أرض كرمان ، وولوا على أنفسهم رجلا من نساكهم ، يسمى « قَطَرِىّ بن الفُجاءة » .

ثم إن المهلّب انصرف إلى بلد سابور ، فوافاهم يوم النّحر ، فخرج بالناس إلى المُصَلّى .

---

(١) فى الأصل : ماحوز .

(٢) مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان .

(٣) ولاية مشهورة ، وناحية معمورة ، ذات بلاد وقرى ، ومدن واسعة ، وهى بلاد كثيرة النخل والزرع ، ومن مدنها المشهورة جيرفت .

فبينا هو يخطب الناس على المنبر ، وقد صلّى بهم إذ أقبلت الخوارج ، فقال : سبحان الله ، أفي مثل هـذا اليوم يأتوننا ؟ ما أبغض إليّ المحاربة فيه ، ولكن الله تعـالى يقول : « الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ، وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ »[1] .

ثم نزل عن المنبر ، ونادى في أصحابه ، فركبوا واستلأموا ، واستقبلوا الخوارج ، فحملت عليهم الخوارج، وأمامهم عظيم منهم يسمّى « عمرو القنا » وكان من فرسانهم ، وهو يرتجز :

نَحْنُ صَبَحْنَاكُمْ غَـدَاةَ النَّحْرِ ... بِالْخَيْلِ أَمْثَالَ الْوَشِيجِ تَسْرِي[2]
يَقْدُمُهَا عَمْرُو الْقَنَا فِي الْفَجْـرِ ... إِلَى أُنَاسٍ لَهَجُوا بِالْكُفْرِ
الْيَوْمَ أَقْضِي فِي الْعَدُوِّ نَذْرِي

ثم اقتتلوا ، وصبر بعضهم لبعض ، وكثرت بينهم القتلى ، فلم يزل كل فريق منهما على مكانه حتى حال بينهم الليل ، وانحازت الخوارج إلى كَازَرُون[3] .

وسار إليهم المهلّب فوافقهم بكازَرُون ، فأسرع المهلّب في الخوارج ، [فتفرّقوا][4] في تلك الوقعة ، وصاروا سيَّارة ، وخرجوا إلى تخُوم إصطخر ، واتّبعهم المهلّب .

فتوافقَ الفريقان ، وحمل بعضهم على بعض ، وأمام الخوارج رجل يرتجز :

حَتَّى مَتَى يَتْبَعُنَا الْمُهَلَّبُ ... لَيْسَ لَنَا فِي الْأَرْضِ مِنْهُ مَهْرَبُ
وَلَا السَّمَاءِ ، أَيْنَ أَيْنَ الْمَذْهَبُ ؟

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٩٤ .

(٢) الوشيج : شجر الرماح .

(٣) مدينة بفارس بين البحر وشيراز ، ويقال إنها هي دمياط الأعاجم ، وكلها قصور وبساتين ممتدة عن يمين وشمال .

(٤) في الأصل : فرقوا .

فلما سمع قَطَرِيّ ذلك بكى ، ووَطَّنَ نفسه على الموت ، وباشَرَ الحرب بنفسه ، وهو يرتجز :

حَتَّى مَتَى تُخْطِئُنِي الشَّهَادَهْ ... وَالْمَوْتُ فِي أَعْنَاقِنَا قِـلَادَهْ
لَيْسَ الْفِرَارُ فِي الْوَغَى بِعَادَهْ ... يَا رَبِّ زِدْنِي فِي التُّقَى عِبَادَهْ
وَفِي الْحَيَاةِ بَعْدَهَا زَهَادَهْ

فاقتتلوا يومهم حتى حال بينهم الليل .

ومضى قَطَرِيّ فى أصحابه نحو « جِيرَفْت »[1] ، وهَمَّ بالهرب إلى كِرْمان ، فقال رجل من أصحابه :

أَبَا قَطَرِيَّ الْخَيْرِ إِنْ كُنْتَ هَارِباً ... سَتُلْبِسُنَا عَاراً وَأَنْتَ مُهَاجِرُ
إِذَا قِيـلَ قَدْ جَاءَ الْمُهَلَّبُ أَسْلَمَتْ ... لَهُ شَفَتَاكَ الْفَمَّ ، وَالْقَلْبُ طَائِرُ
فَحَتَّى مَتَى هَـذَا الْفِرَارُ مَخَافَةً ... وَأَنْتَ وَلِيٌّ ، وَالْمُهَلَّبُ كَافِرُ

ولما رأت الخوارج نكول قَطَرِيّ عن الحرب ، وما هَمَّ به من الفرار خلعوه عنهم ، وولّوا « عبد ربّه » وكان من نُسّاكهم ، فسار بهم إلى قُومِس[2] ، فأقام بها .

[المهلب والحجاج]

وأن الحجاج كتب إلى المهلب :

« أما بعد ، فقد طاولتَ القوم وطاولوك ، حتى ضرّوا بك ومرنوا على حرْبك ، ولعمرى لو لم تطاولهم لا نحسم الداء وانقصم القَرن ، وما أنت والقوم سواء ، إن

---

(١) مدينة بكرمان ، من أعيان مدنها وأنزهها ، بها نخل وفواكه ، قال سهيل بن عدى :
ولم تر عينى مثل يوم رأيته ... بجيرفت من كرمان أوهى وأحقرا
(٢) تعريب كومس : كورة كبيرة واسعة ، بها مدن وقرى ومزارع فى ذيل جبل طبرستان ، قصبتها دامغان ، بين الرى ونيسابور ، ومن مدنها بسطام .

خلفك رجالا وأموالا ، والقوم لا رجال عندهم ولا أموال ، ولن يدركك الوَجيف (١) بالدَّبيب ، ولا الجِدّ بالتَّعذير ، وقد بعثت إليك عبيد الله بن مَوْهَب ، ليأخذك بمناجزة القوم وترك مطاولتهم ، والسلام » .

فلما قدم عبيد الله بن موهب على المهلب بكتاب الحجاج كتب إليه فى جوابه :

«أما بعد ، فإنه أتانى من قبلك رجلان ، لم أعطهما على الصدق ثمنا ، ولم أحتجْ مع العَيان إلى التقدير ، ولم يكذبا فيما أنبآك به من أمرى وأمر عدوى ، والحرب لا يدركها إلا المَكيث ، ولابد لها من فَرْجة يستريح فيها الغالب ، ويحتال فيها المغلوب، فأما أن أنساهم وينسونى فهيهات من ذلك ، والقوم سُدًى ، فإن طمعوا أقاموا، وإن يئسوا هربوا ، فعلىّ فى مقامهم القتال والحرب ، وفى هربهم الجدّ والطلب ، وأنا إذا طاولتهم شاركتهم فى رأيهم ، وإذا عاجلتهم شركونى فى رأيى ، فإن خلّيتنى ورأيى فذاك داء محسوم وقرن مفصوم ، وإن عجّلتنى لم أطعك ولم أعصك ، وكان وجهى إليك بإذن منك ، وأنا أعوذ بالله من سخط الأمراء ومقت الأئمة ، والسلام .

فلما قرأ الحجاج كتابه كتب إلى المهلب : « إنى قد رددت الرأى إليك ، فدبّرْ ما ترى ، واعمل ما تريد » .

فلما أتاه كتاب الحجاج بذلك نشط لطلب الخوارج .

وسار فى طلبهم إلى أرض قومس ، فهربوا منه ، فأتوا « جِيرُفْت » وتحصّنوا فى مدينة هناك ، فخرج خلفهم ، وحاصرهم فى تلك المدينة حتى أكلوا خيلهم .

وأمر المهلّب ابنه يزيد أن يقيم عليهم أياما ، ثم يخلّى لهم عن الباب ، فإذا خرجوا وأصْحَرُوا اتبعهم .

وتنحّى المهلّب فعسكر على خمسة فراسخ ، وأقام عليهم يزيد أياما ، ثم خلّى لهم عن الباب ، فخرجوا ، واتبعهم المهلّب .

---

(١) الوجيف : ضرب من سير الإبل والخيل .

فسار فى طلبهم يومين حتى لحقهم ، فوقفوا له ، فاقتتلوا يوماً كله ، ثم غدوا فى اليوم الثانى على الحرب ، فناداهم عبد ربه : « يا معشر المهاجرين ، روّحوا بنا إلى الجنة ، فإنّ القوم رائحون إلى النار » .

فاطّعنوا بالرّماح حتى تكسّرت ، واضطربوا بالسيوف حتى تقطّعت ، ثم صاروا إلى المعانقة ، فترجّل المهلّب فى حماته ، وحمل عليهم ، وهو يتلو قول الله عز وجل : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ »[1] .

فلم يزالوا يقتتلون حتى حال بينهم الليل ، ثم غدوا على الحرب ، وقد كسرت الخوارج جفون سيوفهم ، وحلّقوا رءوسهم ، فاقتتلوا ، فقتل عبد ربه ، وجميع أبطاله ، ولم يبق إلا ضعفاؤهم ، فدخلوا فى عسكر المهلب ، وانضم كل رجل إلى عشيرته من أصحاب المهلب .

فنزل المهلب عن فرسه ، وقال « الحمد لله الذى ردّنا إلى الأمن ، وكفانا مئونة الحرب ، وكفى أمر هذا العدو».

ووجه بشر بن مالك الجرمىّ إلى الحجاج يبشّره بالفتح ، وكتب معه كتاب الظفر .

فلما وصل الكتاب إلى الحجاج وجّه به إلى عبد الملك ، وقام بشر بن مالك ، فأنشأ يقول :

قَدْ حَسَمْنَا دَاءَ الأَزَارِقَةِ الدَّهْـ ـرَ ، فَأَضْحَوْا طُرًّا ، كَآلِ ثَمُودِ
بطعان الكُمَاةِ فى ثُغَرِ القَوْ مِ وَضَرْبٍ يُشِيبُ رَأْسَ الوَلِيدِ
كُلَّمَا شِئْتُ رَاعَنِي قَطَرِيٌّ فَوْقَ عَبْلِ الشَّوَى أَقَبَّ عَنُودِ[2]
مُعْلِمًا يَضْرِبُ الكَتِيبَةَ بالسَّيْـ ـفِ ، وعمرٌو كالنّار ذاتِ الوَقُودِ

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٩٣ .

(٢) عبل الشوى أى قوى اليدين والرجلين والفرس الأقب هو الضامر البطن والعنود من الإبل والدواب المتقدمة فى السير.

وكتب الحجاج إلى المهلب يأمره بالقدوم عليه .

فسار حتى قدم على الحجاج ، فاستقبله الحجاج ، وأظهر برّه وإكرامه ، وأمر له بالجوائز والصلات ، وأمر لولده ـ وكانوا سبعة ـ المغيرة ، وحبيب ، ويزيد ، والفضل ، ومُدرك ، ومحمد ، وعبد الملك ، وعبد الله ؛ وأكرم أصحاب المهلب .

[قتل قطرى بن الفجاءة]

ولحق قطرى بالرىّ ، فوجّه الحجاج سفيان بن الأبرد حتى أتى الرىّ ، وعليها إسحق بن محمد بن الأشعث ، فركب معه فى مائة فارس من جنده ، وسارا حتى لحقاه ، وهو فى مائة فارس بتُخوم طبرستان ، فنزل عن دابته ، ونام متوسّداً يده ، ثم استيقظ ، وقال لعِلْجٍ(١) من أهلها : إيتنى بشربة من ماء . فأتاه بالماء ؛ ولحقه القوم ، فقتلوه قبل أن يشرب ذلك الماء ، واحتزّ رأسه ، وأخذه سُفيان بن الأبرد ، وانصرف إلى الحجاج ، فرمى بالرأس بين يديه ، فوجه الحجاج بالرأس إلى عبد الملك » .

[ولاية خراسان]

وأقام المهلب بعد انصرافه بالبصرة فى منزله حتى وافاه عهده من عند عبد الملك على خراسان ، فسار إليها فمكث عليها خمس سنين ، ثم مات .

فجعل عبد الملك أمر خراسان إلى الحجاج ، فأقرّ الحجاج عليها يزيد ابن المهلب .

وكان يزيد أجمل ولد المهلب جمالا وأكملهم عقلا ، وأفضلهم رأيا ، وأذربهم لسانا ؛ وكان المهلب استخلفه عليها عند وفاته ، فمكث عليها أعواما ، ثم عزله الحجاج ، واستعمل عليها قُتَيبة بن مُسلم ، فافتتح كل ماوراء النهر ، ولم يزل هناك إلى أن هاج به أصحابه ، فقتلوه .

***

(١) العلج : الرجل الشديد الغليظ ، وقيل هو من خرجت لحيته ، واشتد بدنه ، أوهو الرجل من كفار العجم .

وأفضى الملك بعد ذلك إلى الوليد بن عبد الملك ، ثم إلى سليمان بن عبد الملك ، فولّى سليمان على العراق خالد بن عبد الله القسرى ، فولّى خالد أخاه أسد بن عبـد الله خراسان ، فلم يزل بها حتى ظهر فيها دُعاة الإمام محمد بن على بن عبد الله بن عباس .

[العراق بعد موت يزيد]

قالوا ، ومات يزيد بن معاوية ، وعبيد الله بن زياد بالبصرة ، فكتب إليـه الحارث بن عبّاد بن زياد بهذه الأبيات :

أَلَا يا عُبَيْدَ اللهِ قد مَاتَ مَنْ بِهِ مَلَكْتَ رقابَ العَالَمِينَ يَزِيدُ
أَتَثْبُتُ للقومِ الذين وَتَرْتَهم ؟ وَذَاكَ مِن الرَّأْى الرَّنِيقِ بَعِيدُ[1]
ومالكَ غيرُ الأَزْدِ جَارٌ فإنَّهمْ أَجَارُوا أَبَاكَ ، وَالبِـلادُ تَمِيدُ

فتعجب عبيد الله من رأى ابن أخيه ، وكان ذا رأى .

ثم إن عبيد الله دعا مولى له يسمى مِهْران ، وكان يُمَثَّلُ فى الدهاء والأدب والعقل بِوَرْدان غلام عمرو بن العاص ، وهو الذى يُنْسَبُ إليه البَرَاذِينُ المهرانية ، فقال يامهران :

ـ إن أمير المؤمنين يزيد قد هلك ، فما الرأى عندك ؟

ـ فقال مهران : أيها الأمير ، إن الناس إن ملكوا أنفسهم لم يولّوا عليهم أحدا من ولد زياد ، وإنما ملكتم الناس بمعاوية ، ثم بيزيد ، وقد هلكا ، وإنك قد وَتَرْت الناس ، ولست آمن أن يثبوا بك ، والرأى لك أن تستجير هذا الحىّ من الأزد ، فإنهم إن أجاروك منعوك ، حتى يبلغوا بك مأمنك ، والرأى أن تبعث إلى الحـارث بن قيس ، فإنه سيّد القوم ، وهو لك محبّ ، ولك عنده يد ، فتخبره بموت يزيد ، وتسأله أن يجيرك .

---

(١) الرنق بضمتين : العقول التامة .

فقال عبيد الله : أصبت الرأى يامهران .

ثم بعث من ساعته إلى الحارث بن قيس ، فأتاه فأخبره بموت يزيد ، واستشاره ، فقال :

المستشار مؤتمن ، فإن أردتَ المقام منحناك معاشر الأزد ، وإن أردت الاستخفاء اشتملنا عليك حتى يسكن عنك الطلب ، ويخفى على الناس موضعك ، ثم نوجّه معك من يبلّغك مأمنك .

فقال عبيد الله : هذا أريد .

فقال له الحارث : فأنا أقيم عندك ، إلى أن تُمسى ويختلط الظلام ، ثم أنطلق بك إلى الحى .

فأقام الحارث عند عبيد الله .

فلما أمسى واختلط الظلام أمر عبيد الله أن تُوقَد السُّرُج فى منزله ليلته كلها ، ليظنّ من يطلبه أنه فى منزله ، ثم قام فلبس ثيابه ، واعتمّ بعمامته وتلثّم .

فقال له الحارث: « التلثُّم بالنهار ذُلّ ، وبالليل رِيبة ، فاحسِرْ عن وجهك ، وسِرْ خلفى ، فإن المقدّم وقاية للمؤخّر » ، فسار .

فقال للحـارث : تَخَلَّلْ بِنا ـ فِدَاكَ أبى وأمىّ ـ الطرق ، ولا تأخذ بنا طريقا واحدا ، فإنى لا آمن أن يُطْلَبَ أثرى .

فقال الحارث : لا بأس عليك ، إن شاء الله ، فاطمئن .

ثم سارا هَوِيًّا .

فقال للحارث : أين نحن ؟ .

قال : فى بنى مسلم .

قال : سلمنا إن شاء الله .

ثم سارا جميعا ساعة ، فقال : أين نحن ؟ .

قال الحارث فى بنى ناجية .

قال : نجونا إن شاء الله .

ثم سارا حتى انتهيا إلى الأَزْد ، وأقحم الحارث بعُبيد الله دار مسعود بن عمرو ،

وكان رئيس الأزد كلها بعد المهلّب بن أبى صفرة ، وكان المهلب فى هذا الوقت بخراسان بعدُ .

فقال الحارث لمسعود : يا ابن عم ، هـذا عبيد الله بن زياد ، قد أجرتُه عليك وعلى قومك .

قال مسعود : أهلَكتَ قومك يا ابن قَيْس ، وعرَّضتنا لحرب جميع أهل البصرة ، وقد كنّا أجَرْنا أباه من قبله فما كانت عنده مكافأة .

وكان سبب إجارتهم زيادا ، أن على بن أبى طالب رضى الله عنه، فى خلافته ولّى زيادا البصرة عند خروجه إلى صفّين ، وإنما كان يعرف زياد بن عبيد ، فوجّه معاوية إلى البصرة عامرَ بن الحضرىّ فى جمع ، فغلب على البصرة ، وهرب منه زياد ، فلجأ إلى الأزد ، فأجاروه ، ومنعوه حتى ثاب الناس إلى زياد ، واجتمعوا ، فطردَ عامرَ بن الحضرىّ عن البصرة ، وأقام على عمله فيها .

* * *

ثم إن مسعود بن عمرو أدخل عبيد الله دار نسائه ، وأفرده فى بيت من بيوته ، ووكل به امرأتين من خدمه ، وجمع إليه قومه ، فأعلمهم ذلك .

ولما أصبح الناس ، واستحق عندهم الخبر أتوا داره ، فاقتحموها ليقتلوه ، فلم يصادفوا فيها أحدا ، فانطلقوا إلى الحبس ، فكسروه ، وأخرجوا من كان فيه ، وبقى أهل البصرة تسعة أيام بغير والٍ .

فاتفقوا على عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ، فولّوه أمرهم لصلاحه، وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتولّى الأمر ، وقام بالتدبير .

ولما أتى على عبيد الله أيام ، وأمِن الطلب ، قال لمسعود بن عمرو ، والحارث بن قيس : إن النـاس قد سكنوا ، ويئسوا منى ، فاعملا فى إخراجى من البصرة لألحق بالشام .

فاكْتَرَيا له رجلا من بنى يَشْكُر أمينا هاديا بالطريق ، وحملاه على ناقة مَهْرِية(١) ، وقالا لليشكرى : عليك به لا تفارقه حتى توصله إلى مأمنه بالشام .

فخرج ، وخرجا معه مشيّعين له فى نفر من قومهما ثلاثة أيام ، ثم ودّعاه وانصرفا .

قال اليشكرى : فبينا نحن نسير ذات ليلة إذ استقبلنا عِيرٌ وحادٍ يحدو فيها ، ويقول :

يَا رَبِّ ، رَبَّ الْأَرْضِ وَالْعِبَادِ الْعَنْ زِيَادًا ، وَبَنِي زِيَادِ
كَمْ قَتَلُوا مِنْ مُسْلِمٍ عَبَّادِ جَمِّ الصَّلَاةِ خَاشِعِ الْفُؤَادِ
يُكَابِدُ اللَّيْلَ مِنَ السُّهَادِ

فلما سمع عُبَيْد الله ذلك فزع ، وقال : عُرِفَ مكانى .

فقلت : لا تَخَفْ ، فليس كل مَنْ ذَكَرَكَ يعلم موضعك .

ثم سِرْنا فأطرق طويلا ، وهو على ناقته ، فظننتُ أنه نائم ، فناديته : يا نَوْمان .

فقال : ما أنا بنائم ، ولكنى مُفَكِّر فى أمرٍ .

قلت : إنى لأَعْلَم الذى كنت مفكرًا فيه .

فقال : هاتِهِ إذَن .

قلت : ندمتَ على قتلك الحسين بن علىّ ، وفكّرتَ فى بنائك القصر الأبيض بالبصرة ، وما أنفقتَ عليه من الأموال ، ثم لم يُقْضَ لك التمتع به ، وندمت على ما كان من قتلك الخوارج من أهل البصرة بالظِّنَّة والتوهُّم .

قال عُبَيْد : ما أصبتَ يا أخا بنى يشكر شيئًا مما كنت مفكّرًا فيه ؛ أمّا قتلى الحسين فإنه خرج على إمام وأمّة مجتمعة ، وكتب إلىّ الإمام يأمرنى بقتله ، فإن كان ذلك خطأً كان لازمًا ليزيد ؛ وأمّا بنائى القصر الأبيض ، فما فِكْرى

---

(١) نوع من الإبل ينسب إلى حى مهرة بن حيدان .

فى قصر بَنَيْتُهُ للإمام بأمره وماله ؛ وأمّا قتلى مَنْ قتلتُ من الخوارج فقد قتلهم قبلى مَنْ هو خير منى ، علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . غير أنى فكّرت فى بنى أبى ، وأولادهم ، فندمت على تركى إخراجهم من البصرة قبل وقوع ما وقع ، وفكّرت فى بيوت الأموال بالكوفة والبصرة ألا أكون فرّقتها وبدّدتها فى الناس عند ما ورد علىّ من وفاة الخليفة ، فكنت أكتسب بذلك حَمْدًا فى الناس وذِكْرًا .

قلت : فما تريد أن تصنع الآن ؟

قال : إن وافيت دمشق ، وقد اجتمع الناس على إمام دخلت فيما دخلوا فيه ، وإن لم يكونوا اجتمعوا على أحد كانوا غنمًا، قلّبتُها كيف شئت .

[خلافة مروان بن الحكم]

قال : فسرنا حتى دخلنا دمشق ، والناس مختلفون ، لم يملّكوا عليهم أحدا ، وقد كان مروان بن الحكم همّ باللحاق بعبد الله بن الزبير ليبايعه ، ويكون معه .

فدخل عبيد الله ، وعنفه فى ذلك ، وقال :

ـ أنت سيد قومك ، وأحق الناس بهذا الأمر ، فمدّ يدك أبايعك .

فقال مروان : وما تبلغ بيعتُك وحدك ؟ اخرج إلى الناس وناظرهم فى ذلك .

فخرج من عنده ، ولقى جماعة بنى أمية ، فعنّفهم فى ذلك ، وفى تخاذلهم ، وحملهم على بيعة مروان ، فاجتمعوا ، وبايعوه .

وتزوّج مروان أم خالد بنت هاشم بن عُتبة، التى كانت امرأة يزيد بن معاوية ، فلما تم لملك مروان بن الحكم تسعة أشهر قتلته امرأته أم خالد .

وذلك أن مروان نظر يوما إلى ابنها خالد بن يزيد بن معاوية، وهو غلام من أبناء سبع سنين ، يمشى مِشْية أنكرها ، فقال له : ما هذه المشية يابن الرّطْبة ؟ .

فشكا الغلام ذلك إلى أمه ، فقالت له : إنه لا يقول بعد هذا .

فسقته السمّ ، فلما أحس بالموت جمع بنى أمية وأشراف أهل الشام ، فبايع لابنه عبد الملك .

[خلافة عبد الملك بن مروان]

وامتنع عمرو بن سعيد من البَيْعة ، ومات مروان ، وله ثلاث وستون سنة ، ثم مَلَكَ عبد الملك بن مروان سنة ستّ وستين ، فخرج عمرو بن سعيد بن العاص عليه ، فصار أهل الشام فرقتين : فرقة مع عبد الملك ، وفرقة مع عمرو بن سعيد .

فدخلت بنو أمية وأشراف أهل الشام بينهما حتى اصطلحا ، على أن يكونا مشتركين فى المُلك ، وأن يكون مع كل عامل لعبد الملك شريك لعمرو بن سعيد ، وعلى أن اسم الخلافة لعبد الملك ، فإن مات عبد الملك فالخليفة من بعده عمرو بن سعيد ، وكَتَبا فيما بينهما كتاباً ، وأشهدا عليه أشراف أهل الشام .

وكان رَوْحُ بن زِنْبَاع من أخص الناس بعبد الملك بن مروان ، فقال له ، وقد خَلَا به يوما : يا أمير المؤمنين ، هل من رأيك الوَفاء لعمرو ؟

قال : ويحك يا ابن زِنْباع ، وهل اجتمع فَحْلَان فى هجمة قطّ إلا قتَلَ أحدهما صاحبه ؟

وكان عمرو بن سعيد رجلا مُعْجَباً بنفسه ، مُتَهاوِنًا فى أمره ، مُغْتَرًّا بأعدائه .

[قتل عمرو بن سعيد بن العاص]

ثم إنّ عَمْرًا دخل على عبد الملك يوماً ، وقد استعدّ عبد الملك للغَدْر به ، فأمر به ، فأُخِذ ، فأُضْجِع ، وذُبِح ذبحا ، ولُفَّ فى بساط .

وأحَسّ أصحاب عمرو بذلك ، وهم بالباب ، فتنادَوْا ، فأخذ عبد الملك خمسمائة صُرّة ، قد هُيِّئَتْ ، وجُعِلَ فى كل صرّة ألفا درهم ، فأمر بها ، فأُصْعِدَت إلى أعلى القصر ، فأُلقيت إلى أصحاب عمرو بن سعيد مع رأس عمرو ، فترك أصحابه الرأس مُلقًى ، وأخذوا المال ، وتفرّقوا .

فلما أصبح عبد الملك أخذ من أصحاب عمرو ومَوَالِيه خمسين رجلا ، فضرب أعناقهم ، وهرب الباقون ، فلحقوا بعبد الله بن الزبير .

وفى ذلك يقول قائلهم :

غَدَرْتُمْ بِعَمْرٍو يَآلَ مَرْوَانَ ضِلَّةً ‏ ‏ وَمِثْلُكُمُ يَبْنِى الْبُيُوتَ عَلَى الْغَدْرِ

فَرُحْنَا ، وَرَاحَ الشَّامِتُونَ بِقَتْلِهِ ‏ ‏ كَأَنَّ عَلَى أَكْتَافِنَا فِلَقَ الصَّخْرِ

وَمَا كَانَ عَمْرٌو عَاجِزًا ، غَيْرَ أَنَّهُ ‏ ‏ أَتَتْهُ الْمَنَايَا بَغْتَةً ، وَهْوَ لَا يَدْرِى

كَأَنَّ بَنِى مَرْوَانَ إِذْ يَقْتُلُونَهُ ‏ ‏ بُغَاثٌ مِنَ الطَّيْرِ اجْتَمَعْنَ عَلَى صَقْرِ (١)

قالوا : ولما خرج عُبَيد الله من البصرة شاع بها أن عُبَيد الله كان عند الأزْد ، فأقبل رجل من الخوارج ليلًا ، فجلس لمسعود بن عمرو ، فلما خرج لصلاة الفجر ، وثَبَ عليه بسكّين فقتله .

فاجتمعت الأزْد ، وقالوا : والله ما قتله إلّا بنو تميم ، ولنقتلنّ سيّدهم الأحْنَف بن قَيْس .

فقال الأحْنَف لقومه : إن الأزْد قد اتهموكم فى قتل صاحبهم ، وقد استَغْنَوْا بالظنّ عن اليقين ، ولا بدّ من غُرْم عَقْله (٢) .

فجمعوا ألف ناقة ، ووجّهوا بها إلى الأزْد ـ وكانت دِيَة الملوك ـ فرضِيَت الأزْد ، وكَفُّوا .

وقوى أمر عبد الله بن الزبير ، وأعطاه أهل الكوفة الطاعة .

فولّى الكوفة عبد الله بن مُطيع العَدَوِىّ .

ووجّه أخاه مُصْعَب بن الزبير إلى البصرة ، وأمر عبد الله بن مُطيع بمكاتبته .

ووجّه عُمّاله إلى اليمن ، والبحرين ، وعُمان ، وسائر الحجاز .

ودانت لابن الزبير البلدان إلا الشام ومصر . فإن مروان بن الحكم كان حاميًا .

وانحليت على ابن الزبير الأموال ، فهَدَمَ الكعبة وجَدَّدَ بناءها ، وذلك فى

---

(١) البغاث مثلثة : طائر ضعيف من شرار الطير ، لونه أغبر . ومن أمثلة العرب ، إن البغاث بأرضنا يستنسر ، أى من جاورنا عزّ بنا .

(٢) العقل الدية .

سنة خمس وستين ، ولَفّ الحجر الأسود فى حرير وجعله فى تابوت وختم عليـه ، واستودعة الحَجَبَة مع جميع ما كان معلقًا فى الكعبة من ذهب وجوهر ؛ ولمّا بناها أدخل الحجر فى البيت .

فلما قُتِل ابن الزبير نَقَضَها الحجّاج ، وأعاد بناءها على ما كان ، فهى على ذلك إلى اليوم .

[الدعوة إلى العلويين]

قالوا : وإن المختار[1] بن أبى عُبَيد الثَقَفِىّ جعل يختلف بالكوفة إلى شيعة بنى هاشم ، ويختلفون إليه ، فيدعوهم إلى الخروج معه والطلَب بدم الحسين ؛ فاستجاب له بَشَرٌ كثير ، وكان أكثر مَن استجاب له همدان ، وقوم كثير من أبناء العجم الذين كانوا بالكوفة ، فَفَرَضَ لهم معاوية ـ وكانوا يُسَمَّوْن الحَمْرَاء ـ وكان منهم بالكوفة زُهاء عشرين ألف رجل .

وكان على الكوفة يومئذ من قِبَل عبد الله بن الزبير عبدُ الله بنُ مُطيع ، فأرسل ابن مُطيع إلى المختار : ما هذه الجماعات التى تغدو وتروح إليك ؟

فقال المختار : مريض ، يُعاد .

فلم يزل كذلك حتى قال له نصحاؤه : عليك بإبراهيم بن الأشتر ، فاستَمِلْهُ إليك ، فإنه متى شايعك على أمرٍ ظفرتَ به ، وقضيت حاجتك .

فأرسل المختار إلى جماعة من أصحابه ، فدخلوا عليـه ، وبيده صحيفة مختومة بالرّصاص .

فقال الشّعبىّ : وكنت فيمن دخل عليه ، فرأيت الرصاص أبيض يلوح ، فظننتُ أنه إنما خُتِمَ من الليـل ، فقال لنا : انطلقوا بنا حتى نأتى إبراهيم ابن الأشتر .

---

(١) كان خروج المختار فى صفر سنة ٦٦ (سبتمبر ٦٨٥) .

قال : فمضينا معه ، وكنت أنا وزيد بن أنس الأسدى ، وأحمر بن سليط ، وعبد الله بن كامل ، وأبو عمرة كيسان، مولى بَجِيلة ، الذى يقول الناس : قد جاوره أبو عمرة ؛ وكان من بعد ذلك على شرط المختار .

قال الشَّعْبى : فأتينا إبراهيم بن الأشتَر ، وهو جالس فى صحن داره ، فسلمنا عليه ، فتناول يد المختار ، وأجلسه معه على مَقعدة كان عليها .

وتكلم المختار وكان مفوّهاً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

إن الله قد أكرمك ، وأكرم أباك من قبلك بموالاة بنى هاشم ونصرتهم ، ومعرفة فضلهم ، وما أوجب الله من حقهم ، وقد كتب إليك محمد بن على بن أبى طالب ـ يعنى ابن الحنفيّة ـ هذا الكتاب بحضرة هؤلاء النفر الذين معى .

فقال القوم جميعا : نشهد أن هذا كتابه ، رأيناه حين كتبه .

ثم ناوله ، ففتحه وقرأه ، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن على إلى إبراهيم الأشتر ، أما بعد ، فإن المختار بن أبى عبيد على الطلب بدم الحسين، فساعِدْه فى ذلك ، وآزِرْه يثبك الله ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة .

فلما قرأ إبراهيم بن الأشتر الكتاب قال للمختار :

سمعا وطاعة لمحمد بن على ، فقل ما بدا لك، وادع إلى ماشئت .

فقال المختار : أتأتينا، أو نأتيك فى أمرنا ؟

فقال إبراهيم : بل أنا آتيك كل يوم إلى منزلك .

قال الشعبى : فكان إبراهيم بن الأشتر يركب إلى المختار فى كل يوم فى نفر من مواليه وخدمه .

قال الشعبى : ودخلتنى وحشة من شهادة النفر الذين كانوا معى ، على أنهم رأوا

محمد بن الحَنَفِيَّة حين كتب ذلك الكتاب إلى إبراهيم بن الأشتر ، فأتيتهم فى منازلهم رجلا رجلا ، فقلت :

هل رأيت محمد بن الحنفية حين كتب ذلك الكتاب ؟

فكلٌّ يقول : نعم ، وما أنكرتَ من ذلك ؟

فقلت فى نفسى : إن لم أستعملها من العجمىّ ، يعنى أبا عمرة ، لم أطمع فيها من غيره .

فأتيته فى منزله ، فقلت :

ما أَخْوَفنى من عاقبة أمرنا هــذا أن يَنْصِبَ الناس جميعاً لنا ، فهل شَهِدْتَ محمد بن الحَنَفِيَّة حين كتب ذلك الكتاب ؟

فقال : والله ما شَهِدْتُهُ حين كتبه ، غير أن أبا إسحٰق ــ يعنى المختار ــ عندنا ثِقَة ، وقد أتانا بعلامات من ابن الحَنَفِيَّة ، فَصَدَّقْنَاهُ .

قال الشعبىّ : فعرفت عنــد ذلك كذب المختار ، وتمويهه ، فخرجت من الكوفة حتى لحقت بالحجاز ، فلم أشهد من تلك المشاهد شيئاً .

* * *

قالوا : وكان على شُرطة عبد الله بن مطيع بالكوفة إياس بن نِضَار العجلىّ ، وكان طريق إبراهيم بن الأشتر إذا ركب إلى المختار على باب داره ، فأرسل إلى إبراهيم : إنه قد كثر اختلافك فى هذا الطريق ، فاقصِر عن ذلك .

فأخبر إبراهيمُ المختارَ بما أرسل إليه إياس، فقال له المختار: « تجنّب ذلك الطريق ، وخذ فى غيره » . ففعل .

وبلغ إياسا أن إبراهيم بن الأشتر لا يُقلع عن إتيان المختار كل يوم ، فأرسل إليه: إن أمرك يريبنى ، فلا أَرَيَنَّك راكبا ، ولا تبرحنّ منزلك ، فأضرب عنقك .

فأخبر إبراهيم المختار بذلك . واستأذنه فى قتله ، فأذن له .

وأن إبراهيم ركب فى جماعة من أهل بيته وما يليه ، وجعل طريقه على مجلس إياس ، فقال له إياس :

يا ابن الأشتر ، ألم آمرك ألا تبرح من منزلك ؟

فقال له إبرهيم : أنت والله — ما علمتُ — أحمق .

فقال للجلاوزة : نكِّسُوه .

فانتضى إبراهيم سيفه ، وشدّ على إياس ، فضربه حتى قتله . ثم حمل على الجلاوزة ، فانحرفوا عنه، ومضى إبراهيم .

وبلغ عبد الله بن مطيع الخبر ، فأمر بطلب إبراهيم ، ووجّه إلى منزله .

وبلغ ذلك المختار ، فوجّه إلى إبراهيم بمائة فارس ، فلما وافوه حمل على أصحاب ابن مطيع ، فانهزموا عنه ، فأقبل إبراهيم نحو دار الإمارة ، ووافاه المختار فى سبعة آلاف فارس .

فتحصّن ابن مطيع فى القصر ، وبعث إلى الحرس والجند .

فوافاه منهم نحو ثلاثة آلاف رجل ، فنادى « يالثَّارات الحُسين » فوافاه زُهاء عشرة آلاف رجل ممن بايعه على الطلب بدم الحسين .

وفى ذلك يقول عبد الله بن همّام :

وَفى لَيْلَةِ الْمُخْتَارِ مَا يُذْهِلُ الفَتَى ... وَيَزْوِيهِ عن رُودِ الشَّبابِ شَمُوعِ
دَعَا ، يَالَثَّارَاتِ الْحُسَيْنِ فَأَقْبَلَتْ ... كتائبُ من هَمدَانَ بَعْدَ هَزِيعِ
وَمِنْ مَذْحِجٍ جاء الرَّئيسُ ابنُ مَالِكٍ ... يَقُودُ جُموعًا أُرْدِفَتْ بِجُمُوعِ
وَمِنْ أَسَدٍ وَافَى يَزِيدُ لِنَصْرِهِ ... بكلّ فَتًى مَافِي الجنَانِ مَنِيعِ

وخرج ابن مطيع من القصر ، واجتمع إليه الجنود ، ونهد[٢] إليه المختار فى أصحابه ، وعلى مقدمته ابن الأشتر ، فالتقوا ، فاقتتلوا ، فقتل من أصحاب ابن مطيع بَشَر كثير ، فانهزموا .

وبادر ابن مطيع إلى القصر ، فتحصّن فيه فى طائفة من أصحابه ، وأقبلت همدان حتى تسلّقوا القصر بالحبال من ناحية دار عُمارة بن عُقبة بن أبى مُعَيْط .

---

(١) نهض .

فلما رأى ابن مطيع ضعفه عن القوم سأل الأمان على نفسه ومن معه من أصحابه ، فأجابه المختار إلى ذلك ، فأمّنه .

فخرج ابن مطيع ، وأظهر المختار إكرامه ، وأمر له من بيت المال بمائة ألف ألف درهم ، وحفظ فيه قرابته من عمر بن الخطاب ، وقال له : « ارحل إذا شئت » .

* * *

ثم إن المختار غلب على الكوفة ودانت له العراق وسائر البلاد إلا الجزيرة والشام ومصر ، فإن عبد الملك قد كان حماها ، ووجه عمّاله فى الآفاق .

فاستعمل عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمدانى على الموْصل ، ومحمد بن عثمان التميمى على أذرْبيجان ، وعبد الله بن الحارث أخا الأشترَ على الماهَيْن وهمذان ، ويزيد ابن معاوية البجلىّ على أصبهان وقُمْ وأعمالها ، وابنَ مالك البَكراوى على حلوان[1] وماسَبَذان ، ويزيد بن أبى نَجَبَة الفزارى على الرىّ ودَستَبَى ، وزَحْر بنَ قيَس على جَوْخَى . وفرق سائر البلدان على خاصته .

وولى الشرطة كيْسان أبا عَمْرَة ، وأمره أن يجمع ألفَ رجل من الفَعَلة بالمَعاوِل ، وتتبّع دور من خرج إلى قتال الحُسين بن على ، فيهدمها .

وكان أبو عَمرة بذلك عارفا ، فجعل يدور بالكوفة على دورهم ، فيهدم الدار فى لحظة ، فمن خرج إليه منهم قتله ، حتى هدم دورا كثيرة ، وقتل أناسا كثيرا ، وجعل يطلب ويستقصى ، فمن ظفر به قتله ، وجعل ماله وعطاءه لرجل من أبناء العجم الذين كانوا معه .

ثم إن المختار عقد ليزيد بن أنس الأسدى فى عشرين ألف رجل ، وقوّاهم بالسلاح والعُدّة ، وولّاه الجزيرة وما غلب عليه من أرض الشام .

فسار يزيد حتى نَزل نصيبين .

---

(١) بلد فى العراق ، آخر حدود السواد مما يلى الجبال ، سميت باسم حلوان بن عمران بن قضاعة ، وكان أقطعه إياها بعض الملوك ، وكانت مدينة عامرة ، لم يكن بالعراق بعد البصرة والكوفة وواسط أكبر منها ، وحواليها عيون كبريتية ينتفع بها من عدة أدواء .

وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان ، فخرج بأهل الشام فوافق نصيبين ، وقاتل يزيد ابن أنس ، فهزمه ، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة .

وبلغ المختار ذلك ، فقال لإبراهيم بن الأشتر :

أيها الرجل ، إنما هو أنا وأنت ، فسِرْ إليهم ، فوالله لتقتلنّ الفاسق عبيد الله ابن زياد ، أو لتقتلن الحصين بن نمير ، وليهزمنّ الله بك ذلك الجيش ، أخبرني بذلك من قرأ الكتاب ، وعرف الملاحم .

قال إبراهيم :

ما أحسبك أيها الأمير بأحرص على قتال أهل الشام، ولا أحسن بصيرة في ذلك مني ، وأنا سائر .

فانتخب له المختار عشرين ألف رجل ، وكان جلُّهم أبناء الفرس الذين كانوا بالكوفة ، ويسمون الحمراء .

وسار نحو الجزيرة ، وردّ من كان انهزم من أصحاب يزيد بن أنس ، فصار في نحو من ثلاثين ألف رجل .

وبلغ ذلك عبد الملك ، فعقد للحصين بن نمير في فرسان أهل الشام ، وكانوا نحواً من أربعين ألفا ، وفيهم عبيد الله بن زياد ، وفيهم من قتلة الحسين: عُمَير بن الحباب ، وفُرات بن سالم ، ويزيد بن الحضَيْن ، وأناس سوى هؤلاء كثير .

فقال فرات لعُمَير : قد عرفتَ سوء ولاية بني مروان، وسوء رأيهم في قومنا من قَيس ، ولئن خلص الأمر ، وصفا لعبد الملك ليستأصلنّ قَيْسًا ، أو لَيُقْصِيَنَّهم ، ونحن منهم ، فانصرف بنا لننظر ما حال إبراهيم بن الأشتر .

فلما جنّهما الليل ركبا فرسيهما ، وبينهما وبين عسكر إبراهيم أربعة فراسخ ، وكانا يمرّان بمَسالح أهل الشام ، فيقولون لهما : [من][(1)] أنتما ؟ فيقولان : طليعةٌ للأمير الحصين بن نمير .

فأقبلا حتى أتيا عسكر إبراهيم بن الأشتر ، وقد أوقد النيران ، وهو قائم يعبّي

---

(١) في الأصل : ما أنتما .

أصحابه ، وعليه قميص أصفر هَرَوِى[1] ، ومُلاءة مورّدة متوشحا بها ، متقلّدا سيفه .

فدنا منه عمير بن الُحباب ، فصار خلفه ، وإبراهيم لا يأبَهُ له ، فاحتضنه من ورائه ، فما تحلحل[2] إبراهيم عن موضعه ، غير أنه أمال رأسه ، وقال :

ـ من هذا ؟

قال : أنا عمير بن الحباب .

فأقبل بوجهه إليه ، وقال :

ـ اجلس حتى أفرغ لك .

فتنحّى عنه ، وقعدا مُمْسِكَيْن بأعِنّة فرسيهما .

فقال عمير لصاحبه : هل رأيتَ رجلا أربط جأشا ، وأشدّ قلبا من هذا ؟ تُرَاهُ تحلحل من مكانه، أو اكترث لى ، وأنا محتضنه من خلف .

فقال له صاحبه : ما رأيت مثله .

* * *

فلما فرغ إبراهيم من تَعبِيَة أصحابه أتاهما ، فجلس إليهما ، ثم قال لعُمَيْر :

ما أعملك إلىّ يا أبا المُغَلِّس ؟

قال عمير : لقد اشتد غمِّى مُذْ دخلتُ عسكرك ، وذلك أنى لم أسمع فيه كلاماً عربيًا حتى انتهيت إليك ، وإنما معك هؤلاء الأعاجم ، وقد جاءك صَنَادِيد[3] أهل الشام وأبطالهم ، وهم زُهاء أربعين ألف رجل ، فكيف تلقاهم بمن معك ؟

فقال إبراهيم :

والله لو لم أجد إلا النّمل لقاتلتهم بها ، فكيف وما قَوْمٌ أشدّ بَصِيرَة فى قتال أهل الشام من هؤلاء الناس الذين تَرَاهم معى ؟ وإنما هم أولاد الأسَاوِرَة من أهل

---

(١) من صنع هراة ، بلدة بفارس .

(٢) أى ما تحرك عن موضعه ، وفى نسخة تخلخل .

(٣) السادة الشجعان ، وجماعات العسكر .

فارس، والمَرَازِبَة ، وأنا ضَارِبٌ الخيلَ بالخيلِ ، والرجالَ بالرجالِ ، والنصر من عند الله .

قال عمير : إن قومي قيسا . إذا التقى الجبلان غدًا في ميسرة أهل الشام فلا تحفل بنا، فإنا منهزمون لنكسر الجيش بذلك ، فإنا لا نحب ظهور بني مروان لسوء صنيعهم إلينا معاشرَ قيس ، وإنا إليك لأَميَل .

قال إبراهيم : وذاك .

ثم انصرفا إلى معسكرهما .

ولما أصبح الفريقان زحف بعضهم إلى بعض ، فتوافقوا بمكان يُدْعَى خَازِر[1] فنادى إبراهيم بن الأشتر حُماة عسكره « عليكم بالميْسرة » ، وفيها قيس .

فقال عمير بن الحباب لصاحبه : هذا وأبيك الحزم ، لم يثق بقولنا وخاف مكرنا .

وصاح عُمير بن الحُباب في قيس ، يَالَثَارَات مَرْج راهط[2] ، فنكّسوا أعلامهم، وانهزموا ، فانكسر أهل الشام .

وحمل عليهم إبراهيم بن الأشتَر ، فأكثر فيهم القتل ، وانهزم أهل الشام ، فاتبعهم إبراهيم يقتلهم إلى الليل ، وقُتل أميرهم الحصين بن نمير ـ وكان من قتلة الحسين ـ وشرحبيل بن ذي الكلاع ، وعظماء أهل الشام .

فلما وضعت الحرب أوزارها قال إبراهيم بن الأشتر : إني قتلت في الوقعة رجلا من أهل الشام ، كان يقاتل في أوائلهم قتالا شديدا ، وهو يقول : « أنا الغلام القرشي » . فلما سقط شممت منه ريح المسك ، فاطلبوه بين القتلى .

فطُلِب حتى أصابوه ، فإذا هو عبيد الله بن زياد ، فأمر به إبراهيم ، فحزّ رأسه ، فوجّه به إلى المختار ، فوجه به المختار إلى محمد بن الحنفيّة .

واحتوى ابراهيم بن الأشتَر على عسكر الشام ، فغنم ما كان فيه .

---

(١) كورة بين الموصل وإربل ، على نهير سمي به

(٢) المرج الموضع ترعى فيه الدواب ، ومرج راهط : ناحية من نواحي دمشق .

فأتته هند ابنة أسماء بن خارجة الفزارى ، امرأة عبيد الله بن زياد ، فأخبرته بانتهاب ما كان معها من مالها ، فقال لها :

ـ كم ذهب لك ؟

قالت : قيمة خمسين ألف درهم .

فأمر لها بمائة ألف درهمٍ ، ووجه معها مائة فارس حتى أتوا بها أباها البصرة .

ودخل عبيد الله بن عمرو الساعدىّ ، وكان شاعرا على إبراهيم بن الأشتر ، فأنشده :

اللهُ أعْطَاكَ المهَابَةَ وَالتُّقَى ... وَأحَلَّ بيتَكَ فى العَدِيدِ الأكْثَرِ
وَأقَرَّ عَيْنَكَ يوم وَقْعَةِ خَازِرٍ ... وَالخَيلُ تَعْثُرُ بِالقَنَا المتَكَسِّرِ
مِن ظالمِين كَفَتْهُمُ آثامُهُمْ ... تُرِكُوا لِعَافِيَةٍ وَطَيْرٍ حُسَّرِ
ما كَانَ أجْرَأهُمْ ، جَزَاهُمْ رَبُّهُمْ ... شرَّ الجَزَاء على ارتكَابِ المنكَرِ
إنِّى أتيتُكَ إذْ تَنَاءَى مَنْزِلِى ... وَذَمَمْتُ إخوانَ الغِنَى مِنْ مَعْشَرِى
وعلمتُ أنك لا تُضَيِّعُ مِدْحَتِى ... ومتى أكُنْ بِسَبِيلِ خَيْرٍ أشْكُرِ
فَهَلُمَّ نَحْوِى، مِنْ يَمِينِكَ نفحةً ... إنَّ الزَّمانَ ألَحَّ يَا ابْنَ الأشْتَرِ

فأعطاه عشرة آلاف درهم .

* * *

وأن إبراهيم بن الأشتر أقام بالموصل ، ووجه عماله إلى مدن الجزيرة ، فاستعمل إسماعيل بن زُفَر على قَرْقِيسياء[1] ، وحاتم بن النعمان الباهلىّ على حرّان[2] والرُّها[3]

---

(١) فى الأصل قرقيسيا، وهى بلد على نهر الخابور عند مصبه، ومنها جانب على نهر الفرات، فوق رحبة مالك بن طوق .

(٢) مدينة قديمة ، قصبة ديار مضر ، قيل إنها أول مدينة بنيت بعد الطوفان ، وكانت منزل الصابئة ، وهى مهاجر الخليل إبراهيم عليه السلام .

(٣) مدينة بأرض الجزيرة فى العراق فوق حران .

وسُمَيْساط(١) ، وعُمير بن الُحباب السُّلَمِى على [كَفَرْتُوثَا](٢) ، والسفاح ابن كُرْدُوس على سِنجار(٣) ، وعبـد الله بنْ مسلم على مَيّافارِقين(٤) ، ومسلم ابن ربيعة العُقَيْلى على آمد(٥) ، وسار هو إلى نصيبين ، فأقام بها .

وأن المختار كتب إلى عبيد الله بن الحرّ الُجعْفِى ، وكان بناحية الجبل يتطرّف ويُغير : « إنما خرجتَ غضباً للحسين ، ونحن أيضا ممن غضب له ، وقد تجرّدْنا لنطلب بثأره ، فأعِنّا على ذلك » . فلم يجبه عبيد الله إلى ذلك .

فركب المختار إلى داره بالكوفة فهدمها ، وأمر بامرأته أم سلمة ، ابنـة عمر الجُعْفِى ، فحبست فى السجن ، وانتهب جميع ما كان فى منزله ؛ وكان الذى تولى ذلك عمرو بن سعيد بن قيس الهمدانىّ .

وبلغ ذلك عبيد الله بن الحر ، فقصد إلى ضيعة لعمرو بن سعيد بالماهَيْن ، فأغار عليها ، واستاق مواشيها ، وأحرق زرعها ، وقال :

وما تَرَكَ الـكَذَّابُ مِنْ جُلِّ مَالِنَا ولا المرء من هَمْدَانَ غيرَ شَرِيدِ
أَفِى الْحَقِّ أَنْ يُجْتَاحَ مَالِىَ كُلُّهُ وَتَأْمَنَ عِنْدِى ضَيْعَةُ ابْنِ سَعِيدِ ؟

ثم اختار من أبطال أصحابه مائة فارس ، فيهم مُحشَّر التميمى ، ودَلْهَم بن زياد المُرادىّ ، وأحْمَرَ طَيِّء ، وخلف بقية أصحابه بالماهَيْن .

وسار نحو الكوفة حتى انتهى إلى جسرها ليـلا ، فأمر بقوّام الجسر ، فـكتِفُوا ، ووَكّل بهم رجلا من أصحابه ، ثم عبر .

---

(١) مدينة على شاطئ الفرات فى طرف بلاد الروم ، وكان بها قلعة ، يسكن فى شق منها الأرمن .

(٢) فى الأصل « كفر تونا » والصحيح ما ذكر ، وهى قرية كبيرة ، من أعمال الجزيرة بالعراق .

(٣) مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة .

(٤) أشهر مدينة بديار بكر ، وقد بناها الروم .

(٥) لفظة رومية ، وهى بلد قديم حصين ، يحيط بأكثره نهر دجلة .

ودخل الكوفة ، فلقيه أبو عَمْرَةَ كَيْسَان ، وهو يَعِسُّ بالكوفة ، فقال: من أنتم؟

قالوا : نحن أصحاب عبد الله بن كامل ، أقبلنا إلى الأمير المختار .

قال : امضوا فى حفظ الله .

فمضوا حتى انتهوا إلى السجن ، فكسروه ، فأخرج كل من فيه ، وحمل أم سلمة على فرس ، ووكّل بها أربعين رجلا ، وقدّمها ، ثم مضى .

وبلغ الخبر المختار ، فأرسل راشدا مولى بجيلة فى ثلاثة آلاف رجل ، وعطف عليهم أبو عمرة من ناحية بجيلة فى ألف رجل .

وخرج عليهم عبد الله بن كامل من ناحية النَّخَع فى ألف رجل ، فأحاطوا بهم .

فلم يزل عُبَيْد الله يكشفهم ، ويسير والحجارة تأخذه [هو] وأصحابه من سطوح الكوفة حتى عبر الجسر ، وقد قَتَلَ من أصحاب المختار مائة رجل ، ولم يُقتَل من أصحابه إلا أربعة نفر .

وسار عُبَيْد الله حتى انتهى إلى « بَانِقْيا »[1] فنزلوا ، وداووا جروحهم ، وعَلَفوا دوابّهم، وسقوها ، ثم ركبوا ، فلم يحلّوا عُقَدَها حتى انتهوا إلى « سُورَا »[2] فأراحوا بها ، ثم ساروا حتى أتوا المدائن ، ثم لحق بأصحابه بالماهَيْن .

ولما تجرّد المختار لطلب قَتَلَة الحسين هرب منه عمر بن سعد ومحمد بن الأشعث ، وهما كانا المُتَوَلِّيَيْن للحرب يوم الحسين ، وأُتِىَ بعبد الرحمن بن إبزى الخزاعىّ ، وكان ممن حضر قتال الحسين ، فقال له :

ـ يا عدوّ الله ، أكنتَ ممن قاتَلَ الحسين ؟

قال : لا ، بل كنت ممن حضر ، ولم يُقاتِل .

قال : كذبت ، اضربوا عنقه .

فقال عبد الرحمن : ما يمكنك قتلى اليوم حتى تُعطى الظفر على بنى أميّة ،

---

(١) ناحية من نواحى الكوفة ، كانت على شاطىء الفرات .

(٢) مدينة تحت الحلة ، لها نهر ينسب إليها .

ويَصْفُو لك الشام ، وتهدم مدينة دمشق حَجَرًا حَجَرًا ، فتأخذنى عند ذلك ، فتصلبنى على شجرة بشاطىء نهر ، كأنى أنظر إليها الساعة .

فالتفت المختار إلى أصحابه [وقال] : أما إن هذا الرجل عالم بالملاحم . ثم أمر به إلى السجن .

فلما جَنَّ عليه الليل بعث إليه مَنْ أتاه به ، فقال له :

ـ يا أخا خزاعة ، أظَرْفًا عند الموت ؟

فقال عبد الرحمن بن إبزى : أنشدك الله أيها الأمير أن أموت ها هنا ضَيْعَة .

قال : فما جاء بك من الشام ؟

قال : بأربعة آلاف درهم لى على رجل من أهل الكوفة ، أتيته مُتَقَاضِياً .

فأمر له المختار بأربعة آلاف درهم ، وقال له : إن أصبحتَ بالكوفة قتلتك . فخرج من ليلته حتى لحق بالشام .

* * *

ومكث المختار بذلك يطلب قَتَلَةَ الحسين ، وتُجْبَى إليه الأموال من السَّواد ، والجَبَل ، وأصبهان ، والرَّىّ ، وأذَرْبيجان ، والجزيرة ثمانية عشر شهرا ؛ وقَرَّبَ أبناء العجم ، وفَرَضَ لهم ولأولادهم الأعطيات ، وقَرَّبَ مجالسهم ، وباعَدَ العرب وأقصاهم ، وحرمهم . فغضبوا من ذلك .

واجتمع أشرافهم فدخلوا عليه ، فَعَاتَبُوهُ ، فقال : لا يُبعد الله غيركم ، أكرمتُكم فشمختم بآنافكم ، ووليتُكم فكسرتم الخراج ، وهؤلاء العجم أطوع لى منكم ، وأوفَى ، وأسرع إلى ما أريد .

قالوا : فدنت العرب ، بعضها إلى بعض ، وقالوا : هذا كَذَّاب ، يزعم أنه يُوَالى بنى هاشم ، وإنما هو طالب دُنْيا .

فاجتمعت القبائل على مُحاربته ، وصاروا فى ثلاثة أمكنة ، وولّوا أمرهم رُفاعة ابن سَوَّار ، فاجتمعت كِنْدَة ، والأزْد ، وبُجَيْلَة ، والنَّخَع ، وخَثْعَم ، وقَيْس ،

وتَيْمُ الرَّباب فى جَبَّانَة مُراد[١] ، واجتمعت ربيعة وتميم ، فصاروا فى جَبَّانة الحَشَّاشين[٢] .

وأرسل المختار إلى همدان ـ وكانوا خاصّته ـ واجتمع إليه أبناء العجم .

فقال لهم : ألَا تَرَوْنَ ما يصنع هؤلاء ؟

قالوا : بلى .

قال : فإنهم لم يفعلوا ذلك إلّا لتقديمى إيّاكم ، فكونوا أحرارا كراما .

فحرّضهم بذلك ، وأخرجهم إلى ظَهْر الكوفة ، فأحصاهم ، فبلغوا أربعين ألف رجل .

وأن شمر بن ذي الجَوْشَن ، وعمر بن سعد ، ومحمد بن الأشعث ، وأخاه قَيْس بن الأشعث قدموا الكوفة عند ما بلغهم خروج الناس على المختار وخَلْعهم طاعته ، وكانوا هُرّابا من المختار طول سلطانه ، لأنهم كانوا الرؤساء فى قتال الحسين ، فصاروا مع أهل الكوفة ، وتولّوا أمر الناس .

وتأهّب الفريقان للحرب ، واجتمع أهل الكوفة جميعاً فى جَبَّانة الحَشَّاشين ، وزَحَفَ المختار نحوهم ، فاقتتلوا ، فقتل بينهم بَشَرٌ كثير ، فنادى المختار : يا معشر ربيعة ، ألم تُبايعونى ؟ فَلِمَ خرجتم علىَّ ؟

قالت ربيعة : قد صَدَقَ المختار ، فقد بايَعْنَاهُ وأعطيناه صَفْقَةَ أيمانِنا ؛ فاعتزَلوا ، وقالوا : لا نكون على واحد من الفريقين . وثَبَتَ سائر القبائل ، فقاتلوا .

وأن أهل الكوفة انهزموا ، وقد قتل منهم نحو خمسمائة رجل ، وأسر منهم

---

(١) محلة بالكوفة ، وأهل الكوفة يسمون المقبرة جبانة .

(٢) يطلق لفظ الحشاشين على فريق من طائفة الإسماعيلية الذين كانوا يحتلون الحصون الجبلية فى الشام وفى غيرها من ربوع المسلمين ، ولا يميزهم عن سائر الإسماعيلية مبدأ خاص بقدر ما يميزهم تحول نظامهم السياسى إلى جماعة سرية يطيع أفرادها أئمتهم طاعة عمياء ، وقد اتخذوا القتل وسيلة التخلص من أعدائهم . (دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ، ص ٤٣٤).

مائتا رجل ، فهرب أشراف الكوفة ، فلحقوا بالبصرة ، وبها مُصْعَب بن الزبير ، فانضموا إليه .

* * *

وبلغ المختار أن شَبَث بن رِبْعِيّ ، وعمرو بن الحجاج ، ومحمد بن الأشعث مع عمر بن سعد قد أخذوا طريق البصرة فى أناس معهم من أشراف أهل الكوفة ، فأرسل فى طلبهم رجلًا من خاصّته يسمّى « أبا القَلُوص الشبامىّ » فى جريدة خيل ، فلحقهم بناحية المَذَار ، فوَاقَعُوهُ ، وقاتلوه ساعة ، ثم انهزموا ، ووقع فى يده عمر بن سعد ونجا الباقون .

فأتى به المختار ، فقال : الحمد لله الذى أمكنَ منك ، والله لأشْفِيَنّ قلوب آل محمد بسفك دمك ، يا كَيْسان ، اضرب عنقه .

فضربَ عنقه .

وأخذ رأسه ، فبعث به إلى المدينة ، إلى محمد بن الحَنَفِيّة .

وقال أعشى همدان ، وكان من أهل الكوفة :

وَلَمْ أَنْسَ هَمْدَانًا غَـدَاةَ تَجُوسُنَا ... بِأَسْيَافِهَا، لَا أُسْقِيَتْ صَوْبَ حَاصِبِ[1]
فَقَتَّلَ مِنْ أَشْرَافِنَا فِي مَحَالِّهِمْ ... عَصَائِبُ مِنْهُمْ أُرْدِفَتْ بِعَصَائِبِ
فَكَمْ مِنْ كَمِيٍّ قَدْ أَبَارَتْ سُيُوفُهُمْ ... إِلَى اللهِ أَشْكُو رُزْءَ تِلْكَ الْمَصَائِبِ
يُقَتِّلُنَا الْمُخْتَارُ فِي كُلِّ غَائِطٍ ... فَيَا لَكَ دَهْرٌ مُرْصَدٌ بِالْمَجَائِبِ

وبلغ المختار أن شمر بن ذى الجوشن مقيم [بدَسْتُميسان][2] فى أناس من بنى عامر بن صَعْصَعَة ، يكرهون دخول البصرة لشماتة أهل البصرة بهم ، فأرسل المختار إليهم زِرْبِيًا ، مولى بَجِيلة ، فى مائة فارس على الخيل العِتاق[3] ، فسار بهم بالحث

---

(١) الحاصب : المطرة .

(٢) فى الأصل : دست ميسان ، وهى كورة بين واسط البصرة والأهواز ، وقيل إنها الأبلة ، فتكون البصرة منها .

(٣) نجائب الخيل .

الشديد ، فقطع أصحابه عنه إلا عشرة فوارس ، فلحقهم وقد استمدوا له ، فطعنه شمر ، فقتله ، وانهزم أصحابه العشرة حتى لحق بهم الباقون ، فطلبوا شمرا وأصحابه ، فلم يلحقوهم .

ومضى شمر حتى نزل قريبا من البصرة بمكان يدعى « سادَماه » فأقام به .

وأن قيس بن الأشعث أنف من أن يأتى البصرة فيشمت به أهلها ، فانصرف إلى الكوفة مستجيرا بعبد الله بن كامل ، وكان من أخص الناس عند المختار .

فأقبل عبد الله إلى المختار ، فقال : أيها الأمير ، إن قيس بن الأشعث قد استجار بى وأجرتُه ، فأنفذ جوارى إياه .

فسكت عنه المختار مَلِيّا ، وشغله بالحديث ، ثم قال : أرنى خاتمك ، فناوله إياه ، فجعله فى إصبعه طويلا .

ثم دعا أبا عمرة ، فدفع إليه الخاتم ، وقال له سرًّا : انطلق إلى امرأة عبد الله بن كامل ، فقل لها : هذا خاتم بعلك علامة ، لتدخليني إلى قيس بن الأشعث ، فإنى أريد مناظرته فى بعض الأمور التى فيها خلاصه من المختار ؛ فأدخلته إليه .

فانتضى سيفه ، فضرب عنقه ، وأخذ رأسه ، فأتى به المختار ، فألقاه بين يديه .

فقال المختار : هذا بقَطِيفة الحسين .

وذلك أن قيس بن الأشعث أخذ قطيفة كانت للحسين حين قتل ، فكان يسمى « قيس قطيفة » .

فاسترجع عبد الله بن كامل ، وقال للمختار : قتلتَ جارى وضَيْفى وصديقى فى الدهر ؟

قال له المختار : لله أبوك ، اسكت ، أتستحلّ أن تُجِيرَ قَتَلَةَ ابن بنت نبيّك ؟

* * *

ثم إنّ المختار دعا بالأسْرَى الذين أسرهم من أهل الكوفة فى الوَقْعَة التى كانت بينه وبين أهل الكوفة ، فجعل يضرب أعناقهم حتى انتهى إلى سُرَاقَةَ البارِقِيّ ، وكان فيهم ، فقام بين يديه ، وأنشأ يقول :

أَلَا مَنْ مُبْلِغُ الْمُخْتَارِ أَنَّا ... نَزَوْنَا نَزْوَةً كَانَتْ عَلَيْنَا
خَرَجْنَا لَا نَرَى الْإِشْرَاكَ دِيناً ... وَكَانَ خُرُوجُنَا بَطَرًا وَحَيْنَا[1]

ثم قال للمختار : أيها الأمير ، لو أنكم أنتم الذين قاتلتمونا لم تطمعوا فينا .

فقال له المختار : فَمَنْ قاتلكم ؟

قال سُرَاقَة : قاتلنا قوم بيض الوجوه على خيل شُهب .

قال له المختار : تلك الملائكة ، وَيْلَك ، أمّا إذ رأيتهم فقد وَهَبْتُكَ لهم .

ثم خَلَّى سبيله ، فهرب ، فلحق بالبصرة ، وأنشأ يقول :

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا إِسْحَـقَ أَنِّى ... رَأَيْتُ الشُّهْبَ كُمْتًا مُصْمِتَاتِ[2]
أُرِى عَيْنَىَّ مَا لَمْ تَرْأَيَاهُ ... كِلَانَا عَالِمٌ بِالتُّرَّهَاتِ
كَفَرْتُ بِدِينِكُمْ وَبَرِئْتُ مِنْكُمْ ... وَمِنْ قَتْلَاكُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ

وهرب أسماء بن خارجة الفِزَارى ، وكان شيخ أهل الكوفة وسيدهم من المختار خوفا على نفسه ، فنزل على ماء لبنى أسد يسمى ذَرْوَة : فى نفر من مواليه وأهل بيته فأقام به .

وهرب عمرو بن الحجاج ، وكان من رؤساء قتلة الحسين ، يريد البصرة ، فخاف الشماتة فعدل إلى « سَرَافِ » .

فقال له أهل الماء : ارحل عنا ، فإنا لا نأمن المختار ، فارتحل عنهم ، فتلاوموا ، وقالوا : قد أسأنا .

فركبت جماعة منهم فى طلبه ليردّوه ، فلما رآهم من بعيد ظن أنهم من أصحاب

---

(١) الحين : الهلاك .

(٢) الكمتة : لون بين السواد والحمرة .

المختار ، فسلك الرَّمل فى مكان يُدْعى « البُيَيْضَة » (١) وذلك فى حَمَارّة القيظ ، وهى فيما بين بلاد كلب وبلاد طيئ ، فَقَالَ (٢) فيها ، فقتله ومن معه العطش .

ولم يزل أسماء مقيما بِذِرْوَةَ (٣) إلى أن قتل المختار، ودخل مصعب بن الزبير الكوفة ، فانصرف أسماء إلى منزله بالكوفة .

ولما تتبع المختار أهل الكوفة جعل عظماؤهم يتسللون هُرّابًا إلى البصرة حتى وافاها منهم مقدار عشرة آلاف رجل ، وفيهم محمد بن الأشعث ، فاجتمعوا ، ودخلوا على مصعب بن الزبير .

فتكلم محمد بن الأشعث ، وقال : أيها الأمير ، ما يمنعك من السير لمحاربة هذا الكذاب الذى قتل خيارنا ، وهدم دورنا ، وفرّق جماعتنا ، وحمل أبناء العجم على رقابنا ، وأباحهم أموالنا ؟ سِرْ إليه ، فإنا جميعا معك ، وكذلك من خلفنا بالكوفة من العرب ، هم أعوانك .

قال مصعب : يا ابن الأشعث ، أنا عارف بكل ما ارتكبكم به ، وليس يمنعنى من المسير إليه إلا غيبة فرسان أهل البصرة وأشرافهم ، فإنهم مع ابن عمك المهلب ابن أبى صُفْرَة فى وجوه الأزارقة بناحية كِرمان ، غير أنى قد رأيت رأيا .

قال : وما رأيت أيها الأمير ؟

قال : رأيت أن أكتب إلى المهلّب، آمره أن يُوادع الأزارقة ، ويُقْبِل إلىّ فيمن معه ، فإذا وَافَى تجهّزنا لمحاربة المختار .

قال ابن الأشعث : نِعْمَ ما رأيت ، فاكتب إليه ، واجعلنى الرسول .

فكتب مُصْعَب بن الزبير إلى المهلّب كتابا، يَذْكُر له ما فيه أهل الكوفة من القتل والحرب ، ويفسّر فيه أمر المختار .

فسار محمد بن الأشعث بكتابه حتى ورد كِرمان ، وأوْصَلَ الكتاب إلى المهلّب ،

---

(١) اسم ماءة فى بادية حلب ، بينها وبين تدمر . (٢) القائلة : نصف النهار .

(٣) أرض ببادية الشام .

وقال له : يا ابن عمّ ، قد بلغك ما لقى أهل الكوفة من المختار ، وقد كتب إليك الأمير مُصْعَب بما قد قرأته .

فكتب المهلّب إلى قَطَرِىّ ، وكان رئيس الأزارقة يومئذ ، يسأله المُوَادَعَة إلى أجَل سمّاه ، ويَكْتُب بينهما كتاباً فى ذلك ، ويَضمَان الحرب إلى ذلك الأجَل .

فأجابه قَطَرِىّ إلى ذلك ، وكَتَبَا بينهما كتاباً وجَعَلَا الأجَل ثمانية عشر شهرا .

وسار المهلّب بمن معه حتى وَافَى البصرة ، فوضع مُصْعَب لأهل البصرة العَطاء وتَهيّأ للمسير .

وبلغ المختار ذلك فَعَقَدَ لأحمر بن سَلِيط فى ستين ألف رجل من أصحابه ، وأمره أن يستقبل القوم ، فيناجزهم الحرب .

فسار أحمر بن سَلِيط فى الجيوش حتى وَافَى المَذَار ، وقد انصرف إليها شِمْر ابن ذى الجَوْشن أَنَفَةً من أن يأتى البصرة هارباً ، فيشمتوا به ، فوجّه أحمر بن سَلِيط إلى المكان الذى كان متحصّناً فيه خمسين فارساً ، وأمامهم نَبَطِى[١] يدلّهم على الطريق ، وذلك فى ليلة مقمرة .

فلما أَحَسّ بهم دعا بفرسه فركبه، وركب مَنْ كان معه ليهربوا ، فأدركهم القوم، فقاتلوهم ، فَقُتِلَ شِمْر وجميع مَنْ كان معه ، واحتزوا رءوسهم ، فأتوا بها أحمر ابن سَلِيط ، فوجّهها إلى المختار ، فوجّه المختار برأس شِمْر إلى محمد بن الحَنَفِيّة بالمدينة .

وسار مُصْعَب بن الزبير بجماعة أهل البصرة نحو المَذَار ، وتخلّفَ عنه المنذر ابن الجارُود ، وهرب منه نحو كِرمان فى جماعة من أهل بيته ، ودعا لعبد الملك ابن مروان .

---

(١) من الأنباط وهم أهل البطائح بين العراقين .

وأقبل مُصْعَب حتى وافَى المَذار[١] ، وأمامه الأحْنَف بن قَيْس فى تميم .

وزحف الفريقان ، بعضهم إلى بعض ، فاقتتلوا ، فانهزم أصحاب المختار ، واستحرّ القتال فيهم ، ومضوا نحو الكوفة ، واتّبعهم مُصْعَب يقتلهم فى جميع طريقه ، فلم يُفْلِت منهم إلا القليل .

فقال أعْشَى همدان فى ذلك :

أَلَمْ يَبْلُغْكَ مَا لَقِيَتْ شِبَامُ[٢] ... وَمَا لَاقَتْ عُرَيْنَةُ بِالْمَذَارِ
أُتِيحَ لَهُمْ بِهَا ضَرْبٌ طِلَخْفٌ ... وَطَعْنٌ بِالْمُثَقَّفَةِ الْحِرَارِ
كَأَنَّ سَحَابَةً صُعِقَتْ عَلَيْهِمْ ... فَعَمَّتْهُمْ هُنَالِكَ بِالدَّمَارِ
وَمَا إِنْ سَاءَنِي مَا كَانَ مِنْهُمْ ... لَدَى الْإِعْسَارِ مِنِّي وَالْيَسَارِ
وَلَكِنِّي فَرِحْتُ وَطَابَ نَوْمِي ... وَقَرَّ لِقَتْلِهِمْ مِنِّي قَرَارِي

وأن مُصْعَبا سار بالجيوش نحو الكوفة ، فعبر دِجْلة ، وخرج إلى أرض كَسْكَرَة ، ثم أخذ على حديثة الفَجّار ، ثم أخذ على النَّجْرانِيّة حتى قارب الكوفة .

[قتل المختار]

وبلغ المختار مقتل أصحابه ، فنادى فى بقيّة مَنْ كان معه من جنوده ، فقوّاهم بالأموال والسّلاح ، وسار بهم من الكوفة مستقبلا لمصعب بن الزبير ، فالتقوا بنهر البصريّين ، فاقتتلوا ، فقُتل من أصحاب المختار مقتلة عظيمة ، وقُتل محمد بن الأشعث ، وقُتل عمر بن علىّ بن أبى طالب ، عليهما السلام .

وذلك أنه قدم من الحجاز على المختار ، فقال له المختار :

ـ هل معك كتاب محمد بن الحَنَفِيّة ؟

---

(١) بلدة فى ميسان بين واسط والبصرة ، بها مشهد عظيم ، به قبر عبد الله بن على بن أبى طالب .   (٢) شبام : حىّ من همدان .

فقال عمر : لا ، ما معى كتابه .

فقال له : انطلق حيث شئت فلا خير لك عندى .

فخرج من عنده ، وسار إلى مُصْعَب ، فاستقبله فى بعض الطريق ، فوصله بمائة ألف درهم ، وأقبل مع مُصْعَب حتى حضر الوقعة ، فقُتِل فيمن قُتِل من الناس .

وانهزم المختار حتى دخل الكوفة ، وتبعه مُصْعَب ، فدخل فى إثره ، وتحصَّنَ المختار فى قصر الإمارة ، فأقبل مُصْعَب حتى أناخ عليه ، وحاصره أربعين يوما .

ثم إن المختار قلق [بالحصار قلقا عظيما ، فقال][١] للسَّائب بن مالك الأشعرىّ ، وكان من خاصته :

ـ أيها الشيخ ، اخرج بنا نُقاتِل على أحسابنا لا على الدِّين .

فاسترجع السَّائب ، وقال : يا أبا إسحٰق ، لقد ظَنَّ الناس أن قيامك بهذا الأمر دَيْنُونة .

فقال المختار : لا ، لعمرى ما كان إلا لطَلَب دُنْيا ، فإنى رأيت عبد الملك ابن مروان قد غَلَبَ على الشام ، وعبد الله بن الزبير على الحجاز ، ومُصْعَبا على البصرة ، ونَجْدَةَ الحَرُورِىّ على العَرُوض[٢] ، وعبد الله بن خازم على خراسان ، ولست بدون واحد منهم ، ولكن ما كنت أقدر على ما أردتُ إلا بالدعاء إلى الطَّلَب بثأر الحسين .

ثم قال :

ـ يا غلام ، علىّ بفرسى وَلأْمَتى .

فأتى بدرعه ، فتَدَرَّعَها ، وركب فرسه .

ثم قال : قَبَّحَ الله العيشَ بعد ما أرَى ، يا بَوَّاب ، افتح .

ففتح له الباب .

---

(١) محو فى الأصل . (٢) العروض : المدينة ومكة واليمن ، وقال ابن الكلبى : بلاد اليمامة والبحرين وماوالاها العروض .

وخرج ومعه حماةُ أصحابه ، فقاتَل القوم قتالاً شديداً ، وانهزم أصحابه ، ومضى هو نحو القصر ، وهو فى حامية أصحابه ، فدخل القصر من أصحابه ستة آلاف رجل ، وبقى مع المختار نحو من ثلاثمائة رجل ، فأخذ أصحاب مُصْعَب عليه باب القصر ، فلجأ المختار فيمن معه إلى حائط القصر ، وأقبل يذمّر أصحابه ، ويحمل .

فلم يزل يقاتل حتى قتل أكثر من كان معه .

فحمل عليه أخوان من بنى حَنيفة من أصحاب المهلّب ، فضرباه بالسيف حتى سقط ، وبادرا إليه ، فاحتزّا رأسه ، فأتيا به مصعبا ، فأعطاهما ثلاثين ألف درهم .

فقال سُوَيد بن أبى كاهل يذكر قتل المختار :

يا لَيْتَ شِعْرِى مَتَى تَغْدُو مُخَيِّسَةٌ(١) مِنَّا فَتُبْلِغُ أَهلَ الْوَسْمِ الْخَبَرا
أَنَّا جَزَرْنَا عن الكَذَّابِ هَامَتَهُ مِنْ بَعْدِ طَعْنٍ وَضَرْبٍ يَكْشِفُ الخُمَرا

ووجه مصعب برأس المختار إلى عبد الله بن الزبير مع عبد الله بن عبد الرحمن .

قال عبد الله : فوافيت مكة بعد العشاء الآخرة ، فأتيت المسجد ، وعبد الله ابن الزبير يصلّى ، قال : فجلست أنتظره ، فلم يزل يصلّى إلى وقت السحَر ، ثم انفتل من صلاته ، فدنوت منه ، فناولتهُ كتاب الفتح ، فقرأه ، وناوله غلامه ، وقال :

ـ أمسكه معك .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا الرأس معى .

قال : فما تريد ؟ .

قلت : جائزتى .

قال : خذ الرأس الذى جئت به بجائزتك .

فتركته ، وانصرفت .

---

(١) جماعة من راكبى الإبل المخيسة وهى التى لم تسرح .

[سلطان عبد الله بن الزبير]

قالوا : ولما قتل المختار ، واستتب الأمر لعبد الله بن الزبير ، أرسل إلى عبد الله ابن عباس ومحمد بن الحنفية: « إما أن تبايعانى أو تخرجا من جوارى » .

فخرجا من مكة ، فنزلا الطائف ، وأقاما هناك .

وتوفى عبد الله بن عباس بالطائف ، وصلى عليه محمد بن الحنفية .

وخرج محمد بن الحنفية حتى أتى أَيْلَةَ[1] ، وكتب إلى عبد الملك بن مروان ، يستأذنه فى القدوم عليه ، والنزول فى جواره ، فكتب إليه : وراءك أوسع لك ، ولا حاجة لى فيك .

فأقام محمد بن الحنفية عامه ذلك بأيلة ، ثم توفى بها .

وقُتل المختار ، وإبراهيم بن الأشتر عامله على كورة الجزيرة ، فكتب إلى مصعب يسأله الأمان ، وكتب إليه يأمره بالقدوم عليه ، فقدم وبايعه ، وفوّض مصعب إليه جميع أمره ، وأظهر برّه وألطافه ، ولم تزل الستة الآلاف[2] الذين دخلوا القصر متحصّنين فيه شهرين ، حتى نفد جميع ما كان المختار أعدّه فيه من الطعام ، فسألوا الأمان ، فأبى مصعب أن يعطيهم الأمان إلا على حكمه .

فأرسلوا إليه : إنّا ننزل على حكمك .

فنزلوا عند مابلغ إليهم الجوع .

فضرب أعناقهم كلها ، وكانوا ستة آلاف : ألفين من العرب ، وأربعة آلاف من العجم .

ودعا مصعب بامرأتَىْ المختار ، أم ثابت ابنة سَمُرة بن جُنْدب ، وعَمْرَة بنت النعمان بن بشير ، فدعاهما إلى البراءة من المختار ، فأما أم ثابت فإنها تبرأت منه ، وأبت عَمْرَة أن تتبرأ منه .

فأمر بها مصعب ، فأُخرجت إلى الجبّانة ، فضربت عنقها .

---

(١) مدينة كانت على ساحل البحر الأحمر مما يلى الشام ، وهى مدينة اليهود الذين اعتدوا فى السبت ، وكان حجاج مصر يجتازونها . (٢) فى الأصل : آلاف .

فقال بعض الشعراء فى ذلك :

إنّ من أعجبِ العجائبِ عِندِى قتــلَ بيضاء حُرّةٍ عُطْبُولِ (١)
قَتَلُوهَا بِغَيْرِ ذَنبٍ سَفَاهًا إنّ لِلّهِ دَرّهَا مِنْ قَتِيلِ
كُتِبَ القتلُ والقِتالُ عَلَينَا وَعَلَى المُحْصَنَاتِ جرُّ الذُّيُولِ

وقال سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت فى ذلك :

أَلَمْ تَعْجَبِ الأقوامُ من قتلِ حُرّةٍ من المُخلِصَاتِ الدّينِ مَحْمُودَةِ الأَدَبْ؟
مِنَ الغَافِلاتِ المُؤْمِنَاتِ بَرِيئَةٍ من الزّورِ وَالبُهْتَانِ وَالشّكّ وَالرّيَبْ
عَلَينَا كِتَابُ اللهُ فى القَتْلِ وَاجِبٌ وَهُنّ الضّعَافُ فِي الحِجَالِ وَفى الحُجُبْ
قُتِلَتْ وَلَمْ أَظْلِمْ ، أَعَمْرُو بنُ مَالِكٍ يُقَتّلُ ظُلْمًا ، لَمْ يُخَالِفْ وَلم يُرِبْ
وَيَسْبِقُنَا آلُ الزبير بِوَتْرِنَا وَنَحنُ حماةُ الناس فى البَارِقِ الأشِبْ (٢)
فإن تُعْقِبِ الأيّامُ منهم نُجَازِهِمْ عَلَى حَنَقٍ بالقتلِ وَالأسْرِ وَالحَنَبْ (٣)

ثم إن مصعب بن الزبير نزل القصر بالكوفة ، واستعمل العمال ، وجبى الخراج ، فولّى البصرة عبيد الله بن معمر التيْمِيّ ، وردّ المهلّبَ إلى قتال الأزارقة .

قالوا : ولما صفا الأمر لعبد الله بن الزبير ودانت له البلدان إلا أرض الشام ، جمع عبد الملك بن مروان إخوته ، وعظماء أهل بيته ، فقال لهم : إن مصعب بن الزبير قد قتل المختار ، ودانت له أرض العراق ، وسائر البلدان ، ولست آمنه أن يغزوكم فى عُقْر بلادكم ، ومامن قوم غُزُوا فى عقر دارهم إلا ذَلّوا ، فما ترون ؟ .

فتكلم بشر بن مروان ، فقال :

يا أمير المؤمنين ، أرى أن تجمع إليك أطرافك ، وتستجيش جنودك ، وتضم إليك قواصيَك ، وتسير إليه ، وتَلُفّ الخيل بالخيل ، والرجالَ بالرجال ، والنصر من عند الله .

(١) المرأة العطبول هى الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق. (٢) البارق : موضع قرب الكوفة ، والأشب : كثير الشجر . (٣) الحنب والتحنيب : اعوجاج فى الضلوع .

فقال القوم : هذا الرأى ، فاعمل به ، فإن بنا قوة ونهوضا .

فوجّه رسله إلى كور الشام ليجتمع إليه ، فاجتمع له جميع أجناد الشام ؛ ثم سار وقد احتشد ، ولم ينزل .

[خضوع العراق لجند الشام]

وبلغ مُصْعَبَ بن الزبير خروجه ، فضمّ إليه أطرافه ، وجَمَعَ إليه قَوَاصِيَه ، واستعد ، ثم خرج لمحاربته ، فتَوَافَى العسكران بدَيْر الحانات ، فقال عَدِيّ بن زيد بن عَدِيّ ، وكان مع عبد الملك :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَصْحَرَتْ خَيْلُنَا ... بِأَكْنَافِ دِجْلَةَ لِلْمُصْعَبِ(1)
يَجُرُّونَ كُلَّ طَوِيلِ الْكُعُو ... بِ مُعْتَدِلِ النَّصْلِ وَالثَّعْلَبِ(2)
بِكُلِّ فَتًى وَاضِحٍ وَجْهُهُ ... كَرِيمِ الضَّرَائِبِ(3) وَالْمَنْصِبِ

ولما نظر أصحاب مُصْعَب إلى كثرة جموع عبد الملك تواكلوا ، وشملهم الرعب ، فقال مصعب لعُرْوَة بن المغيرة ، وهو يُسايره :

ادْنُ يا عُرْوَ أُكَلِّمْكَ .

فدَنَا منه .

فقال : أَخْبِرْنى عن الحسين ، كيف صنع حين نَزَلَ به الأمر ؟

قال عُرْوَة : فجعلت أُحدّثه بحديث الحسين ، وما عرض عليه ابن زياد من النزول على حكمه ، فأبى ذلك ، وصبر للموت .

فضرب مصعب مَعْرَفَة(4) دابّته بالسَّوْط ، ثم قال :

فَإنَّ الْأُلَى بِالطَّفِّ(5) مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... تَآسَوْا فَسَنُّوا لِلْكِرَامِ التَّآسِيَا

وأن عبد الملك كتب إلى رؤساء أصحاب مصعب يستميلهم إليه ، ويعرض عليهم الدخول فى طاعته ، ويبذل لهم على ذلك الأموال .

---

(1) أصحرت الخيل : برزت فى الصحراء ، والأكناف جمع كنف (بفتحتين) وهو الجانب.
(2) المقصود بالثعلب طرف الرمح الداخل فى جبة السنان .
(3) الضرائب : جمع ضريبة ، وهى الطبيعة والسجية ، أو السيف وحده ، كالمضرب .
(4) المعرفة موضع العرف من الفرس . (5) الطف : موضع قرب الكوفة .

وكتب إلى إبراهيم بن الأشتر فيمن كتب .

فأقبل إبراهيم بالكتاب مختوماً فناوله مُصْعَبا ، وقال :

ـ أيها الأمير ، هذا كتاب الفاسق عبد الملك بن مروان .

قال له مُصْعَب : فَهَلّا قرأته .

قال : ما كنت لِأَفُضّه ، ولا أقرأه إلا بعد قراءتك له .

فَفَضّه مُصْعَب ؛ وإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى إبراهيم ابن الأشتر ؛ أمّا بعد ، فإني أعلم أن تَركك الدخول فى طاعتى ليس إلا عن مَعْتَبة ، فلكَ الفُرَاتُ وما سَقَى ، فانحز إلىّ فيمن أطاعك من قومك، والسلام » .

فقال مصعب : فما يمنعك يا ابن النعمان ؟

قال : لو جُعِلَ لى ما بين المشرق إلى المغرب ما أعَنْتُ بنى أُمَيّة على ولد صَفِيّة .

فقال مصعب : جُزِيت خيراً أبا النعمان .

فقال إبراهيم لمصعب : أيها الأمير ، لست أشُكّ أن عبد الملك قد كتب إلى عظماء أصحابك بنحوِ مما كتب إلىّ ، وأنهم قد مالُوا إليه ، فَائْذَنْ لى فى حبسهم إلى فَرَاغك ، فإن ظفرت مَنَنْتَ بهم على عشائرهم ، وإن تكن الأخرى كنتَ قد أخَذْتَ بالحَزْم .

قال مصعب : إذَنْ يَحتجّوا علىّ عند أمير المؤمنين .

فقال إبراهيم : أيها الأمير ، لا أميرَ المؤمنين والله لك اليوم ، وما هو إلا الموتُ ، فَمُتْ كريماً .

فقال مصعب : يا أبا النعمان ، إنما هو أنا وأنت نَتَقدّم للموت .

قال إبراهيم : إذَنْ ، والله أفعل .

قال : ولما نزلوا بدَيْر الجاثليق[1] باتُوا ليلتهم .

---

(١) الجاثليق رئيس النصارى فى بلاد الإسلام بمدينة السلام، ويكون تحت يده بطريق أنطاكية، ثم المطران تحت يده ، ثم الأسقف يكون فى كل بلد من تحت المطران، ثم القسيس، ثم الشماس .

فلما أصبحوا نظر إبراهيم بن الأشتر ، فإذا القوم الذين اتهمهم قد ساروا تلك الليلة ، فلحقوا بعبد الملك بن مروان ، فقال لمصعب :

ـ كيف رأيت رأيي ؟ .

ثم زحف بعضهم إلى بعض ، فاقتتلوا، فاعتزلت ربيعة ، وكانوا في ميمنة مصعب ، وقالوا لمصعب : لا نكون معك ولا عليك .

وثَبَتَ مع مصعب أهلُ الحِفاظ ، فقاتلوا ، وأمامهم إبراهيم بن الأشتر ، فقُتِل إبراهيم .

فلما رأى مصعب ذلك ، استمات ، فَتَرَجَّلَ ، وتَرَجَّلَ معه حُماة أصحابه ، فقاتلوا حتى قُتِل عامّتهم ، وانكشف الباقون عن مصعب .

فحَمَل عليه عبد الله بن ظَبْيَان ، فضربه من ورائه بالسيف ، ولا يشعر به مصعب ، فخرّ صريعا ، فنزل وأجْهزَ عليه ، واحْتَزّ رأسه .

فأتى به عبد الملك ، فحزن عليه حُزْنًا شديداً ، وقال : متى تَغْذُو قريش مثل مصعب ؟ وددت لو أنه قبل الصُّلح ، وأنِّي قاسَمْته مالي .

ولما قُتِل مصعب بن الزبير اسْتَأْمَنَ مَنْ بقي من أصحابه إلى عبد الملك ، فآمَنَهُم .

فقال عبد الله بن قَيْس الرُّقَيَّات :

لَقَدْ وَرَدَ الْمِصْرَيْنِ خِزْيٌ وَذِلَّةٌ　　قَتِيلٌ بِدَيْرِ الْجَاثَلِيقِ مُقِيمُ
فَمَا صَبَرَتْ فِي الْحَرْبِ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ　　وَلَا ثَبَتَتْ عِنْدَ اللِّقَاءِ تَمِيمُ
وَلَكِنَّهُ ضَاعَ الذِّمَارُ فَلَمْ يَكُنْ　　بِهَا عَرَبِيٌّ عِنْدَ ذَاكَ كَرِيمُ

وكان قتل مصعب يوم الخميس للنصف من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين[1] .

فارتحل عبد الملك بالناس حتى دخل الكوفة ، فدعاهم إلى البيعة ، فبايعوه .

ثم جَهّزَ الجيوش إلى تِهامة لمحاربة عبد الله بن الزبير ، وولّى الحرب قُدَامة ابن مَظْعُون ، وأمره بالسير .

وانصرف عبد الملك إلى الشام .

---

(١) سنة ٦٩١م .

[مقتل عبد الله بن الزبير]

ثم وجّه الحجاجَ بن يوسف لمحاربة عبد الله بن الزبير ، وعزل قُدامة بن مَظْعون ، فسار الحجاج حتى نزل الطائف ، وأقام شهرا .

ثم كتب إلى عبد الملك : « إنك يا أمير المؤمنين متى تدَع ابن الزبير يُعمِل فكره ، ويستجيش ويجمع أنصاره ، وتثوب إليه فُلّالُه كان فى ذلك قوة له ، فائذن فى معاجلته لى » .

فأذن له .

فقال الحجاج لأصحابه : تجهزوا للحج .

وكان ذلك فى أيام الموسم .

ثم سار من الطائف حتى دخل مكة ، ونصب المنجنيق على أبى قُبَيس (١) .

فقال الأُقَيْشِر الأسدى :

لَمْ أَرَ جَيْشًا غُرَّ بِالْحَجِّ مِثْلَنَا ... وَلَمْ أَرَ جَيْشًا مِثْلَنَا غَيْرَ مَا خُرْسِ
دَلَفْنَا لِبَيْتِ اللهِ نَرْمِى سُتُورَهُ ... بِأَحْجَارِنَا زَفْنَ الْوَلَائِدِ فِى الْعُرْسِ (٢)
دَلَفْنَا لَهُ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ مِنْ مِنًى ... بِجَيْشٍ كَصَدْرِ الْفِيلِ لَيْسَ بِذِى رَأْسِ
فَإِلَّا تُرِحْنَا مِنْ ثَقِيفٍ وَمُلْكِهَا ... نُصَلِّ لِأَيَّامِ السَّبَاسِبِ وَالنَّحْسِ (٣)

فطلبه الحجاج ، فهرب ، وأناخ الحجاج بابن الزبير .

وتحصن منه ابن الزبير فى المسجد .

واستعمل الحجاج على المنجنيق ابن خُزيمة الخثعمى ، فجعل يرمى أهل المسجد ويقول :

خَطَّارَةٌ مِثْــلُ الْفَنِيقِ الْمُزْبِدِ ... نَرْمِى بِهَا عُوَّاذَ أَهْلِ الْمَسْجِدِ (٤)

---

(١) أبو قبيس جبل بمكة سمى باسم رجل من مذحج حدّاد ، لأنه أول من بنى فيه .

(٢) وزفن كضرب : رقص . (٣) السباسب هى أيام السعانين ، والسعانين ، أو الشعانين : عيد للنصارى قبل عيد الفصح بأسبوع ، يخرجون فيه بصلبانهم .

(٤) الخطارة : المقلاع والمنجنيق ، والفنيق الفحل المكرم .

فلما اشتد على ابن الزبير وأصحابه الحصار ، خرجت بنو سَهْم من بابهم ، فقال ابن الزبير :

فَرَّتْ سَلَامَانُ ، وَفَرَّتِ النَّمِرْ   وَقَدْ نَكُونُ مَعَهُمْ فَلَا نَفِرْ

وجعل أهل الشام يدخلون عليه المسجد ، فيشد عليهم، فيخرجهم من المسجد حتى رُمى بحجر ، فأصاب جبهته ،فسقط لوجهه ، ثم تحامل ، فقام ، وهو يقول :

فَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُومُنَا   وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَا

ثم قال لأصحابه : « اخرجوا إلى مَن بالباب ، واحملوا ، ولا يُلهينَّكم طلبي ، والسؤال عني ، فإني في الرَّعِيل الأوَّل » .

فخرج، وخرجوا معه ، فقاتل قتالا شديدا حتى قُتل عامّة من كانوا معه، وأحدقوا به من كل جانب ، فضربوه بأسيافهم حتى قتلوه .

فأمر به الحجاج ، فصُلِب .

فمرّ به عبد الله بن عمر ، فقال :

«رحمك الله أبا بكر ، أما والله لقد كنت صوّاما قوّاما ، غير أنك رفعت الدنيا فوق قدرها ، وليست لذلك بأهل ، وإن أمّة أنت شرُّها لأمّة صدق » .

وكان مقتل ابن الزبير يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة ، سنة ثلاث وسبعين[١] .

***

ولما قتل عبد الله بن الزبير خرج أخوه عُروة بن الزبير هاربا من الحجاج حتى أتى الشام ، فاستجار بعبد الملك بن مروان ، فأجاره ، وأظهر إكرامه ، وأقام عنده .

فكتب الحجاج إلى عبد الملك بأن أموال عبد الله بن الزبير عند أخيه عروة ، فرده إلىّ لأستخرجها منه .

فقال عبد الملك لبعض أحراسه :

ــ انطلق بعُرْوَة إلى الحجّاج .

---

(١) سنة ٦٩٢م .

فقال عُرْوَة :

ـ يا بنى مروان ، ما ذَلَّ مَنْ قتلتموه ، بل ذلَّ مَنْ ملكتموه .

فتذمَّم عبد الملك ، وخلّى سبيل عُرْوَة .

وكتب إلى الحجّاج : « ألهُ عن عُرْوَة ، فلن أسلِّطك عليه » .

فأقام الحجّاج بمكة حتى أقام للناس الحج .

وأمر بالكعبة فنُقِضَتْ ، وأعاد بناءها ؛ وهو هذا البناء القائم اليوم .

وفى ذلك العام توفى عبد الله بن عمر ، وله أربع وسبعون سنة ، فدُفِنَ « بذِي طُوَى »[1] فى مقبرة المهاجرين .

وكان يكنى « أبا عبد الرحمن » .

وفيها مات أبو سعيد الخُدْرِيّ ، واسمه سعد بن مالك .

وفيها مات رافع بن خُدَيْج ، وله ست وثمانون سنة ، وكان يكنى « أبا عبدالله » .

[سك النقود العربية]

قالوا : وأمر عبد الملك بضرب الدراهم سنة ست وسبعين ، ثم أمر بعد ذلك بضرب الدنانير ، وهو أوّل من ضرَبَها فى الإسلام .

وإنما كانت الدراهم والدنانير قبل ذلك مما ضربت العجم .

وفى تلك السنة مات جابر بن عبد الله ، وله سبع وتسعون سنة .

[ابن الأشعث وفتنته]

ثم خرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قَيْس على الحجّاج .

وكان سبب خروجه أنه دخل على الحجّاج يوماً ، فقال له الحجّاج :

ـ إنّكَ لَمَنْظَرَانِيّ .

قال عبد الرحمن : أى والله ، ومَخْبَرَانِيّ .

وقام عبد الرحمن ، فخرج .

---

(١) ذو طوى ، مثلث الطاء موضع قرب مكة .

فقال الحجّاج لمن كان عنده :

ـ ما نظرت إلى هذا قطّ ، إلا اشتهيت أن أضرب عنقه .

وكان عامر الشّعبيّ حاضرًا .

وإن عبد الرحمن لما خرج قعد بالباب حتى خرج الشّعبيّ ، فقام عبدالرحمن إليه .

فقال له : هل ذَكَرَنِي الأمير بعد خروجي من عنده بشيء ؟

فقال الشّعبيّ : أعطني عهداً وثيقاً ألّا يسمعه منك أحد .

فأعطاه ذلك .

فأخبره بما كان الحجّاج قال فيه .

فقال عبد الرحمن :

ـ والله لأجهدنّ في قطع خيط رقبته .

ثم إنّ عبد الرحمن دَبّ في عُبّاد أهل الكوفة وقُرّائهم ، فقال :

« أيها الناس ، ألا ترون هذا الجبّار ـ يعني الحجّاج ـ وما يصنع بالناس ؟ ألا تغضبون لله ؟ ألا ترون أنّ السُّنّة قد أُمِيتَتْ ، والأحكام قد عُطِّلَتْ ، والمنكر قد أعلن ، والقتل قد فَشَا ؟ اغضبوا لله ، واخرجوا معي ، فما يحلّ لكم السُّكوت » .

فلم يزل يَدِبّ في الناس بهذا وشبهه حتى استجاب له القرّاء والعبّاد ، ووَاعَدَهم يوما يخرجون فيه .

فخرجوا على بَكْرَةِ أبيهم ، واتّبعهم الناس ، فساروا حتى نزلوا الأهواز ، ثم كتبوا إلى الحجّاج :

خَلَعَ المـلوكَ وَسَارَ تَحْتَ لِوَائِهِ   شَجَرُ الْعُرَى وَعُرَاعِرُ الْأَقْوَامِ(١)

فأرسل الحجّاج كتابه إلى عبد الملك بن مروان .

فكتب عبد الملك في جوابه :

وَإِنِّي وَإِيَّاهُمْ كَمَنْ نَبَّـهَ القطَا   وَلَوْ لَمْ يُنَبِّهه بَاتَتِ الطَّيْرُ لَا تَسْرِى(٢)
إِخَالُ صُرُوفَ الدَّهْرِ لِلْحَيْنِ مِنْهُمُ   سَتَحْمِلُهُمْ مِنِّى عَلَى مَرْكَبٍ وَعْرِ

(١) جمع عرور بضم الأول والثاني وهو الأجرب .   (٢) القطا : طائر ومفرده قطاة .

قالوا : وأُهْدِيَتْ لعبد الملك فى ذلك اليوم جارية إفريقيّة ، أهداها إليه موسى ابن نُصَيْر ، عامله على أرض المغرب ، وكانت من أجمل نساء دهرها ، فباتَتْ عنده تلك الليلة ، فلم ينل منها شيئا أكثر من أن غَمَزَ كفها ، وقال لها : إنّ دُونَكِ أُمْنِيَةَ المُتَمَنِّى .

قالت : فما يمنعك ؟

قال : يمنعني بيتٌ مُدِحْنا به ، وهو :

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَآزِرَهُمْ دُونَ النِّسَاءِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارِ

فزعموا أنه مكث سبعة أشهر لا يَقْرَبُ امرأة حتى أتاه قتلُ عبد الرحمن بن محمد .

ثم إنّ الحجّاج بعث أيوب بن القِرِّيّة إلى عبد الرحمن بن محمد ، وقال : انطلق ، فادْفَعْه إلى الطّاعة ، وله الأمان على ما سَلَفَ من ذَنْبه .

فانطلق إليه ابن القِرِّيّة ، فدعاه ، فأبلغ فى الدعاء ، فقال له عبد الرحمن :

ـ ويحك يا ابن القرية ، أيحِلُّ لك طاعته مع ارتكابه العظائم ، واستحلاله المحارم ؟ اتق الله يا ابن القرية ، ووَالِ عباد الله فى البَرِيّة .

ولم يزل عبد الرحمن بابن القرية يختَدِعه حتى ترك ما أرسل فيه ، وأقام مع عبد الرحمن ، فقال له عبد الرحمن :

ـ إنى أريد أن أكتب إلى الحجاج كتابا مُسَجَّعاً ، أعرّفه فيه سوء فعاله ، وأبصّره قُبح سريرته ، فامْلِه علىّ .

فقال أيوب : إن الحجاج يعرف ألفاظى .

قال : وماعليك ، إنى لأرجو أن نقتله من قريب .

فأمْلَى عليه ، فكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الرحمن بن محمد ، إلى الحجاج بن يوسف ، سلام على أهل طاعة الله، الذين يحكمون بما أنزل الله ، ولا يسفكون دما حراما ، ولا يُعطّلون لله أحكاما ، فإنى أحمد الله الذى بعثنى لمنازلتك ، وقوّانى على محاربتك

حين تهتكت ستورك ، وتحيرت أمورك ، فأصبحت حيران تائها ، لهفان لاتعرف حقا ، ولا تلائم صدقا ، ولا ترتق فتقا ، ولا تفتق رتقا ، وطالما تطاولت فيما تناولت ، فصرت فى الغى مذبذبا ؛ وعلى الشرارة مركبا ، فتدبر أمرك ، وقس شبرك بفترك[١] ، فإنك مراق عراق[٢] ، ومعك عصابة فساق ، جملوك مثالهم ، كذوهم نعالهم ، فاستعد للأبطال بالسيوف والعوال[٣] ، فستذوق وبال أمرك ، ويرجع عليك غيك ، والسلام » .

فلما قرأ الحجاج الكتاب عرف ألفاظ ابن القرية ، وعلم أنه من إملائه .

فكتب إلى عبد الرحمن فى جوابه .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحجاج بن يوسف بن عبد الرحمن بن الأشعث ، سلام على أهل التورع لا التبدع ، فإنى أحمد الله الذى حيرك بعد البصيرة ، فمرقت عن الطاعة ، وخرجت عن الجماعة ، فسكرت فى الكفر ، وذهلت عن الشكر ، فلا تحمد الله فى سرّاه ، ولا تصبر لأمره فى ضرّاه ؛ قد أتانى كتابك بلفظات فاجر ، فاسق غادر ، وسيمكن الله منه ، ويهتك ستوره ؛ أما بعد فهلم إلى فعل وفعال ، ومعانقة الأبطال بالبيض والعوال ، فإن ذلك أحرى بك من قيل وقال ، والسلام على من اتبع الهدى ، وخشى الله ، واتقى » .

وإن عبد الملك وجه إلى الحجاج عشرة آلاف رجل من فرسان أهل الشام لمحاربة عبد الرحمن بن محمد .

فلما قدموا عليه تجهز ، وسار نحو عبد الرحمن ، فالتقوا بالأهواز ، فاقتتلوا ، فانهزم عبد الرحمن ، ومضى على وجهه ، فمر على رجل من أصحابه مسلوب حاف ، يمشى ويعثر .

---

(٢) الشبر : ما بين أعلى الإبهام وأعلى الخنصر ، والفتر بالكسر مابين طرف الابهام وطرف المشيرة .

(٢) المرق : إكثار مرقة القدر والعرق العظم بلحمه .

(٣) الرماح .

فأنشأ عبد الرحمن يقول :

مُنْخَرِقُ الخُفَّيْنِ يَشْكُو الوَجَى   تَنْكُبُهُ أَطْرَافُ مَرْوٍ حِدادِ (١)
أَخْرَجَه الخِذْلانُ عَنْ أَرْضِهِ   كَذَلِكَ مَنْ يَكْرَهُ حَرَّ الجِلادِ
إنْ كَانَ فى الْمَوْتِ لَهُ رَاحَةٌ   فَالْمَوْتُ حَتْمٌ فى رِقَابِ العِبادِ

فقال الرجل :

ـ فَهَلّا ثبتَّ ، فنقاتل معك .

فقال له عبد الرحمن :

ـ أَوَ بِمِثْلِكَ تسدّ الثغور ؟ ! .

ومضى عبد الرحمن حتى استجار بملك الأتراك ، فأقام عنده .

فكتب عبد الملك إلى ملك الأتراك ، يُخبره بشقاق عبد الرحمن ، وخَلْعه الطاعة ، وخروجه عليه ، ويسأله أن يردّه عليه .

فقال ملك الأتراك لطَرَاخِنَتِه (٢) :

ـ إنّ ابن الأشعث هذا رجل مخالف للملوك ، فلا ينبغى لى أن آوِيَهُ ، بل أبْعَث به إلى ملكه ، فيَتَوَلّى من أمره ما أحَبّ .

فوجّه به مع مائة رجل من ثِقَاتِه ، فأنزلوه فى طريقه قصرًا فى قرية ، فرَقِىَ إلى ظَهْر القصر ، ورمى بنفسه من السُّور ، فمات .

وإن أيوب بن القِرِّيّة أُسِرَ فيمن أُسِر من أصحاب عبد الرحمن ، فأُدخل به على الحجّاج .

فلما أُدْخِل عليه ، قال له :

ـ يا عدوّ الله ، بعثتك رسولاً إلى عبد الرحمن ، فتركتَ ما بُعِثْتَ له ، وصِرْتَ وزيرًا ومُشيرًا ، تصدر له الكتب ، وتَسْجَعُ له الكلام ، وتُدَبِّر له الأمور .

---

(١) الوجى : الحفا ، أو أشد منه ، ونكب : جرح ، والمرو : حجارة بيض تورى النار .
(٢) جمع طرخان بالفتح وهو اسم للرئيس الشريف .

فقال ابن القِرِّيَّة :

أَصْلَحَ اللهُ الأميرَ، كان شيطانًا في مَسْكِ إنسان، استَمَالني بسحره، وخَلَبني بلفظه، فكان اللسان ينطق بغير ما في القلب.

قال الحجّاج :

كَذَبْتَ يا ابن اللَّخْناء[1]، بل كان قلبك مُنافِقًا، ولسانك مُدَاهِنًا، فكَتَمْتَ أمرًا أَظْهَرَه الله، وأَطَعْتَ فاسقًا خَذَلَه الله، فما بقي من نعتك ؟

قال ابن القِرِّيَّة : ذهني جديد، وجوابي عَتِيد.

قال : كيف علمك بالأرض ؟

قال : لِيَسْأَلْنِي الأمير عما أَحَبَّ.

قال : أَخْبِرْني عن الهِنْد.

قال : بحرها دُرّ، وجبلها ياقُوت، وشجرها عِطْر.

قال : فأَخْبِرْني عن مُكْرَان.

قال : ماؤها وَشَل[2]، وتمرها دَقَل[3]، وسَهْلها جبل، ولِصُّها بَطَل، إن كثر الجيش بها جاعُوا، وإن قَلُّوا ضاعوا.

قال : فخراسان.

قال : ماؤها جامد، وعدوّها جاهد؛ بأسُهم شديد، وشرّهم عَتِيد، وخَيْرهم بعيد.

قال : فاليمن.

قال : أرض العرب، ومَعدِن الذهب.

قال : فعُمان.

قال : حَرّها شديد، وصيدها موجود، وأهلها عَبِيد.

---

(١) اللخن محركة : قبح ريح الفرج، والمرأة اللخناء التي لم تختن.

(٢) الوشل محركة: الماء القليل.

(٣) الدقل : أردأ التمر.

قال : فالبَحْرَيْن .

قال : كُنَاسَة[1] بين مِصْرَين ؛ وجَنَّة بين بَحْرَين .

قال : فمكّة .

قال : قوم ذَوُو جَفاء ، ومن سَجِيّتهم الوَفاء .

قال : فالمدينة .

قال : ذَوُو لُطْف وبِرّ ، وخير وشرّ .

قال : فالبصرة .

قال : حرّها فادح ، وماؤها مالح ، وفيضها سائغ .

قال : فالكوفة .

قال : جَنّة بين حَماة وكَنّة[2] ، العراق تحشُد لها ، والشام يُدرّ عليها ، سَفَلَتْ عن بَرْد الشام ، وارتفعت عن حَرّ الحجاز .

قال : فالشام .

قال : تلك عَرُوس بين نِسْوَة جلوس ، تُجْلَب إليها الأموال ، وفيها الضّراغمة الأبطال .

قال له الحجّاج : ثَكِلَتْكَ أمّك ، أنتَ المُصْدِر الكُتُبَ لابن الأشعث ، ألم تعلم أنّي لا أُصاحَب على الشِّقاق ، ولا أُجامَع على النِّفاق ؟

قال ابن القِرِّية : اسْتَبْقِني أيها الأمير .

قال : لماذا ؟

قال : لِنَبْوَةٍ بعد هَفْوَةٍ .

قال الحجّاج : لا ، بل لغَدْرَة بعد نَكْثَة ، يا غلام ، ناوِلْني الحَرْبَة .

وقد أمْسَكَ ابن القِرِّية أربعة رجال فلا يستطيع تحريكا ، وهزّ الحجّاج الحَرْبة ثلاثا .

---

(١) الكُناسة : المرأة الحسناء . (٢) موضعان أولهما بالشام والثاني بفارس .

فقال ابن القِرِّيَة : اسمع منى ثلاث كلمات ، تكن بعدى مَثَلاً .

قال : هات .

قال : لكلّ جَوَادٍ كَبْوَة ، ولكلّ حَليمٍ هَفْوَة ، ولكلّ شُجاعٍ نَبْوَة .

فوضع الحجّاج الحَرْبَة فى تُنْدُوَة ابن القِرِّيَة ، ودفعها حتى خالطت جوفه ، ثم خَضْخَضَها(1) ، وأخرجها ، فاتبعها دم أسود .

فقال الحجّاج :

هكذا تَشْخُبُ أوْدَاجُ الإبل .

وفَحَصَ ابن القِرِّيَة برجليه وشَخَص ببصره ، وجعل الحجّاج ينظر إليه حتى قضى .

فحُمِل فى النِّطْع(2) .

فقال الحجّاج :

لله دَرّك يا ابن القِرِّيَة ، أىّ أدبٍ فقدنا منك ، وأىّ كلام رَصِين سمعنا منك .

* * *

ودخل بعد ذلك أنس بن مالك .

فقال له الحجّاج :

هِيهِ يا أنَسُ ، يوماً مع المختار ، ويوماً مع ابن الأشعث ، جوّال فى الفِتَن ، والله لقد هممتُ أن أطحنك طَحْنَ الرَّحَى بالثِّفَال(3) ، وأجعلك غَرَضاً للنبال .

قال أنس : مَنْ يَعْنِى الأمير ؟ أصلحه الله .

قال : إيَّاكَ أعنى ، أَسَكَّ اللهُ سَمْعَك .

فانصرف أنس إلى منزله ، وكتب من ساعته إلى عبد الملك بن مروان :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من أنس بن مالك ؛

---

(1) الخضخضة : تحريك الماء . (2) النطع : بساط من الأديم .

(3) الثفال ككتاب الحجر الأسفل من الرحى .

أمّا بعد ، فإن الحجّاج قال لى نُكْرا ، وأسْمَعَنى هُجْرا ، ولم أكن لذلك أهْلًا ، فَخُذْ على يَدَيْه ، وأعْدِنى عليه ، والسلام » .

فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضَباً ، ثم كتب إليه .

« هِيهِ يا ابن يوسف ، أردت أن تعلَم رأىَ أمير المؤمنين فى أنس ، فإن سوّغك مَضيتَ قُدُما ، وإن لم يُسوّغك رجعت القَهْقَرَى ، يا ابن المُستفرِمة بعَجَم الزَّبيب[1] ، أنَسِيت مكاسب آبائك بالطائف فى حَفْر الآبار ، وسَدّ السُّكُور[2] ، وحَمْل الصخور على الظهور ؟ أبَلَغ من جُرأتك على أمير المؤمنين أن تمتّت بأنس ابن مالك ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ستّ سنين ، يُطلِعه على سِرّه ، ويفضى إليه الأخبار التى كانت تأتيه عن ربّه ؟ فإذا أتاك كتابى هذا فامشِ إليه على قدميك حتى تأخذ كتابه إلىّ بالرّضى ، والسلام » .

فلما وصل كتاب عبد الملك إلى الحجاج قال لمن حوله من أصحابه : قوموا بنا إلى أبى حمزة . فقام ماشيا .

ومضى معه أصحابه حتى أتى أنَسا ، فأقرأه كتاب عبد الملك إليه .

فقال أنس : جزى الله أمير المؤمنين خيرا ، كذلك كان رجائى فيه .

قال له الحجاج : فإن لك العُتْبى ، وأنا صائر إلى مَسَرّتك ، فاكتب إلى أمير المؤمنين بالرّضى .

فكتب إليه أنس بالرضى عنه .

ودفعه إلى الحجاج ، فأنفذه الحجاج على البريد إلى عبد الملك .

[نهاية عبد الملك بن مروان]

قالوا : ولما حضرت عبد الملك الوفاة ، وذلك فى سنة ست وثمانين أخذ البيعة

---

(١) العجم كل ما كان فى جوف مأكول كالزبيب ، واستفرمت المرأة بعجم الزبيب يعنى أنها عالجت به فرجها ليضيق .

(٢) السكور جمع سَكر وهو ما يسد به النهر .

لابنه الوليد ؛ وكان ولده : الوليد، وسليمان ، ويزيد ، وهشام ، ومَسْلمة، ومحمد .

ثم قال للوليد : يا وليد ، لا أُلفِيَنَّكَ إذا وضعتني فى حفرتى أن تَعصُر عينيك كالأَمَةِ الوَرْهَاء[1] بل ائْتَزِر وشمّر ، والبس جِلد النَّمِر ، وادعُ الناس إلى البيعة ثانيا ، فمن قال برأسه كذا ، فقل بالسيف كذا . ووُعِك وَعْكا شديدا .

فلما أصبح جاء الوليد ، فقام بباب المجلس ، وهو غاصٌّ بالنساء ، فقال :

كيف أصبح أمير المؤمنين ؟

قيل له : يُرْجَى له العافية .

وسمع عبد الملك ذلك ، فقال :

وَكَمْ سائِلٍ عنّا يُرِيدُ لنا الرَّدَى ‏ ‏ ‏ ‏ وَكَمْ سائلاتٍ والدموع ذوارفُ

ثم أمر بالنساء ، فخرجن .

وأذن لبنى أمية فدخلوا عليه وفيهم خالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية فقال لهما :

يا بنى يزيد ، أتُحِبّان أن أُقِيلَكُما بَيْعَة الوليد ؟

قالا : مَعاذَ الله ، يا أمير المؤمنين .

قال : لو قلتما غير ذلك لأمرت بقتلكما على حالتى هذه .

ثم خرجوا عنه ، واشتدّ وَجَعه ، فتمثّل ببيت أُمَيّة بن أبى الصَّلْت :

لَيْتَنِى كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَا لِى ‏ ‏ ‏ ‏ فِى قِلالِ الجِبالِ أَرْعَى الوُعُولا

فلم يُمْسِ يومه ذلك حتى قضى .

وكان سلطانه إحدى وعشرين سنة وستة أشهر ؛ وكان له يوم مات ثمان وخمسون سنة ، من ذلك سبع سنين ، كان فيها مُحاربا لعبد الله بن الزبير ، ثم صَفَا له المُلْك بعد قتله ابن الزبير ثلاثة عشر سنة ونصفا .

---

(١) الجارية الحمقاء .

[الوليد بن عبد الملك]

ولما انصرف الوليد من قِبَل أبيه قصد المسجد الأعظم ، واجتمع إليه الناس ، فبايعوه .

وعَقَدَ لعمر بن عبد العزيز بن مروان على الحَرَمَيْن .

فنزل المدينة ، فدعا بعشرة نفر من أفاضل أهلها ، منهم عُرْوَة بن الزبير ، وعُبَيْد الله بن عُتْبَة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأبو بكر ابن سليمان بن أبي حَثْمَة ، وسليمان بن يَسار ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله ، فاجتمعوا ، فدخلوا عليه ، فقال :

اعلموا أنني لست أقطع أمرا إلا برأيكم ومشورتكم ، فأشِيرُوا علىّ .

قالوا : نفعل أيها الأمير ، جُزِيت على ما تنوى خير ما جزى مُؤَزَّرٌ لمرضاة ربه .

ثم خرجوا .

[إصلاح الحرم النبوى]

ثم كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز ، أن يشترى الدور التى حول مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيزيدها فى المسجد ، ويجدد بناء المسجد .

وكتب إلى ملك الروم يعلمه ماهَمَّ به من ذلك ، ويسأله أن يبعث إليه مااستطاع من الفُسَيْفِساء(١) .

فوجه إليه منها أربعين وسقا(٢) .

فبعث به إلى عمر بن عبد العزيز ، فهدم عمر المسجد ، وزاد فيه ، وبناه ، وزيّنه بالفسيفساء .

---

(١) الفسيفساء : ألوان من الخرز تركب فى حيطان البيوت من داخل .

(٢) الوسق : ستون صاعا أو حمل بعير .

[فتح بخارى وسمرقند]

وكان على خراسان من قِبَل الحجاج قُتَيبة بن مُسلم الباهِلىّ .

فكتب إليه الحجاج يأمره بعبور النهر — نهر بلخ — ، وأن يفتح تلك البلاد .

فاستعد قتيبة ، وسار فى المفازة التى بين مدينة مرو وبين مدينة آمُوِيَة ، وهى ذات رمال وغَضى[1] ، فصار إلى آموية ، ثم عبر النهر وسار إلى بُخارى .

وكان ملك تلك الأرضين يسمى « سُول » وكان ملكه على جميع ماوراء النهر ، فلقيه الملك ، فحاربه قتيبة ، فهزمه ، وهرب سول نحو الصَّغانِيان .

فاحتوى قتيبة على بخارى وحَيِّزها ، فولّى عليها رجلا .

وسار حتى وافى بلاد السُّغْد[2] ، فأناخ على مدينتها العظمى ، وهى سمرقند ، فحاصرها أشهرا .

فوجه إليه دُهْقانها[3] : إنك لو أقمت على مدينتى هذه عمرك لم تصل إليها ، لأنا نجد فى كتب آبائنا ، أنه لا يقدر عليها إلا رجل اسمه « بآلان » ، لست إياه ، فامْضِ لشأنك .

فزعموا أن قُتَيبة احتال لما يئس من مكابرتها ، فهيّأ صناديق ، وجعل لها أبوابا من أسافلها ، تغلق من داخل ، وتفتح ، وجعل فى كل صندوق رجلا مُسْتلئِما ، معه سيفه ، وأقفل أبوابها العليا .

ثم أرسل إلى الدهقان : « أما إذا كان هذا هكذا ، فإنى راحل عنك إلى الصغانيان ، وناحيتها ، ومعى فضول أموال وسلاح ، فوادِعْنى ، واحرزْ هذه الصناديق عندك إلى عوْدى إن سلمت .

فأجابه إلى ذلك ، وتقدم قُتَيبة إلى الرجال أن يفتحوا أبواب الصناديق فى جوف الليل ، فيخرجوا ، ثم يصيروا إلى باب المدينة فيفتحوه .

وأمر الدهقان بالصناديق ، فأدخلت المدينة .

---

(١) مفرده غَضاة وهى الشجرة ، والأرض الغضياء كثيرة الشجر .

(٢) السغد بالضم : بساتين نزهة وأماكن مثمرة ، حول سمرقند ، ومنها على بن الحسين وكامل ابن مكرم وأحمد بن حاجب المحدثون . (٣) الدهقان بالضم وبالكسر لغة ، القوى على التصرف مع حدّة ، وهو زعيم فلاحى العجم ، ورئيس الإقليم ، لفظ معرب .

فلما جنّ الليل ، وهدأ الناس خرج الرجال مستلئمين ، معهم السيوف ، لا يستقبلهم أحد إلا قتلوه ، حتى أتوا باب المدينة ، فقتلوا الحرس ، وفتحوا الباب .

ودخل قتيبة بالجيش ، ووقعت الواعية ، وهرب الدهقان في سَرَب[١] ، فلحق بالملك ، وصارت سمرقند في قبضة قتيبة ، فخلّف عليها رجلا .

وسار حتى أتى الصغانيان ، فهرب الملك منهم حتى صار في بلاد الترك ، ووَغَل فيها ، وخلّى المملكة لقُتيبة .

فدخل قتيبة الصغانيان ، ووجه عماله إلى كَشّ[٢] ونَسَف[٣] ، وافتتح جميع ماوراء النهر ، وجميع تَخَارِستان ، ولم يبق من خراسان شيء إلا افتتحه .

ولم يزل قتيبة بخُراسان سنين حتى شغّب عليه أجناده ، فقتلوه .

فاستعمل الوليد بن عبد الملك عليها الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِي .

وحجّ الوليد بن عبد الملك في سنة إحدى وتسعين ، وقد فرغ عمر بن عبد العزيز من بناء مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فدخله ، وطاف به ، ونظر إلى بنائه .

ولم يكن بقي في زمن الوليد من الصحابة إلا نفر يسير ، منهم بالمدينة ، سَهْل ابن سَعْد الساعديّ ، وكان يُكْنى أبا العباس ، توفي في آخر خلافة الوليد ، وكان يوم مات ابن مائة سنة ، ومنهم جابر بن عبد الله .

وبالبصرة أنس بن مالك .

وبالكوفة عبد الله بن أبي أوْفَى .

وبالشام أبو أمامة الباهِلِيّ .

[موت الحجاج]

وفي السنة الخامسة من خلافة الوليد مات الحجّاج بواسط ، وله أربع وخمسون سنة ، وكانت إمْرته على العراق عشرين سنة .

---

(١) السرب : الحفير تحت الأرض ، والقناة يدخل منها الماء الحائط .

(٢) مدينة في بخارى بين سمرقند وبلخ ، وتسمى اليوم شهرى سبز ، أي المدينة الخضراء ، لخصب ريفها ، ومنها خرج تيمورلنك الذي زينها بالبنايات الفخمة .

(٣) مدينة بفارس ، فيها نشأ الفقيه المحدث النسفي ، صاحب التفسير المشهور .

منها فى خلافة عبد الملك خمس عشرة سنة ، وفى خلافة الوليد خمس سنين .

وقد كان قتل سعيد بن جُبَيْر قبل موته بأربعين يوما .

قالوا : وكان يقول فى طول مرضه إذا هجر : مالى ولك يا ابن جُبَيْر ؟

وقُتِل ابن جُبير وهو ابن تسع وأربعين سنة ، وكان يكنى أبا عبد الله ، وكان ولاؤه لبنى أمية .

[سليمان بن عبد الملك]

ولما تمّ للوليد بن عبد الملك تسع سنين وستة أشهر حضرته الوفاة ، فأسند الملك إلى أخيه سليمان بن عبد الملك .

فبويع سليمان فى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ، وسليمان يومئذ من أبناء سبع وثلاثين سنة .

فملك سليمان سنتين وثمانية أشهر ، ثم مرض مَرْضته التى مات فيها .

فلما ثَقُلَ كتب كتابا ، وختَمَه ، ولم يَدْرِ أحد ما كتب فيـه ، ثم قال لصاحب شُرَطه :

«اجمع إليك إخوتى ، وعمومتى ، وجميع أهل بيتى ، وعظماء أجناد الشام ، واحمِلْهم على البَيْعة لمن سَمَّيْتُ فى هذا الكتاب ، فمَنْ أبَى منهم أن يُبايع ، فاضرب عنقه » ، ففعل .

فلما اجتمعوا فى المسجد أمرهم بما أمر به سليمان .

فقالوا : أخْبِرْنا ، من هو ؟ لنُبايعه على بَصِيرَة .

فقال : والله ما أدرى من هو ، وقد أمرنى أن أضرب عنق مَنْ أبَى .

قال رَجاء بن حَيْوَة : فدخلت على سليمان ، فأكْبَبْتُ عليه ، وقلت : يا أمير المؤمنين ، مَنْ صاحب الكتاب الذى أمَرْتَنا بمبايعته ؟

فقال : إن أخَوَىَّ يزيد وهِشاما لم يبلُغا أن يُؤْتَمَنَا على الأمّة ، فجعلتها للرجل الصالح ، عمر بن عبد العزيز ، فإذا توفى عمر رجع الأمر إليهما .

فخرج رَجاء بن حَيْوَة ، فأخبر يزيد وهشاما بذلك ، فرَضِيا ، وسَلَّما ، وبايَعا ، ثم بايع بعدهما جميع الناس .

وكان أكبر ولده يومئذ محمد بن سليمان ، فكانت له اثنتا عشرة سنة .

وجعل يقول ، وهو يجود بنفسه :

إنَّ بَنِيَّ صِبْيَةٌ صَيْفِيُّون   أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رِبْعِيُّون

وذُكِرَ من الكلبيّ أنه قال : بعث إليّ سليمان بن عبد الملك ، فدخلت عليه ، وقد انتفخ سَحْرِي[1] ، فسلّمت عليه بالخلافة ، فردّ عليّ السلام .

ثم أوْمَأ إليّ ، فجلست ، فسكت عني حتى إذا سكن جأشي ، قال لي :

يا كلبيّ ، إنّ ابني محمداً قُرّة عيني وثمرة قلبي ، وقد رَجَوْت أن يبلّغ الله به أفضل ما بلّغ رجلا من أهل بيته ، وقد ولّيتك تأديبه ، فعلّمه القرآن ، وروّه الأشعار ، فإن الشعر ديوان العرب ، وفهّمه أيام الناس ، وخُذْهُ بعلم الفرائض ، وفهّمه السّنن ، ولا تَفْتُر عنه ليلا ونهارا ، فإذا أخطأ بكلمة ، أو زَلّ بحرف ، أو هفا بقول ، فلا تؤنّبه بين يدي جلسائه ، ولكن إذا خلا لك مجلسك ، لئلا تُمحِكه[2] ، وإذا دخل عليه الناس للتسليم ، فخذه بألطافهم وإظهار برّهم ، وإذا حيّوه فليُحيّهم بأحسن منها ، وأطيبا لمن حضر بمائدتكما الطعام ، واحمله على طلاقة الوجه ، وحُسن البِشر ، وكَظْم الغيظ ، وقلّة الهذر ، والتثبّت في النطق ، والوفاء بالعهد ، وتنكّب الكذب ، ولا يركبنّ فرسا مَحْذُوفا[3] ، ولا مَهْلُوبا[4] ولا يركبنّ بسَرْج صغير ، فتبدو أليتاه منه » .

قال : فلم يلبث سليمان بعد ذلك إلا قليلا حتى مات .

---

(١) السحر : الرئة ، وانتفخ سحره عدا طوره وجاوز قدره .

(٢) حتى لا تغضبه ، والمحك : اللجج .

(٣) الفرس المحذوفة التي تحرك جنبيها في مشيها .

(٤) الفرس المهلوب التي تتابع الجرى .

[عمر بن عبد العزيز]

وأسند الأمر إلى عمر بن عبد العزيز .

قالوا : فلما استخلف قعد للناس على الأرض .

فقيل له : لو أمرتَ ببساط يُبْسَطُ لك ، فتجلس ، ويجلس الناس عليه كان ذلك أهيب لك فى قلوب الناس .

فتمثّل :

قَضَى ما قَضَى فِيمَا مَضَى ، ثُمَّ لا تَرَى ... لهُ صَبْوَةٌ إحْدَى اللَّيَالِى الغَوَابِرِ
وَلَوْلا التُّقَى من خشْيَةِ المَوْتِ وَالرَّدَى ... لَعَاصَيْتُ فى حبِّ الصِّبَا كُلَّ زَاجِرِ

وكان إذا جلس للنـــاس قال « بسم الله ، وبالله ، وصلى الله على رسول الله ، أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ، مَا أَغْـنَى عَنْهُمْ ما كانوا يمتّعُون »[1] .

ثم تمثل بهذه الأبيات :

تُسَرُّ بِمَا يَبْلَى ، وَتُشْغَلُ بِالْمُنَى ... كَمَا سُرَّ بِالأَحْلامِ فِى النَّوْمِ حَالِمُ
نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ ... وَلَيْلُكَ نَوْمٌ ، وَالرَّدَى لَكَ لازِمُ
وَسَعْيُكَ فِيمَا سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ ... كَذَلِكَ فِى الدُّنْيَا تَعِيشُ البَهَائِمُ

ثم نصب نفسه لرد المظالم .

وبدأ ببنى أمية ، وأخذ ما كان فى أيديهم من الغُصُوب[2] ، فردّها على أهلها .

ودخل عليه أناس من خاصته ، فقالوا :

يا أمير المؤمنين ، ألا تخاف غوائل قومك ؟ .

فقال : أَبِيَوْمٍ سوى يوم القيامة تخوفوننى ؟ فــكل خوف أتّقيه قبل يوم القيامة لا وُقيتُه .

فلما تم لخلافته سنتان وخمسة أشهر مات .

---

(١) الآية رقم ٢٠٥ من سورة الشعراء .

(٢) المال والعقار والضياع مما أخذوه من أصحابه غصبا وقهرا .

[يزيد بن عبد الملك]

وأفضى الأمر إلى يزيد بن عبد الملك فى أول سنة مائة وإحدى .

فولّى المِصْرَيْن أخاه مَسْلمة بن عبد الملك .

وكان مسلمة ذا عقل كامل وأدب فاضل ، فاستعمل مسلمة على خراسان سعيد ابن عبد العزيز بن الحكم بن أبى العاص بن أمية .

[ظهور الدعوة إلى العباسيين]

قالوا : وفى ذلك العام[1] توافَدت الشيعة على الإمام محمد بن على بن عبد الله ابن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ، وكان مستقرّه بأرض الشام ، بمكان يسمى « الْحُمَيْمَةَ » وكان أول من قدم من الشيعة مَيْسَرَةَ العَبْدِىّ ، وأبو عِكْرِمة السَّرّاج ، ومحمد بن خُنَيْس ، وحيّان العطّار .

فقدم هؤلاء عليه ، فأرادوه على البيعة ، وقالوا له :

« ابسط يدك نبايعك على طلب هذا السلطان ، لعلّ الله أن يُحيي بك العدل ، ويميت بك الجوْر ، فإن هذا وقت ذلك ، وأوانه ، والذى وجدناه مأثورا عن علمائكم » .

فقال لهم محمد بن على : « هذا أوان ما نأمل ونرجو من ذلك ، لانقضاء مائة من التاريخ ، فإنه لم تنقض مائة سنة على أمة قط إلا أظهر الله حق المحِقّين ، وأبطل باطل المُبْطلين ، لِقَوْل الله جل اسمه « أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ [عَلَى عُرُوشِهَا ، قَالَ ، أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ][2] اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ، ثُمَّ بَعَثَهُ[3] » فانطلقوا أيها النفر ، فادعوا الناس فى رفق وستر ، فإنى أرجو أن يتمّ الله أمركم ، ويظهر دعوتكم ، ولا قوة إلا بالله » .

---

(١) فى سنة ٧٢٠م .

(٢) فى الأصل أثر رطوبة مكان ما بين الحاصرتين . (٣) الآية رقم ٢٥٩ من سورة البقرة .

ثم وجه مَيْسَرة العَبدىّ ، ومحمد بن خُنَيْس إلى أرض العراق ، ووجه أبا عكرمة ، وحيّان العطار إلى خراسان ، وعلى خراسان يومئذ سعيد بن عبد العزيز بن الحكم ابن أبى العاص .

فجعلا يسيران فى أرض خراسان من كُورة إلى أخرى ، فيدعوان الناس إلى بيعة محمد بن على ، ويزهدانهم فى سلطان بنى أمية لخبث سيرتهم ، وعظيم جورهم ، فاستجاب لهما بخراسان أناس كثير ، وفشا بعض أمرهم وعلن .

فبلغ أمرهما سعيدا ، فأرسل إليهم ، فأتى بهم ، فقال :

– من أنتم ؟

قالوا : نحن قوم تجار .

قال : فما هذا الذى يذكر عنكم ؟

قالوا : وما هو ؟

قال : أخبرنا أنكم جئتم دعاة لبنى العباس .

قالوا : أيها الأمير ، لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغل عن مثل هذا .

فأطلقهما .

فخرجا من عنده ، يدوران كور خراسان وَرَسَاتِيقَها فى عداد التجار ، فيَدْعُوَان الناس إلى الإمام محمد بن علىّ ، فمكثا بذلك عامين .

ثم قدما على الإمام محمد بن علىّ بأرض الشام ، فأخبراه أنهما قد غَرَسا بخراسان غَرْسا يرجوان أن يُثمِر فى أوانه ، وألفياه قد وُلِدَ له أبو العباس ابنه .

فأمر بإخراجه إليهم ، وقال : هذا صاحبكم .

فَقَبّلوا أطرافه كلها .

وكان مع الجُنَيد بن عبد الرحمن عامل السِّنْد رجل من الشِّيعة ، يُسَمّى بُكَيْر ابن ماهَان ، فانصرف إلى موطنه من الكوفة ، وقد أصاب بأرض السِّند مالاً كثيراً ، فَلَقِيَه مَيْسَرة العَبْدِىّ وابن خُنَيْس ، وأخبراه بأمرهما ، وسألاه أن يدخل فى الأمر معهما ، فأجابهما إليه ، وقام معهما ، وأنفق جميع ما استفاد بأرض السِّند من الأموال بذلك السبب .

ومات مَيْسرة بأرض العراق .

وكتب الإمام محمد بن علىّ إلى بُكَيْر بن مَاهَان ، أن يقوم مقام مَيْسرة ، وكان بُكَيْر يكنى بأبى هاشم ، وبها كان يُعْرَف فى الناس .

وكان رجلا مُفَوَّها ، فقام بالدُّعاء ، وتَوَلّى الدعوة بالعِرَاقَيْن ، وكانت كتب الإمام تأتيه ، فيغسلها بالماء ، ويعجن بغُسالتها الدقيق ، ويأمر ، فَيُخْتَبَزُ منه قُرَص ، فلا يبقى أحد من أهله وولده إلا أطعمه منه .

ثم إنه مرض مرضه الذى مات فيــه ، فأوْصَى إلى أبى سَلَمَة الخَلّال ، وكان أيضا من كبار الشِّيعة .

وكتب إلى الإمام يُعْلِمه ذلك .

فكتب محمد بن علىّ إلى أبى سَلَمَة ، فَوَلّاه الأمر ، وأمره بالقيام بما كان يقوم به أبو هاشم .

ثم كتب إلى أبى عِكْرِمَة وحَيّان ، وكانا صاحبى الأمر بخراسان ، يأمرها أن يُكاتبا أبا سَلَمَة ، فدعاهما إلى الدخول معه فى أمره ، فأجاباه، ودخلا معه ، وكانَفَاه .

ثم إن يزيد بن عبد الملك عَزَلَ أخاه مَسْلَمَة عن العراق وخراسان ، واستعمل مكانه خالد بن عبد الله القَسْرِىّ ، واستعمل خالدٌ أسدَ بن عبد الله على خراسان ، فانتهى خبر أبى عِكْرِمة ، وحَيّان إلى أسد بن عبد الله ، فأمر بطلبهما ، فأُخِذَا ، وأُتِىَ بهما ، فضربت أعناقهما ، وصُلِبَا .

وبلغ ذلك محمد بن على ، فقال : الحمد لله الذى صحح هذه العلامة ، وقد بقى من شيعتى رجال سوف يفوزون بالشهادة .

فلما تم لملك يزيد بن عبد الملك أربع سنين وأشهر توفى بالبَلْقاء من أرض دمشق .

وكانت وفاته سنة خمس ومائة ، وله يوم مات ثمان وثلاثون سنة .

[هشام بن عبد الملك]

ثم استخلف هشام بن عبد الملك ، وهو ابن أربع وثلاثين سنة .

فعزل أسد بن عبد الله عن خراسان ، وولّاها الجُنيد بن عبد الرحمن ، وكان رجلا من اليمانيّة ، ذا فضل وسخاء .

وهو الذى يقول فيه الشاعر :

ذَهَبَ الْجُودُ والْجُنَيْدُ جَمِيعاً فَعَلَى الْجُودِ والْجُنَيْدِ السَّلَامُ

* * *

ولما قتل أبو عكرمة وحيان وجّه الإمام محمد بن على إلى خراسان خمسة نفر من شيعته : سليمان بن كَثِير ، ومالك بن الهَيْثم ، وموسى بن كعب ، وخالد بن الهيثم ، وطلحة بن زُرَيْق ، وأمرهم بكتمان أمرهم ، وألا يُفْشُوه إلى أحد إلا بعد أن يأخذوا عليه العهود المؤكدة بالكتمان .

فساروا حتى أتوا خراسان ، فكانوا يأتون كورة بعد كورة ، فيدعون الناس سرا إلى أهل بيت نبيّهم ، ويبغّضون إليهم بنى أمية ، لما يظهر من جورهم واعتدائهم ، وركوبهم القبائح ؛ حتى استجاب لهم بَشَرٌ كثير فى جميع كُور خراسان .

وبلغ الجُنيد أمرهم ، فأمر بطلبهم ، وأخذوا ، وأُتى بهم الجُنيد .

فقال : يا فَسَقَة ، قد قدمتم هذه البلاد ، فأفسدتم قلوب الناس على بنى أمية ، ودعوتم إلى بنى العباس .

فتكلم سليمان بن كثير ، وقال : أيها الأمير ، أتأذن لى فى الكلام ؟

قال : تكلم

قال : إنا وإياك كما قال الشاعر :

لَوْ بِغَيْرِ الْمَاءِ حَلْقِي شَرِقٌ لا شْتَفَفْتُ اليومَ بِالْماءِ القُرَاحِ

نعلمك أيها الأمير ، أنا أناس من قومك اليمانيّة ، وأن هؤلاء المضريّة تعصّبوا علينا ، فرَقَوْا إليك فينا الزورَ والبُهتان ، لأنا كنا أشد الناس على قُتَيبة ، فهم الآن يطلبون بثأره بكل علّة .

فقال الجنيد لمن كان حوله من أصحابه : « ما ترون ؟ » .

فتكلم عبد الرحمن بن نُعيم رئيس ربيعة ، وكان من خاصته :

ـ نرى أنْ تَمُنَّ بهم على قومك ، فلعل الأمر كما يقولون .

فأمر بإطلاقهم .

فخرجوا ، وكتبوا بقصتهم إلى الإمام .

فكتب إليهم : « إن هذا أقلُّ ما لكم ، فاكتموا أمركم ، وترفقوا في دعوتكم » .

فساروا من مدينة مَرْو إلى بخارى ، ومن بخارى إلى سمرقند ، ومن سمرقند إلى كَشّ ونَسَف ، ثم عطفوا على الصّغانيان ، وجازوا منها إلى خَتْلاَن [١] ، وانصرفوا إلى مَرْوَ الرُّوذ [٢] ، والطالقان [٣] ، وعطفوا إلى هراة [٤] ، وَبوْشَنْج [٥] ، وجازوا إلى سجِسْتان .

فغرسوا في هذه البلدان غرسا كثيرا ، وفشا أمرهم في جميع أقطار خراسان .

وبلغ ذلك الجنيد ، فأسف على تركهم ، ووجه في طلبهم ، فلم يقدر عليهم .

فكتب إلى خالد بن عبد الله القَسْرِيّ ، وكان على العراق ، يُعلمه انتشار خراسان وما حدث فيها من الدُّعاة إلى محمد بن عليّ .

فكتب خالد بن عبد الله إلى هشام يُعلمه بذلك .

فكتب إليه هشام ، يأمره بالكتاب إلى الجُنَيْد ، ألّا يرغب في الدماء ، وأن يكفّ عمن كف عنه ، ويُسكّن الناس بجُهده ، وأن يطلب النفر الذين يدعون الناس حتى يجدهم ، فينفيهم .

---

(١) في نسخة أخرى « جيلان » والصواب ما ذكر ، وهي بلاد مجتمعة وراء النهر قرب سمرقند .

(٢) في الأصل : مروروذ ، وهي مدينة من مدن خراسان .

(٣) قال الإصطخري في كتابه : إن طالقان أكبر مدن خراسان .

(٤) مدينة من أمهات المدن في خراسان ، وقد خربها التتار .

(٥) بليدة حصينة من نواحي هراة .

فلما انتهى ذلك إلى الجُنَيْد بعث رسله فى أقطار خراسان .

وكتب إلى عمّاله فى الكور يطلب القوم ، فطلبوا ، فلم يُدْرَكْ لهم أثر .

[أبو مسلم الخراسانى]

قالوا : وكان بدء أمر أبى مسلم أنه كان مملوكا لعيسى ، ومَعْقِل، ابنَىْ إدريس ، ابن عيسى العِجْليين ، وكان مسكنهما بماه البصرة ، مما يلى أصبهان .

وكان أبو مسلم وُلِد عندهما ، فنشأ غلاما ، فَهِما ، أديبا ، ذهنا ، فأحبّاه حتى نزل منهما منزلة الولد .

وكانا يتولّيان بنى هاشم ، ويُكاتِبان الإمام محمد بن على ؛ فمكثا بذلك ماشاء الله .

ثم إن هشاما عزل خالد بن عبد الله القسرىّ من العراق ؛ وولّى مكانه يوسف ابن عمر الثقفىّ ، فكان يوسف بن عمر لايدع أحدا يُعرف بموالاة بنى هاشم ، ومودة أهل بيت رسول الله إلا بعث إليه ، فحبسه عنده بواسط .

فبلغه أمر عيسى ، ومَعْقل ابنى إدريس ، فأشخصهما ، وحبسهما بواسط فيمن حبس من الشيعة .

وكانا أخرجا معهما أبا مسلم فكان يخدمهما فى الحبس .

وإن سليمان بن كَثير ، ومالك بن الهَيْثم ، ولاهِز بن قُرط ، وهم كانوا الدُعاة بخراسان قدموا للحج ، وقدم معهم قَحطبة بن شَبيب ، وكان ممن بايعهم ، وشايعهم على أمرهم ، فجعلوا طريقهم على مدينة واسط ، ودخلوا الحبس ، فلقوا من كان فيه من الشيعة ؛ فرأوا أبا مسلم ، فأعجبهم مارأوا من هيئته ، وفهمه ، واستبصاره فى حب بنى هاشم .

ونزل هؤلاء النفر بعض الفنادق بواسط ؛ فكان أبو موسى يختلف إليهم طول مقامهم حتى أنس بهم ، وأنسوا به ، فسألوه عن أمره .

فقال : إن أمى كانت أَمَة لعُمير بن بُطين العجلىّ ، فوقع عليها ، فحملت بى ، فباعها ، وهى حامل ، فاشتراها عيسى ، ومَعقل، ابنا إدريس ، فولدتُ عندهما ، فأنا كهيئة المملوك لهما .

ثم إن النفر شخصوا من واسط ، وأخذوا نحو مكة على طريق البصرة ، فوصلوا إلى مكة، وقد وافاها الإمام محمد بن على حاجًا ، فلقوه ، وسلموا عليه، وأخبروه بما غرسوا به فى جميع خراسان من الغرس ، ثم أخبروه بممرّهم بواسط ، ودخولهم على إخوانهم المحبَّسين بها .

ووصفوا له صفة أبى مسلم ، وما رأوا من ذكاء عقله وفهمه ، وحسن بصره ، وجودة ذهنه ، وحسن مَنْطِقه .

فسألهم : أحُرٌّ هو أم مملوك ؟

فقالوا : أما هو ، فيزعم أنه ابن عمير بن بُطين العجلىّ ، وكانت قصته كَيْتَ وكَيْت ، ثم فسّروا له ما حكى لهم من أمره .

فقال : إن الولد [تبعٌ للأم ، فإذا انصرفتم فاجعلوا] (١) ممرّكم بواسط ، فاشتروه ، وابعثوا به إلى الحُمَيْمَة (٢) من أرض الشام ، لأجعله الرسول فيما بينى وبينكم، على أنى أحسبكم لاتلقونى بعد عامى هذا ، فإن حدثَ بى حدثٌ فصاحبُكم ابنى هذا ـ يعنى إبراهيم ـ فاستوصُوا به خيرا ، فإنى سأُوصِيه بكم خيرا .

فانصرف القوم نحو خراسان ، ومَرّوا بواسط ، ولقوا عيسى ، ومَعقل ابنى إدريس ، فأخبروهما بحاجة الإمام إلى أبى مسلم ، وسألوهما بيعه منهم .

فزعموا ، أنهما وهباه له .

فوجّه به القوم إلى الإمام ، فلما رآه تفرّس فيه الخير ، ورجا أن يكون هو القيّم بالأمر ، لعلامات رآها فيه ، قد كانت بلغته .

فجعله الرسول فيما بينه وبينهم ، فاختلف إليهم مرارا كثيرة .

---

(١) مكان مابين الحاصرتين أثر أرضة فى الأصل . (٢) بلد فى أطراف الشام ، كان منزل بنى العباس .

[وفاة الإمام]

ثم توفى الإمام محمد بن علىّ ، فقام بالأمر بعده ابنه إبراهيم بن محمد ، وكان أكبر ولده ، فأمر أبا مُسْلم أن يسير إلى الدعاة بالعراق ، وخَراسان ، فيعلمهم وفاة الإمام ، وقيامه بالأمر من بعده .

فسار حتى وَافَى العراق ، ولقى أبا سَلَمة ، ومَنْ كان معه من الشيعة ، فأخبرهم بما أمره به .

ثم سار إلى خراسان ولقى الدُّعاة بها ، فأخبرهم بذلك .

وبلغ وفاة الإمام جميع مَنْ بايع فى أقطار خراسان ، فَسَوَّدُوا ثيابهم حُزْناً لمصابه ، وتَسَلُّباً عليه .

وكان أوّل مَنْ سَوَّدَ منهم ثيابه حُرَيش مَوْلَى خُزاعة ، وكان عظيم أهل نَسَا[1] ، ثم سَوّدها من بعده قُحْطبة بن شَبِيب ، ثم سَوَّد القوم جميعا ، وكثرت الشيعة بخراسان كلها ، وعلن أمرهم .

وكتب يوسف بن عمر ، وكان على العِرَاقَيْن ، إلى هشام ، يُخبره بذلك ؛ فكتب هشام إلى يوسف ، يأمره أن يبعث إليه رجلا ، له علم بخراسان ، ومعرفة بمن فيها من قُوّادها ، وجنودها .

وقد كان يوسف بن عمر عَزَلَ عنها الجُنَيْد بن عبد الرحمن ، واستعمل عليها جعفر بن حَنْظَلَة البَهْرَانىّ .

فكتب جعفر إلى يوسف بن عمر مع عبد الكريم بن سَلِيط بن عَطِيّة الحَنَفىّ ، يخبره بتفاقم أمر المُسَوِّدَة بخراسان ، وكثرة من أجاب الدُّعاة بها .

فلما أتاه كتاب هشام يأمره أن يوجّه إليه رجلا ، له علم بخراسان ، حمل عبد الكريم بن سَلِيط إليه على البَرِيد .

---

(١) بلد بخراسان تقع بين مرو ونيسابور وقد عرفت بجودة خيلها ، وفيها قبور الأولياء من الشيوخ والأعلام ، وإليها ينسب الشيخ أحمد النسائى المحدث صاحب كتاب السنن أحد الكتب الستة المشهورة فى علم الحديث .

قال عبد الكريم : فَسِرْتُ حتى وافَيْتُ دمشق ، فدخلت على هشام ، فسلّمت عليه بالخلافة .

فقال لى : مَنْ أنت ؟

قلت : أنا عبد الكريم بن سَلِيط بن عَطِيَّة الحَنَفِىّ .

قال : كيف علمك بخراسان وأهلها ؟

قلت : أنا بها جدّ عالِم .

ثم أخبرته أن وجهى كان منها بكتاب أميرها جعفر بن حَنْظَلَة البَهْرَانِىّ إلى يوسف بن عمر يُخبره بما حَدَث فيها .

قال : إنى أريد أن أُوَلِّى أمرها رجلا من القُوَّاد ، الذين هم مُرتَّبون بها ، فمَنْ تَرَى أن أُوَلِّى أمرها منهم ، وأَيُّهم أقوَم بها ؟

قال عبد الكريم : — وكان هَوَاىَ فى اليمانيَّة — فقلت :

يا أمير المؤمنين ، أين أنت من رجل من قُوَّادها ذى حَزْم ، وبأس ، ومَكِيدَة ، وقُوَّة ، ومُكانَفَة من قومه ؟

قال : ومَنْ هو ؟

قلت : جُدَيْع بن علىّ الأزدِىّ المعروف بالكِرمانىّ .

قال : وكيف يُسَمَّى الكرمانىّ ؟

قلت : وُلِدَ بكرمان ، كان أبوه مع المهلّب عند مُحاربته الأزارِقَة ، فوُلِدَ هذا هناك .

قال : لا حاجة لى فى اليمانيّة — وكان هشام يبغض اليمانية ، وكذلك سائر بنى أُمَيَّة — .

قلت : يا أمير المؤمنين ، فأين أنت من المجرّب البطل النافذ اللَّسِن ؟

قال : ومَنْ هو ؟

قلت : يحيى بن نُعَيْم ، المعروف بأبى المَيْلاء ، وهو ابن أخى مَصْقَلَة بن هُبَيْرَة.

قال : لا حاجة لى فيه ، لأن ربيعة لا تُسَدّ بها الثُّغُور .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، فعليك بالماجد الألَّبيب الأريب ، الكامل الحسيب ، عَقِيل بن مَعْقِل الليثىّ .

قال ، فكأنه هَوِيَه .

فقلت : إن اغتفرت منه هَنَةً فيه .

قال : وما هى ؟

قلت : ليس بعفيف البطن والفَرْج .

قال : لا حاجة لى فيه .

قلت : فالكامل النافذ ، الفارس المجرّب ، مُحسّن بن مُزاحم السُّلَمىّ .

قال ، فكأنه هَوِيهُ ، للمُضَرِيّة .

قلت : إن اغتفرت هَنَة فيه .

قال : وما هى ؟

قلت : أكذبُ ، ذى لَهْجة .

قال : لا حاجة لى فيه .

قلت : فذو الطاعة لكم ، التمسّك بعهدكم ، المقتدى بقدوتكم ، يحيى بن الحُضَيْن بن المنذر بن الحارث بن وَعْلَة .

قال : ألم أخبرك أن ربيعة لا تُسَد بها الثُّغور ؟

قلت : فالكامل النافذ الشجاع البطل ، قَطَن بن قُتَيْبة بن مسلم .

قال : فمال إليه بالمضريّة .

قلت : إن اغتفرت منه هَنة .

قال : وما هى ؟

قلت : لا آمَنُه إنْ أُفضى إليه السلطان أن يطلب جنود خراسان بدم أبيه قتيبة، فإنهم جميعا تظافروا عليه .

قال : لا حاجة لى فيه .

قلت : فأين أنت من العفيف المجرب ، الباسل المحنّك ، نَصر بن سَيّار الليثىّ ؟

قال : فكأنه تفاءل به ، ومال إليه ، بالمضرية .

قلت : إن اغتفرت منه خصلة .

قال : وما هي ؟

قلت : ليست له بخراسان عَشِيرَة من جنودها ، وإنما يقْوَى على ولاية خراسان مَنْ كانت له بها عشيرة من جنودها .

قال : فأيّ عشيرة أكثر مني ، لا أبا لك ، يا غلام ؟ انطلق إلى الكُتّاب ، فمُرْهم بإنشاء عهده ، وائتوني به .

فكُتِب له عهده ، وأُتِيَ به .

فناوَلَنيه ، وقال : انطلق حتى توُصّله إليه .

ثم أمر أن أُحْمَل على البَرِيد .

فَسِرْت حتى وافَيْت خراسان ، فأتيته في منزله ، فناوَلْته العهد ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم .

ثم تناول العهد ، فانطلق إلى جعفر بن حَنْظَلَة ، الأمير كان بها ، فدخل عليه ، وهو جالس على سريره ، فناوله العهد .

فلما قرأه أخذ بيد نصر ، فرفعه حتى أجلسه معه على سريره ، وقال : سمعاً وطاعةً لأمير المؤمنين .

فقال له نصر : أبا خَلَف ، السُّلطانُ سلطانك ، فمُرْ بأمْرِك .

ودعا له جعفر بن حَنْظَلَة ، وسلّم الأمر إليه .

وإنّ سليمان بن كَثِير ، ولاهِز بن قُرْظ ، ومالك بن الهَيْثَم ، وقَحْطبة ابن شَبيب أرادوا الحجّ ، فخرجوا مع الحاجّ متنكّرين حتى أتوا مكة ، وقد وافاها في ذلك العام إبراهيم بن محمد الإمام ، فأخبروه بما اجتمع له الناس بخراسان .

وقد كانوا حملوا إليه ما بعثت به إليه الشيعة .

فقالوا : قد حملنا إليك مالاً .

قال : وكم هو ؟

قالوا : عشرة آلاف دينار ، ومائتا ألف درهم .

فقال : سَلّموه إلى مولاى عُرْوَة ؛ فدفعوه إليه .

فقال لهم إبراهيم : إنى قد رأيت أن أُوَلّى الأمر هناك أبا مُسْلم ، لما جَرّبت من عَقْله ، وبَلَوْتُ من أمانته ، وأنا مُوَجّهه معكم ، فاسمعوا له ، وأطيعوا أمره ، فإنّ والدي — رحمة الله عليه — قد كان وَصَفَ لنا صِفَته ، وقد رَجَوْت أن يكون هو الذى يسوق إلينا المُلْك ، فعَاوِنُوه ، وكانِفُوه ، وانتهوا إلى رأيه ، وأمره .

قالوا : سمعا وطاعة لك أيها الإمام .

فانصرفوا ، وأبو مسلم معهم ، حتى صاروا إلى خراسان ، فتشمّر أبو مسلم للدعاء ، وأخذ القوم بالبيْعة ، ووجّه كل رجل من أصحابه إلى ناحية من خراسان ، فكانوا يدورون بها كورة كورة ، وبلدا بلدا ، فى زىّ التجار .

فاتبعه عالمٌ من الناس عظيم ، فواعدهم لظهوره يوما سمّاه لهم ، وولّى على من بايعه فى كل كورة رجلا من أهلها ، وتقدّم إليهم بالاستعداد للخروج من ذلك اليوم الذى سمّاه لهم حتى أجاب جميع أرض خراسان ، سَهْلها وجبلها ، وأقصاها وأدناها .

وبلغ فى ذلك مالم يبلغه أصحابه من قبله ، واستتبّ له الأمر على محبّته ، وصار من أعظم الناس منزلا عند شيعته ، حتى كانوا يتحالفون به ، فلا يحنثون ، ويذكرونه ، فلا يملّون .

* * *

وقد كان خالد بن عبد الله وَلِى العراقين عشر سنين ، أربعا فى خلافة يزيد ابن عبد الملك ، وستا فى خلافة هشام .

فلما عزله هشام، وولّى مكانه يوسف بن عمر حاسبه يوسف ، فخرج عليه عشرة آلاف درهم ، قد كان وهبها للناس ، وبذّرها — وكان من أسخى العرب — فحبسه يوسف بن عمر عنده فى العراق .

وكتب إلى هشام بتقاعد خالد بالمال الذى خرج عليه .

فكتب إليه هشام بالبَسط عليه[١] .

فدعا به يوسف بن عمر وقال :

ما هذا التقاعد عال السلطان يا ابن الكاهن ؟ — يعنى شِقّ ابن صعب المعروف بالكهانة — وكان خالد بن عبد الله من ولده .

فقال له خالد بن عبد الله .

أتُعَيّرُنى بِشَرَفى يا ابن الخمّار ؟ وإنما كان أبوك وجدك بالطائف أصحاب حانة .

وبلغ هشاما أن خالدا بذّر ذلك المال فى الناس ، فكتب إلى يوسف يأمره بإطلاقه ، والكف عنه .

فلم يزل خالد مقيما بالكوفة حتى خرج زيد بن على ، بن الحسين ، بن على بن أبى طالب عليهم السلام بالكوفة .

وكان خروجه فى صفر سنة ثمانى عشرة ومائة .

فسار إليه يوسف بن عمر ، فالتقوا بالكُناسة[٢] .

فانهزم أصحاب زيد ، وخذلوه .

فأخذه يوسف بن عمر ، فضرب عنقه .

وبعث برأسه إلى هشام ، وصلب جسده بالكناسة .

وإن خالدا كتب إلى هشام يستأذنه فى الخروج إلى طرسُوس[٣] غازيا متطوّعا ، فأذِن له هشام فى ذلك ؛ فسار حتى وافى طرسوس فأقام بها مرابطا .

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى اللغة ، بسط فلان من فلان ، أزال منه الاحتشام ، ويقال بسطت يده عليه أى سُلط عليه . (٢) محلة مشهورة بالكوفة .

(٣) مدينة بثغور الشام ، يشقها نهر البردان ، وبها قبر المأمون .

[وقيعة بين خالد وهشام]

وإن رجلا من أهل العراق كان يتلصّص ، ويكنى أبا المرّس ، قدم من الكوفة نحو أرض الشام ، فى جماعة من لصوص الكوفة ، حتى وافوا مدينة دمشق ، فكان إذا جنّه الليل أشعل فى ناحية من السوق النار ، فإذا تصايح الناس ، واشتغلوا بإطفاء الحريق ، أقبل فى أصحابه إلى ناحية أخرى من السوق ، فكسر الأقفال ، وأخذ ماقدر عليه ، ثم هرب .

فدخل كُلْثُوم بن عِيَاض القسرىّ على هشام ، وكان معاديًا لخالد بن عبد الله ؛ وهو ابن عمه ، فقال لهشام :

يا أمير المؤمنين ، إن هذا الحريق لم يكن بدمشق ، وقد حدث ، وماهو إلا عمل محمد بن خالد بن عبد الله القسرىّ وغلمانه .

فأمر هشام بطلب محمد بن خالد ، فأتوه به ، وبغلمان له ، فأمر بحبسه ، وحبس غلمانه .

وبلغ ذلك خالدا ، وهو بطرسوس ، فسار حتى وافى دمشق ، فنزل فى داره بها ، وغدا عليه الناس مسلمين ، حتى إذا اجتمعوا عنده قال :

« أيها الناس ، خرجت غازيا بإذن هشام وأمره ، فحبس ابنى وغلمانى ، أيها الناس ، مالى ولهشام ؟ والله ليكفّنّ عنى هشام ـ يسمّيه فى كل مرة باسمه ولا يقول أمير المؤمنين ـ أو لأدعونّ إلى عراقىّ الهوى ، شامىّ الدار ، حجازى الأصل ، إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، ألا وإنى قد أذنت لكم أن تبلغوا هشاما » .

وبلغ هشامًا ذلك فقال : خَرِفَ أبو الهيثم ، وأنا حَرِىّ باحتماله ، لقديم حُرمته ، وعظيم حقه .

فأقام خالد بن عبد الله بمدينة دمشق عاتبا لهشام ، مصارما له ، لا يركب إليه ، ولا يَبْدأ به ، وهشام فى كل ذلك يحتمله ، ويَحْلُم عنه .

وإن رجلا يسمى عبد الرحمن بن ثُوَيب الـكلبىّ دخل على خالد بن عبد الله ، فسلم عليه ، وعنده نفر من أشراف أهل الشام ، فقال له :

« يا أبا الهيثم ، إنى أحبك [لعشر خصال فيك يحبها] [1] الله منك : كرمك ، وعفوك ، ودينك ، وعدلك ، ورأفتك ، ووقارك فى مجلسك ، ونجدتك ، ووفاؤك ، وصلتك ذوى رحمك ، وأدبك » .

فأثنى عليه خالد ، وقال له خيرا .

وبلغ هشامًا ذلك فقال :

أَبَلَغ من أمر الفاسق عبد الرحمن بن ثويب أن يصف خالدا بمحاسن لم تجتمع فى أحد من الخلفاء المؤتمنين على عباد الله وبلاده ؟

ثم أمر به ، فأحسن أدبه ، ونُفى عن دمشق .

وبلغ ذلك خالدا ، وعنده أناس من وجوه أهل الشام ، فقال لهم :

« ألا تعجبون من صنيع هشام برجل ذكر منى خصالا ؟ زعم أنه يحبنى لها ، فضربه وطرده ، وإن أعظم مما قال فىّ عبد الرحمن بن ثويب قولُ عبد الله بن صَيْفى حين قال له : يا أمير المؤمنين ، أخليفتُك فى أهلك أحب إليك وآثر عندك أم رسولك ؟ » .

قال هشام : بل خليفتى فى أهلى .

قال : فأنت خليفة الله فى أرضه وخلقه ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فأنت أكرم على الله منه ، فلم يُنكر هذه المقالة من عبد الله بن صيفىّ ، وهى تُضارع الكفر ، ويغضب على عبد الرحمن بن ثويب ، وينكر عليه ماوصفنى به من خصال ، يحبها الله ، فأحبنى لها .

فلم يحفل هشام حين بلغه ذلك من قول خالد ، ولم يؤاخذه بشىء من مقالته ؛ فلما تم لخلافة هشام تسع عشرة سنة وسبعة أشهر مرض مرضته التى مات ، فأسند الخلافة إلى ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

---

(١) محو فى الأصل .

[الوليد بن يزيد]

فلما استُخلف الوليد بن يزيد أمر صاحب شُرَطه سَعيد بن غَيْلان بأخذ خالد بالمال الذى عليــه من بَقايا خَرَاج العِرَاقَيْن والبَسْط عليه ، وقال : « أسْمِعْنى صياحه » .

فأقبل سعيد بن غَيْلان إلى خالد وهو فى منزله ، فأخرجه ، فانطلق به إلى السِّجْن ، فعذّبه يومه ذلك بألوان العذاب ، فلم يكلّمه خالد بحرف .

وقال الأشعث بن القينىّ فيما نال خالداً :

أَلَا إِنَّ خَـيْرَ النَّاسِ نَفْسًا وَوَالِدًا
أَسِــيرُ قُرَيْشٍ عِنْدَهَا فِى السَّلَاسِلِ
لَعَمْرِى ، لَقَدْ أَعْمَرْتُمُ السِّجْنَ خَالِدًا
وَأَوْطَأْتُمُوهُ وَطْــأَةَ الْمُتَثَاقِلِ
فَإِنْ تَحْبِسُوا الْقَسْرِىَّ لَا تَحْبِسُوا اسْمَهُ
وَلَا تَحْبِسُوا مَعْرُوفَهُ فِى الْقَبَائِلِ

وقدم يوسف بن عمر الثقفىّ بمال العراقين على الوليد ، فجلس الوليد للناس ، وأذن لهم إذْنا عاما .

فتكلّم زياد بن عبد الرحمن الضَّمْرِىّ ، وكان مُعانداً لخالد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، علىّ محاسبةُ خالد بخمسة آلاف ألف درهم ، فسلّمه إلىّ .

فأرسل الوليد إلى خالد ــ وهو فى السِّجْن ــ أن زياد بن عبد الرحمن قد أعطى بمحاسبتك خمسة آلاف ألف درهم ، فإن تحمّلتها لنا ، وإلّا دفعْناك إليه .

فأرسل له خالد : إن عهدى بالعرب لا تُباع ، وبالله لو سألتنى أن أضمن لك هذا ، ورفع عُوداً من الأرض ، ما فعلتُ .

فلما رأى الوليد بن زيد تقاعُد خالد بما عليه من المال أمر به ، فسلّم إلى يوسف ابن عمر ، وقال : « انطلق به إلى العراق ، واستَأْدِه جميع ما عليه من المال » .

فحمله يوسف بن عمر معه إلى واسط(1) ، فكان يخرجه كل يوم ويعذّبه ، ثم يردّه إلى الحبس ، فأخرجه ذات يوم ، وقال : ما هذا التقاعُد يا ابن المائقة(2) . فقال له خالد : ما ذِكْرُك الأمهات ، لعنك الله ؟ والله لا أكلمك بكلمة أبدا . فغضب يوسف بن عمر من ذلك ، فوَضَعَ على خالد المضَرّسَة(3) ، وجعل يعذّبه بها حتى قتَلَه ، فدفنه ليلا فى عباءة كانت عليه .

فأنشأ الوليد بن يزيد :

أَلَمْ تَهْتَجْ فَتَذَّكِرُ الوِصَالَا وَحَبْلًا كَانَ مُتَّصِلًا فَزَالَا
بَلَى ، فَالدَّمْعُ مِنْكَ لَهُ سِجَالٌ كَمَاءِ الْغَرْبِ يَنْهَمِلُ انْهِمَالَا
فَدَعْ عَنْكَ ادِّكَارَكَ آلَ سُعْدَى فَنَحْنُ الأَكْثَرُونَ حَصًى وَمَالَا
وَنَحْنُ الْمَالِكُونَ النَّاسَ قَسْرًا نَسُومُهُمُ الْمَذَلَّةَ وَالنَّكَالَا
وَنُورِدُهُمْ حِيَاضَ الْخَسْفِ ذُلًّا وَمَا نَأْلُوهُمُ إِلَّا خَبَالَا(4)
وَطِئْنَا الأَشْعَرِينَ بِكُلِّ أَرْضٍ وَلَمْ يَكُ وَطْؤُنَا أَنْ يُسْتَقَالَا
وَكِنْدَةُ وَالسَّكُونُ قَدِ اسْتَعَاذُوا نَسُومُهُمُ الْمَذَلَّةَ وَالْخَبَالَا
شَدَدْنَا مُلْكَنَا بِبَنِي نِزَارٍ وَقَوَّمْنَا بِهِمْ مَنْ كَانَ مَالَا
وَهٰذَا خَالِدٌ فِينَا قَتِيلًا أَلَا مَنَعُوهُ إِنْ كَانُوا رِجَالَا
وَلَوْ كَانَتْ بَنُو قَحْطَانَ عُرْبًا لَمَا ذَهَبَتْ صَنَائِعُهُ ضَلَالَا
وَلَا تَرَكُوهُ مَسْلُوبًا أَسِيرًا نُحَمِّلُهُ سَلَاسِلَنَا الثِّقَالَا
وَلٰكِنَّ الْمَذَلَّةَ ضَعْضَعَتْهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا لِذِلَّتِهِمْ مَقَالَا

فلما سمع مَنْ كان بأقطار الشام من اليمانية هـذا الشعر أَنِفُوا أنفا شديدا ، فاجتمعوا من مدن الشام ، وساروا نحو الوليد بن يزيد .

---

(1) موضع بين البصرة والكوفة .
(2) المائق هو الأحمق فى غباوة .
(3) حجر غليظ جدا خشن الوطء .
(4) الخبال هو الهلاك والعناء .

وبلغ الوليد مَسيرهم ، فأمر بمحمد بن خالد بن عبد الله فحُبس بدمشق .

وأقبلت اليمانيّة ، وخرج إليهم الوليد بمُضَر مستعدًّا للحرب ، فالتقوا ، واقتتلوا ، وأثخنت اليمانية القتل فى مُضَر ، فانهزمت مُضَر ، وأخذوا نحو دمشق ، ودخل الوليد قصره ، فتحصّن فيه .

وأقبلت اليمانية حتى دخلت دمشق ، وأخرجوا محمد بن خالد من محبسه ، ورأّسوه عليهم .

فأرسل محمد بن خالد إلى ابن عمّ الوليد بن يزيد ، وهو يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فجاء به ، فبايعوه جميعا ، وأرسل إلى أشراف المضريّين ، فبايعوه طَوْعًا وكَرْهًا .

وخلعوا الوليد بن يزيد ، فلبث مخلوعا أياما كثيرة ، وهو خليع بنى أميّة .

[يزيد بن الوليد]

فقام يزيد بن الوليد بالخلافة ، ووضع للناس العطاء ، وفرّق فى اليمانية الصِّلات والجوائز .

وأقبل محمد بن خالد إلى قصر الوليد بن يزيد ، وأمر بالأوْهَاق(١) ، فألقيت فى شُرَف القصر ، وتسلّقوا ، فمكوه ، ونادوا : « يا وليد ، يا لُوطِىّ ، يا شارب الخمر » ، ثم نزلوا إليه ، فقتلوه .

واستدفّ(٢) الملك ليزيد بن الوليد .

وإن محمد بن خالد وجّه منصور بن جُمهور فى خيل إلى العراق ، وأمره أن يقصد إلى مدينة واسط ، فيأخذ الناس بالبيعة ليزيد بن الوليد ، فإذا بايعوا دعا بيوسف بن عمر ، فضرب عنقه .

---

(١) الحبال جمع وهق .

(٢) استتب واستقام .

فسار منصور بن جمهور ، فبدأ بالكوفة وأخذهم بالبيعة ليزيد بن الوليد ، فلما بايعوا سار منها إلى واسط ، فاجتمع إليه الناس ، فبايعوا ليزيد ، فلما فرغ دعا بيوسف ابن عمر ، فقال له :

أنت القاتل سيد العرب خالد بن عبد الله ؟

قال يوسف : كنت مأمورا ، ومالى فى ذلك من ذنب ، فهل لك أن تُعفينى من القتل ، وأعطيك ديتى عشرة آلاف درهم ؟

فضحك منه ، ثم حمله حتى أتى به محمد بن خالد بالشام ، فقال له محمد :

أمّا زَعْمك أنى كنت مأمورا فقد صدقتَ ، وقد قتلتُ قاتل أبى ، وإنما أقتلك بعيده غزوان ، ثم قدمه ، فضرب عنقه .

فملك يزيد بن الوليد ستة أشهر ، ثم مات .

[إبراهيم بن الوليد]

وقام بالملك من بعده أخوه إبراهيم بن الوليد ، فبايعه الناس بالشام ، وجميع الآفاق ، وجعل ولى العهد من بعده عبد العزيز بن الحجّاج بن عبد الملك بن مروان ، واستعمل على العراق يزيد بن عمر بن هُبيرة ، فسار ابن هبيرة حتى نزل المكان الذى إلى اليوم يسمى « قصر ابن هبيرة » وبنى فيه قصرا ، واتخذ ذلك المكان منزلا له ولجنوده .

قالوا : وإن المضرية تلاوَمَتْ فيما كان من غَلَبَة اليمانية عليها ، وقتلهم الخليفة الوليد بن يزيد ، فدبّ بعضهم إلى بعض ، واجتمعوا من أقطار الأرض وساروا حتى وافوا مدينة حِمْص[1] ، وبها مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وكان يومئذ شيخ بنى أميّة وكبيرهم ، وكان ذا أدبٍ كامل ورأىٍ فاضل ، فاستخرجوه

---

(١) بلد مشهور فى الإقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة ، فى طرفه القبلى قلعة حصينة على تل عال كبير ، بين دمشق وحلب ، فى نصف الطريق ، وقد سمى باسم من أحدثه ، وهو حمص ابن مكنف العمليق ، وبه قبر خالد بن الوليد .

من داره ، وبايعوه ، وقالوا له : « أنت شيخ قومك وسيّدهم ، فاطلب بثأر ابن عمك الوليد بن يزيد » .

فاستمد مروان بجنوده فى تميم ، وقيس ، وكِنانة ، وسائر قبائل مُضَر ، وسار نحو مدينة دمشق .

وبلغ ذلك إبراهيم بن الوليد ، فتحصّن فى قصره .

ودخل مروان بن محمد دمشق ، فأخذ إبراهيم بن الوليد وولىّ عهده عبد العزيز ابن الحجّاج فقتلهما ، وهرب محمد بن خالد بن عبد الله القَسْرىّ نحو العراق حتى أتى الكوفة ، فنزل فى دار عمرو بن عامر البَجَلىّ ، فاستخفى فيها ، وعلى الكوفة يومئذ زياد بن صالح الحارثىّ ، عاملا ليزيد بن عمر بن هبيرة .

[مروان بن محمد]

واستدفّ المُلْك لمروان بن محمد ، وأعطاه أهل البُلدان الطاعة ؛ ثم إن العَصَبيّة وقعت بخراسان بين المضريّة واليمانية .

وكان سبب ذلك ، أن جُدَيْع بن علىّ المعروف بالكِرمانىّ كان سيّد مَنْ بأرض خراسان من اليمانية ، وكان نَصر بن سيّار مُتَعَصِّباً على اليمانيّة ، مُبْغضاً لهم ، فكان لا يستعين بأحد منهم ، وعادَى أيضا رَبيعة لميلها إلى اليمانية ، فعاتبه الكرمانىّ فى ذلك .

فقال له نصر : ما أنت وذاك ؟

قال الكرمانىّ : إنما أريد بذلك صَلَاح أمرك ، فإنى أخاف أن تُفسد عليك سلطانك ، وتحمل عليك عدوّك هذا المُطِلّ ، يعنى المُسَوِّدَة(١) .

قال له نصر : أنت شيخ قد خَرِفت .

فأسمعه الكرمانىّ كلاماً غليظاً ، فغضب نصر ، وأمر بالكرمانى إلى الحبس ، فحُبس فى القُهُنْدُز ، وهى القلعة العتيقة .

---

(١) المسودة هم العباسيون ، لسواد أغطية رءوسهم .

فغضب أحياء العرب للكرمانىّ ، فاعتزلوا نصر بن سيّار ، واجتمع إلى نصر المضريّة ، فطابقوه وشايعوه .

وكان للكرمانىّ مَوْلًى من أبناء العجم ، ذو دهاء وتجربة ، وكان يخدمه فى محبسه ، وكان الكرمانىّ رجلا ضخما عظيم الجثة ، عريض ما بين المنكبين ، فقال له مولاه :

ـ أتُوَطِّنُ نفسك على الشِّدَّة والمُخاطَرة حتى أُخْرِجك من الحبس ؟

قال له الكرمانىّ : وكيف تخرجنى ؟

قال : إنى قد عيّنتُ على نقب ضيّق ، يخرج منه ماء المطر إلى الفارقين ، فَوَطِّن نفسك على سلخ جلدك لضيق النقب .

قال الكرمانى : لابد من الصَّبْر ، فاعمل ما أردت .

فخرج مولاه إلى اليمانية ، فوَاطأهم ، ووطّنهم فى طريقه ، فلما جَنَّ الليل ، ونام الأحراس أقبل مولاه من خارج السور ، فوقف له على باب النقب ، وأقبل الكرمانىّ حتى أدخل رأسه فى النقب ، وبَسَطَ فيه يديه حتى نالَتْ يداه كَفَّىْ مولاه ، فاجتذبه اجْتِذابة شديدة ، سَلَخَ بها بعض جلده ، ثم اجتذبه ثانية حتى انتهى به إلى النِّصْف ، فإذا هو بحَيَّة فى الثَّقْب ، فنادى الكرمانىّ مولاه : « بَدْ بَخْتْ، مَارْمَارْ » أى « حيّة قد عرضت » ، فقال مولاه : « بَكُزْ بَكُزْ » أى « عُضَّها » ، ثم اجتذبه الثالثة ، فأخرجه ، فقال لمولاه : « أَمْهِلْنِى ساعة ، حتى أُفِيقَ ، ويَسْكُنَ ما بى من وَجَع الانسلاخ » .

فلما رجعت إلى الكرمانىّ نفسه نزل من ذلك التلّ ، وأُتِىَ بدابة ركبها حتى انتهى إلى منزله ، واجتمعت إليه الأزْد ، وسائر مَنْ بخراسان من اليمانية ، وانحازت ربيعة معهم .

وبلغ نصر بن سيّار الخبر ، فدعا بصاحب الحبس فضرب عنقه ، وظَنَّ أن ذلك كان بمُوَاطَأة منه .

ثم قال لِسَلْم بن أَحْوَز المازنى ، وكان على شُرطِه : « انطلق إلى الكرمانى » ، فاعلمه : أنى لم أرد به مكروها ، وإنما أردت تأديبه لما استقبلنى به ، ومُره أن يصير إلىّ آمنا ، لأناظره فى بعض الأمر .

فصار سَلْم إليه ، فإذا هو بمحمد بن المُثَنّى الرَّبَعىّ جالسا على الباب فى سبعمائة رجل من ربيعة ، فدخل عليه ، فأبلغه الرسالة ، فقال الكِرمانىّ : لا ، ولا كرامة ، ماله عندى إلا السيف .

فأبلغ ذلك نصرا .

فأرسل نصر بعِصْمة بن عبد الله الأزدىّ ، وكان من خاصته ، فقال له : انطلق إلى ابن عمك ، فآمنه ، ومُرْه أن يصير إلىّ آمنا ، لأناظره فى بعض ما قد دهمنا من هذا العدو .

فقال الكرمانى لعصمة ، حين أبلغه رسالة نصر : « يابن الخبيثة ، وما أنت وذاك ؟ وقد ذكر لى عمك ، أنك لغير أبيك الذى تُنْسَب إليه ، إنما تريد أن تتقرب إلى ابن الأقطع — يعنى نصرا — أما لو كنت صحيح النسب لم تفارق قومك ، وتميل إلى من لا رحم بينه وبينك » .

فانصرف عصمة إلى نصر ، وأبلغه قوله .

ثم إن الكرمانى كتب إلى عمر بن إبراهيم ، من ولد أبْرَهة بن الصبَّاح ، ملك حِمْير ، وكان آخر ملوكهم ، وكان مستوطنا الكوفة ، يسأله أن يوجه إليه بنسخة حِلْف اليمن وربيعة ، الذى كان بينهم فى الجاهلية ، ليُحْيِيَه ، ويجدّده ، وإنما أراد بذلك أن يستدعى ربيعة إلى مكانفته .

فأرسل به إليه .

فجمع الكرمانىّ إليه أشراف اليمن وعظماء ربيعة ، وقرأ عليهم نسخة الحِلْف .

وكانت النسخة :

« بسم الله العلىّ الأعظم ، الماجد المُنْعم ، هذا ما احتلف عليه آل قحطان وربيعة

الأخوان ، احتلفوا على السَّواء السَّوا ، والأواصر والإخا ، ما احتــذَى رجل حِذا ، وما راح راكب واغتَدى ، يحمله الصغار عن الكبار ، والأشرار عن الأخيار . آخرَ الدهر والأبَد ، إلى انقضاء مدة الأمد ، وانقراض الآباء والولد ، حلفٌ يُوَطَّأ وَيُتَبْ ، ماطلع نجم وغرّب ، خلطوا عليه دماهم ، عند ملك أرْضاهم ، خلطها بخمر وسقاهم ، جزَّ من نوصيهم أشعارَهم ، وقَلَم عن أناملهم أظفارهم ، فجمع ذلك في صرّ ، ودفنــه تحت ماء غَمْر ، في جوف قعْر بحرٍ آخر الدهر ، لا سَهو فيه ولا نسيان ، ولا غدر ولا خِذلان ، بعقد مُوَكَّد شديد ، إلى آخر الدهر الأَبيد ، مادعا صبيٌّ أباه ، وما حلب عبد في إناه ، تَحمل عليه الحوامل ، وتقبل عليه القَوابل ، ماحل بعد عام قابل ، عليه المَحيا والمات ، حتى ييْبس الفرات ، وكتب في الشهر الأصم[1] عند ملكِ أخي ذِمَم ، تبّع بن مَلْكيكرِب ، معدن الفضل والحسب ، عليهم جميعا كفل ، وشهد الله الأجل ، الذى ماشاء فعل ، عَقَلَه من عقل ، وجهله من جَهِل » .

فلما قُرِىء عليهم هذا الكتاب توافقوا على أن ينصر بعضهم بعضا ، ويكون أمرهم واحدا .

فأرسل الكِرّمانى إلى نصر : « إن كنت تريد المحاربة فابرز إلى خارج المدينة » .

فنادى نصر في جنوده من مضر .

وخرج ، فعسكر ناحية من الصحراء ، وفعل الكرمانىّ مثل ذلك . وخندق كل واحد منهما في عسكره ، ويسمى ذلك المكان إلى اليوم « الخَنْدَقَيْن » .

ووجه الكرمانى محمد بن المثنى ، وأبا المَيْلاء الرَّبعيَّيْن ، في ألف فارس من ربيعة ، وأمرهما أن يتقدما إلى عسكر نصر بن سيّار .

فأقبلا ، حتى إذا قاربا عسكره قال نصر لابنه تميم :

ــ اخرج إلى القوم في ألف فارس من قيس وتميم .

---

(١) الشهر الأصم : هو رجب ، وسمى بذلك في الجاهلية لعدم سماع السلاح فيه .

فانتخب ألف فارس ، ثم خرج ، فالتقوا ، واقتتلوا ، وحمل محمد بن المُثَنَّى الرَّبَعىّ على تميم بن نصر ، فتضاربا بسيفيهما ، فلم يصنع السيفان شيئاً ، لكمال لَأْمَتَيْهما ، فلما رأى محمد بن المُثَنَّى ذلك حمل بنفسه على تميم ، فعانقه ، فسقطا جميعا إلى الأرض ، وصار محمد فوق تميم ، فانحنى على حلقه بالسيف ، فذبحه .

وقال نصر بن سَيَّار يرثى ابنه تميما :

نَفَى عَنِّى الْعَزَاءَ وَكُنْتُ جَلْدًا　　　غَدَاةُ جَلَى الْفَوَارِسُ عَنْ تَمِيمِ
وَمَا قَصُرَتْ يَدَاهُ عَنِ الْأَعَادِى　　　وَلَا أَضْحَى بِمَنْزِلَةِ اللَّئِيمِ
وَفَاءً لِلْخَلِيفَــــةِ وَابْتِذَالًا　　　لِمُهْجَتِهِ يُدَافِعُ عَنْ حَرِيمِ
فَمَنْ يَكُ سَائِلًا عَنِّى فَإِنِّى　　　أَنَا الشَّيْخُ الْغَضَنْفَرُ ذُو الْكَلِيمِ
نَمَتْنِى مِنْ خُزَيْمَةَ بَاذِخَاتٌ　　　بَوَاسِقُ يَنْتَمِينَ إِلَى صَمِيمِ

قالوا : فمكثوا بذلك عشرين شهرا ، ينهض بعضهم إلى بعض كل أيام ، فيقتتلون هَوِيًّا ، ثم ينصرفون ، وقد انتصف بعضهم من بعض .

* * *

وشَغَلَهم ذلك عن طلب أبى مسلم وأصحابه حتى قوى أمره ، واشتدّ ركنه ، وعلن شأنه فى جميع كُوَر خراسان .

فقال عقيل بن مَعْقِل الليثىّ لنصر بن سيّار : إن هذه العَصَبِيَّة قد تمادت بيننا وبين هؤلاء القوم ، وقد شَغَلَتْكَ عن جميع أعمالك ، وضبط سلطانك ، وقد أظلك هذا العدوّ الكَلِب ، فأنشُدك الله أن تَشْأَمَ[1] نفسك وعشيرتك ، قارِبْ هذا الشيخ — يعنى الكرمانىّ — بعض المقاربة ، فقد انتقض الأمر على الإمام مروان بن محمد .

فقال نصر : يا ابن عمّ ، قد فهمت ما ذكرت ، ولكن هذا الملاّح قد ساعدته

(١) يعنى أن تأخذ بهم نحو الشام .

عشيرته ، وظافرتهم على أمرهم ربيعة ، فقد عدا من أجل ذلك طَوْره ، فلا يَنوى صُلْحا ، ولا يُنيبُ إلى أمان ، فانطلق يا ابن عم إن شئت ، فَسَلْهُ ذلك ، واعْطِهْ عنى ما أراد .

فمضى عقيل بن مَعْقِل حتى استأذن على الكرمانى ، فدخل فسلّم .

ثم قال له :

ـ إنك شيخ العرب وسيّدها بهذه الأرض ، فأبقِ عليها ؛ قد تمادَتْ هذه العصبيّة بيننا وبينكم ، وقد قُتِلَ منا ومنكم ما لا يحصيه أحد ، وقد أرسلنى نصر إليك ، وجعل لك حُكْم الصبيّ على أبَوَيْه ، على أن ترجع إلى طاعته ، لتتآزرا على إطفاء هذه النار المضطرمة فى جميع كُور خراسان ، قبل أن يكاشفوا ـ يعنى المُسَوِّدَة ـ .

قال الكرمانىّ : قد فهمت ما ذكرت ، وكنت كارِهاً لهذا الأمر ، فأبَى ابن عمك ـ يعنى نصرًا ـ إلا البذخ والتّطاوُل حتى حبسنى فى سجنه ، وبعثنى على نفسه وقومه .

قال له عقيل : فما الذى عندك فى إطفاء هذه النّائِرَة(1) ، وحَقْن هذه الدّماء ؟

قال الكرمانىّ : عندى من ذلك أن نعتزل أنا وهو الأمر ، ونُوَلّى جميعاً أمرَنا رجلًا من ربيعة ، فيقوم بالتدبير ، ونساعده جميعاً ، وتتشمّر لطلب هؤلاء المُسَوِّدَة قبل أن يجتمعوا ، فلا نَقْوَى بهم ، ولو أَجْلَبَ عليهم معنا جميع العرب .

قال عقيل : إن هذا ما لا يَرْضَى به الإمام مروان بن محمد ، ولكن الأمير نصرًا يجعل الأمر لك ، تُوَلّى مَنْ شئت ، وتعزل من شئت ، وتدبّر فى هؤلاء المُسَوِّدَة ما شئت ، ويتزوّج إليك ، وتتزوّج إليه .

قال الكرمانىّ : كيف يتزوّج إلىّ . وليس لى بكُفْء ؟

قال عقيل : أتقول هذا لرجل له بيت كِنانة ؟

(1) النائرة : الحقد والعداوة ، تقع بين القوم .

قال الكرمانىّ : لو كان من مُصَاص[١] كِنانة ما فعلتُ ، فكيف وهو مُلْصَق فيهم ؟ فأما قولك ، إنه يجعل الأمر إلىّ ، أُوَلّى ، وأعْزِل من أريد ، فلا ، ولا كرامة ، أن أكون تبعًا له ، أو أُقارّه على السلطان .

فانصرف عقيل إلى نصر ، فقال : « إنك كنت بهذا اللاح أبصر منى » . ثم أخبره بما دار بينهما كله .

فكتب نصر بن سَيّار، إلى الإمام مروان بن محمد، يُخبره بخروج الكرمانىّ عليه ، ومحاربته إياه ، واشتغاله بذلك من طَلَب أبى مسلم وأصحابه ، حتى قد عَظُمَ أمرهم ، وأن المُحْصِى المُقَلّل لهم يزعم ، أنه قد بايعه مائتا ألف رجل ، من أقطار خراسان ، فتدارَكْ يا أمير المؤمنين أمرك ، وابعث إلىّ بجنود من قِبَلك يَقْوَ بهم رُكنى ، وأسْتَعِنْ بهم على محاربة من خالفنى .

ثم كتب فى أسفل كتابه :

أَرَى تَحْتَ الرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ... وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ
فَإِنَّ النَّارَ بِالعُودَيْنِ تُذْكَى ... وَإِنَّ الشَّرَّ مَبْدَؤُهُ كَلَامُ
وَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ ، لَيْتَ شِعْرِى ... أَأَيْقَاظٌ أُمَيَّةُ أَمْ نِيَامُ؟
فَإِنْ يَقِظَتْ ، فَذَاكَ بَقَاءُ مُلْكٍ ... وَإِنْ رَقَدَتْ ، فَإِنِّى لَا أُلَامُ
فَإِنْ يَكُ أَصْبَحُوا، وَثَوَوْا نِيَامًا ... فَقُلْ قُومُوا ، فَقَدْ حَانَ القِيَامُ

فلما وصل كتابه إلى مروان كتب إلى معاوية بن الوليد ، بن عبد الملك ، وكان عامله على دمشق ، ومروان حينئذ بمدينة حِمْص ، يأمره أن يكتب إلى عامله بالبَلْقاء[٢] ، أن يسير إلى الحُمَيْمَة[٣] ، فيأخذ إبراهيم بن محمد بن علىّ ، فيشدّه وثاقا ، ويرسل به إليه .

---

(١) مصاص القوم : أصل منبتهم .
(٢) أرض بالشام .
(٣) بلد من أعمال عمان فى أطراف الشام كانت منزل بنى العباس .

فأتى إبراهيم ، وهو جالس فى مسجده ، فلفّ رأسه ، وحُمِل إلى مروان ، واتبعه من أهل بيتـه عبد الله بن علىّ ، وعيسى بن موسى بن علىّ ، ونفر من مواليه .

فلما دخل على مروان قال له : ما هذه الجموع التى خرجت بخراسان تطلب لك الخلافة ؟

قال له إبراهيم : مالى بشىء من ذلك علم ، فإن كنت إنما تريد التَّجَنِّى علينا فدونك وما تريد .

ثم بَسَطَ لسانه على مروان ، فأمر به ، فَحُبِس .

قال الهيثم : « فأخبرنى أبو عُبَيْدَة ، قال : كنت آتى إبراهيم فى محبسه ، ومعه فيه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، فأسلّم عليه ، وأظل عامّة نهارى عنده ، وربما جَنّنى الليـل عنده ، فأبيت معه ؛ فبينا أنا ذات ليلة عنده ، وقد بِتّ معه فى الحبس ، فأنا نائم فى سَقِيفَةٍ فيه ، إذ قيل ، مَوْلَى لمروان ، فاستفتح الباب ، فَفُتِح له ، فدخل ومعه نحو من عشرين رجلا من موالى مروان ، فلبثوا ساعة ، ثم خرجوا ، ولم أسمع لأحد صوتا .

فلما أصبحت دخلت البيت لأسلّم عليهما ، فإذا هما قتيلان ، فظننت أنهما خُنِقا » .

ولما قُتِل إبراهيم بن محمد خاف أخواه : أبو جعفر ، وأبو العباس على أنفسهما ، فخرجا من الحميمة هاربين من العراق ، ومعهما عبد الله ، وإسماعيل ، وعيسى ، وداود بنو علىّ بن عبد الله بن عباس ، حتى قدموا الـكوفة ، ونزلوا على أبى سَلَمَة الداعى ، الذى كان دَاعِيَةَ أبيهما ، محمد بن علىّ بأرض العراق .

فأنزلهم جميعاً دار الوليـد بن سعد ، التى فى بنى أَوْدٍ ، وألزمهم مُساوِرًا القصّاب ، ويَقْطِينا الأزارِىّ ، وكانا من كبار الشيعة ، وقد كانا لَقِيَا محمد بن علىّ فى حياته ، فأمرهما أن يُعينا أبا سَلَمَة على أمره .

وكان أبو سَلَمة خَلّالاً[1] ، فكان إذا أمسوا أقبل مُساور بشِقّة لحم ، وأقبل أبو سَلَمة بخلّ ، وأقبل يَقْطِين بالأبْزار ، فيطبخون ، ويأكلون .

وفى ذلك يقول أبو جعفر :

لَحْمُ مُسَاوِرٍ ، وَخَلُّ أَبِي سَلَمَه   وَأَبْزَارُ يَقْطِينٍ ، وَطَابَتِ الْمَرَقَهْ

فلم يزل أبو العباس ، وأبو جعفر مستخفيَيْن بالكوفة إلى أن قدم قُحْطبة ابن شَبيب العراق .

***

قالوا : وبلغ أبا مسلم قتل الإمام إبراهيم بن محمد، وهرب أبى العباس، وأبى جعفر من الشام ، واستخفاؤهما بالكوفة عند أبى سَلَمة .

فسار من خراسان حتى قدم الكوفة ، ودخل عليهما ، فعزّاهما بأخيهما ، إبراهيم الإمام .

ثم قال لأبى العباس : مُدّ يدك أبايعك .

فمدّ يده ، فبايعه .

ثم سار إلى مكة .

ثم انصرف إليهما .

فتقدم إليه أبو العباس ، ألّا يدع بخراسان عربيًا لا يدخل فى أمره إلّا ضرب عنقه .

ثم انصرف أبو مسلم إلى خراسان ، فجعل يدورها ، كُورَة كُورَة ، ورِسْتاقًا رِسْتاقًا ، فيُوَاعِدهم اليوم الذى يظهرون فيه ، ويأمرهم بتهيئة السّلاح والدوابّ لمن قدر .

قالوا : ولما أعْيَتْ نصر بن سَيّار الحِيَلُ فى أمر الكرمانىّ ، وخاف أزُوفَ أبى مسلم كتب إلى مروان :

---

(١) يعنى بيع الخل .

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْوَافِي بِنُصْرَتِهِ ... قَدْ آنَ لِلأَمْرِ أَنْ يَأْتِيكَ مِنْ كَثَبِ
أَضْحَتْ خُرَاسَانُ ، قَدْ بَاضَتْ صُقُورُهَا ... وَفَرَّخَتْ فِي نَوَاحِيهَا بِلَا رَهَبِ
فَإِنْ يَطِرْنَ ، وَلَمْ يُحْتَلْ لَهُنَّ بِهَا ... يُلْهِبْنَ نِيرَانَ حَرْبٍ أَيَّمَا لَهَبِ

فلما وصلت هذه الأبيات إلى مروان كتب إلى يزيد [بن عمر بن هُبيرة عامله][1] على العِرَاقَيْن ، يأمره أن ينتخب من جنوده اثنا عشر رجلا ، مع فَرْضٍ يفرضه بالعراق من عرب الكوفة والبصرة ، ويُوَلّى عليهم رجلا حازما ، يرضى عقله وإقدامَه ، ويوجّه بهم إلى نصر بن سيار .

فكتب يزيد بن عمر بن هبيرة إلى مروان : « أن من معه من الجنود لا يَفُونَ باثنى عشر ألفا ، ويُعلمه أن فَرْضَ الشام أفضل من فرض العراق ، لأن عرب العراق ليست لهم نصيحة للخلفاء من بنى أمية ، وفى قلوبهم إِحَن » .

ولما أبطأ عن نصر الغوثُ أعاد إلى مروان :

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى الإِمَامَ الَّذِى ... قَامَ بِأَمْرٍ بَيِّنٍ سَاطِعِ
أَنِّى نَذِيرٌ لَكَ مِنْ دَوْلَةٍ ... قَامَ بِهَا ذُو رَحِمٍ قَاطِعِ
وَالثَّوْبُ إِنْ أَنْهَجَ فِيهِ الْبِلَى ... أَعْيَى عَلَى ذِى الْحِيلَةِ الصَّانِعِ
كُنَّا نُدَارِيهَا ، فَقَدْ مُزِّقَتْ ... وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ

فلم يجد عند مروان شيئا .

[ظهور دعوة أبى مسلم]

وحان الوقت الذى واعد فيه أبو مسلم مُستجيبيه ، فخرجوا جميعا فى يوم واحد من جميع كُوَر خراسان حتى وافوه ، وقد سوّدوا ثيابهم ، تسلّيًا على إبراهيم ابن محمد بن على بن عباس الذى قتله مروان ، فكان أول من وَرَدَ عليه من القوّاد ،

(١) فى الأصل محو مكان ما بين الحاصرتين .

وقد لبس السواد ، أُسيدُ بن عبد الله ، ومُقاتل بن حكيم ، ومحقّن بن غَزْوان ، والحَريش مولى خُزَاعة ، وتنادوا : محمد ، يامنصور . يعنون محمد بن على بن عبد الله ابن عباس . وهو أول من قام بالأمر ، وبثّ دعاته فى الآفاق .

وانجفل الناس على أبى مسلم من هَرَاة ، وبُوشَنْج ، ومَرْوَ الرُّوذ ، والطالقان ، وَمَرْوَ ، وَنَسَا ، وأبيوَرْد[1] ، وطُوس[2] ، ونَيْسابور ، وسَرَخس ، وبلخ ، والصَّغانيان ، والطُّخارستان ، وخُتَّلان ، وكَش[3] ، ونَسَف ، فتوافوا جميعا مسوّدى الثيــابا ، وقد سوّدوا أيضا أنصاف الخشب التى كانت معهم ، وسمّوها « كَافَرْ كُوبَاتْ »[4] .

وأقبلوا فرسانا ، وحمّارة ، ورجّالة ، يسوقون حميرهم ويزجرونها ، هَرْمَرْوان ، يسمونها مروان ، رَغما لمروان بن محمد ، وكانوا زهاء مائة ألف رجل .

فلما بلغ نصر بن سيار ظهور أبى مسلم سُقط فى يديه ، وخاف على نفسه ، ولم يَأْمَنْ أن ينحاز الكرمانىّ فى اليمانية ، والربعيّة إليهم ، فيكون فى ذلك اصطلامه ، فأراد أن يستعطف من كان مع الكرمانى من ربيعة .

فكتب إليهم ، وكانوا جميعا بمرو :

أَبْلِغْ رَبِيعَةَ فى مَرْوٍ وَإِخْوَتَهَا ... أن يَغْضَبُوا قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعَ الغَضَبُ
مَابَالُكُمْ تُلْحِقُونَ الحربَ بينكمُ ... كَأَنَّ أهلَ الحِجَا عَنْ فِعْلِكُمْ غُيَّبُ
وَتَتْرُكُونَ عَدُوًّا قَدْ أَظَلَّكُمُ ... مِمَّنْ تَأَشَّبَ ، لَادِينٌ وَلَا حَسَبُ
لَيْسُوا إِلَى عَرَبٍ مِنَّا ، فَنَعْرِفَهم ... وَلَا صَمِيمَ المَوَالِى ، إِنْ هُمُ نُسِبُوا
قَوْمًا يَدِينُونَ دِينًا مَاسَمِعْتُ بِهِ ... عن الرَّسُولِ ، وَلَا جَاءَتْ بِهِ الكُتُبُ

---

(١) مدينة بخراسان تقع بين سرخس ونسا .

(٢) مدينة تشتمل على بلدتين بالقرب من نيسابور ، بها قبر هرون الرشيد ، وعلى بن موسى الرضا فى بستان كان له بها ، وكان بينهما وبين نيسابور قصر عظيم بناه بعض التبابعة لما قصد الصين ، ورأى أن حرمه وكنوزه وذخائره .

(٣) قرية من قرى أصفهان .

(٤) هكذا فى الأصل ، وصوابه « كافركوباد » أى مضرب الكافر .

فَمَنْ يَكُنْ سَائِلِى عَنْ أَصْلِ دِينِهِمُ   فَإِنَّ دِينَهُمُ أَنْ تُقْتَلَ الْعَرَبُ

فلم تحفل ربيعة بهذه الأبيات .

* * *

وبلغ أبا العباس الإمام ، وهو مستخفٍ بالكوفة أن أبا مسلم لو أراد أن يصطلم عسكر نصر والكرمانىّ لفعل ، غير أنه يدافع الحرب ، فكتب إليه يؤنبه فى ذلك .

وكان أبو مسلم يحب أن يستميل أحدَ الرجلين ، ليفصم به شوكة الآخر ، فأرسل إلى الكرمانى ، يسأله أن ينضمّ إليه ، لينتقم له من نصر بن سيّار ، فعزم على السير إليه ، وأقبل أبو مسلم فى عساكره إلى أرض مَرو ، فعسكر على ستة فراسخ من المدينة .

وخرج إليه الكرمانى ليلا فى نفر من قومه ، فاستأمن لجميع أصحابه ، فآمنهم أبو مسلم ، وأكرم الكرمانىّ ، فأقام معه ، وشق ذلك على نصر بن سيّار ، وأيقن بالهلكة .

فكتب إلى الكرمانى يسأله الرجوع إليه ، على أن يعتزلا ، ويوليا الأمر رجلا من ربيعة، يرضيانه ، وهو الأمر الذى كان سأله إياه.

فأصغى الكرمانى إلى ذلك ، وتحمّل ليلا من معسكر أبى مسلم، حتى انصرف إلى معسكره ، واسترسل الكرمانىّ إلى نصر ، فلما أصاب منه غِرّةً دسّ عليه مَنْ قتله .

ويقال : بل وجّه إليه نصر رجلا من قواده فى ثلاثمائة فارس ، فكمنوا له ليلا عند منصرفه من معسكر أبى مسلم ، فلما حاذاهم ، وهو غافل عنهم ، حملوا عليه ، فقتلوه .

وبلغ ذلك أبا مسلم فقال « لا يُبْعِدُ الله غيره ، لو صبر معنا لَقُمْنَا معه ، ونصرناه على عدوه » .

وقال نصر فى ظفره بالكرمانىّ :

لَعَمْرِى ، لَقَدْ كَانَتْ رَبِيعَةُ ظَاهَرَتْ   عَدُوِّى بِغَدْرٍ حِينَ خَابَتْ جُدُودُهَا
وَقَدْ غَمَزُوا مِنِّى قَنَاةً صَلِيبَةً   شَدِيدًا عَلَى مَن رَامَهَا الكَسْرَ عُودُهَا
وَكُنْتُ لَهَا حِصْنًا ، وَكَهْفًا ، وَجُنَّةً   يَؤُولُ إِلَىَّ ، كَهْلُهَا ، وَوَلِيدُهَا
فَمَالُوا إِلَى السَّوْءَاتِ ، ثم تَعَذَّرُوا   وهل يَفْعَلُ السَّوْءَاتِ إلا مُرِيدُهَا ؟
فَأَوْرَدْتُ كِرْمَانِيَّهَا الموتَ عَنْوَةً   كَذَاكَ مَنَايَا النَّاسِ يَدْنُو بَعِيدُهَا

قالوا : ولما قُتل الكرمانى مضى ابنه علىّ من خندقه إلى أبى مسلم ، فسأله أن يطلب له بثأر أبيه .

فأمر قحطبة بن شبيب أن يستعد، ويسير حتى يُنيخ على نصر فى خندقه ، فينابذه الحرب ، أو يُنيبَ إلى الطاعة .

فسار قحطبة ، فبدأ بالمدينـــة ، فدخلها ، واستولى عليها ، وأرسل إلى نصر يُؤْذنه بالحرب .

فكتب نصر إلى أبى مسلم ، يسأله الأمان ، على أن يدخل معه فى أمره ؛ فأجابه إلى ذلك ، وأمر قُحْطبة أن يُمسك عنه .

فلما أصاب نصر من قحطبة غَفْلَةً تحمّل فى حَشَمه وولده ، وحاشيته ليلا ، فخرج من معسكره من غير أن يُعلم أصحابه ، وسار نحو العراق ، وجعل طريقه على جُرْجان ، فأقام بها ، فمرض فيها ، فسار منها إلى سَاوة[1] ، فأقام بها أياما ثم توفى بها .

فاستَأمَنَ جميع أصحابه وأصحاب الكرمانى إلى أبى مسلم إلا أُناساً كرهوا أمر أبى مسلم ، فساروا من مدينة مَرْو هُرَّاباً ، حتى أتوا طوس ، فأقاموا بها .

***

---

(١) وهى ساوى ، مدينة فى بلاد فارس الوسطى ، واقعة على الطريق بين قزوين والقم ، وقد ضربها المغول سنة ١٢٢٠ ، وكان سكانها سنيين على مذهب أبى حنيفة ، والآن كلهم شيعيون .

وأن أبا مسلم استولى على خراسان ، واستعمل عُمّاله عليها .

فكان أوّل من عقد له منهم زِنْباع بن النعمان، على سمرقند ، ووَلّى خالد بن إبراهيم، على طخارستان ، ووَلّى محمد بن الأشعث ، الطَّبَسَيْن[1] ، ثم وجّه أصحابه إلى سائر تلك البلاد ، وضمّ إلى قحطبة بن شَبيب أبا عَوْن ، مقاتل بن حكيم العَكّيّ ، وخالد بن بَرْمك ، وحارثة بن خُزيمة ، وعبد الجبّار بن نَهيك ، وجَهْوَر بن مُراد العجليّ ، والفضل بن سليمان ، وعبد الله بن النعمان الطائيّ ، وضمّ إلى كل واحد من هؤلاء القوّاد صناديدَ الجنود وأبطالهم .

وأمر قحطبة أن يسير إلى طوس ، فيأتى من قد اجتمع بها من جنود نصر ابن سيّار ، والكرمانيّ ، فيحاربهم حتى يطردهم عنها ، ثم يتقدم ،قُدُما قُدُما ، حتى يَرِد العراق .

فسار قحطبة حتى إذا دَنَا من طوس هرب أولئك الذين قد كانوا تجمّعوا بها ، فتفرّقوا ، وسار قحطبة من طوس إلى جُرْجان ، فافتتحها .

وسار منها إلى الرّيّ ، فواقع عامِل مروان عليها ، فهزمه ، ثم سار من الرّيّ إلى أصبهان حتى وافاها ، وبها عامر بن ضُبارة ، من قِبَل يزيد بن عمر ، فهرب منه ، ودخلها قحطبة ، واستولى عليها .

ثم سار حتى أتى نَهَاوَنْد ، وبها مالك بن أدْهم الباهليّ ، فتحصّنَ أياما ، ثم استأمَنَ إلى قحطبة ، فآمنه ، فخرج إليه ، وسار قحطبة حتى نزل حُلْوَان ، فأقام بها .

وكتب إلى أبي مسلم يُعلمه خبره ، وأن مروان بن محمد قد أقبل من الشام حتى وافَى « الزّابَيْن »[2] فأقام بها فى ثلاثين ألفا ، وأن يزيد بن عمر بن هبيرة قد استعد بواسط .

---

(١) كورتان بخراسان .

(٢) كورة على نهر بقرب واسط .

فأتاه كتاب أبى مسلم ، يأمره أن يوجّه أبا عَوْن العَكّىّ فى ثلاثين ألف فارس من أبطال جنوده إلى مروان بن محمد بالزّابَيْن ، فيحاربه ، ويسير هو فى بقيّة الجنود إلى واسط ، فيحارب يزيد بن عمر ، ليشغله عن توجيه المَدَد إلى مروان . ففعل قحطبة ذلك .

* * *

وبلغ مروان فُصُولَ أبى عون إليه بالجيوش من حُلْوان فاستقبله ، فالتقيا بشَهْرَزُور ، فاقتتلوا ، فانهزم أهل الشام حتى صاروا إلى مدينة حَرّان .

قال الهيثم : فحدثنى إسماعيل بن عبد الله القسرى ، أخو خالد بن عبد الله قال :

«دعانى مروان عند وصوله إلى حرّان ، وكنت أخص الناس عنده ، فقال لى : « يا أبا هاشم » ـ وما كنّانى قبل ذلك ـ .

فقلت : « لبيك يا أمير المؤمنين » .

قال : « ترى ما قد نزل من الأمر ، وأنت الموثوق برأيه ، فما ترى ؟ » .

قلت : « وعلام أجمعت يا أمير المؤمنين ؟ » .

قال : « أجمعت على أن أرتحل بأهلى ، وولدى ، وخاصة أهل بيتى ، ومن اتبعنى من أصحابى حتى أقطع الدرّب ، وأصير إلى ملك الروم ، فأستوثق منه بالأمان ، ولا يزال يأتينى الخائف من أهل بيتى وجنودى حتى يكثُف أمرى ، وأصيب قوّة على محاربة عدوى » .

قال إسماعيل : وذلك، والله ، كان الرأى له عندى ، غير أنى ذكرتُ سوء أثره فى قومى، ومعاداته إياهم ، وتحامله عليهم ؛ فصرفت الرأى عنه .

وقلت له : « يا أمير المؤمنين ، أعيذك بالله ، أن تحكّم أهل الشرك فى نفسك وحُرَمك ، لأن الروم لاوفاء لهم » .

قال : فما الرأى عندك ؟

قلت : الرأى أن تقطع الفرات ، وتستقرى مدن الشام ، مدينة مدينة ، فإن لك بكل مدينة صنائع ونصحاء ، وتضمّهم جميعا إليك ، وتسير حتى تنزل ببلاد مصر ، فهى أكثر أهل الأرض مالا ، وخيلا، ورجالا ، فتجعل الشام أمامك،

وإفريقية[1] خلفك ، فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام ، وإن تكن الأخرى اتسع لك المهرب نحو إفريقية ، فإنها أرض واسعة ، نائية منفردة .

قال : صدقت ، لعمرى ، وهو الرأى .

فسار من حرّان حتى قطع الفرات ، وجعل يستقرى مدن الشام ، فيستنهضهم ، فيروغون عنه ، ويهابون الحرب ، فلم يسر معه منهم إلى قليل .

وسار أبو عون صاحب قحطبة فى إثر مروان حتى انتهى إلى الشام ، وقصد دمشق ، فقتل من أهلها مقتلة عظيمة ، فيهم ثمانون رجلا من ولد مروان ابن الحكم .

[نهاية بنى أمية]

ثم عبر الشام سائرا نحو مصر حتى وافاها ، واستعد مروان فيمن كان معه ، من أهل الوفاء له ، وكانوا نحوا من عشرين ألف رجل ، وسار مستقبلا أبا عون حتى التقى الفريقان ، فاقتتلوا .

فلم يكن لأصحاب مروان ثبات ، فقتل منهم خلق ، وانهزم الباقون ، فتبدّدوا ، وهرب مروان على طريق إفريقية ، وطلبته الخيل ، فحال بينها وبينه الليل ، فعبر مروان النيل فى سفينة ، فسار فى الجانب الغربى ، وكان منجمًا[2] ، فقال لغلامه :

ــ إنى إن سَلِمْتُ هذه الليلة رددت خيل خراسان على أعقابها حتى أبلغ خراسان.

ثم نزل ، ودفع دابته إلى غلامه ، وخلع درعه ، فتوسّدها ، ونام لشدّة ما قد كان مرّ به من التعب ، ولم يكن معه دليل يدلّه على الطريق ، وخاف أن يُوغل فى تلك المفاوز ، فيضلّ .

---

(١) تذكر إفريقية فى كتب التاريخ العربى ، ويقصد بها بلاد شمال إفريقية .

(٢) له دراية بعلم النجوم والفلك .

وأقبل رجل من أصحاب أبى عون، يسمَّى « عامر بن إسماعيل » فى طلب مروان ، حتى أتى المكان الذى عبر فيه مروان ، فدعا بسفينة ، فجلس فيها ، وعبَر ، فانتهى به السير إلى مروان ، وهو مُستثقِل نوما ، فضربه بالسيف حتى قتله .

قالوا : ولما بلغ محمد بن خالد بن عبد الله القسرى ، وكان مستترا بالكوفة فى بجيلة ، موافاة قحطبة بن شبيب حَلوان بجموع أهل خراسان جمع إليـــه نفرا من أشراف قومه ، ثم ظهر ، ودعا لأبى العباس الإمام ، فطلبه زياد بن صالح ، عامل يزيد بن عمر ، فاجتمع إليه قومه ، فمنعوه ، وقاموا دونه .

وبلغ ذلك يزيد بن عمر بن هبيرة ، فأمدّ زياد بن صالح بالرجال ، واجتمع إلى محمد جميع من كان بالكوفة من اليمانيّة والرَّبَعيّة ، فهرب زياد بن صالح حتى لحق بيزيد بن عمر بواسط .

وكتب محمد بن خالد إلى قحطبة ، وهو بحُلوان ، يسأله أن يُوَلّيه أمر الكوفة ، ويبعث إليه عهده عليها ، ففعل .

فأتى المسجد الأعظم فى جَمْع كثير من اليمانيّة ، وقد أظهروا السّواد ، وذلك يوم عاشوراء من المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائة(١) .

وقال محمد بن خالد فيما كان من قتله الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

قَتَلْنَا الْفَاسِقَ الْمُخْتَالَ لَمَّا ... أَضَاعَ الْحَقَّ ، وَاتَّبَعَ الضَّلَالَا
يَقُولُ لِخَــالِدٍ أَلَا حَمَتْهُ ... بَنُو قَحْطَانَ إِنْ كَانُوا رِجَالَا
فَكَيْفَ رَأَى غَدَاةَ غَدَتْ عَلَيْهِ ... كَرَادِيسٌ يُشَبِّهُهَا الْجِبَالَا(٢)
أَلَا أَبْلِـغْ بَنِى مَرْوَانَ عَنِّى ... بِأَنَّ الْمُلْكَ قَدْ أَوْدَى ، فَزَالَا

وسار يزيد بن عمر بن هبيرة إلى الكوفة يريد محمد بن خالد ، فدخل محمد على

---

(١) الموافق أغسطس من سنة ٧٤٩ م .

(٢) الكردسة بالضم عظيمة من الخيل ، وكل عظمين التقيا فى مفصل ، والكردوسان قيس ومعاوية ، ابنا مالك بن حنظلة .

أبي سَلَمَة الداعيّ ، فأخبره بفصول ابن هبيرة نحوه ، وتخوّفه أن لا يَقْوَى بكثرة جموعه .

فقال له أبو سَلَمَة : إنه قد كان منك من الدعاء إلى الإمام أبي العباس ما لا يَنساه لك ، فلا تُفْسِد ذلك بقتلك نفسك ، ومَنْ معك ، ودَعِ الكوفة ، فإنها في يديك ، وسِرْ بمَنْ معك حتى تنضمّ إلى قحطبة .

قال محمد : لست بخارج من الكوفة حتى أُبلي عُذْرا في محاربة ابن هبيرة .

فاستمدّ بمَنْ كان معه بالكوفة من اليمن وربيعة ، وسار مُستَقْبِلًا لابن هبيرة حتى التقى .

فنادَى محمد بن خالد مَنْ كان مع ابن هبيرة من قومه : « تبًّا لكم ، أنسيتم قتل أبي خالد ، وتحامُل بني أُمَيّة عليكم ، ومنعهم إيّاكم أُعطياتكم ؟ يا بني عمّ ، قد أزالَ الله مُلْك بني أُمَيّة ، وأدالَ منهم ، فانضمُّوا إلى ابن عمكم ، فإن هذا قحطبة بحُلْوَان في جموع أهل خراسان ، وقد قتل مروان ، فَلِمَ تقتلون أنفسكم ؟ وإن الأمير قحطبة قد وَلّاني الكوفة ، وهذا عهدي عليها ، فليكن لكم أثر في هذه الدولة » .

فلما سمعوا ذلك مالُوا إليه جميعاً ، ولم يَبق مع ابن هبيرة إلا قيس وتميم .

فلما رأى ذلك وَلّى منهزما بمن معه حتى وافَى واسط ، ووجّه في نقل المِيرَة(١) إليها، واستعد للحصار .

وانصرف محمد بن خالد إلى الكوفة ، فخطب الناس، ودعا لأبي العباس ، وأخذ بيعة أهل الكوفة .

وأقبل قحطبة من حُلْوَان حتى وافَى العراق ، فنزل « دِمِمَّا »(٢) ـ وهي فيما بين بغداد والأنبار ـ وذلك قبل أن تُبْنَى بغداد ، وإنما كانت قرية ، يقوم بها سوق في كل شهر مرة ، فأقام معسكراً بها .

(١) الطعام . (٢) كانت قرية كبيرة على فم نهر عيسى قرب الفرات .

فقال علىّ بن سليمان الأزدىّ يذكر محمد بن خالد وسبقه إلى الدعاء إلى بنى هاشم :

يَا حَادِيَيْنَا بِالطَّرِيقِ قُوَمَا ... بِيَعْمَلَاتٍ كَالْقِسِىِّ رُسَّمَا(١)

تَنْجُو بِأَجْوَازِ الْفَلَاةِ مُقْدِمَا ... إِلَى امْرِئٍ أَكْرَمَ مَنْ تَكَرَّمَا

مُحَمَّدٍ لَمَّا سَمَا وَأَقْدَمَا ... ثَارَ بِكُوفَانَ بِهَا مُعَلَّمَا

فِى عُصْبَةٍ تَطْلُبُ أَمْرًا مُبْرَمَا ... حَتَّى عَلَا مِنْبَرَهَا مُعَمَّمَا

أَكْرِمْ بِمَا فَازَ بِهِ وَأَعْظِمَا ... إِذْ كَانَ عَنْهَا النَّاسُ كُلًّا نُوَّمَا

* * *

وإن قحطبة عند مسيره إلى العراق استخلف على أرض الجبل يوسف بن عقيل الطائىّ ، وأقبل ابن هبيرة حتى صار على شاطئ الفرات الغربىّ ، وهو فى نحو من ثلاثين ألف رجل .

وأقبل قحطبة حتى نزل فى الجانب الشرقىّ ، فأقام ثلاثًا ، ثم نادى فى جنوده ، أن أقحموا خيلكم الماء ؛ فاقتحموها ، وقحطبة أمام أصحابه .

ولما عبر أصحاب قحطبة قاتلهم ابن هبيرة ، فلم يقم لهم ، فانهزم حتى أتى واسطًا ، فتحصّن فيها ، وفُقِدَ قحطبة بن شبيب فلم يُدرَ أين ذهب .

ويزعم بعض الناس أن فرسه غاصَ به فغرق ، وتولّى أمر الناس ابنه الحسن ابن قحطبة .

ولما تحصّن ابن هبيرة بواسط خَلَّفَ الحسن بن قحطبة عليه بعض قُوّاده فى عشرين ألف رجل ، وسار نحو الكوفة ، وقد أخذها محمد بن خالد ، فوافاها الحسن بن قحطبة ، وبها الإمام أبو العباس .

---

(١) اليعملة الناقة النجيبة المعتملة المطبوعة ، والجمل يعمل ، وناقة عملة بينة العمالة فارهة .

[مبايعة أبي العباس]

فأظهر أبا العباس ، وأقبل به حتى دخل المسجد الأعظم ، واجتمع له الناس ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلّى على نبيّه ، عليه السلام ، ثم ذكر انتهاك بني أُميّة المحارم ، وهدمهم الكعبة، ونصبهم عليها المجانيق ، وما أبدعوا من خبيث السِّيَر ، ثم نزَلَ .

فأكثر الناس له من الدعاء ، وأقبل نحو دار الإمارة ، فنزلها .

وأمر الحسن بن قحطبة بالانصراف إلى واسط ، والإناخة بيزيد بن عمر ابن هبيرة .

فسار الحسن وحاصرَ يزيدَ أشهراً كثيرة .

قال الهيثم بن عَدِيّ : بُويِعَ لأبي العباس بالخلافة ، ولأبي جعفر بولاية العهد من بعده ، في رجب ، من سنة اثنتين وثلاثين ومائة[1] .

فلما استدفّ لأبي العباس الإمرة وَلّى أبا سَلَمَة الداعي جميع ما وراء بابه ، وجعله وزيره ، وأسند إليه جميع أموره ، فكان يسمى وزير آل محمد ، فكان ينفّذ الأمور من غير مؤامرة .

وبلغ ذلك أبا مسلم وهو بخراسان ، فدعا مروان الضّبيّ ، وكان أحد قوّاده ، وقال له : « انطلق إلى الكوفة ، فأخرج أبا سَلَمَة من عند الإمام أبي العباس ، فاضرب عنقه ، وانصرف من ساعتك » ، ففعل الضّبيّ ذلك .

فقال الشاعر يرثي أبا سَلَمَة :

إنَّ الوَزِيرَ وَزِيرُ آلِ مُحَمَّدٍ أَوْدَى فَمَنْ يَشْنَاكَ كَانَ وَزِيرَا[2]

ثم إن الإمام أبا العباس رأى أن يوجه أخاه أبا جعفر المنصور إلى واسط ، ليتولّى

---

(١) الموافق فبراير سنة ٧٥٠م .

(٢) شناه أي أبغضه .

محاربة ابن هبيرة ، فوجّهه، وكتب إلى الحسن بن قحطبة يعلمه أن العسكر عسكره ، و[أنه]أحب أن يكون أخوه المتولى للأمر.

فلما وافى أبو جعفر واسطا تحوّل الحسن بن قحطبة عن سرداقه ، وخلّاه بما فيه له ، فنزله أبو جعفر بحرمه وحشمه .

وكتب أبو جعفر إلى قواد يزيد بن عمر وأشراف من العرب ، يستميلهم بالأطماع ، وينبّههم على حظوظهم ، ويعرّفهم انصرام دولة بنى أمية ، فأجابوه جميعا .

وكان أول من أجابه وانحرف إليه زياد بن صالح الحارثىّ ، وكان عامل ابن هبيرة على الكوفة ، وأخصّ أصحابه عنـــده ، وقد كان ابن هبيرة ولّاه حراسة مدينته بالليل ، ودفع إليه مفاتيح أبوابها .

* * *

قال الهيثم : فحدثنى أبى ، قال : لما همّ زياد باللحوق بأبى جعفر أرسل إلىّ ، وكان وصىّ أبى ، فكنت أدعوه أبا وعمّا ، وقد كان رسوله أتانى عند اختـــلاط الظلام ، يأمرنى بالمصير إليه ، فأتيته ، فخلا بى ، وقال:

«يا ابن أخى ، إنك لست ممن أكتمه شيئا ، وقد أتانى كتاب أبى جعفر ، يدعونى إلى اللحوق به ، ويبذل لى على ذلك منزلة سنيّة ، وأعلم فى كتابه أنه راعٍ للخئولة ــ وكانت أم أبى العباس حارثيّة ــ .

قال والدى : « فقلت له ، ياعمّ ، إنـــ لابن هبيرة أيادىَ جميلة ، وأكره لك الغدر به » .

فقال : « يا ابن أخى ، أنا من أشكر الناس له ، غير أنى لا أرى أن أقيم على مُلك ، قد انقضت قُواه ، ووَهَت عُراه ، وأنا لابن هبيرة اليوم عند أبى جعفر أنفع منى له هاهنا ، وأرجو أن يصلح الله أمره بى وعلى يدى ، فأقم عندى إلى وقت خروجى لأسلّم لك المفاتيح » .

فأقمت عنده .

فلما مضى ثلث الليل أمر غلمانه ، فحملوا أثقاله ، وأسرجوا دوابّه ، ثم ركب ،

وخرج من منزله ، وأنا أمشى معه ، حتى أنتهى إلى باب المدينة الذى يلى دِجْلة ، وكانت المفاتيح معه ، وأمر الأحراس أن يفتحوا الباب ، وقال لهم : « أريد الخروج لاستطلاع بعض الأمور ، وأنا منصرف بعد ساعة » .

ثم خرج ، وأمرنى بإغلاق الباب وأخذ المفاتيح .

فقال لى فيما بينى وبينه : إذا أصبحتَ فانطلق بالمفاتيح حتى تدفعها إلى ابن هبيرة من يدك إلى يده ، وأعلمه أنى له هناك أفضل منى له هاهنا ، ثم ودّعنى ، ومضى، وانصرفت إلى منزلى .

فلما أصبحت أتيت باب قصر الإمارة ، فاستأذنت على ابن هبيرة .

فقال لى الحاجب : هو قاعد فى مصلّاه ، لم يقم عنه .

قلت : أعلمه أنى أتيته فى مُهِمّ .

فأذن لى .

فدخلت ، وهو قاعد فى محرابه ، وعليه كساء بَرّ كانىّ[1] مُعْلَم ، فسلمت عليه بالإمْرَة .

فرد السلام .

وقال : مُهِمّ .

فحدثته بأمر زياد بن صالح ، فدمعت عيناه .

وقال : بمن تثق اليوم بعد زياد ، وتوليتى إياه الكوفة، وبرّى به ؟

فقلت : أيها الأمير : إن الله ربما جعل فى الكُرْه خيرا ، وأرجو أن ينفعك الله بمكانه هناك .

فقال : لا حَوْلَ ولا قُوّةَ إلا بالله .

ثم قال : يا غلام ، علىّ بطارِق بن قُدامَة القَسْرِىّ .

فدخل عليه ، وأنا جالس عنده ، فدفع إليه تلك المفاتيح .

(١) الكساء البركانى هو ذو اللون الأسود .

وقال : يا طارق ، إنى قد اخترتك لحراسة هــذه المدينة على جميع أصحابك من خاصّتنا ، فـكن كنحو ثقتى بك .

* * *

ولما طال على ابن هُبَيْرَة الحصار بعث إلى المنصور يسأله الأمان ، فأرسل إليه : « إن أردت أن أؤمّنك على حكم أمير المؤمنين أبى العباس فعلتُ » .

فشاور ابن هبيرة نصحاءه ، فأشاروا عليه أن يفعل .

فأرسل إلى أبى جعفر يُعلمه : أنى رَاضٍ بذلك .

فـكتب إليه أبو جعفر ذلك بخطّه ، وأشهد على نفسه بذلك القوّاد .

فخرج ابن هبيرة إلى أبى جعفر فى نفر من بطانته ، فدخل عليه ، وهو فى سُرَادقه ، وحول السُّرَادق عشرة آلاف نفر من أهل خراسان مستلئمين فى السِّلاح ؛ فأمر أبو جعفر بوسادة ، فجلس عليها قليلا ، ثم نهض ، ودُعِىَ له بدابّته ، فركب ، وانصرف إلى منزله ، وفُتِحَت أبواب المدينة ، ودخل الناس بعضهم فى بعض .

قالوا : وأُحْصِىَ ما فى الخزائن من الأموال والسِّلاح ، وما بقى من الطعام والعَلَف الذى كان ابن هبيرة قد ادّخَر ، وأعَدّ للحصار ، فـكان المال ثلاثة آلاف ألف درهم ، ومن السِّلاح شىء كثير ، وطعام ثلاثين ألف رجل ، وعَلَف عشرين ألف رأس من الدوابّ سنة .

وإن أبا جعفر كتب إلى أبى العباس يُخبره بخروج ابن هُبَيْرَة على حكمه ، ويسأله أن يُعلمه الذى يرى فيه .

فـكتب أبو العباس : لا حكم لابن هبيرة عندى إلا السيف .

فلما انتهى الـكتاب بذلك إلى أبى جعفر كَتَمَهُ عن جميع الناس .

وقال لحاجبه : مُرْ ابن هبيرة إذا ركب إلينا ألا يركب إلا فى غلام واحد ، ويَدَع عنه هذه الجماعات .

فلما كان من غَدٍ ركب ابن هبيرة إلى أبى جعفر فى موكب عظيم .

فقال له سلّام الحاجب : « أبا خالد ، كأنّكَ إنمــا تأتى وَلِيّ العهد مُبَاهِياً ، ولا تأتيه مُسَلِّماً » .

قال ابن هبيرة : إن كنتم كرهتم ذلك لم آتكم إلا فى غلام واحد .

قال : فلا تأتنا إلا فى [غلام] واحد ، فإنى لم أقل ذلك استخفافاً بحقك ، إلا أن أهل خراسان يُنْكِرون كثرة من يركب معك .

فكان ابن هبيرة بعد ذلك لا يأتيهم إلا فى غلام واحــد ، فيدخل ، ويسلّم ، وينصرف .

* * *

ثم إن أبا جعفر قال للحسن بن قحطبة : « اجمع إليك أبا بكر العُقَيْلِيّ ، والحَوْثَرَة بن سهل ، ومحمد بن بُنانة ، وعبد الله بن بِشْر ، وطارق بن قُدامة ، وسُوَيْد بن الحارث الزّنّيّ ، وهؤلاء كانوا قُوّاد يزيد بن عمــر ، فإذا اجتمعوا عندك فاضرب أعناقهم ، وائتنى بخواتيمهم ، ووَجِّه حرساً يحرسون ابن هبيرة ، لأنَفِّذَ فيه أمر الإمام أبى العباس .

فانطلق الحسن بن قحطبة ، فأنفذ أمره فى أولئك ، وأتاه بخواتيمهم .

قال : « فما نطق منهم أحد عند قتله ، وما كان منه جزع ولا امتناع » .

فلما كان فى اليوم الثانى دعا أبو جعفر خازمَ بن خُزيمة ، وإبراهيم بن عقيل ، فقال لهما : « انطلقا فى عشرة نفر من الحرس حتى تدخلا على ابن هبيرة فتقتلاه » .

فأقبلا حتى دخلا عليه عند طلوع الشمس ، وهو جالس فى مسجده فى القصر مسندٌ ظهره إلى المحراب ، ووجْهُه إلى رحبة القصر .

فلما نظر إليهم قال لحاجبه : « يا أبا عثمان ، أحلف بالله أن فى وجوه القوم لشراً » .

فمضى أبو عثمان مستقبلا لهم ، وقال لهم : « ما تريدون ؟ » .

فبعجه إبراهيم بن عقيل بالسيف ، فقتله ، وقام إبراهيم ابنه فى وجوه القوم ، فقُتل ، ثم قام ابنه داود فى وجوههم ، فقُتل ، ثم قام كاتبه عمرو ، فقُتل .

وأقبلوا نحو ابن هبيرة ، فلما دنوا منـــه حوّل وجهه إلى القبلة ، وسجد ، فضربوه بأسيافهم حتى خمد .

ثم انصرفا إلى أبي جعفر ، فأخبراه بذلك ، فأمر أبو جعفر مناديا ، فنادى « أيها الناس ، أنتم آمنون إلا الحكَم بن عبد الملك بن بشر ، ومحمد بن ذَرّ ، وخالد ابن سلمة المخزوميّ .

قال الهيثم : فحدثني أبي قال : قال محمد بن ذرّ ، فضاقت عليّ الأرض برحبها ، فخرجت ليلا من مدينة واسط على قدمىّ ، وأنا أقرأ آية الكُرسىّ ، فما عرض لى أحد من الناس حتى نجوت ، فلم أزل خائفا حتى استأمن لى زياد بن عبـــد الله من الإمام أبي العباس ، فآمننى .

قال « وهرب الحكم بن عبد الملك إلى كسكر ، فاستخفى بها » .

وضاقت بخالد بن سلمة المخزوميّ الأرض ، فأتى باب أبي جعفر المنصور ليلا ، فاستأمن له ، فآمنه .

ثم نودى « أيها الناس ، أنتم جميعا آمنون ، يا أهل الشام ، ألحقوا بشامكم ، ويا أهل الحجاز ، الحقوا بحجازكم ، فسكن الناس، وآمنوا ، واطمأنوا .

***

واستعمل المنصور على واسط الهيثم بن زياد الخزاعيّ فى خمسة آلاف من أهل خراسان ، ثم انصرف بسائر الناس حتى قدم على الإمام أبي العبـاس ، وهو بالحيرة .

ثم إن الإمام سار من الحيرة فى جموعه حتى أتى الأنبار ، فاستَطابها ، فابتنى بها مدينة بأعلى المدينة عظيمةً لنفسه وجموعه ، وقسمها خِطَطا بين أصحـابه من أهل خراسان ، وبنى لنفســه فى وسطها قصرا عاليا مُنيفا ، فسكنه ، وأقام بتلك المدينة طول خلافته ، وتسمى إلى اليوم مدنية أبي العباس .

ثم إن أبا العباس وجه أخاه أبا جعفر المنصور إلى خراسان ، وأمره أنـ يأتى

أبا مسلم ، فيناظره فى بعض الأمور ، ووجّه معه ثلاثين رجلا من وجوه القوّاد ، وفيهم الحجّاج بن أرْطاة الفقيه ، وإسحق بن الفضل الهاشمىّ .

* * *

فلما قدم المنصور على أبى مسلم لم يبالغ أبو مسلم فى بره وإكرامه ، ولم يظهر السرور التام بقدومه .

فانصرف إلى أبى العباس ، وقال : « لستَ بخليفة مادام أبو مسلم حيًّا ، فاحتلْ لقتله قبل أن يفسد عليك أمرك ، فاقد رأيته وكأنه لا أحد فوقه ، ومثله لا يؤمن غدره ونكثه » .

فقال أبو العباس : وكيف يمكن ذلك ، ومعه أهل خراسان ؟ وقد أُشربت قلوبُهم حُبّه ، واتّباع أمره ، وإيثار طاعته .

فقال أبو جعفر : فذاك والله أحْرَى أن لا تأمنه ، فاحتلْ له .

فقال أبو العباس : يا أخى ، اضرب عن هذا ، ولا تُعلمن رأيك فى ذلك أحدا .

وإن أبا العباس قال ذات يوم للحجّاج بن أرْطاة ، وقد خَلَا معه : ما تقول فى أبى مسلم ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى يقول فى كتابه : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » .

قال أبو العباس : امْسِكْ ، فقد فهمت ما أردت .

ثم إن أبا مسلم وجّه محمد بن الأشعث بن عبد الرحمن أميراً على فارس .

ورأى أبو العباس أن يَسْتَعْمِل عليها عمه عيسى بن علىّ ، فعقدَ له عليها ، وأمره بالسير إليها .

فلما قدم عيسى على محمد بن الأشعث أبَى أن يسلّم إليه .

فقال له عيسى : يا ابن الأشعث ، أَلَسْتَ فى طاعة الإمام أبى العباس ؟

قال : بلى ، غير أن أبا مسلم أمرنى ألا أسلّم العمل إلى أحد من الناس .

قال عيسى : فإنما أبو مسلم عبد الإمام ، وإن الإمام لا يَرْضَى أن يُرَدّ أمره .

قال محمد : دَعْ عنك هذا ، لست أسلِّم العمل إليك إلا بكتاب أبى مسلم .

فانصرف عيسى إلى أبى العباس ، فأخبره ذلك ، فكظم ، وأمر عمّه بالمقام عنده ، فأقام .

وإن أبا مسلم عقد للمغلّس بن السَّرِىّ على أرض طخارستان حتى وافاها ، فخرج إليه منصور مستعدًّا للحرب ، فالتقوا ، فاقتتلوا ، فكان الظفر للمغلّس ، وهرب منصور فى نفر من أصحابه حتى وقعوا فى الرمال ، فماتوا عَطَشًا .

وأقام المغلّس على باب بلاد السِّند .

* * *

وإن أبا مسلم كتب إلى الإمام أبى العباس يستأذنه فى القدوم عليه ، والمُقام عنده إلى أوان الحج ليحجّ ، فأذن له أبو العباس فى ذلك ، فسار أبو مسلم حتى إذا قارب الإمام أمر أبو العباس جميع من كان معه بالحضرة من القوّاد والأشراف أن يستقبلوه ، فاستُقْبِل بالكرامة ، وترجّل له الأشراف والقوّاد .

وأقبل حتى وافَى مدينة أبى العباس ، فأنزله معه فى قصره ، ولم يَأْلُ جهده فى برّه وإكرامه ، حتى إذا حان وقت الحج استأذنه فى الحج .

فقال له أبو العباس : لولا أن أخى أبا جعفر قد عزم على الحج لَوَلَّيْتُكَ الوسم ، فكونا جميعاً .

قال أبو مسلم : وذاك أَحَبّ إلىّ .

ثم خرجا .

فكان يرتحل أبو جعفر ، وينزل أبو مسلم حتى وافَيا مكة ، فقضيا حجّهما ، وانصرفا .

[أبو جعفر المنصور]

فلما وصل أبو جعفر إلى « ذات عرق » فى منصرفه أتاه نَعِىّ الإمام [أبى العباس][1] ، فأقام بمكانه حتى وافاه أبو مسلم ، فأخبره بوفاة أبى العباس . فخنقت أبا مسلم [العَبْرَة][1] ، وقال : « رحم الله أمير المؤمنين ، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » .

فقال أبو جعفر : إنى قد رأيت أن تخلّف أثقالك ومن معك من جنودك علىّ ، فيكونوا معى ، وتركب أنت فى عشرة نفرٍ البريدَ حتى تَرِدَ الأنبار ، فتضبط العسكر ، وتسكّن الناس .

قال أبو مسلم : أفعلُ .

فركب فى عشرة نفرٍ من خاصّته ، وسار بالحَثّ الشديد حتى وافى العراق ، وانتهى إلى مدينة أبى العباس بالأنبار ، فوجد عيسى بن علىّ بن عبد الله بن عباس قد دعا الناس إلى بيعته ، وخَلْع ولاية العهد عن أبى جعفر .

فلما رأوا أبا مسلم مَالُوا معه ، وتركوا عيسى .

فلما وافى أبو جعفر اعتذر إليه عيسى ، وأعلمه أنه إنما أراد بذلك ضبط العسكر ، وحفظ الخزائن ، وبيوت الأموال .

فقبل أبو جعفر منه ذلك ، ولم يؤاخذه بما كان منه .

واجتمع الناس، وبايعوا المنصور أبا جعفر.

ثم أتاه انتقاض الشام ، وقد كان أبو العباس استعمل عليها عمه عبد الله بن على ، فلما بلغه وفاة أبى العباس دعا لنفسه ، واستمال من كان معه من جنود خراسان ، فمالوا معه .

فلما بلغ أبا جعفر ذلك قال لأبى مسلم « أيها الرجل ، إنما هو أنا أو أنت ، فإما أن تسير إلى الشام فتصلح أمرها ، أو أسير أنا » .

---

(١) رطوبة مؤثرة فى الأصل مكان ما بين الحاصرتين .

قال أبو مسلم ، بل أسير أنا .

فاستعدّ ، وسار فى اثنى عشر ألفا من أبطال جنود خراسان حتى إذا وافى الشام انحاز إليه من كان بها من الجنود جميعهم ، وبقى عبد الله بن على وحده .

فعفا أبو مسلم عنه ، ولم يؤاخذه بما كان منه .

وكانت خلافة أبى العباس أربع سنين وستة أشهر .

* * *

وإن أبا جعفر عند مسير أبى مسلم نحو الشام وجه يقْطين بن موسى فى إثر أبى مسلم ، وقال : « إن تكن هناك غنائم فتولّ قبضها » .

وبلغ ذلك أبامسلم ، فشقّ عليه ، وقال : « إن أمير المؤمنين لم يأْمنّى على ماهاهنا حتى استظهر علىّ بأمين » . ودخلته من ذلك وحشة شديدة .

ولما بلغ المنصور إصلاح الشام كره المقام بمدينة أبى العباس التى بالأنبار ، فسار بعسكره إلى المدائن ، فنزل إلى المدينة التى تدعى « الرُّومية » وهى من المدائن على فرسخ ، وهى المدينة التى بناها كسرى أنوشروان ، وأنزلها السَّبْى الذى سباه من بلاد الروم ، فأقام المنصور بتلك المدينة .

وإن أبا مسلم انصرف فأخــذ على الفرات حتى وافى العراق على الأنبار ، وجاز حتى وافى كَرْخ بغداد[1] ، وهى إذ ذاك قرية ، ثم عبر دجلة من بغداد ، وأخذ طريق خراسان ، وترك طريق المدائن .

وبلغ ذلك أبا جعفر .

فكتب إلى أبى مسلم : أريد مناظرتك فى أمور لم يحتملها الكتاب ، فخلّف عسكرك حيث ينتهى إليك كتابى ، فاقدم علىّ .

فلم يلتفت أبو مسلم إلى كتاب المنصور ، ولم يعبأ به .

وكان مع المنصور رجل من ولد جرير بن عبد الله البَجَلىّ ، واسمه « جَرِير بن زيد ابن عبد الله » ، وكانت له خِلاَبة ، وتَأَتٍّ فى الأمور ، ومكيدة .

فقال له أبو جعفر : « اركب البريد حتى تلحق أبا مسلم ، فتُحاوِل رَدّه إلىّ ،

---

(١) مكان بين الصراة ونهر عيسى ، اتخذ سوقا ، ورتب فيه كل صنف موضعه ، وذلك أن أبا جعفر المنصور لما بنى مدينة بغداد أمر أن تجعل الأسواق فى طاقات المدينة بإزاء كل باب سوقا ، ثم أشير على المنصور بإخراج الأسواق من المدينة حتى لا يوالى الجواسيس من الأطراف بعلة التجارة فيتجسسون الأخبار ، فأمر ببناء السوق خارج المدينة ، وسمى الكرخ لذلك .

فإنه قد مَضَى مُغاضبا ، ولا آمن إفساده علىّ ، وتَأَتَّ فى رَدّه بأفضل التّأتّى » .

فسار الرجل حتى لحقه فى بعض الطريق ، وقد نزل بعض المنازل بعسكره ، فدخل عليه مضربه .

فقال :

« أيها الأمير ، أجْهَدْتَ نفسك ، وأسْهَرْتَ ليلك ، وأتْعَبْتَ نهارك فى نُصْرَة مَوَاليك ، وأهل بيت نبيّك حتى إذا استحكم لهم الأمر ، وتوَطّدَ لهم السُّلطان ، وبلَغَتْ أُمْنِيّتك فيهم تنصرف على هذه الحال ، فما تقول الناس ؟ ألا تعلم أن ذلك مَطْعَنَة عليك ، ومَسَبّة ، فى حياتك، وبعد وفاتك ؟ » .

فلم يزل به حتى عزم على الانصراف معه إلى المنصور ، وخلّف عسكره بمكانه ذلك .

وسار منصرفا فى ألف فارس من أفاضل من كان معه من جنود خراسان والقُوّاد ؛ وقد كان أبو مسلم يقول : إن المُنَجّمين أخبرونى أن لا أُقْتَل إلا بالروم .

[قتل أبى مسلم الخراسانى]

حتى وافَى أبا جعفر بالرُّومِيّة ، فدخل عليه ، فقام إليه أبو جعفر ، وعانقه ، وأظهر السُّرور بانصرافه .

وقال له : « كدت تمضى من قبل أن أراك، وأفضى إليك بما أريد ، فقمْ، فَضَعْ عنك ثيابك ، وانزل حتى يذهب كَلال السَّيْر عنك .

فخرج أبو مسلم إلى قصر قد أُعِدّ له .

ونزل أصحابه حوله .

فمكث ثلاثة أيام ، يغدو كل يوم إلى أبى جعفر ، فيدخل على دابّته ، حتى ينتهى إلى باب المجلس الذى فيه الإمام ، فينزل ، ويدخل إليه ، فيجلس عنده مَلِيًّا ، فيتناظران فى الأمور .

فلما كان فى اليوم الرابع وطّنَ له أبو جعفر عثمانَ بن نَهِيك ، وكان على حرسه ،

وشَبَث بن رَوْح ، وكان على شُرطته ، وأبا فلان بن عبد الله ، وكان على الخيل ، وأمرهم أن يكنوا فى بيت إلى جنب المجلس الذى كان فيه .

وقال لهم : إذا أنا صَفقتُ يدىّ ثلاثا فاخرجوا إلى أبى مسلم ، فَبَضّعوه .

وأمر الحاجب إذا دخل أبو مسلم أن يأخذ عنه سيفه .

وأقبل أبو مسلم ، فدخل ، وأخذ الحاجب سيفه .

فدخل مُغْضَبا ، وقال :

ـ يا أمير المؤمنين ، فُعِل بى ما لم يُفعَل بى مِثْلُه قطّ ، أُخِذَ السيف من عاتق .

قال أبو جعفر : ومَنْ أخذه لعَنَهُ الله ؟ اجلس ، لا عليك .

فجلس ، وعليه قباء أسود خَزّ ، ووَضَعَ له مُتَّكئا ، ولم يكن فى البيت غيرها .

فقال أبو جعفر :

« ما أردتَ بِمُضِيِّك نحو خراسان قبل لقائى ؟ »

قال أبو مسلم :

« لأنكَ وجّهت فى إثرى إلى الشام أميناً فى إحصاء الغنائم ، أما وثقت بى فيها؟ ».

فأغلظَ له أبو جعفر الكلام .

فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أنَسِيتَ حُسْنَ بَلائى ، وفضل قِيامى ، وإتعابى نفسى ليلى ونهارى ؟ حتى سُقْت هذا السُّلطان إليكم » .

قال أبو جعفر :

« يا ابن الخبيثة ، والله لو قامت مقامك أمَةٌ سوداء لأغنت غناك ، إنما تأتّى لك الأمور فى ذلك بما أحب الله ، من إظهار دعوتنا أهل البيت ، وورد حقنا إلينا ، ولو كان ذلك بحَوْلِكَ وحيلتك وقوتك ماقطعت فَتيلا ، ألست يا ابن اللّخناء الذى كتبت إلىّ تخطب عمتى آمنة بنت على بن عبد الله ؟ وتزعم فى كتابك أنك ابن سليط ابن عبد الله بن عباس ، لقد ارتقيتَ مرتقىً صعبا ».

فقال أبو مسلم :

يا أمير المؤمنين ، لاتدخل على نفسك الغمّ والغيظ بسببى ، فإنى أصغر قدرا من أن أبلغ منك هذا .

فصفق أبو جعفر بكفّيه ثلاثا ، وخرج عليه القوم بالسيوف .

فلما رآهم أبو مسلم أيقن بالأمر ، فقام إلى أبى جعفر ، فتناول رجله ليقبّلها ، فرفسه أبو جعفر برجله ، فوقع ناحية ، فأخذته السيوف .

فقال أبو مسلم . أما من سلاح يحامى به المرء عن نفسه .

فضربوه حتى خمد .

وأمر به أبو جعفر ، فَلُفّ فى بساط ، ووُضع ناحية من البيت .

* * *

وقد كان أبو مسلم قبل دخوله على أبى جعفر قال لعيسى بن على : « أدخل معى إلى أمير المؤمنين ، فإنى أريد معاتبته فى بعض الأمور » .

فقال له عيسى : « تقدّم فإنى على إثرك » .

فأقبل عيسى حتى دخل على أبى جعفر ، فقال :

يا أمير المؤمنين ، أين أبو مسلم ؟

قال أبو جعفر : « هاهو ذاك ملفوف فى ذلك البساط » .

قال عيسى : « أقتلته ؟ إنّا لله ، فكيف تصنع بجنوده ؟ وهؤلاء قد جعلوه ربًّا » .

فأمر أبو جعفر فهيّئت ألف صرّة ، فى كل صرّة ثلاثة آلاف درهم .

وأحس أصحاب أبى مسلم بالأمر ، فصاحوا ، وسلّوا السيوف ، فأمر أبو جعفر بتلك الصّرر ، فقذفت إليهم مع رأس أبى مسلم .

وصعد عيسى بن على إلى أعلى القصر ، وقال :

يا أهل خراسان ، إنما كان أبو مسلم عبدا من عبيد أمير المؤمنين ، وَجَدَ عليه ، فقتله ، فليُفْرِخ روعُكم ، فإن أمير المؤمنين بالغ آمالكم » .

فترجّل القوم وتناولوا تلك الصرر ، كل واحد صرة ، وتُرِك الرأسُ مقذوفا .

ثم إن أبا جعفر وضع لأصحاب أبي مسلم العطاء ، ووجّه الأموال إلى عسكر أبي مسلم حيث خلّفه ، فأسنى لهم العطاء ، وكتب كتابا ، فقرئ عليهم ، يبسط فيه آمالهم ؛ وأجزل صلات القواد والأشراف منهم ، فأرضاهم ذلك .

واستدفت الخلافة لأبي جعفر المنصور سنة ثمان وثلاثين ومائة[1] ، فوجه عماله إلى أقطار الأرض .

[مدينة بغداد]

وأن أبا جعفر أحب أن يبني لنفسه وجنوده مدينة ليتخذها دار المملكة .

فسار بنفسه يرتاد الأماكن حتى انتهى إلى بغداد ، وهي إذ ذاك قرية يقوم بها سوق في كل شهر ، فأعجبه المكان ، فَخَطّ لنفسه وحشمه ومواليه وولده وأهل بيته المدينة ، وسماها « مدينة السلام » ، وبنى قصره وسطها إلى المسجد الأعظم .

ثم خطّ لجنوده حول المدينة ، وجعل أهل كل بلد من خراسان في ناحيـة منها منفردة ، وأمر الناس بالبناء ، ووسّع عليهم في النفقات ، وأمر بحفر نهر الفرات من ثمانية فراسخ ، وفُوّهة النهر من دِمِمّا[2] ، فأجرى إلى بغداد ليأتي فيه مواد الشام والجزيرة ، كما تأتي موادّ الموصل وما اتصل بالموصل في دجلة ، وكان بناؤه إياها في سنة تسع وثلاثين ومائة[3] .

ثم إن أبا جعفر حج بالناس سنة أربعين ومائة ، وجعل منصرفه على مدينة الرسول ، فوضع لأهلها العطاء ، فأسنى لهم في الرزق وفرّق فيهم الجوائز .

ومضى نحو الشام قاصدا لبيت المقدس حتى وافاها ، فأقام بها شهرا ، ثم سار إلى الرّقة ، فأقام بها بقيّة عامه ذلك ، ثم سار من الرّقة حتى وافى مدينة السلام ، فأقام بها حولا كاملا .

---

(١) سنة ٧٥٥ م . (٢) قرية كبيرة على فم نهر عيسى ، قرب الفرات ، وقد خربت .
(٣) سنة ٧٥٦ م .

[الرّاوندية]

ثم سار منها سنة اثنتين وأربعين ومائة نحو البصرة حتى وافاها ، فبلغه أن الراوندية[1] تداعوا ، وخرجوا يطلبون بثأر أبى مسلم ، وخلعوا الطاعة ، فوجه إليهم خازم بن خزيمة ، فقتلهم ، وبدّدهم فى الأرض ، ثم عقد لِمَعْن بن زائدة من البصرة على اليمن ، وأقام عامه ذلك بالبصرة .

وزعموا أن عمرو بن عُبَيد دخل إليه ، فلما رآه أبو جعفر صافحه ، وأجلسه إلى جانبه ، فتكلم عمرو ، فقال :

يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك من الله ببعضها ، واعلم أن الله لا يرضى منك إلا بما ترضاه منه ، فإنك لا ترضى من الله إلا بأن يعدل عليك ، وإن الله لا يرضى منك إلا بالعدل فى رعيّتك ، يا أمير المؤمنين ، إن من وراء بابك نيرانا تأجّج من الجور ، وما يُعْمَلُ من وراء بابك بكتاب الله ولا بسُنّة رسول الله ، يا أمير المؤمنين : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ، حتى أتى على آخر السورة[2] ، ثم قال : ولِمَنْ عمل والله بمثل عملهم .

قالوا : فبكى أبو جعفر .

فقال ابن مجالد : مَهْ يا عمرو ، قد شققتَ على أمير المؤمنين منذ اليوم .

قال عمرو : مَنْ هذا يا أمير المؤمنين ؟

قال : هذا أخوك ابن مجالد .

قال عمرو : يا أمير المؤمنين ما أحدٌ أعدى لك من ابن مجالد ، أيطوى عنك النّصيحَة ، ويمنعك مَنْ ينصحك ؟ وإنّكَ لمبْعُوثٌ ومَوْقُوفٌ ومَسْئُولٌ عن مَثَاقِيلَ الذرّ من الخير والشر .

---

(١) الراوندية فئة تنسب إلى أحمد بن يحيى بن إسحق الراوندى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ وقد كان معتزليا ، ثم صار شيعيا ، ثم تغير إلى الزيغ والإلحاد ، وله مؤلفات تمثل ذلك الاضطراب الذى تقلب فيه (تاريخ الإلحاد فى الإسلام للدكتور عبد الرحمن بدوى) .

(٢) الآية رقم ٦ من سورة الفجر .

قال : فرمى أبو جعفر بخاتمه ، وقال :

ـ قد وَلَّيْتك ما وراء بابى ، فادعُ أصحابك ، فوَلِّهم .

قال : إن أصحابى لن يأتوك حتى يروك قد عملتَ بالعدل ، كما قلت بالعدل .

ثم انصرف .

وسار أبو جعفر من البصرة سنة ثلاث وأربعين نحو الجَبَل حتى وافى مدينة نهاوَنْد ، وقد كان بلغه طِيبُها ، فأقام بها شهراً .

ثم انصرف حتى أتى المدائن ، فأقام بها بقيّة عامه ذلك ، وعقد منها لخُزيمة ابن خازم على جميع طبرستان ، حتى إذا آن أوان الحج خرج منها حاجًا سنة أربع وأربعين ومائة ، ونزل الرَّبَذَة(١) ، فلما قضى حجّه انصرف ، ولم يدخل المدينة .

وفى ذلك العام خرج عليه محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، الملقَّب بالنَّفْس الزكيَّة ، فوجّه إليه أبو جعفر عيسى بنَ موسى بن علىّ فى خيل ، فقُتِل رحمه الله ، وخرج أخوه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن ، فقُتِل رضوان الله عليهم .

[موت أبى جعفر المنصور]

وفى سنة ثمان وخمسين ومائة حَجَّ أبو جعفر ، فنزل الأَبطح على بئر ميمون ، فرض بها ، وتوفّى غَداة السبت ، لستّ خَلَوْن من ذى الحجّة .

فأقام الحج للناس فى ذلك العام إبراهيم بن محمد بن يحيى بن محمد بن علىّ بن عبدالله ابن عباس ، وصلّى على أبى جعفر عيسى بنُ موسى ، فكانت خلافته عشرين سنة ، وتوفّى وله ثلاث وستون سنة ، ودُفِنَ بأعلى مكّة .

---

(١) الربذة قرية قرب المدينة المنورة ، وبهـا قبر أبى ذر الغفارى ، وقد خربها القرامطة سنة ٣١٩هـ .

[تولية محمد المهدى]

ثم بُويِعَ للمهدى بن المنصور يوم السبت لسبع عشرة ليلة خَلَتْ من ذى الحجّة(١) ؛ وفى ذلك العام أمر المهدى باتّخاذ المقاصير فى جميع مساجد الجماعات ، ثم حَجَّ المهدى سنة ستين ومائة ، فانصرف على المدينة ، فأمر أن يُشْتَرَى ما حول المسجد من المنازل والدُّور ، فَيُوَسَّع به المسجد .

وفى سنة اثنتين وستين ومائة خرجت المُحَمِّرة بجُرْجان ، فسار إليهم عمر بن العَلاء ، ففرّقهم .

وفى ذلك العام عقد المهدى ولاية العهد لابنه موسى الهادى ، ومن بعده لابنه الرشيد .

وفى سنة تسع وستين خرج موسى بن المهدى إلى جُرْجان ، وخرج المهدى إلى « مَاسَبَذَان »(٢) فأقام بها متنزّها .

ومات بها وهو ابن ثلاث وأربعين سنة ، وكانت خلافته عشر سنين وشهرا ونصفا .

[ولاية موسى الهادى]

وأتت الخلافة موسى الهادى ، وهو بجُرْجان ، وبُويِعَ بمدينة السلام لثمان بقين من المحرّم .

وفى ذلك العام خرج الحسين بن علىّ بن الحسن بالمدينة ، وسار نحو مكة ، فلقيه عيسى بن موسى والعبّاس بن علىّ ، فقتلاه .

وفى سنة سبعين ومائة توفى الإمام موسى بن المهدى بعيسياباذ(٣) فى النصف من شهر ربيع الأول ، وكان له يوم توفى أربع وعشرون سنة ، وكانت خلافته سنة وشهراً وأربعة وعشرين يوما .

---

(١) الموافق ١٩ أكتوبر سنة ٧٧٤م .

(٢) أصلهماه ، سبذان ، وهى مدن عدة وبها قبر المهدى ، ولا أثر بها إلا بناء قد تقصت رسومه ولم يبق منه إلا الآثار (٣) كذا فى الأصل ، وهى عيساباذ محلة كانت بشرق بغداد ، وقد بنى بها المهدى قصره الذى سماه قصر السلام ، وقد خربت .

[خلافة هٰرون الرشيد]

وفى ذلك العام استُخْلِفَ هٰرون الرشيد ، وحَجّ ، وانصرف إلى المدينة ، فوضع لأهلها العَطاء ، وأجْزَلَ لهم .

وأقبل إلى العراق فوافَق الكوفة ، وعقد لأبى العباس الطوسىّ على خراسان ، فلبث عليها عامين ، ثم عزله .

واستعمل عليها محمد بن الأشعث .

وفى سنة أربع وسبعين ومائة وقعت العَصَبِيّة بأرض الشام بين المضرِيّة واليمانيّة، فتحارَبُوا حتى قُتِلَ من الفريقين بَشَرٌ كثير .

وحَجّ الرشيد فى ذلك العام بالناس ومعه ابناه محمد ، وعبد الله ، وكتب بينهما كتاباً بولاية العهد لمحمد ، ومن بعده لعبد الله المأمون ، وعلّقَ الكتاب فى جَوْف الكعبة ، ثم انصرف إلى مدينة السلام .

واستعمل على خراسان الغِطريف بن عَطاء .

***

قال علىّ بن حمزة الكسائىّ : وَلّانِى الرشيد تأديبَ محمد وعبد الله ، فكنت أشدّد عليهما فى الأدب ، وآخذهما به أخذًا شديداً ، وبخاصّة محمداً ، فأتتنى ذات يوم خالِصَةُ جارية أمّ جعفر .

فقالت : يا كسائىّ ، إن السيدة تقرأ عليك السلام ، وتقول لك ، حاجتى إليك أن ترْفُق بابنى محمد ، فإنه ثمرة فؤادى وقُرّة عينى ، وأنا أرقّ عليه رقّةً شديدة .

فقلت لخالصة : إن محمداً مرشّح للخلافة بعد أبيه ، ولا يجوز التقْصِير فى تأديبه .

فقالت خالصة : إن لرقّة السيدة سبباً ، أنا مُخْبِرَتُكَ به .

إنها فى الليلة التى ولدته أُرِيَتْ فى منامها كأنّ أربع نِسْوَة أقبلن إليه، فاكْتَنفنه من يمينه وشماله ، وأمامه ووراءه ؛ فقالت التى بين يديه : « مَلِكٌ قليل العُمُر ، ضَيّق الصَّدْر ، عظيم الكِبْر ، وَاهِى الأمر ، كثير الوِزْر ، شديد الغَدْر » ؛

وقالت التي من ورائه : « مَلِكٌ قَصَّاف ، مُبَذِّرٌ مِتْلَاف ، قليل الإنصاف ، كثير الإسراف » ؛ وقالت التي عن يمينه : « مَلِكٌ ضخم ، قليل الحِلْم ، كثير الإثم ، قَطُوع للرَّحِم » ؛ وقالت التي عن يساره : « مَلِكٌ غَدَّار ، كثير العِثار ، سريع الدَّمار » . ثم بكت خالصة ، وقالت : « يا كسائيّ ، وهل يُغْنِي الحَذَر ؟ » .

وذُكِرَ عن الأصمعيّ قال : دخلت على الرشيد ، وكنت غِبْت عنه حَوْلَيْن بالبصرة ، فأومأ إلىّ بالجلوس قريباً منه ، فجلست قليلًا ، ثم نهضت ، فأومأ إلىّ أن اجلس ، فجلست ، حتى خَفَّ الناس .

ثم قال لى :

ـ يا أصمعيّ ، ألا تحبّ أن ترى محمداً وعبد الله ؟

قلت : بلى يا أمير المؤمنين ، إنى لأحب ذلك ، وما أردت القيام إلا إليهما ، لأسلّم عليهما .

قال : تكفى .

ثم قال : علىّ بمحمد وعبد الله .

فانطلق الرسول .

وقال : أجيبا أمير المؤمنين .

فأقبلا ، كأنهما قمرا أُفُق ، قد قارَبا خُطاهما ، وضَرَبا ببصرهما الأرض حتى وقفا على أبيهما ، فسلّما عليه بالخلافة ، وأومأ إليهما ، فدَنَيا منه ، فأجلس محمداً عن يمينه، وعبد الله عن شماله .

ثم أمرنى بمطارحتهما ، فكنت لا ألقى عليهما شيئاً من فنون الأدب إلا أجابا فيه وأصابا .

فقال : كيف ترى أدبهما ؟

قلت : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت مثلهما فى ذكائهما وجَوْدَة ذهنهما ، فأطالَ الله بَقاءَهما ، ورَزَقَ الأمّة من رأفتهما ومعطفتهما .

فضمّهما إلى صدره ، وسبقته عَبْرَته حتى تحدّرت دموعه .

ثم أذن لهما ، حتى إذا نهضا وخرجا ، قال :

– كيف بكم إذا ظهر تعاديهما وبدَا تباغضُهما ، ووقع بأسهما بينهما حتى تُسفَكَ الدِّماء ، ويَوَدُّ كثير من الأحْياء أنهم كانوا مَوْتَى ؟

فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا شيء قضَى به المُنَجِّمون عند مَوْلدهما ، أو شيء أثرته العلماء فى أمرهما ؟

قال : بل شيء أثرته العلماء عن الأوْصِياء عن الأنبياء فى أمرهما .

قالوا : فكان المأمون يقول فى خلافته : « قد كان الرشيد سمع جميع ما جرى بيننا من موسى بن جعفر بن محمد ، فلذلك قال ما قال .

قال الأصمعىّ : وكان الرشيد يحب السَّمَر ، ويشتهى [أحاديث][1] الناس ، فكان يرسل إلىّ إذا نشط لذلك ، وجَنَّ عليه الليل ، فأسامره ، فأتيت ذات ليلة ، ولم يكن عنده أحد ، فسامرته ساعة ، ثم أطرق ، وفكّر ، ثم قال :

يا غلام ، علىّ بالعباسىّ – يعنى الفَضْل بن الربيع – .

فحضر ، ودخل ، فأذن له بالجلوس .

فقال : يا عباسِىّ ، إنى عَنِيتُ بتولية العهد ، ومُثبِت الأمر فى محمد وعبد الله ، وقد علمت أنى إن ولّيت محمداً مع ركوبه هَوَاهُ ، وانهماكه فى اللَّهْو واللَّذّات خَلّطَ على الرَّعِيّة ، وضَيّع الأمر ، حتى يطمع فيه الأقاصى من أهل البَغْى والمعاصى ، وإن صرفتُ الأمر إلى عبد الله ليسلكنّ بهم المحجّة ، وليُصلحنّ المملكة ، وإن فيه لحَزْم المنصور وشجاعة المهدى ، فما ترى ؟

قال الفضل : يا أمير المؤمنين ، إن هذا أمر خطير عظيم ، والزلّة فيه لا تُستَقال ، وللكلام فيه مكان غير هذا .

فعلمت أنهما يحبّان الخَلْوَة ، فقمت عنهما ، وجلست ناحية من صحن الدّار ، فما زالا يتناظران إلى أن أصبَحا .

---

(١) بياض فى الأصل مكان مابين الحاصرتين .

واتّفق رأيهما على تولية محمد العهد ، وتَصْيير عبد الله من بعده ، وقِسْمَة الأموال والجنود بينهما ، وأن يقيم محمد بدار الخلافة ، ويتولّى المأمون خراسان .

فلما أصبح أمر بجميع القُوّاد ، فاجتمعوا إليه ، فدعاهم إلى بيعة محمد ، ومن بعده إلى بيعة المأمون ، فأجابوا إلى ذلك، وبايعوا .

وفى سنة ثمانين ومائة[1] عقد الرشيد لعلىّ بن عيسى بن ماهان على خراسان ، وفى ذلك العام خرج الرشيد إلى أرض الشام ، وأخذ على الموصل ، فلما وافاها أمر بهدْم مدينتها ، وقد كانوا وثبوا بعامله .

* * *

وفى ذلك العام وثب أهل خراسان بعاملهم ، فقتلوه ، فأقام بالشام عامَهُ ذلك ، ثم خرج حاجّا ، فلما انصرف قصد الأنبار ، فنزل به بمدينة أبى العبّاس ، وهى من الأنبار على نصف فرسخ ، وقد كانت بقى بها جمع عظيم من أبناء أهل خراسان ، توالدُوا بها حتى كثروا ، فهم إلى الآن ، فأقام بها شهرا ، ثم توجه منها إلى الرقة[2] فأقام بها شهرا .

وخرج منها غازيا إلى أرض الروم ، فافتتح مدينة من مدنهم ، تسمى « مَصْفُوف » . ثم انصرف إلى الرقّة ، فأقام بها بقية عامه ذلك .

فلما كان أوان الحج ، حجّ ، فقضى نسكه ، وجعل منصرفه على الرقة ، فأقام بها ، وولّى يزيد بن مَزْيَد أرمينية ، ثم قدم من الرقة سنة أربع وثمانين ومائة حتى وافى مدينة السلام ، ونزل قصره بالرُّصافة[3] ، وأخذ عمّاله بالبقايا ، ثم سار من مدينة السلام فى سنة خمس وثمانين ومائة عائدا إلى الرقّة ، وقد كان استَطابَها .

فلما كان أوان الحج حجّ ، فمرّ بالمدينة ، فأعطاهم ثلاث أعطيات ، وأعطى أهل مكة عطاءين ، ثم انصرف ، فقصد الأنبار، فأقام بها شهرا ، ثم انصرف إلى مدينة السلام.

---

(١) سنة ٧٩٦م.

(٢) مدينة على نهر الفرات كان بها قصران لهشام بن عبد الملك .

(٣) محلة بالجانب الشرقى من بغداد ، كان المهدى قد عسكر بها ، فأمره المنصور أن يبنى فيها دورا ، فالتحق بها الناس وعمروها ، وفيها قبور جماعة من الخلفاء العباسيين .

ثم عقد البيعة لابن القاسم بعد محمد وعبد الله ، وولاه الشام ، فوجّه القاسم عليها عماله .

وحجّ الرشيد سنة ثمان وثمانين ومائة ، وانصرف فنزل الحيرة[١] ، فأقام بها أياما ، ثم دخل مدينة السلام .

وفى سنة تسع وثمانين سار إلى الرىّ فأقام بها شهرا ، ثم انصرف نحو مدينة السلام ، فضحىّ بقصر اللصوص[٢] ، ثم دخل بغداد ، ولم ينزلها ، ومضى حتى انتهى إلى السّالحين[٣] ، وهى من مدينة السلام على ثلاثة فراسخ ، فبات بها ثم سار عامدا للرقة حتى وافاها ، وأمر عند ممرّه ببغداد بخشبة جعفر بن يحيى أن تُحرق ، وأقام بالرقّة بقية ذلك العام .

فلما دخلت سنة تسعين ومائة خرج غازيا لأرض الروم حتى أوغل فيها وانتهى إلى هِرَقْلة[٤] ، فافتتحها .

* * *

وفى ذلك العام خرج رافع بن نصر بن سَيّار مغاضبا بأرض خراسان ؛ وكان سبب خروجه أن على بن عيسى بن ماهان لما ولى خراسان أساء السيرة ، وتحامل على من كان بها من العرب ، وأظهر الجور ، فخرج عليه رافع ، فواقعه وقعات ، ثم انحاز فيمن اتبعه من أهل خراسان ، وكانوا زهاء ثلاثين ألف رجل فى سمرقند ، وأقام بمدينتها .

وبلغ ذلك الرشيد ، فعزل على بن عيسى عنها ، واستعمل عليها هَرْثَمة ابن أعْيَن .

ثم انصرف الرشيد قافلا من الروم حتى نزل بمدينة السلام عامه ذلك ، واستخلف ابنه محمدا على دار المملكة ؛ وخرج عامدا لأرض خراسان ليتولّى حرب رافع بنفسه .

ودخلت سنة اثنتين وتسعين ومائة وفيها خرجت « الُخرّميّة »[٥] بأرض الجبل

---

(١) مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على النجف ، وكانت مسكن ملوك العرب فى الجاهلية ، النعمان وآباؤه ، وسموها بالحيرة البيضاء لحسنها .

(٢) سمى بذلك لأن جيشا من المسلمين نزلوا به ، فسرقت دوابهم .

(٣) قرية من نهر عيسى ببغداد ، وهى السيلحين التى بات بها المثنى بن حارثة وصبّح ، فأغار على سوق بغداد .

(٤) مدينة ببلاد الروم ، قرب صفين فتحها الرشيد وسبى أهلها وقد خربت ، ولم يبق منها آثار عمارة .

(٥) طائفة تنسب إلى بابك الخرمى ، وتدين بما تدين الباطنية أولاد المجوس الذين تأولوا آيات القرآن وسنن النبى على موافقة أصولهم .

فى المرّة الأولى ، فوجّه إليهم محمد الأمين بعبد الله بن مالك الخزاعىّ ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وشرّد بقيتهم فى البلدان .

وسار الرشيد حتى وافى مدينة طوس[1] ، فنزل فى دار حُميد الطّوسى ، ومرض بها مرضا شديدا ، فجمع له الأطباء يعالجونه ، فقال :

إِنَّ الطَّبِيبَ بِطِبِّهِ وَدَوَائِهِ لَا يَسْتَطِيعُ دِفَاعَ مَحْذُورٍ جَرَى
مَا لِلطَّبِيبِ يَمُوتُ بِالدَّاءِ الَّذِى قَدْ كَانَ يَشْفِى مِثْلَهُ فِيمَا مَضَى

فلما اشتد به الوجع قال للفضل بن الربيع :

ياعباسىّ ، ماتقول الناس ؟

قال :

يقولون ، إن شانِئَ أمير المؤمنين قد مات .

فأمر أن يُسْرَج له حمار ليركبه ، ويخرج ، فأسرج له ، وحُمل حتى وُضع على السّرج ، فاسترخت فخذاه ولم يستطع الثبوت .

فقال : أرى الناس قد صدقوا .

ثم توفى .

وذلك فى سنة ثلاث وتسعين ومائة يوم السبت ، لخمس ليال خلون من جمادى الآخرة[2] ، وكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة ، وشهرا ونصفا .

[تولية محمد الأمين]

فأتت الخلافة محمدا الأمين ببغداد ، يوم الخميس للنّصف من جمادى الآخرة ، ونَعاه للناس يوم الجمعة ، ودعاهم إلى تجديد البيعة ، فبايعوا .

ووصل الخبر بوفاة الرشيد إلى المأمون ، وهو بمدينة مَرْو ، يوم الجمعة لثمان خلون من الشهر ، فركب إلى المسجد الأعظم ، ونودى فى الجنود وسائر الوجوه ، فاجتمعوا ، وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى وآله ، ثم قال :

---

(١) مدينة بالقرب من نيسابور ، بها آثار إسلامية جليلة ، وكان بها دار حميد قحطبة .

(٢) الموافق ٢٧ مارس سنة ٨٠٨ م .

أيها الناس ، أحسن الله عزاءنا وعزاءكم فى الخليفة الماضى ، صلوات الله عليه ، وبارك لنا ولكم فى خليفتكم الحادث ، مدّ الله فى عمره .

ثم خنقته العَبْرَة ، فسح عينه بسواده .

ثم قال :

ــ يا أهل خراسان ، جدّدُوا البيعة لإمامكم الأمين .

فبايعه الناس جميعا .

ولما أتت الخلافة محمداً ، وبايعه الناس دخل عليه الشعراء ، وفيهم الحسن ابن هانىء(١) ، فأنشدوه ، وقام الحسن فى آخرهم ، فأنشده قوله :

أَلَا دَارِهَا بِالْمَاءِ حَتَّى تُلِينَهَا   فَلَنْ تُكْرِمَ الصَّهْبَاءَ حَتَّى تُهِينَهَا
وَحَمْرَاءَ قَبْلَ الْمَزْجِ صَفْرَاءَ بَعْدَهُ   كَأَنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ يَلْقَاكَ دُونَهَا
كَأَنَّ يَوَاقِيتاً رَوَاكِدَ حَوْلَهَا   وَزُرْقَ سَنَانِيرٍ تُدِيرُ عُيُونَهَا(٢)
لَقَدْ جَلَّلَ اللهُ الْكَرَامَةَ أُمَّةً   يَكُونُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَمِينَهَا
حَمَيْتَ حِمَاهَا بِالْقَنَابِلِ وَالْقَنَا   وَوَفَّرْتَ دُنْيَاهَا عَلَيْهَا وَدِينَهَا
يَرَاكَ بَنُو الْمَنْصُورِ أَوْلَاهُمُ بِهَا   وَإِنْ أَظْهَرُوا غَيْرَ الَّذِى يَكْتُمُونَهَا

فوصلهم جميعاً ، وفضّله .

* * *

ثم إن محمدا الأمين دعا إسماعيل بن صَبِيح كاتب السرّ ، فقال :

ــ ما الذى ترى يا ابن صَبيح ؟

قال : أرى دَوْلَة مباركة ، وخلافة مستقيمة ، وأمْرًا مُقبِلًا ، فتمّم الله ذلك لأمير المؤمنين بأفضله وأجزله .

---

(١) وهو المشهور بأبى نواس .
(٢) السنانير جمع سنور وهو القط .

قال له محمد : إنى لم أبغِكَ قاصًّا ، إنما أردت منك الرّأى .

قال إسماعيل : إنْ رَأى أمير المؤمنين أن يوضّح لى الأمر لأشير عليه بمبلغ رأيى ونُصْحِى فعَل .

قال : إنى قد رأيتُ أن أعزل أخى عبد الله من خراسان ، وأستعمل عليها موسى ابن أمير المؤمنين .

قال إسماعيل : أُعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تنقض ما أسّسه الرشيد ، ومهّده ، وشيّد أركانه .

قال محمد : إن الرشيد مُوّهَ عليه فى أمر عبد الله بالزّخرفة ، وَيْحك يابن صَبيح ، إن عبد الملك بن مروان كان أحزم رأيًا منك ، حيث قال : « لا يجتمع فَحْلان فى هَجْمة إلا قتَلَ أحدهما صاحبه » .

قال إسماعيل : أما إذ كان هـذا رأيك ، فلا تُجاهره ، بل اكتب إليه ، وأعلمه حاجتك إليه بالحضرة ، ليُعينك على ما قلّدك الله من أمر عباده وبلاده ، فإذا قدم عليك ، وفرّقت بينـه وبين جنوده كسرتَ حدّه ، وظفرت به ، وصار رَهْنًا فى يديك ، فأْتِ فى أمره ما أردتَ .

قال محمد : أجدْتَ يابن صَبيح ، وأصبت ، هذا لَعَمْرِى الرّأى .

ثم كتب إليه يُعلمه أن الذى قلّده الله من أمر الخلافة والسياسة قد أثقله ، ويسأله أن يقدم عليه ليُعينه على أموره ، ويُشير عليه بمـا فيه مصلحته ، فإن ذلك أعْوَدُ على أمير المؤمنين من مقامه بخراسان ، وأعمرُ للبلاد ، وأدرّ للفىْء ، وأكبَتُ للعدوّ ، وآمَنُ للبَيْضة .

ثم وجّه الكتاب مع العباس بن موسى ، ومحمد بن عيسى ، وصالح صاحب المصلّى .

فساروا نحو خراسان ، فاستقبلهم طاهر بن الحسين مُقبلًا من عنـد المأمون على وِلاية الرّىّ ، حتى انتهوا إلى المأمون وهو بمدينة مَرْو ، فدخلوا عليه ، وأوصلوا الكتاب إليه ، وتكلّموا .

فذكروا حاجة أمير المؤمنين الأمين إليه ، وما يَرْجُو فى قُرْبه من بَسْط المملكة ، والقوّة على العدوّ ، فأبلَغُوا فى مَقالتهم .

وأمر المأمون بإنزالهم وإكرامهم .

ولما جَنّ عليه الليل بعث إلى الفضل بن سهل ، وكان أخصّ وزرائه عنده ، وأوثقهم فى نفسه ، وقد كان جَرّبَ منه وَثاقةَ رأيٍ وفَضلَ حَزْمٍ ، فلما أتاه خَلَا به ، وأقرأه كتاب محمد ، وأخبره بما تكلّم به الوفد من أمر التَّحْضِيض على المسير إلى أخيه ومعاونته على أمره .

قال الفضل : ما يريد بك خيراً ، وما أرى لك إلا الامتناع عليه .

قال المأمون : فكيف يمكنني الامتناع عليه ، والرجال والأموال معه ، والناس مع المال ؟

قال الفضل : أجِّلْنى ليلتى هذه لآتيك غداً بما أرى .

قال له المأمون : امضِ فى حِفْظ الله .

فانصرف الفضل بن سهل إلى منزله ، وكان منجّما ، فنظر ليلته كلّها فى حسابه ونجومه ، وكان بها ماهراً .

فلما أصبح غدَا على المأمون ، فأخبره أنه يظهر على محمد ويغلبه ، ويستولى على الأمر .

فلما قال له ذلك ، بعث إلى الوفد ، فأحسن صِلاتِهم وجوائزَهم ، وسألهم أن يُحَسِّنوا أمره عند الأمين ، ويبسطوا من عُذْره .

وكتب معهم إليه :

« أمّا بعد ، فإن الإمام الرشيد وَلّانِي هذه الأرض على حين كَلَبٍ من عدوّها ، ووَهْيٍ من سَدّها ، وضَعْفٍ من جنودها ، ومتى أخللتُ بها ، أو زُلْتُ عنها لم آمن انتقاض الأمور فيها ، وغَلَبَة أعدائها عليها ، بما يصل ضرره إلى أمير المؤمنين حيثُ هو ، فرأيُ أمير المؤمنين فى أن لا ينقض ما أبرَمَه الإمام الرشيد » .

وسار القوم بالكتاب حتى وافَوا به الأمين ، وأوصَلُوا الكتاب إليه .

فلما قرأه جَمع القُوّاد إليه ، فقال لهم :

إنى قد رأيتُ صَرْفَ أخى عبد الله عن خراسان ، وتصييره معى ليُعاونني ، فلا غِنَى بى عنه ، فما ترون ؟

فأسكت القوم .

فتكلّم خازم بن خُزيمة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تحمل قُوّادك وجنودك على الغَدْر فيغدروا بك ، ولا يرون منك نقْض العهد فينقضوا عهدك .

قال محمد : ولكن شيخ هذه الدولة علىّ بن عيسى بن مَاهَان لا يَرَى ما رأيتَ ، بل يَرَى أن يكون عبد الله معى ليؤازرنى ويحمل عنّى ثقل ما أنا فيه بصدده .

ثم قال لعلىّ بن عيسى: إنى قد رأيتُ أن تسير بالجيوش إلى خراسان ، فتَلِى أمرها من تحت يَدَىْ موسى بن أمير المؤمنين ، فانتخبْ من الجنود والجيوش على عينك .

ثم أمر بديوان الجُنْد ، فدُفِعَ إليـه ، فانتخب ستين ألف رجل من أبطال الجنود وفُرْسانهم ، ووَضَعَ لهم العَطاء ، وفرّق فيهم السّلاح ؛ وأمره بالمسير .

فخرج بالجيوش ، وركب معه محمد ، فجعل يُوصيه، ويقول : أكرِمْ مَن هناك من قواد خراسان ، وضَع عن أهل خراسان نصف الخراج ، ولا تُبق على أحـــد يشهر عليك سيفا ، أو يرمى عسكرك بسهم ، ولاتدع عبد الله يقيم إلا ثلاثا من يوم تصل إليه ، حتى تُشخصه إلى ماقبَلى » .

وقد كانت زُبَيدة تقدّمت إلى على بن عيسى ، وكان أتاها مودّعا ، فقالت له :

ـ إن محمدا ، وإن كان ابنى وثمرة فؤادى ، فإن لعبد الله من قلبى نصيبا وافرا من المحبّة، وأنا التى ربّيته، وأنا أحنو عليه ، فإياك أن يبدأه منك مكروه ، أو تسير أمامه ، بل سر إذا سرت معه من ورائه ، وإن دعاك فلبّه ، ولا تركب حتى يركب قبلك ، وخذ بركابه إذا ركب ، وأظهر له الإجلال والإكرام » .

ثم دفعت إليه قيدا من فضّة وقالت :

إن استعصى عليك فى الشخوص فقيّده بهذا القيد » .

وإن محمد انصرف عنه بعد أن أوعز إليه ، وأوصاه بكل ما أراد .

* * *

وسار علىّ بن عيسى بن ماهان حتى صار إلى حلوان ، فاستقبله عِيرٌ مقبلة من الرىّ ، فسألهم عن خبر طاهر ، فأخبروه أنه يستعدّ للحرب ، فقال : وما طاهر ؟ ومن طاهر ؟ ليس بينه وبين إخلاء الرىّ إلا أن يبلغه أنى جاوزت عقبة هَمَذان .

ثم سار حتى خلّف عقبة همذان وراءه ، فاستقبله عِير أخرى ، فسألهم عن الخبر .

فقالوا : إن طاهرا قد وضع العطاء لأصحابه ، وفرّق فيهم السلاح ، واستعدّ للحرب.

فقال : فى كم هو ؟

فقالوا : فى زهاء عشرة آلاف رجل .

فأقبل الحسن بن على بن عيسى على أبيه فقال :

ـ يا أبت ، إن طاهرا لو أراد الهرب لم يقم بالرىّ يوما واحدا .

فقال : يا بُنىّ ، إنما تستعدّ الرجال لأقرانها ، وإن طاهرا ليس عندى من الرجال الذين يستعدّون لمثلى ، ويستعد له مثلى .

وذكروا أن مشايخ بغداد قالوا : لم نر جيشا كان أظهر سلاحا ، ولا أكمل عُدّة ، ولا أفرهَ خيلا ، ولا أنبلَ رجالا من جيش علىّ بن عيسى يوم خرج ، إنما كانوا نُخَبا .

وإن طاهر بن الحسين جمع إليه رؤساء أصحابه فاستشارهم فى أمره ، فأشاروا عليه ، أن يتحصّن بمدينة الرىّ ، ويحارب القوم من فوق السور إلى أن يأتيَه مَدَد من المأمون .

فقال لهم : وَيْحكم ، إنى أبصَر بالحرب منكم ؛ إنى متى تحصّنت استضعفت نفسى ، ومال أهل المدينة إليه لقوته ، وصاروا أشد علىّ من عدوى ، لخوفهم من على ابن عيسى ، ولعله أن يستميل بعض من معى بالأطماع ، والرأىُ أن ألُفّ الخيـل بالخيل ، والرجال بالرجال ، والنصر من عند الله .

ثم نادى فى جنوده بالخروج عن المدينة ، وأن يعسكروا بموضع يقال له « القَلُوصَة » .

فلما خرجوا عمد أهل الرىّ إلى أبواب مدينتهم ، فأغلقوها .

فقال طاهر لأصحابه : ياقوم ، اشتغلوا بمن أمامكم ، ولا تلتفتوا إلى من وراءكم ، واعلموا أنه لا وزر لكم ولا ملجأ إلا سيوفكم ورماحكم ، فاجعلوها حصونكم .

وأقبل على بن عيسى نحو القلوصة ، فتواقف العسكران للحرب ، والتقوا ، فصدقهم أصحاب طاهر الحملة .

فانتقضت تعبيّة على بن عيسى ، وكانت منهم جولة شديدة ، فناداهم علىّ ابن عيسى ، وقال :

ـ أيها الناس ، ثُوبوا ، واحملوا معى .

فرماه رجل من أصحاب طاهر ، فأثبته ، وبعد أن دنا منه ، وتمكّن رماه بنشّابة وقعت فى صدره ، فنفذت الدّرع والسلاح حتى أفضت إلى جوفه ، وخرّ مغشيًا عليه ميتا .

واستوت الهزيمة بأصحابه .

فما زال أصحاب طاهر يقتلونهم ، وهم مولّون حتى حال الليل بينهم ، وغنموا ما كان فى معسكرهم من السلاح والأموال .

وبلغ ذلك محمدا ، فعقد لعبد الرحمن الأبناوىّ فى ثلاثين ألف رجل من الأبناء ، وتقدّم إليهم ، ألا يغترّوا كاغترار على بن عيسى ، ولا يتهاونوا كتهاونه .

فسار عبد الرحمن حتّى وافى همذان .

وبلغ ذلك طاهرا ، فتقدّم ، وسار نحوه ، فالتقوا جميعا ، فاقتتلوا شيئا من قتال ، فلم يكن لأصحاب عبد الرحمن ثباتٌ ، فانهزم ، واتّبعه أصحابه ، فدخلوا مدينة همذان ، فتحصّنوا فيها شهرا حتّى نفد ما كان معهم من الزاد .

قال : فطلب عبد الرحمن الأبناوى الأمان له ولجميع أصحابه ، فأعطاه طاهر ذلك .

ففتح أبواب المدينة ، ودخل الفريقان بعضهم فى بعض .

وسار طاهر حتّى هبط العقبة ، فعسكر بناحية « أسَدَاباذ »[1] .

---

(١) مدينة بهمذان إلى ناحية العراق .

ففكر عبد الرحمن ، وقال :

كيف أعتذر إلى أمير المؤمنين ؟

فعبّأ أصحابه .

فلما طلع الفجر زحف بأصحابه إلى طاهر ، وهو غارّ ، فوضع فيهم السيوف ، فوقفت طائفة من أصحاب طاهر رجّالة ، يذبّون عن أصحابهم حتى ركبوا ، واستمدوا ، ثم حملوا على عبد الرحمن وأصحابه ، فأكثروا فيهم القتل .

فلما رأى ذلك عبد الرحمن ترجّل في حماة أصحابه ، فقاتلوا حتى قُتل عبد الرحمن ، وقُتلوا معه .

***

وبلغ ذلك محمدا ، فسُقط في يده ، وبرّز جنودَه ، فعقد لعبد الله الحرشيّ ، في خمسة آلاف رجل ، وليحيي بن علي بن عيسى ، في مثل ذلك ، فسارا حتى وافيا « قرميسين »(١) .

وبلغ طاهرا ذلك ، فسار نحوهما ، فانهزما من غير قتال حتى رجعا إلى حلوان ، فأقاما هناك .

فزحف طاهر نحو حلوان، فانهزما حتى لحقا ببغداد ، وأقام طاهر بحلوان حتى وافاه هرثمة بن أعين من عند المأمون ، في ثلاثين ألف رجل من جنود خراسان ، فأخذ طاهر من حلوان نحو البصرة والأهواز .

وتقدم هرثمة إلى بغداد ، فلم تقم لمحمد قائمة حتى قُتل ، وكان من أمره ما كان .

وأن طاهر بن الحسين صعد من البصرة ، وتقدّم هرثمة حتى أحدقا ببغداد ، وأحاطا بمحمد الأمين ، ونصبا المنجنيق على داره حتى ضاق محمد بذلك ذرعا .

وكان هرثمة بن أعين يحبّ صلاح حال محمد، والإبقاء على حشاشة نفسه ، فأرسل

---

(١) بلد قرب الدينور بين همذان وحلوان على جادة العراق .

إليه محمد يسأله القيام بأمره ، وإصلاح ما بينه وبين المأمون ، على أن يخلع نفسه عن الخلافة ، ويسلّم الأمر لأخيه .

فكتب إليه هرثمة : « قد كان ينبغى لك أن تدعو إلى ذلك قبل تفاقم الأمر ، فأما الآن فقد بلغ السيل الزّبى ، وشغل الحَلْيُ أهله أن يُعار[1] ، ومع ذلك فإنى مجتهد فى إصلاح أمرك ، فصِرْ إلىّ ليلا ، لأكتب بصورة أمرك إلى أمير المؤمنين ، وآخذ لك عهدا وثيقا ، ولست آلو جهدا ولا اجتهادا فى كل ما عاد بصلاح حالك ، وقرّبك إلى أمير المؤمنين » .

فلما سمع ذلك محمد استشار نصحاءه ووزراءه ، فأشاروا بذلك عليه ، وطمعوا فى بقاء مهجته .

فلما جنّه الليل ركب فى جماعة من خاصّته وثقاته وجواريه ، يريد العبور إلى هرثمة .

فأحسّ طاهر بن الحسين بالمراسلة التى جرت بينهما والموافقة التى اتّفقا عليها .

فلما أقبل محمد ، وركب عن معه الماء شدّ عليه طاهر ، فأخذه ومن معه ، ثم دعا به فى منزله ، فاحتزّ رأسه ، وأنفذه من ساعته إلى المأمون .

وأقبل المأمون حتى دخل مدينة السلام ، وصفت له المملكة واستوسقت له الأمور .

وكان قتلُ محمد الأمين ليلة الأحد لخمس خلون من المحرّم ، سنة ثمان وتسعين ومائة[2] ، وقُتل ، وله ثمان وعشرون سنة ، وكانت ولايته أربع سنين وثمانية أشهر .

[الخليفة عبد الله المأمون]

وبويع المأمون ، وهو عبد الله بن الرشيد ، يوم الاثنين لخمس بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة .

---

(٢) مثل عربى ، يضربه المسئول شيئا هو أحوج إليه من السائل — مجمع الأمثال ج٢ ص ٣٣٠

(٣) أى سنة ٨١٣م .

وكان شهماً ، بعيد الهِمّة ، أبِىّ النَّفْس ، وكان نجمَ ولد العباس فى العلم والحـكمة ، وقد كان أخذ من جميع العلوم بقِسْطٍ ، وضَرَبَ فيها بسهمٍ ، وهو الذى استخرج كتاب إقليدس من الروم ، وأمر بترجمته وتفصيله ، وعقد المجالس فى خلافته للمناظرة فى الأديان والمقالات ، وكان أستاذه فيها أبا الهُذَيْل محمد بن الهُذَيْل العَلّاف .

ودخل بلاد الجزيرة والشام ، فأقام بها مدة طويلة ، ثم غزا الروم ، وفتح فتوحا كثيرة ، وأبلى بلاء حسناً .

ثم توفى على نهر « البَذَنْدُون »[1] ، ودُفِنَ بطرسوس يوم الأربعاء لثمان خَلَوْن من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين[2] .

وكانت ولايته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما ، وقد كان بلغ من السِّنّ تسعاً وثلاثين سنة .

وقد كان بايع لابنه العباس بن المأمون بولاية العهد من بعده . وخلّفه بالعراق .

[ولاية محمد المعتصم]

فلما مات هو على نهر البَذَنْدُون جمع أخوه أبو إسحٰق محمد بن هٰرون المعتصم بالله إليه وُجوه القُوّاد والأجْناد ، فدعاهم إلى بيعته ، فبايعوه .

فسار من طرسوس حتى وافَى مدينة السلام ، فدخلها ، وخَلَع العباس بن المأمون عنها ، وغلّبه عليها ؛ وبايعه الناس بها .

وكان قدومه بغداد مستهلّ شهر رمضان سـنة ثمان عشرة ومائتين ، فأقام بها سنتين ، ثم مَرّ بأتراكه إلى « سُرَّ مَنْ رَأى » فابتناها ، واتخذها داراً ومعسكراً .

---

(١) فى الأصل نهر البدندون والصحيح ما ذكر ، وهو نهر سمى باسم البلد بذندون ، وهى قرية قريبة من طرسوس .

(٢) الموافقة سنة ٨٣٣م .

وكانت فى خلافته فتوحات لم تكن لأحد من الخلفاء الذين مضوا مثلها قبله .

فمنها فتح بابك ، وأسْره وقتْله إياه ، وصَلْبه ؛ ومنها « مازيار » صاحب قلعة طبرستان ، فإنه تحصَّنَ فى القِلاع والجبال ، فما زال به حتى أخذه ، فقتله، وصلبه إلى جنب بابك ؛ ومنها جعفر الكُرْدِىّ ، وقد كان أخرب البلاد وسَبَى الذرارىّ ، فوجّه الخيول فى طلبه ، ولم يزل به حتى أخذه وقتله، وصلبه إلى جنب بابك ومازيار ، ومن ذلك فتح « عمورية » وهى القُسْطَنْطِينِيَّة الصغرى ، والأخرى فتحها الله على يديه .

***

وكان ابتداء أمر بابك ، أنه تحرك فى آخر أيام المأمون وقد اختلف الناس فى نَسَبه ومذهبه ، والذى صَحّ عندنا ، وثبت ، أنه كان من ولد مُطَهَّر بن فاطمة بنت أبى مسلم ، هذه التى ينتسب إليها الفاطميّة من الخُرّمية ، لا إلى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنشأ بابك ، والحَبْل مضطرب ، والفِتَن متصلة ، فاستفتح أمره بقتل مَنْ حَوْله بالبَذّ(1) ، وإخراب تلك الأمصار والقرى التى حواليه ، لتصفو له البلاد ، ويصعُبَ مَطْلَبه ، وتشتد المئونة فى التَّوَصُّل إليه ؛ واشتدت شوكته ، واستفحل أمره .

وقد كان المأمون وجّه إليه حين اتّصَل به خبره عبد الله بن طاهر بن الحسين فى جيش عظيم .

فسار إليه ، ونزل فى طريقه الدينور(2) ، فى ظاهرها، فى مكان يُعْرَف إلى يومنا هذا بقصر عبد الله بن طاهر ، وهو كَرْمٌ مشهور ، ومكان مذكور .

ثم سار منها حتى وافى البَذّ ، وقد عَظُمَ أمر بابك ، وتهيَّبَه الناس ، فحاربوه ، فلم يقدروا عليه ، ففضّ جَمْعَهم ، وقتل صناديدهم .

---

(1) البذ : كورة بين إيران وأذربيجان .

(2) بلد أبى حنيفة مؤلف الكتاب ، وإليها ينسب .

وكان ممن قُتِل فى تلك الوَقْعة محمد بن حُمَيْد الطُّوسِيّ .

وهو الذى رثاه أبو تمام بقصيدته التى يقول فيها :

كَأَنَّ بَنِى نَبْهَانَ يَوْمَ وَفَاتِهِ نُجُومُ سَمَاءٍ خَرَّ مِنْ بَيْنِهَا الْبَدْرُ

وفيها يقول:

فَأَثْبَتَ فى مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رِجْلَه وَقَالَ لَهَا مِنْ تَحْتِ أَخْمَصِكِ الْحَشْرُ

فلما أفضى الأمر إلى أبى إسحٰق المعتصم بالله لم تكن همته غيره ، فأعدّ له الأموال والرجال ، وأخرج مولاه الأفشين حَيْدَر بن كاوس ، فسار الأفشين بالعساكر والجيوش حتى وافى بَرْزَنْد[1] ، فأقام بها حتى طاب الزمان ، وانحسرت الثلوج عن الطرقات ، ثم قدم خليفته [بوباره][2] وجعفر بن دينار ، وهو المعروف بجعفر الخيّاط فى جمع كثير من الفرسان إلى الموضع الذى كان فيه معسكرا ، وأمرهما أن يحفرا خندقا حصينا ، فسارا حتى نزلا هناك ، واحتفرا الخندق .

فلما فرغا من حفر الخندق استخلف الأفشين ببرزند المرزبان ، مولى المعتصم فى جماعة من القواد ، وسار هو حتى نزل الخندق ، ووجه بوباره ، وجعفر الخياط فى جمع كثيف إلى رأس نهر كبير ، وأمرهما بحفر خندق آخر هناك . فسارا حتى احتفراه .

فلما فرغا وافاهما الأفشين ، ثم خلّف فى موضعه محمد بن خالد بُخَاراخُـذاه ، وشخص إلى دَرْوَذ[3] فى خمسة آلاف فارس وألفى راجل ، ومعه ألف رجل من الفَعَلَة حتى نزل دَرْوَذ ، واحتفر بها خندقا عظيما وبنى عليها سورا شاهقا ، فكان بابك وأصحابه يقفون على جبال شاهقة ، فيشرفون منها على العسكر ، ويولولون .

ثم ركب الأفشين يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شعبان فى تعبيّة ، وحمل المجانيق ، وأمر بابك آذين أن يحصّن تلا مشرفا على المدينة ، ومعه ثلاثة آلاف رجل ، وقد كان احتفر حوله الآبار لمنع الخيل منهم .

فانصرف الأفشين يوما إلى خندقه ، ثم غدا عليه يوم الجمعة فى غرة شهر رمضان ،

---

(١) بلد من بلاد إرمينية .

(٢) فى الأصل بوثاره .

(٣) كذا فى الأصل ، والصواب « دروذ » ، مكان فى ثغر أذربيجان .

فنصب المجانيق والعرّادات(١) على المدينة ، وأحدقت القواد والرؤساء .

وأقبل بابك فى أنجاد أصحابه ، وعبّاهم ، فقاتله(٢) القواد قتالا شديدا إلى العصر ، ثم انصرفوا ، وقد نكّوا فى أصحابه .

وأقام الأفشين ستة أيام ، ثم نهضه يوم الخميس لسبع ليال خلون من شهر رمضان ، واستعد له بابك ، فوضع على البذّ عَجَلا عظيما ليرسله إلى أصحاب الأفشين .

ثم أرسل بابك رجلا يقال له «موسى الأقطع» إلى الأفشين، يسأله أن يخرج إليه ليشافهه بما فى نفسه ، فإن صار إلى مراده وإلا حاربه ، فأجابه الأفشين إلى ذلك ، فخرج بابك حتّى صار بالقرب من الأفشين فى موضع بينهما واد .

فلما رأى الأفشين كفَّر له ، فبسطه الأفشين ، وأعلمه ما فى الطاعه من السلامة فى الدنيا والآخرة ، فلم يقبل ذلك .

فانصرف إلى موضعه ، وأمر أصحابه بالحرب ، فتسرّعوا إلى ذلك ، ودهدهوا(٣) العَجَل الذى كانوا أعدوه ، فانكسر العجل ، وثاب أصحاب الأفشين ، فدفعوهم إلى رأس الجبل .

وقد كان بوباره وجعفر الخياط وقفا بحذاء عبد الله أخى بابك ، فحملا ، وحمل عليهم القواد من جميع النواحى ، فقتلوهم قتلا ذريعا ، وانهزموا حتّى دخلوا المدينة ، فدخلوا خلفهم فى طلبهم ، وصارت الحرب فى ميدان وسط المدينة .

وكانت حربا لم يُرَ مثلها شدّة ، وقتلوا فى الدور والبساتين ، وهرب عبد الله أخو بابك .

فلما رأى بابك أن العساكر قد أحدقت به ، والمذاهب قد ضاقت عليه ، وأن أصحابه قد قتلوا وفُلّوا توجّه إلى أرمينية، وسار حتّى عبر نهر الرّسّ متوجها إلى الروم .

فلما عبر نهر الرسّ قصد نحوه سهل بن سُنْباط صاحب الناحية ، وقد كان

(١) جمع عرادة وهى آلة للحرب أصغر من المنجنيق .

(٢) فى الأصل فقاتلوه القواد . (٣) دهده : دحرج .

الأفشين كتب إلى أصحاب تلك النواحى ، وإلى الأكراد بأرمينيّة ، والبطارقة بأخْذ الطُّرُق عليه .

فوافاه سهل بن سنباط ، وقد كان بابك غيّر لباسه ، وبدّل زيّه ، وشدّ الخِرَق على رجليه ، وركب بغلة بإكاف[1] ، فأوقع به سهل بن سنباط ، فأخذه أسيراً .

ووجّه به إلى الأفشين ، فاستوثق منه الأفشين ، وكتب إلى المعتصم بالفتح ، واستأذنه فى القدوم عليه ، فأذن له ، فسار حتى قدم عليه ، ومعه بابك وأخوه ، فكان من قتل المعتصم لبابك وقطع يديه ورجليه وصلبه ما هو مشهور .

قالوا : ولما قدم الأفشين ومعه بابك أجلسه المعتصم على سرير أمامه ، وعقد التاج على رأسه .

وفى ذلك يقول إسحق بن خلف الشاعر فى قصيدته التى مدح فيها المعتصم بالله :

مَا غِبْتَ عَنْ حَرْبٍ تَحَرَّقَ نارُها ... بِالبَذِّ كُنْتَ هُنَا وَأَنْتَ هُنَاكَا
عَزَّتْ بِأَفْشِينٍ حُسامِكَ أُمَّةٌ ... وَالدِّينُ مُعْتَصِمٌ بِهِ اسْتِمْسَاكَا
لَمَّا أَتَاكَ بِبابِكٍ تَوَّجْتَهُ ... وَأَحَقُّ مَنْ أَضْحَى لَهُ تَاجًا كَا

ثم إن أحمد بن أبى داود وَجَد على الأفشين لكلام بلغه عنه ، فأشار على المعتصم أن يجعل الجيش نصفين نصفا مع الأفشين ، ونصفا مع أشناس ، ففعل المعتصم ذلك .

فوجدَ الأفشين منه ، وطال حزنه ، واشتد حقده .

فقال أحمد بن أبى داود للمعتصم : يا أمير المؤمنين إن أبا جعفر المنصور استشار أنصح الناس عنده فى أمر أبى مسلم ، فكان من جوابه أن قال « يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » فقال له المنصور : « حسبُك » ؛ ثم قتل أبا مسلم » .

---

(١) الإكاف : بردعة الحمار .

فقال له المعتصم : « أنت أيضا حسبُك يا أبا عبد الله » ، ثم وجه إلى الأفشين ، فقتله .

وزعموا ، أنهم كشفوا عنه فوجدوه غير مختون .

ومات المعتصم بالله يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين[1] ، وصلى عليه أبو عبد الله أحمد بن أبي داود ، وكان المعتصم أوصى إليه بالصلاة عليه ، وكانت ولايته ثماني سنين وثمانيــة أشهر وسبعة عشر يوما ، وكان قد بلغ من السن تسعا وثلاثين سنة .

* * *

وهـذا آخر كتاب الأخبار الطوال على ما جمعه أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري رحمه الله تعالى ورضي عنه .

---

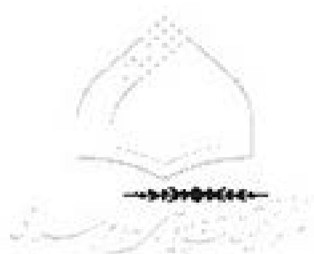
(١) الموافق ٩ يناير ٨٤٢م .

صواب أخطاء الطبع

الصفحة	السطر	الصواب
١٤	١٦	هلاك
٢٥	١	زرادشت
٣٦	٢٠	إيراخت
٤٥	١٥	قصبة الأهواز
٥٥	١١	أصبهبذ
٦٢	٨	ذمار
٦٦	٢٢	أبرقباذ
٦٧	١	الجزيرة
٦٨	٦	هرمزد
٦٩	١١	خزين
٦٩	١٦	والدخول
٨٣	١٧	ابن عم له
١٠٣	٤	البير
١٠٦	٧	بوذ
١٣٦	١١	يستنزلُ
١٤١	٢١	فلم ير فيه شيئاً
١٥٥	٨	ثمّ قتلوا شيخكمُ
١٧٢	٢٠	ابن يزيد
١٧٣	٥	جحل بن أثال
٢٠٨	١٣	لا قل تمالوا
٢١٠	٢٤	ذراعه
٢١٢	٣	قلائدَها
٢٢٨	١٢	كُدَين
٢٢٩	٢٢	عروة
٢٣٠	١٩	وما ناله من الجهد
٢٣٣	٦	هانىء بن عروة
٢٣٤	٢٢	والفشل
٢٣٥	١	لقتله
٢٤٤	١٦	الحسين
٢٥٦	٨	عروة
٢٦٦	٩	أنى
٢٧٣	٤	نيِقّ
٣٠٦	١٢	كَشكَر
٣١٩	٩	إلى عبد الرحمن
٣٣٧	٢١	أبو مسلم
٣٤٤	٤	شق بن صعب
٣٥٩	٥	مستخفين
٣٦٥	٢٥	٢٥
٣٩١	١	لابنه القاسم


الفهارس

ا — فهرس الموضوعات



ب — فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ن)

(و)

(ى)



ج — فهرس الأماكن والبلدان

(ب)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

د — فهرس الشعر

القافية	البحر	الصفحة والسطر	القافية	البحر	الصفحة والسطر
العَماءْ	الخفيف	١٥٢ : ١٨	تفِرْ	الرجز	٣١٥ : ٣
الأدبْ	الطويل	٣١٠ : ٦	الخبرْ	الطويل	٢٧٣ : ١٠
الكذبْ	الرجز	١٥٥ : ٨	وزيرا	الكامل	٣٧٠ : ١٩
غلبْ	الرجز	١٨٠ : ٢	شمّرا	الطويل	١٧٦ : ٨
أحربا	الطويل	٢٧٢ : ١٦	كثيرا	الخفيف	٢٧٤ : ٤
ولا أبي	الطويل	٢٢٢ : ١٥	الخبرا	البسيط	٣٠٨ : ١٠
الهائبِ	الطويل	٢٧٣ : ١٦	انبرَى	الرجز	٢٦٥ : ٢
هاضِبِ	الطويل	٣٠١ : ١٤	جرَى	الكامل	٣٩٢ : ٥
المصعَبِ	المتقارب	٣١١ : ٨	تشْرِي	الرجز	٢٧٦ : ٨
كُتُبِ	البسيط	٣٦٠ : ١	تنقّرِي	الرجز	٢٤٤ : ١٩
مهربُ	الرجز	٢٧٦ : ١٧	الغدرِ	الطويل	٢٨٧ : ٢
المغضبُ	البسيط	٣٦١ : ١٥	لا تشْرِي	الطويل	٣١٧ : ٢٢
خُلّتي	الطويل	١٣٨ : ١٢	الغوابرِ	الطويل	٣٣١ : ٧
مصمتاتِ	الوافر	٣٠٣ : ١١	الأكثرِ	الكامل	٢٩٦ : ٨
بالسنواتِ	الخفيف	٢٦٥ : ٨	بالدارِ	الوافر	٣٠٦ : ٦
القراحِ	الرمل	٣٣٥ : ٢١	بأطهارِ	البسيط	٣١٨ : ٧
زيادِ	الرجز	٢٨٤ : ٧	الذكَرْ	الرجز	١٨٥ : ١٤
حدادِ	السريع	٣٢٠ : ٢	المكرُ	الطويل	١٥ : ١٨
صاعدا	الرجز	١٦ : ١٩	تفورُ	الطويل	١٢٤ : ١٧
قلادَهْ	الرجز	٢٧٧ : ٣	أدبروا	الطويل	١٢٥ : ٦
شريدِ	الطويل	٢٩٧ : ١٢	مهاجرُ	الطويل	٢٧٧ : ٩
المسجدِ	الرجز	٣١٤ : ١٩	البدرُ	الطويل	٤٠٣ : ٣
عودِ	الخفيف	٢٧٩ : ١٧	الأخزرُ	المتقارب	١٨٥ : ١٦
صرادِ	الوافر	٢٠٧ : ١٠	يسيرُ	الوافر	٢٢٣ : ٢١
يزيدُ	الطويل	٢٨١ : ٧	الحجرُ	البسيط	٢٦٢ : ١٦
أريدُ	الطويل	١٦٤ : ١٨	قرارُها	الطويل	١٨٥ : ١
غبَرْ	الرجز	١٧٨ : ٧	وقرْ	الرمل	١٥٩ : ١

هـ — فهرس الشعراء

و — فهرس الرواة والأسانيد

ز — فهرس المراجع

الرقم الكتاب

١ ـ آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى.

٢ ـ أخبار الدول وآثار الأول للدمشق .

٣ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير .

٤ ـ الاشتقاق لابن دريد .

٥ ـ الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة لابن حجر .

٦ ـ الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى.

٧ ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى .

٨ ـ البلدان لليعقوبى .

٩ ـ تاريخ الآداب العربية لبروكلمان .

١٠ ـ تاريخ إيران لمهدى زاده الأصبهانى (فارسى).

١١ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادى .

١٢ ـ تاريخ الفرشته لملا قاسم هندوشاه (فارسى) .

١٣ ـ الجواهر المضيّة فى طبقات الحنفية تصنيف عبدالقادرالقرشى.

١٤ ـ حبيب السير تأليف خوندمير (فارسى) .

١٥ ـ دائرة المعارف الإسلامية .

١٦ ـ روضة الصفا تأليف ميرخوند (فارسى) .

١٧ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد .

١٨ ـ ضحى الإسلام لأحمد أمين .

١٩ ـ طبقات الأمم لابن صاعد الأندلسى .

٢٠ ـ ظهر الإسلام لأحمد أمين .

٢١ ـ فارسنامة لابن بلخى (فارسى) .

٢٢ ـ فتوح البلدان للبلاذرى .

الرقم الكتاب

٢٣ ـ الفهرست لابن النديم .

٢٤ ـ فوات الوفيات تأليف محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي .

٢٥ ـ القاموس المحيط للفيروزابادي .

٢٦ ـ قاموس الأعلام للزركلي .

٢٧ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير .

٢٨ ـ كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ تأليف اللواء أحمد مختار

٢٩ ـ كتاب المعارف لابن قتيبة .

٣٠ ـ لسان العرب لابن منظور .

٣١ ـ معجم الأمثال للميداني .

٣٢ ـ معجم الأدباء لياقوت الحموي .

٣٣ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي .

٣٤ ـ المعجم في اللغة الفارسية تأليف محمد موسى هنداوي .

٣٥ ـ المعجم الفارسي الفرنسي لديميزون .

٣٦ ـ الملل والنحل للشهرستاني .

٣٧ ـ المنجد تأليف لويس معلوف .

٣٨ ـ نسخ التواريخ تأليف ميرزا محمد تقي (فارسي) .

٣٩ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان .

٤٠ ـ وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري .



فهرس الفهارس